محمود الدرّة

تجربة الشيوعيّة في الصين

مشاهدة ودراسة

دار الكاتب العربي

دار الكفاح

الطبعة الأولى
شباط (فبراير) ١٩٦٤

مقدمة من الناسخ الالكترونى، لا بد منها، للرد على مؤلف هذا الكتاب:

هذا الكتاب مهم جدا في للدفاع عن الماوية ضد الإفتراءآت المعادية التي تلفقها الامبريالية العالمية ضد الثورة الصينية ورموزها.

تكمن اهمية هذه الوثيقة من كونها قد أتت من قومي عراقي يميني رجعي حاقد معادي للشيوعية. فهو من قادة مؤامرة الشواف – الطبقجلي (انقلاب الموصل) المعادي للشعب العراقي وجماهيره الكادحة وقواه التقدمية والتحررية. فالمؤلف – وحسب ما يروي هو نفسه في المقدمة السقيمة لكتابه هذا – من قادة انقلاب الموصل وهو من تولى الاعلان عن انطلاق هذه المؤامرة الدموية الدنيئة التي سفح فيها القوميون العرب البرجوازييون في العراق ومعهم البعثيون الفاشست دماء المئات من الشيوعيين العراقيين الابرياء الذين لم يصدر منهم أي فعل معادي. فقد تحجج القوميون البرجوازيون والفاشست البعثيون بانعقاد مؤتمر حركة انصار السلام المنبثقة عن الحزب الشيوعي العراقي في الموصل كذريعة للقيام بمؤامرتهم الدموية في الموصل .... .

وقد كتب المؤلف معظم فصول هذا الكتاب عندما كان منفيا في مصر، بعد فشل مؤامرة انقلاب الموصل، مما يعطي شهادته الايجابية عن الصين الماوية قوة كبيرة، لا سيما اذا علمنا ان الصين الماوية والحزب الشيوعي الصيني تحت قيادة ماو تسي تونغ ايدوا الشيوعيين العراقيين ودعوهم بقوة الى الاستيلاء الفوري على السلطة. والمؤلف يعترف بذلك في هامشه الوارد في ص ١٤٢ من النسخة الورقية حيث يذكر فيه ان ***السفارة الصينية في بغداد*** قد آزرت وأيدت الشيوعيين في العراق، وأمدتهم وحرضتهم ..... .

ومن هذه الناحية يمكن استخدامه كسلاح حاسم في الرد على الافتراءات التي تضمنها الكتاب الرجعي "ماو تسي تونغ القصة المجهولة".

ولوضع القاريء العربي غير العراقي في الصورة يتوجب علينا ان نعطي لمحة عن حقيقة ما جرى في تلك الفترة من احداث دموية:

تأسست، بمبادرة من الشيوعيين العراقيين، جبهة حزبية في العراق سنة ١٩٥٦، واعلن عنها رسميا سنة ١٩٥٧. ضمت كل من الحزب الشيوعي العراقي (بعد توحيده)

وحركة القوميين العرب في العراق (حزب يميني) والحزب الوطني الديمقراطي العراقي (ويضم جناحين يساري قريب من الشيوعيين ويميني قريب من القوميين العرب) وحزب الاستقلال العراقي (حزب قومي يميني) والحزب الوطني الديمقراطي الكردستاني العراقي (حزب قومي كردي). بالاضافة لذلك ضمت هذه الجبهة – وهذا من اكبر الاخطاء التي ارتكبها الشيوعيون العراقيون – حزب البعث العراقي وهو حزب قومي فاشستي يمثل اقصى اليمين.

اتفق اطراف الجبهة على اطاحت النظام الملكي النوري سعيدي العميل للاستعمار واقامة جمهورية برجوازية ديمقراطية بدلا عنه.

تكلل نضال هذه الجبهة بالنصر بقيام ثورة ١٤ تموز المجيدة التي اسقطت النظام الملكي البائد واقامة الجمهورية وحررت الشعب العراقي من العراق الذي اصبح دولة مستقلة سياسيا لأول مرة في تأريخه منذ سقوط بغداد بيد المغول.

لم تمضي سوى فترة ٨ اشهر حتى انفرط عقد جبهة الاتحاد الوطني واندلع الصراع الدموي بين القوميين

والبعثيين الفاشست من جهة والشيوعيين العراقيين من جهة اخرى.

كان السبب المعلن هو الخلاف على **شكل** (ونشدد على كلمة شكل) الوحدة بين العراق والجمهورية العربية المتحدة، التي ضمت وقتها كل من مصر وسوريا. ففي الوقت الذي رفع فيه الشيوعيون العراقيون شعار الوحدة الفدرالية، رفع القوميون والبعثيون شعار الوحدة الاندماجية. فدار الصراع الدموي بينهما ..... .

ولدى اطلاع القراء من زمننا هذا، القرن الواحد والعشرون، لا بد ان ينتابهم العجب من اندلاع ذلك الصراع، لا سيما عندما يطلعون على طبيعته الدموية البشعة التي تمخضت عن ابادة مئات الالوف من العراقيين وتشريد ملايين اخرى منهم في المنافي. فكلى طرفي هذا الصراع متفق على الوحدة والخلاف بينهما فقط على **شكل** هذه الوحدة: هل هي فدرالية أم اندماجية!!

وحقيقة ما جرى هي كالآتي:

١) في ذلك الوقت كان الحزب الشيوعي اكبر حزب في العراق تنظيميا وجماهيريا، وكان يحظى بتأييد الأغلبية

الكاسحة من جماهير العراق. فإن تم الالتزام بالبرنامج الرسمي لجبهة الاتحاد الوطني واقيم حكم برجوازي ديمقراطي حقيقي وتم، بموجب ذلك، اجراء انتخابات ديمقراطية حرة حقيقية، سيؤدي ذلك حتما لفوز الشيوعيين الكاسح في هذه الانتخابات ووجوب تسلمهم للحكم والسلطة.

وبالنظر للطبيعة الرجعية للاحزاب والحركات القومية في العراق (التي أيدت النازية الهتلرية اثناء الحرب العالمية الثانية) بسبب من الجوهر الطبقي البرجوازي والبرجوازي الصغير لبنائها التنظيمي، فقد اصيبت هذه التيارات برعب من صعود الشيوعيين العراقيين المحتم في ما لو اجريت انتخابات حرة حقيقية. وقد تأكد لها حتمية حصول ذلك بعد اعلان نتائج الانتخابات التمهيدية لجبهة الاتحاد الوطني التي اجريت بعد انتصار ثورة ١٤ تموز المجيدة والتي ابلى بها الشيوعيون العراقيون بلاءً حسنا .... .

أدى ذلك الى بدء حركة القوميين العرب في العراق وحزب البعث العراقي الفاشستي بالتآمر لقطع الطريق على تنفيذ برنامج جبهة الاتحاد الوطني الذي وقعوا هم انفسهم عليه عند تأسيس الجبهة. ولم تكن شعارات "الوحدة

الاندماجية" و "العروبة" و "القومية العربية" سوى ستار لمخططاتهم الاجرامية بحق الشعب العراقي وجماهيره الكادحة. وهنا لا بد ان نذكر القاريء ان "الوحدة الاندماجية" بين سوريا ومصر قد قام بها حزب البعث الفاشي في سوريا، بايعاز من اسياده الامبرياليين، بغية سحب الغطاء من تحت اقدام الشيوعيين السوريين الذين وصلوا الى السلطة وحكموا سوريا عن طريق الانتخابات .... .

وكانت المؤامرة التي حاكها القوميين والبعثيين العراقيين تتمثل بالقيام بانقلاب مسلح في الموصل ومن ثم الزحف – بعد نجاح المؤامرة – من الموصل الى بغداد لاسقاط الحكومة الثورية الشرعية. وهنا يدور فورا تساؤل لدى القاري: لماذا القيام بالانقلاب في الموصل وليس في العاصمة بغداد؟!! الجواب على ذلك هو حالة العزلة التي كان يعاني منها القوميون البرجوازيون والبعثيون الفاشست. فلم يكن لهم من بقعة في العراق من شماله الى جنوبه يمتلك فيها هؤلاء جماهير حقيقية سوى الموصل ومنطقة الاعظمية في بغداد فحسب لا غير. ولم تكن منطقة الاعظمية في بغداد ذات حجم يكفي لتنفيذ هذا المخطط الدموي. فوقع الاختيار على الموصل.

ومما يجدر لفت نظر القاريء اليه ان مخطط ما يسمى بـ "دولة العراق الاسلامية في العراق وبلاد الشام (داعش)" الذي قامت فيه، في ايامنا هذه، بالاستيلاء على الموصل ومن ثم الزحف باتجاه بغداد وما يقع الآن من صراع بين "داعش" والحكومة المركزية الحالية في عراق اليوم، هو نفس مخطط العصابة القومية – البعثية في مؤامرة الطبقجلي – الشواف.

٢) لهذا الصراع، للأسف الشديد، بعد آخر طائفي. فقائد الثورة عبد الكريم قاسم سني المذهب لأب سني المذهب لكن لأم شيعية المذهب. أما عبد السلام عارف، الرجل الثاني في الثورة وكبير القوميين في العراق، فقد كان سني المذهب ومن أب وأم سنيين. وهنا ايضا سيستغرب القاريء من ان يكون هذا – كون الأم شيعية لقائد الثورة – يمكن أن يكون سبب في تفجر هذا الصراع لا سيما ان الأب والشخص المعني؛ أي عبد الكريم قاسم؛ سني على والده وليس شيعي على أمه!!

لكن هذا هو الواقع المرير مع شديد الأسف. وهذا يدلل على مدى عمق وتجذر الطائفية في المجتمع العراقي المريض بهذا الداء العضال بعكس ما يزعم الكثيرون بأن الطائفية لم تظهر في المجتمع العراقي إلا بعد احتلال العراق

في سنة ٢٠٠٣ من قبل الامريكيين والانكليز. ولمن لا يصدقنا حول هذه النقطة ننصحه بأن يقراء ما جاء في كراس "المنحرفون، الحرس القومي" الذي اصدرته حكومة عبد السلام عارف القومية بعد اسقاط القوميين لنظام الحرس القومي البعثي.

ومن ما تجدر الاشارة اليه هنا حول هذا البعد الطائفي هو ان الشواف، شريك المجرم الطبقجلي في مؤامرة انقلاب الموصل المشؤمة، هو عضو سابق في الحزب الشيوعي العراقي. وهو شقيق محمد الشواف، العضو المخلص في الحزب الشيوعي العراقي ووزير صحة عبد الكريم قاسم حتى سقوطه. ومعظم ابناء عشيرته "عشيرة الشواف" هم من الشيوعيين الاوفياء.

وقد انضم الخائن الشواف الى صفوف الحزب الشيوعي العراقي قبل انتصار ثورة ١٤ تموز حين كان الحزب الشيوعي العراقي حزب سري وقواده غير معروفين بهوياتهم الحقيقية بل بأسمائهم الثورية فقط. وظل الشواف عضو في الحزب الشيوعي العراقي الى ان انتصرت ثورة ١٤ من تموز.

وبعد انتصار ثورة ١٤ تموز انكشفت الهويات الحقيقية لقواد الحزب الشيوعي العراقي حيث اصبحت جميع الاحزاب السياسية علنية بما فيها الحزب الشيوعي. فظهر ان سلام عادل، قائد الحزب الشيوعي العراقي، هو من ابناء النجف في الجنوب. ومثله في ذلك كل من حسن عوينة ونرجس الصفار، عضوا المكتب السياسي للحزب. كذلك محمد حسين ابو العيس، عضو المكتب السياسي للحزب، كان من اصل شيعي من منطقة الكاظمية في بغداد، وغيرهم ... .

هنا تغلبت النعرة الطائفية على الشواف فخان حزبه الشيوعي وانضم الى الحزب القومي الذي كان زعيمه واغلب قواده من السنة.

وهنا ينبغي علينا ان نسجل على الشيوعيين العراقيين خطأهم القاتل في عدم مراعات المسألة الطائفية عند اختيارهم لقوادهم مما سمح لاعدائهم – وبتوجيه مباشر من الامبرياليين الانكليز – باللعب على الوتر الطائفي الحساس والدعاية ضدهم بانهم "شيعة" وان "الحزب الشيوعي في العراق هو حزب شيعي" وان "الشيعي شيوعي والشيوعي شيعي والبعثي سني والسني بعثي" وغيرها من الدعاية الطائفية المسمومة.

ويتبدى مدى فداحة هذا الخطأ وجسامته اذا ما وضعنا في البال ان الضباط المتقدمين في الجيش العراقي السابق ومنذ تأسيسه هم من العرب السنة.

وعندما نفذت العصابة القومية – البعثية البرجوازية انقلابها في الموصل قام القوميون والبعثيون في الموصل بأبشع الجرائم اللا انسانية ضد الشيوعيين العزل الابرياء في الموصل. وقد اجبر ذلك الحزب الشيوعي العراقي على تشكيل المقاومة الشعبية المجيدة والرد، دفاعا عن النفس، بالارهاب الأحمر على الارهاب الأبيض الذي شنه القوميون البرجوازيون والبعثيون الفاشست ..... .

لا نريد الاطالة على القاريء حول موضوع هذا الصراع، لكن نود فقط ان نلفت نظر القاريء الى حقيقتين تأريخيتين لا يمكن لأي كان انكارهما:

الاولى: ان حركة انصار السلام التي تذرع القوميون البرجوازيون والبعثيون الفاشست بانعقاد مؤتمرها في الموصل قد تم تأسيسها قبل ثورة ١٤ تموز المجيدة في الموصل نفسها وأسسها الشيوعيون الموصليون من ابناء هذه

المدينة نفسها وهم في اكثريتهم من العرب وليسوا من الأكراد ومن اصول سنية، أي كانوا مسلمين سنة قبل ان يصبحوا شيوعيين.

الثانية: ان عدد من قتل في احداث الموصل سنة ١٩٥٩ من الشيوعيين هو اكثر من عدد من قتل من القوميين البرجوازيين والبعثيين الفاشست معا. واذا علمنا ان اعلى عدد ممكن للشيوعيين العراقيين الذين قتلوا في تلك الاحداث – والذي كما قلنا اكثر من عدد من قتل من القوميين البرجوازيين والبعثيين معا – لا يتجاوز الـ ٤٠٠ فرد، يتبين للقاريء الحجم الحقيقي لمن قتل من القوميين البرجوازيين والبعثيين معا حيث انه لا يزيد عن الرقم ٤٠٠ بأي حال من الاحوال وهو في الواقع اقل من ذلك بكثير وبالتالي **لا يبرر** عمليات الابادة الجماعية التي قام بها البعثيون الفاشست وشركائهم القوميون البرجوازيون في انقلابهم الفاشي الاسود سنة ١٩٦٣. فمن اجل الانتقام لبضعة مئات منهم (وهم المعتدون كونهم هم من اطلق الرصاصة الاولى) يباد مئات الألوف!! وبسبب كون بضعة شيوعيات عراقيات ممن انضممن الى صفوف المقاومة الشعبية المجيدة قد شاركن في قمع التمرد المعادي للثورة يتم اغتصاب آلاف النسوة

الشيوعيات العراقيات في سنة ١٩٦٣ باسلوب الأغتصاب المتعدد بكل سادية ووحشية بغرض اجبارهم على الحمل القسري!!

لقد عملت وسائل الأعلام الرجعية والامبريالية على ابراز "جرائم الشيوعيين" في احداث الموصل واعطائها اكبر من حجمها الحقيقي، في حين انها لم تنبس ببنت شفة عن جرائم القوميين البرجوازيين والبعثيين الفاشست" في تلك الأحداث متناسية ان جرائم القوميين البرجوازيين والبعثيين الفاشست هي السابقة في حين ان "جرائم الشيوعيين" هي اللاحقة بوصفها رد فعل للدفاع عن النفس ليس إلا. ولمن يشك في ذلك ان يراجع تواريخ شهادات الوفاء، المثبتة في سجلات النفوس العراقية، لكل من قتل في احداث الموصل من شيوعيين وقوميين برجوازيين وبعثيين فاشست ليتأكد بنفسه دم من اريد اولا: هل هو دم القوميين البرجوازيين والبعثيين الفاشست ام دم الشيوعيين العراقيين؟

لقد اثبتت الاحداث اللاحقة – بما فيها ما يجري من احداث حالية في عراق اليوم حيث ترقن هذه السطور – حقانية الشيوعيين العراقيين في كل ما قاموا به ضد القوميين البرجوازيين والبعثيين الفاشست. فقد اظهرت هذه الاحداث

ان كل من عاقبهم الشيوعيون العراقيون بالسحل بالحبال في الشوارع والشنق بالتعليق على اعواد الكهرباء كانوا يستحقون عقابا اكثر قسوة من ذلك بكثير وذلك بالنظر لطبيعتهم الاجرامية والمتعطشة لسفك دماء الابرياء والتي لا ترتوي ابداً والمتأتية من طبيعتهم النازية كونهم أيدوا هتلر واساليب الموت البشع التي ابتكرها لقتل الابرياء في الحرب العالمية الثانية.

ونذكر هنا كعينة على هؤلاء القتلة الذين عاقبهم الشيوعيون العراقيون مثلا واحدا وتنرك للقاري ءان يحكم بنفسه: المجرم "طه ياسين رمضان الجزراوي". لقد ظهر هذا السفاح في التلفزيون العراقي اثناء حكم البعث الأسود يتحدث عن كيف ان الشيوعيين العراقيين قد ارادوا سحله بالحبال في احداث الموصل وكيف خبأ نفسه من المقاومة الشعبية المجيدة لألا تفتك به ..... ".

واذا كان من لوم ينبغي توجيهه للشيوعيين العراقيين فهو لومهم على انهم مدوا يدهم لهؤلاء القتلة السفاحين من اعداء العراق وشعبه وتعاونوا معهم ضد نظام حكم نوري السعيد (الذي كان ينبغي ان يطيح به الشيوعيون العراقيون بمفردهم) واقاموا "جبهة الاتحاد الوطني"، هذه الجبهة المشؤمة، مع

هكذا حثالات من قطاع الطرق والسفلة والأوغاد، فاجرموا بذلك بحق انفسهم ايما اجرام حيث ادى هذا "التعاون" الى كشف تنظيماتهم السرية التي لم يكن لهؤلاء ***الأعداء الطبقيين*** ان يتعرفوا اليها لولا هذه الجبهة المشؤمة، مما مهد فيما بعد لتصفيتهم جسديا. واجرموا بحق شعبهم حيث ساعدت هذا "التعاون" وهذه "الجبهة" في تصعيد عصابة القوميين البرجوازيين والبعثيين الفاشست الى الحكم وتلطهم على رقاب الشعب العراقي لاربعين عاما من حكمهم الأسود الذي أمتد من سنة ١٩٦٣ الى سنة ٢٠٠٣ حيث اسقطهم اسيادهم الامبرياليين بعد ان زال الداعي لوجودهم والمتمثل بـ "الخطر الأحمر" وبعد ان انجزوا رسالتهم التأريخية بتقتيل وابادة مئات الألوف من الشيوعيين الذين كانوا يملؤون المجتمع العراقي والقضاء على الروح الثورية للشعب العراقي.

وما يجري من صراع طائفي دموي في عراق اليوم هو نتيجة تفسخ هذا الشعب من جراء الممارسات الاجرامية التي مارستها بحقه عصابة "البعث – القومية الناصرية": فعندما يجوع الانسان ويضرب ظربا مبرحا ومن ثم يجوع ويضرب ضربا مبرحا ومن ثم يجوع ويضرب ضربا مبرحا وهكذا دواليك .. سينفجر في النهاية هذا الانسان وينقلب الى كائن

مفترس يهجم على كل من يقابله. وما ينطبق على فرد واحد ينطبق على شعب بكامله ان تم معاملته بهذه الصورة ... .

وفي الختام ارجو من القاري ان يعذرني على هذه المقدمة الطويلة التي قد يرى ان لا ضرورة لها ولا علاقة لها بموضوع الكتاب، لكن ما دفعني لكتابتها هو الكلام البذيء والشتائم والاشارات الطائفية التي وردت في هذا الكتاب والتي قمت بحذفها وازالتها من هذه النسخة الالكترونية التي اعددتها بتصرف من دون ان اضر بموضوع الكتاب "تجربة الشيوعية في الصين". وارجو من كل من لا يصدقني من القراء الاعزاء ان يطلع بنفسه على النسخة الورقية لهذا الكتاب ويلاحظ الفقرات المعادية او التي تحتوي على افكار خاطئة مهادنة للامبريالية مما قمت انا بحذفه في هذه النسخة الالكترونية ليقتنع بالاسباب التي دعتني لوضع هذه المقدمة ردا على مؤلف هذا الكتاب.

الصوت الشيوعي

تنبيه وملاحظات من الناسخ الالكترونى:

١) بالنظر للطبيعة الرجعية المعادية للشيوعية لمؤلف هذا الكتاب فقد قمنا بنسخه بتصرف، حيث ازلنا ومسحنا بعض الفقرات منه.

٢) وقد اقتصرت عملية التصرف التي قمنا بها على الازالة والمسح فقط من دون اجراء أي عملية اعادة صياغة لأي نص او فقرة من فقرات هذا الكتاب.

٣) جميع ما قمنا بازالته او مسحه من هذا الكتاب في هذه النسخة الالكترونية لا يؤثر على موضوعه الرئيسي "تجربة الشيوعية في الصين".

٤) يمكن تصنيف النصوص والفقرات التي قمنا بازالتها وحذفها الى اربعة فئات:

الأول، نصوص او فقرات معادية للثورة الاشتراكية والشيوعية والجماهير الكادحة وقواها التقدمية في العراق.

الثانية، نصوص او فقرات معادية للشعب العراقي ذات مضمون طائفي مستتر. وهنا نود ان نسأل: كيف لمن ينادي بالطائفية وينشر الفتن بين ابناء شعبه أن يوحد الشعوب

العربية في دولة عربية واحدة؟؟ وهل ان مثل هكذا انسان جدير بأن يصف نفسه بأنه "عروبي" و "وحدوي"؟؟

الثالثة، نصوص او فقرات تشتمل على مضمون عنصري قائم على الشوفينية القومية والتعصب العرقي.

الرابعة، نصوص او فقرات تشتمل على افكار خاطئة تجاه مجتمعات الدول الامبريالية وتجاه الاستعمار:

فعندما يصف مؤلف هذا الكتاب "القومي الغيور" هذه المجتمعات بانها "مجتمعات تتمتع بطابع اشتراكي متطور"(!!!!) ص ١٩ من النسخة الورقية فهذا منتهى الخطل الفكري والسياسي!!

وعندما يصف هذه المجتمعات بأنها "مثالا يحتذى للمجتمعات البشرية.. "(!!!!) ص ٣٨٦ من النسخة الورقية نود ان نسأله هو وامثاله: بأي ثمن بنيت هذه المجتمعات وما هو مصدر الـ "الرخاء" فيها؟؟ أليس هو دماء الملايين لا بل المليارات من البشر في المستعمرات التي يطلق عليها الامبرياليون اسم "العالم الثالث" وفي طليعتها "الأمة العربية" و "الشعوب العربية" المسحوقة تحت جزمة هذه "المجتمعات

الغربية المثالية"؟؟ والغريب كل الغرابة ان المؤلف نفسه يعترف بذلك بعد صفحة واحدة: ص ٣٨٧!!!!!

وعندما يقول المؤلف ان "الولايات المتحدة الامريكية تحاول التخفيف من حدة جشع الاستعمار والاستغلال الاوربي عن طريق معنوياتها ومساعداتها .... "(!!!!) ص ٣٨٨ نود ان نتسائل هل هذا تفكير يمكن ان يأتي من عقل انسان يدعي انه مناضل ضد الاستعمار؟!! وأليست هذه "المساعدات" التي تقدمها الدول الامبريالية هي بالذات الفخ الذي تنصبه هذه الدول الاستعمارية لقتل الشعوب المستعمَرة اقتصاديا؟!! وان في سياسات "صندوق النقد الدولي" و "البنك الدولي" مثالا صارخا جلي الوضوح لا يمكن أن لا يلاحظه الى الاعمى.

٥) ابقى الناسخ الالكتروني في قائمة "محتويات الكتاب" للنسخة الورقية على عناوين الفقرات التي مسحها او ازالها.

٦) عمل الناسخ الالكتروني على جعل المسح والازالة الذي قام به في ادنى الحدود الممكنة بحيث لا تتجاوز الفئات الاربعة المبينة في النقطة اعلاه.

٧) بموجب النقطة (٦) اعلاه فقد حافض الناسخ الالكتروني على كل الاستنتاجات والافكار الخاطئة التي وردت في

هذا الكتاب والتي لا تندرج في أي من الفئات الأربعة المبينة في النقطة الرابعة اعلاه.

٨) تضمن هذا الكتاب مشاهدات ونقد صائب لاخطاء التجربة الصينية والتجربة الروسية عملنا على الحفاظ عليها وعدم ازالتها او مسحها.

٩) بالنظر للطبيعة البرجوازية للمؤلف فقد اشتمل هذا الكتاب على مجموعة من التحليلات والاستنتاجات الخاطئة لا تندرج في أي من الفئات الاربعة الواردة في النقطة رابعا اعلاه. وقد ابقينا عليها ولم نمسحها او نزيلها كما بينا في النقطة سبعا اعلاه. ومن الامثلة على هكذا افكار خاطئة: تحليل المؤلف لسبب انحراف الروس عن الماركسية – اللينينية واتجاههم نحو التحريفية بعد وفاة ستالين ضمن موضوع "الخلاف بين الصين والاتحاد السوفييتي" ص ٢٠١.

١٠) تم تأليف ونشر هذا الكتاب قبل اندلاع الثورة الثقافية البروليتارية العظمى في الصين. ونتيجة لذلك اخطأ المؤلف في ص ٤٠٤ و ٤٠٥ توصيفه لبعض القادة التحريفيين للحزب الشيوعي الصيني من امثال الخائن ليو تشاو تشي والخائن دنغ زياو بنغ، والتي ظلت طبيعتهم

التحريفية والرأسمالية مستترة الى أن اطاحت بهم الثورة الثقافية، بأنهم "أيدوا ماو تسي تونغ". والمؤلف معذور فيما اخطأ من هذه الناحية.

١١) ورد في الصفحة ٣٥٢ و ٣٥٣ كلام عن وجوب "تكريم" و "تخليد" "ابطال الشعب العراقي" الذين ناضلوا ضد المستعمرين الانكليز. ونود هنا ان نبين للقراء (من غير العراقيين على وجه الخصوص) كيف كرم القوميون البرجوازيون والبعثيون الفاشست في العراق هؤلاء الابطال في سنة ١٩٦٣ وما تلاها بواسطة التعذيب الوحشي والاعتداءات الجنسية المتعددة والحرق بالحامض العضوي (احواض التيزاب) والحرق بالتيار الكهربائي وغيرها .... . ونود ان نذكر على وجه الخصوص ان هؤلاء القتلة كرموا حتى الموتى من "ابطال الشعب العراقي" من خلال هدم قبورهم!!!! فقد اقدمت عصابة البعث – القومية الناصرية على هدم قبر الشهيد الخالد الرفيق فهد (يوسف سلمان يوسف) مؤسس الحزب الشيوعي العراقي في سنة ١٩٦٣ بسبب من قيام العراقيين بزيارته ووضع اكاليل الزهور عليه!!!! هؤلاء

هم القوميون البرجوازيون والبعثيون لكل من لا يعرف حقيقتهم. وهذا ليس سوى غيض من فيض.

١٢) ورد في ص ٣٥٢ كلام عن "صلاح الدين الصباغ" وما اسماه المؤلف "ثورتنا المجيدة في عام ١٩٤١" ... ونجد من واجبنا ان نبين للقراء (خاصة من غير العراقيين) من هو صلاح الدين الصباغ وما كانت "ثورته" سنة ١٩٤١.

صلاح الدين الصباغ هو الأب الروحي للفاشية في العراق. هو ضابط كبير في الجيش العراقي اعتنق مباديء هتلر النازية واصبح فاشستيا نازيا. تزعم هذا الرجل مجموعة من الضباط والسياسيين الفاشست من الذين اعتنقوا فكر هتلر النازي وقام معهم سنة ١٩٤١، في خضم الحرب العالمية الثانية – بتوجيه واشراف وتحريض مباشر من جهاز المخابرات النازي، الغستابو – بانقلاب عسكري مسلح "ثورة" على نظام الحكم القائم في العراق والموالي للانكليز الذين كانت لهم قواعد عسكرية في العراق.

وقد ارسلت المانيا النازية بمجموعة من طائراتها الحربية الى العراق لدعم حركة صلاح الدين الصباغ إلا

انها وجدت ان الانكليز قد نجحوا في القضاء على هذه الثورة.

لقد اراد صلاح الدين الصباغ وجماعته "تحرير" العراق من الاستعمار الانكليزي وتحويله الى "مستعمرة" للنازيين الالمان!!!! وقد رفض الحزب الشيوعي العراقي، بقيادة الرفيق فهد، دعم هذه الحركة بالنظر لطبيعتها النازية. وقد اثبت حجم وفضاعة الجرائم التي اقترفها القوميون البرجوازيون والبعثيين الفاسشت بحق الشعب العراقي ابتداءً من سنة ١٩٦٣ والى يومنا هذا صحة موقف فهد الذي انتقده بعض المؤرخين.

١٣) قد يستغرب القاريء، بعد قراءته لهذا الكتاب، من النقد الشديد الذي يوجهه الناسخ الالكتروني، لا سيما بعد ان قام بمسح وازالة النصوص والفقرات المصنفة ضمن الفئات الاربعة المذكورة في الفقرة (٤) اعلاه. ذلك ان القاريء الكريم سيلاحظ عبارات المؤلف وجمله الطنانة "المعادية للاستعمار" فقط. هنا نود ان نلفت نظر القراء (من غير العراقيين – اهل الدار – على وجه الخصوص) الى ان القوميين البرجوازيون في العراق استمروا، بغية خداع الجماهير وتخديرها، في استعمال "لغة" مليئة

بالجمل الطنانة المعادية للاستعمار والامبريالية رغم خيانتهم العظمى للوطن وتآمرهم ضد الشعب العراقي عندما اغتالوا ثورة ١٤ من تموز المجيدة، بالاشتراك مع حلفائهم البعثيين الفاشست، في انقلاب ٨ شباط الأسود. لا بل حتى انهم اطلقوا اسم "الاتحاد العربي الاشتراكي" على تجمعهم الحزبي الذي حكم العراق بعد اطاحتهم بنظام الحرس القومي.

الصوت الشيوعي

قائمة بمواضع النصوص والفقرات المحذوفة من هذا الكتاب في هذه النسخة الالكترونية:

- تم حذف "المقدمة" لهذا الكتاب باكملها والتي تمتد من ص ١٥ الى ص ٢٦ من النسخة الورقية.
- تم حذف صفحات النسخة الورقية ٣٨٥، ٣٨٦، ٣٨٧.
- تم حذف صفحات النسخة الورقية ٤١٨، ٤١٩، ٤٢٠.
- تم مسح نصوص / فقرات من الصفحات الورقية التالية: ١٤٢، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٥، ٣٥٣، ٣٦١، ٣٦٢، ٣٨٤، ٣٨٨، ٤١١.

وفي الختام، وقبل ان نترك القارّاء الاعزاء لمطالعة الكتاب، نود ان ننبههم الى أن النص الذي قمنا بحذفه من الصفحة الورقية ٢٧٥ تحتوي على "اشارة طائفية ***مبطنة***"، قد لا يسبر غورها غير العراقيين إلا من كان لديه اطلاع مستفيض بالعراق وتأريخه وخصائص مجتمعه. هذه الاشارة الطائفية تسقط عن كاتبها أي ادعاء بالعروبة والوحدوية وتنيط اللثام عن حقيقته الساقطة وحقيقة تياره الحزبي والفكري المعادي للإنسانية ..... .

الصوت الشيوعي

محتويات الكتاب

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

فهرس الخرائط

المـراجع

١ – قصة الحضارة (الجزء الرابع من المجلد الأول) تأليف ول ديورانت – ترجمة محمد بدران (الادارة الثقافية لجامعة الدول العربية) .

٢ – تاريخ العالم نشره بالانكليزية السر جون. ا. هـاملتون – ترجمة وزارة التربية والتعليم للجمهورية العربية المتحدة .

٣ – الديموقراطية الجديدة بقلم ماوتسي تونغ

٤ – روسيا السوفييتية في الصين بقلم شان كاي شك

٥ – مناهج السياسة الخارجية في دول العالم بقلم روي مكريدس – ترجمة الدكتور حسن صعب

٦ – الزحف الطويل بقلم سيمون دي بوفوار – ترجمة محمد كمال فايد

٧ – الصين الجديدة في ظل الاشتراكية بقلم عبد السلام الأدهمي

٨ – العملاق يستيقظ مقالات مسلسلة بقلم جورج بالوزي هورفان

٩ – ثورات الصين الثلاث مقالات مسلسلة بقلم ح. ف. هدسن

١٠– صحف ونشرات وكتب صينية رسمية

١١– الدليل السنوي في الشؤون العالمية لعام ١٩٦١ – لمعهد لندن للشؤون العالمية:

The year Book of world Affairs 1961 (The London Institu te of world Affairs)

١٢– التنمية الاقتصادية في الصين الشيوعية (١٩٤٩–١٩٦٠) تأليف هيوز ولوارد (الطبعة الثانية ١٩٦١) :

The Economic Development of Communist China 1949 — 1960 by, T. J. Hughes 8 D. E. T. Luard (Second Edition 1961)

١٣– التنمية الاقتصادية : تحليل ودراسة :

Economic Development, Analyses and case studies



ماوتسي تونغ إله الصين الحديثة

الصين القديمة

- تاريخ مسلسل للحكم وللحضارة في الصين
- عرض لتاريخ الصين وحضارتها
- الاستعمار الاوروبي يطرق أبواب الصين
- حرب الافيون ما بين عام ١٨٣٩ - ١٨٦٠
- سقوط الاسرة المالكة وقيام الحكم الجمهوري عام ١٩١١
- فكرة التفكك في الحكم الجمهوري الجديد

تاريخ مسلسل للحكم والحضارة في الصين

قبل الميـــلاد

٢٨٥٢ – ٢٢٠٥	حكام اسطوريون
٢٢٠٥ – ١٧٦٦	أسرة شياه
١٧٦٦ – ١١٢٣	أسرة شانغ وين
٧٧٠ – ٢٥٥	عصر الاقطاع
٥٥١ – ٤٧٨	فيلسوف الصين وحكيمها العظيم كونفشيوس
٢٣٠ – ٢٢٢	شين شيي هوانغ الذي وحد الصين
٢٥٥ – ٢٠٦	أسرة لنشين
٢٢١ – ٢١١	شين هوانغ دي الامبراطور الاول
٢٠٦ – إلى ما بعد الميلاد	أسرة هان
١٤٠ – ٨٧ ق.م	وودي الامبراطور المصلح

بعــد الميلاد

٥ – ٢٥	وانغ مانغ – الامبراطور الاشتراكي
٦٧	دخول البوذية في الصين
١٠٠	أول صانع معروف للورق في الصين

٢٠٠ — ٤٠٠	غزو التتار للصين
٢٢١ — ٢٦٤	عصر المالك الثلاث
٢٢١ — ٦١٨	الاسر الصغرى
٤٥٠ — ٦٤٠	عصر النحت البوذي العظيم
٦١٨ — ٦٢٧	أسرة تانغ
٦١٨ — ٨٦٨	عصر الرسم والشعر وطبع المطبوعات على القوالب
٩٣٢ — ٩٥٣	طبع الكتب الصينية على القوالب وظهور أوراق النقد لأول مرة في التاريخ
٩٦٠ — ١١٢٧	أسرة سونغ الشمالية
٩٠٧	أول دائرة معارف صينية
١٠٦٩—١٠٧٦	حكم وانغ آن شي رئيس الوزراء الاشتراكي
١٠٤١	صنع الحروف المتنقلة لأول مرة في التاريخ
١١٠١—١١٢٦	هواي دوزنغ الامبراطور الفنان ، غزو التتار ، نقل العاصمة إلى هانشاو
١١٢٧—١١٧٩	أسرة سونغ الجنوبية
١١٦١	أول من عرف استخدام البارود في الحرب في العالم — في الصين
١١٦٢—١٢٢٧	جنكيز خان (١٢١٢) يغزو الصين
١٢٦٠—١٣٦٨	أسرة يوان المغولية
١٢٦٩—١٢٩٥	كوبلاي خان (١٢٦٩ ماركوبولو يزور الصين)
١٣٦٨—١٦٤٤	أسرة مانغ
١٥١٧	البرتغاليون في كانتون
١٥٧١	استيلاء الاسبان على جزر الفيليبين
١٦٣٧	التجار الانكليز في كانتون
١٦٤٤—١٩١٢	أسرة المانشو
١٧٩٥	تحريم تجارة الافيون للمرة الاولى

١٨٠٠	تحريم تجارة الافيون للمرة الثانية
١٨٣٩–١٨٤٢	حرب الافيون الاولى
١٨٥٦–١٨٦٠	حرب الافيون الثانية
١٨٥٨–١٨٦٠	استيلاء روسيا على شمال شرق الصين – شمال نهر آمور
١٨٦٠	فرنسا تستولي على الهند الصينية
١٨٦٦–١٩٢٥	صن يات صن
١٨٩٤	الحرب الصينية اليابانية
١٨٩٨	المانيا تستولي على كياوشاو، والولايات المتحدة تستولي على الفيليبين
١٨٩٨	مراسيم كوانغ شو الاصلاحية
١٩٠٠	ثورة البوكسر، واحتلال جيوش الحلفاء بكين
١٩١١	الثورة الصينية واعلان النظام الجمهوري
١٩١٢	صن يات صن رئيساً مؤقتاً للجمهورية
١٩١٤	اليابان تستولي على كياشاو
١٩٢١	تأليف الحزب الشيوعي الصيني
١٩٢٦	حلف شان كاي شك والشيوعيين لإخضاع الجنرالات
١٩٢٧	الحركة المقاومة للشيوعية
١٩٣١	اليابانيون يحتلون منشوريا
١٩٣٧–١٩٤٤	الغزو الياباني العام على الصين
١٩٤٥–١٩٤٩	استسلام اليابان والحرب الاهلية الشاملة بين الكومنتانغ والحزب الشيوعي الصيني
١٩٤٩	إعلان جمهورية الصين الشعبية

عرض لتاريخ الصين وحضارتها

*

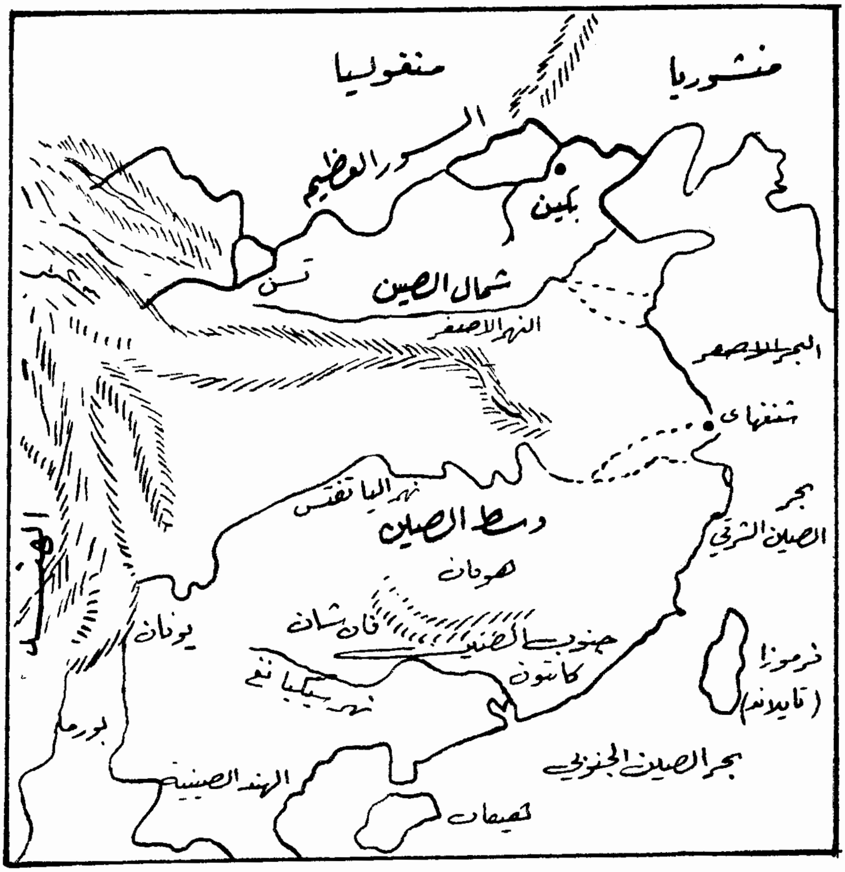
ألقى الامير «شاو» بين يدي الملك « لي وانغ » في حوالى عام ٨٤٥ قبل الميلاد خطبة طويلة قال فيها :

« يعرف الامبراطور كيف يحكم اذا كان الشعراء أحراراً في قرض الشعر ، والناس أحراراً في تمثيل المسرحيات ، والمؤرخون أحراراً في قول الحق ، والوزراء أحراراً في اسداء النصح ، والفقراء أحراراً في التذمر من الضرائب، والطلبة أحراراً في تعلم العلم جهرة ، والعمال أحراراً في مدح مهارتهم وفي السعي الى العمل، والشعب حراً في ان يتحدث عن كل شيء ، والشيوخ أحراراً في تخطئة كل شيء ... »

تقع الصين في أقصى شرق آسيا ، وتشرف على هذه القارة حيث تبلغ مساحتها بحدودها الحاضرة ٩٫٥٩٧٫٠٠٠ كيلومتراً مربعاً . وطول البلاد من الشمال إلى الجنوب ٤٥٠٠ كيلومتر . ومحيط الصين الخارجي حوالى ١٤٠٠٠ كيلومتر .

وبلاد الصين التي يكتنفها أكبر المحيطات — وهو المحيط الهادي — وأعلى الجبال ، وأوسع الانهار ، وصحراء من أوسع صحارى العالم ، قد استمتعت بعزلة كانت هي السبب في دوامها وركودها . ومن أجل هذا فان الصينيين يسمون بلادهم « الدولة الوسطى » و « مملكة الشعب الوسطى » و « بين البحار الاربعة » و « تحت السماء » .

والحق يقال فان فيها كل المناظر الطبيعية المختلفة التي يمكن ان تهبها إياها الشمس الساطعة ، والسحب السابحة ، وشعاب الجبال الوعرة ، والانهار العظيمة ، والاغوار العميقة ، والشلالات الدافقة بين التلال الجرداء .



الصين القديمة

١ – الشمال الخصيب التربة : بفعل الرياح التي نقلت التربة من سهول منغوليا
٢ – وسط الصين (حوض اليانغتسي) : منطقة رواسب
٣ – جنوب الصين : غابات أصلحها المنحدرون من الوسط والشمال

ان طبيعة أرض الصين الجغرافية مختلفة ومتفاوتة . فالسهول الزراعية تمتد من أواسط الصين حتى الساحل في الشرق ، وتقسم الانهار العديدة المتوازية هـــذه السهول وتحجزهـا عن بعضها البعض . فنهر « سيكيانغ » يجري في قسم الصين الجنوبي من الغرب إلى الشرق ويمر بكانتون حيث يصب في بحر الصين الجنوبي عند « هونغ كونغ » ونهر « اليانغتسي » الذي يبلغ طوله ثلاثة آلاف ميل وعرضه ثلاثة أميال كاملة يقطع الصين مـن الغرب إلى الشرق ويمر بمدينتي « ووهان » و « نانكين » وينتهي مصبه عند مدينة « شنغهاي » ويدور تاريخ الصين وحضارتها على ضفافه . ونهر « وانغ هو » أو النهر الاصفر المتجه مـــن الغرب إلى الشرق فالشمال الشرقي يصب في البحر الاصفر جنوب العاصمة بكين التي تسمى في التاريخ « بيبنغ » وأخيراً فان نهري « اليلون » و « الامور » يؤلفان حدودها الشمالية الشرقية القصيرة . هذا عدا عشرات الانهار والقنوات التي تفصل بين أجزاء هـذا العالم الفسيح .

أما الصحارى فتمتد من شمالها الغربي حتى الجنوب كصحراء غوبي والتيبت ، في حين ان المناطق الجبلية الوعرة تقع في أقصى جنوبها الغربي عند جبال «الهمالايا» حتى أقصى شمالها الغربي .

وطقسها متفاوت بشكل مثير ، فبينما تجد شمالها الغربي قارياً شديـد الحرارة صيفاً ، شديد البرودة شتاء، ولا تسقط فيـــه أمطار تذكر ، حاد الرياح سريع التقلب ، تجد الجنوبي شديد الرطوبة ، معتدل المطر ، حاراً في الصيف ، معتدلاً في الشتاء .

والاختلاف في الطبيعة الجغرافية لأرض الصين ، وانعدام المواصلات الحيوية بين أجزاء هذا الوطن الكبير أدى إلى تكوين حدود طبيعية فاصلة بين السكان ، وإلى التمييز بينهم في التقاليد واللغات والأمزجة وحتى الاديان . وهذا ما حـدث بالفعل منذ بدأ تاريخ الصين المكتوب قبل ٤٨١٤ سنة ، فلم تحكم الصين بحدودها الطبيعية دولة موحدة عبر تاريخها الطويل غير حكومة جمهورية الصين الشعبية القائمة الان ـ إذا استثنينا الاجزاء التي سلخت منها كمنغوليا الخارجية،وكوريا،والمناطق

الأخرى على حدود بورما والهند ، والجزر التي يحكمها الكومنتانغ الان .

ان التاريخ لا يعرف من أين جاء الصينيون وإلى أي جنس ينتسبون ، أو متى بدأت حضارتهم في الزمن القديم . وكل ما استطاع المؤرخون قوله بثقة ان بقايا « انسان بيكينغ » توحي بأن القردة البشرية جد قديمة في بلاد الصين. وان منغوليا كان يعمرها من عشرين ألف سنة قبل الميلاد أجيال من الناس ، وان خلفاء هذه الاجيال انتشروا في سيبيريا والصين حينما جفت منغوليا الجنوبية وأجدبت واستحالت إلى صحراء « غوبي » الحالية .

وهذه الحقيقة على ضآلة شأنها ترجح القول بأن الحضارة الصينية قد دامت ٧٠٠٠ عام، وانها كانت متواصلة غير منقطعة، الامر الذي قل ان يوجد له في غير الصين نظير .

ويلوح للمؤرخين ان بعض فنونهم وصناعاتهم الاولى جاءت من العراق وتركستان . والجنس المغولي الحاضر مزيج معقد اختلطت فيه السلالة البدائية مراراً وتكراراً بمئات السلالات الغازية أو المهاجرة من منغوليا وجنوبي روسيا ووسط آسيا .

فالصين من هذه الناحية يجب الا نشبهها بأمة واحدة ، فهي ليست موطناً موحداً لأمة قائمة ، بل هي خليط من أجناس مختلفة الاصول ، متباينة اللغات ، غير متجانسة في الاخلاق والفنون ، وكثيراً ما يعادي بعضها بعضاً في العادات والمبادىء الخلقية والنظم الحكومية .

وإذا عدنا إلى تاريخ الصين المدون ، نراه يحدثنا عن قصة الخليقة في عام ٢٫٢٢٩٫٠٠٠ قبل الميلاد ويحدثنا باسهاب لا نظير له في تاريخ الشعوب من أحاديث مفصلة عن تاريخ الصين منذ عام ٣٠٠٠ ق. م فالامبراطور « فوشي » في عام ٢٧٥٢ ق. م بالتحديد علم الناس الموسيقى والكتابة والتصوير ، وصيد السمك بالشباك وتأنيس الحيوان ، وإطعام دود القز للحصول منه على الحرير . وأدخل خليفته من بعده الزراعة في البلاد وأقام الاسواق وأوجد التجارة ، وأنشأ علم الطب .. وخلفه من بعده امبراطور جاء إلى الصين بالمغنطيس والعجلات ،

وأشاد أول أبنية بالآجر في الصين ، وأقـــام مرصداً لدراسة النجوم ، وأصلح التقويم ، وأعاد توزيـع الارض على الاهلين، وبلغ من صلاح حكم هذا الامبراطور الذي يدعى « هوانغ دي » ان كونفشيوس حين كتب عنه بعد ١٨٠٠ عام أخذ يندب ما طرأ على الصين من ضعف وانحلال .

وجاء « شون » فحمى البلاد من فيضانات الانهار التسعة فحفر تسع بحـيرات بفضل عبقرية المهندس « يو » الذي لولاه على حد قول الصينيين : « لكنا كلنا سمكاً » !

وجاءت أسرة حاكمة جديدة تدعى أسرة « شانغ » التي دام حكمها أطول من حكم أية أسرة مالكة أخرى في بلاد الصين والتي قسمت البـــلاد إلى ولايات عديدة يحكمها القادة،وعلى هذا النحو بدأ عهد الاقطاع في الصين الذي كان فيما بعد شديد الخطر على حكومة البلاد .

وفي أواسط القرن السادس قبل الميلاد ترعرعت حضارة الصين الاولى مـــن الولايات الاقطاعية الخمس والخمسين التي تأسست باقليم « هونان » وما جاوره مـن أقاليم شانسي ، وشانتونغ وشنسي ، وولاية «جين» ، التي أخضعت سائر الولايات لحكمها وأنشأت منها امبراطورية موحدة وخلعت على بلاد الصين اسمها المعروفة به في جميـع بلاد العالم إلا فيها هي نفسها .

على ان هذه الدولة الموحدة سرعان ما تفككت .

وما بين عام ٢٣٠ وعام ٢٢١ ق. م استطاع الامبراطور « شين شيي هوانغ» الذي لقبه المؤرخون المعاصرون ببسمارك الصين ، ان يوحد الصين من جـديد ، فخضعت الصين لحكم رجل واحد لأول مرة في التاريخ كله ، ووضع دستوراً ثابتاً دائماً لامبراطوريته الجديدة .

وكان أول عمل قام به ان حمى البلاد من البرابرة المجاورين لحدودها الشمالية ، وذلك بأن أتم الأسوار التي كانت مقامة من قبل عند حدودها ووصلها كلها بعضها ببعض فشاد هذا البناء العظيم الذي يعد رمزاً لمجد الصين ودليلاً على عظيم صبرها ، ويبلغ طول السور العظيم بتعرجاته العديدة ٥٠٠٠ كيلو متر ، ويحيط بشمال غربي

الصين كلها ، واعتبر إحدى عجائب العالم السبع ، ويقول الصينيون عنه انه : أهلك جيلًا من الناس ، وأنقذ كثيراً من الأجيال ، وحال هذا السور بين قبائل «الهون» وبين غاراتهم على أرض الصين زمناً ما ، فاتجهوا غرباً إلى أوروبا فاجتاحوا ايطاليا، وسقطت روما في أيديهم لأن الصين أقامت سورها العظيم .

وأقام هـــذا الامبراطور المجتمع الصيني على قواعـد القانون الصريح وعلى الحكومة المركزية القوية ، ولذلك قضى على قوة أمراء الاقطاع ، ومهد السبيل لرخـاء الصين بإنشاء الملكيات الزراعية الصغيرة ، وربط البلاد بشبكة مـــن المواصلات ، وصك عملة للدولة ، وعمل على إصلاح الحروف الهجائية الصينية .

وأعقب موته عهد من الفوضى والاضطراب ، كما تعقب الفوضى والاضطراب موت الحكام المستبدين جميعهم تقريباً في أحقاب التاريخ كلها ، فاغتصب العرش زعيم عسكري مغامر أسس أسرة « هان » التي ظلت تحكم البلاد أربعمائة عـــام كاملة ، وظهر في هذه الأسرة الامبراطور « وودي » وحكم ما بين عام ١٤٠–٨٧ ق. م وبسط حكم الصين على كوريا ومنشوريا وأنام والهنـد الصينية وتركستان ، وشملت الصين لأول مرة في التاريخ جميع هذه الأقاليم الشاسعة .

وقام « وودي » بأول تجربة اشتراكية في التاريخ ، فجعل مورد الـــثروة الطبيعية ملكاً للأمة ، وذلك ليمنع الأفراد على حد قوله : « ان يختصوا أنفسهم بثروة الجبال والبحار وليجنوا من ورائها الأموال الطائلة ، ويخضعوا لهم الطبقات الدنيا » . واحتكرت الدولة استخراج الملح والحديد وعصر الخمور وبيعها ، وقضى على سلطان الوسطاء والمضاربين . وأنشأ نظاماً قومياً للنقل والتبادل تشرف عليـه الدولة ، وسيطر على التجارة حتى يستطيع منع تقلب الأسعار الفجائي .. وكانت الأسعار تنظم وتتوازن في جميع أنحاء امبراطوريته .

وكان دخل الأفراد كله يسجل في سجلات حكومية وتؤدى عنه ضريبـــة مقدارها ٥ ٪ . وكان يصك النقود الفضية مخلوطة بالقصدير ليسهل على الناس شراء البضائع ، وأقام المنشآت العامة العظيمة ليوجد بذلك عملًا لملايين من مواطنيه ، فأنشئت الجسور على أنهار الصين ، وحفرت قنوات لا حصر لها لربط الأنهار بعضها

ببعض وإرواء الحقول .. وازدهر النظام الجديد وأفلح إلى حين ، وارتبطت الصين ببلاد العرب ، وألفت آلاف الكتب في الأدب والفلسفة والطب وفنون الحرب ، وفي الرياضيات .

على ان كوارث الطبيعة مضافاً إليها خبث بني الانسان قضت على هذه التجربة الجريئة ، غير ان النظام الحكومي ظل مستقراً في أذهان الصينيين مدى ألفي عام وقوامه : امبراطور يحكم نيابة عن الخالق ، وانــه « ابن السماء » ، يستمد سلطانه مما يتصف به من الفضيلة والصلاح ، وأعيان بالوراثة أو بحــكم تربيتهم وتدريبهم يصرفون أعمال الدولة ، وشعب يرى ان من واجبه فلح الأرض يعيش في أسر أبوية ، ويتمتع بالحقوق المدنية ، ولكنه لا رأي له في تصريف الشؤون العامـة ، ومجلس من ستة وزراء كل واحد منهم يدير شؤون قطاع من قطاعات الحكم في البلاد كالحرب ، والعدل ، وشؤون الدين ، والأشغال العامة ، ووزراء البلاط ، ورفاهية الشعب .

والواقع ان تاريخ الصين السياسي هو التاريخ المـألوف الذي يتناوله الفساد الطويل وفترات الاصلاح القصيرة .

وقلما كانت تمضي عشر سنوات دون ان يهاجم فيها الدولة البرابرة الجياع الذين لم ينقطعوا يوماً ما على الضغط على حـدودها ، حتى أضحت الحرب أولاً ضرورة لا بد منها للدفاع ، ثم صارت هجوماً واعتداء ، وتدرجت من ألعاب يتسلى بهـا الأعيان إلى مسابقات في التقتيل بين عامة الشعب يطاح فيها بعشرات الآلاف من الرؤوس .

وشهد تاريخ الصين قبل وبعد ميلاد المسيح بقليل أحـداثاً بالغة الخطورة ، فلقد جرب الامبراطور « وانغ مانغ » اعادة تطبيق القوانين الاشتراكية التي عمل بها سلفه « وودي » ونجح في تطبيقها على البلاد زمناً ، غير ان خلفاءه كانوا ضعافاً فانقسمت البلاد على عهدهم إلى دويلات متعددة ممـا حدى بالتتار إلى غزو البلاد فاستولوا على المقاطعات الشمالية.. وعلى مر الزمن اندمجوا في الأمة الصينية. وفي هـذه الفترة دخلت البوذية في الصين فأعطت شعبها قوة روحية جديـدة

استغلها امبراطور عظيم هو « فاي دزونغ » الذي حكم البلاد من عام ٦٢٧ إلى عام ٦٥٠ بعد الميلاد فأعاد هو وأسلافه وحدة البلاد ومجدها ورخاءها .

وتدور عجلة التاريخ ما بين مد وجزر حتى عام ١٠٢١ – ١٠٨٦ بعد الميلاد فظهر من أسرة « سونغ» الحاكمة الامبراطور «تاي دزو» الذي اختار له مستشاراً عبقرياً بعث الحياة والروح في تاريخ الصين وهو «وانغ آن شي».وتشاء المصادفات ان يكون الشخص العظيم الوحيد الذي يشبهه في تاريخ بلاده هو سميه«وانغ مانغ» الذي عاش قبله بنحو ألف عام – أي ان مجرى التاريخ الصاخب المضطرب قد سار ألف عام كاملة منذ الوقت الذي أجريت فيه أول تجربة بارزة لتحقيق المبادىء الاشتراكية .. لتحل محلها تجربة مماثلة يقوم بها رجل وهب حياته لإقامة نظامه الصالح لحكم البلاد ، وعمل مخلصاً لرفاهية شعبه ، ولا يترك لنفسه من الوقت ما يعنى فيه بشخصه وملبسه ، عالماً ، جندياً يحارب بشجاعة جنونية الطائفة الجامدة المتحفظة الغنية صاحبة السلطان القوي بأيامه .

لقد وضع «وانغ» هذا المبدأ العام : « يجب على الحكومة ان تكون مسؤولة عن رفاهية جميع سكان البلاد ... ولهذا السبب يجب ان تسيطر الدولة على جميع شؤون التجارة والصناعة والزراعة وتصرفها بنفسها ، وان يكون الهدف الذي ترمي إليه من وراء ذلك غوث الطبقات العاملة ، وان تحول بينها وبين ان يذلها الأغنياء ويطحنوها طحن الرحى » .

وقد بدأ عمله بإلغاء نظام السخرة ، وقام بأعمال هندسية عظيمة لوقاية البلاد من غوائل الفيضان ، وأنقذ الزراع من المرابين الذين كانوا يستعبدونهم، وأقرضهم أموالاً بفوائد كانت تعد وقتئذ قليلة ليستعينوا بها على زرع أراضيهم ، وأمد الفلاحين بالبذور من غير ثمن ، ومنحهم الأموال لبناء مساكنهم على شريطة ان يعيدوها إلى الدولة تدريجياً ، وأنشأ اللجان لتحديد أجور العمال ، وسعر المواد الاستهلاكية ، وأمم التجارة ، وشيد المستودعات ، ووضع نظاماً لميزانية الدولة ، وخصص معاشات للشيوخ والمتعطلين والفقراء ، وأصلح أساليب التعليم لدرجة ان التلاميذ في مدارس القرى صاروا يكتبون البلاغة ويدرسون الكتب المبسطة في

التاريخ والجغرافيا والاقتصاد السياسي .

وأدخل التجنيد الالزامي لكي ينقص الجيش العامل الذي يستنزف جزءاً كبيراً من موارد البلاد .

ولقد ازداد عدد العلماء فاخترع الورق والحبر في الصين ، وقطعوا شوطاً في سبيل اختراع الطباعة ، فأحدثت في حياة الصينيين ثورة كاملة ، فكان هذا الاختراع الصيني الخالص أعظم اختراع في تاريخ الجنس البشري بعد الكتابة ، واستعملت العملة الورقية ، وكتبت أول دائرة معارف في التاريخ وبعثت فلسفة « لودزه » و « كونفشيوس » وتقدمت الفنون إلى أعلى مجدها ، وأنشئت المعابد والقصور ، وتقدم البيت الصيني .

وفي مطلع القرن الثاني عشر أصاب بلاد المغول بإزاء حدود الصين الشمالية الغربية جفاف أحالها إلى صحراء جدباء، فاندفعوا بقيادة قائدهم الجبار جنكيزخان نحو بلاد الصين بحروب يائسة طلباً للرزق ، وكان نجاحهم في غاراتهم سبباً في تقوية معنوياتهم ونزعتهم الحربية . فعبروا صحراء « غوبي » وهجموا على ولايات الصين الغربية ودمروا من مدائنها تسعين مدينة سووها بالأرض على نحو ما فعلوا في آسيا الوسطى وفي العراق وسوريا وسائر بلاد الشرق الأدنى . وظل جنكيزخان عاهل العالم خمس سنين كاملة يخرب في بلاد الصين الشمالية إلى ان أعياه التخريب فعاد إلى بلاده ومات فيها .

وواصل خلفاؤه « اوغوادي » و «مانغو» و « كوبلاي » حملاتهم بقوة همجية ، وكان الصينيون قد أهملوا فنون الحرب ووجهوا همهم كله عدة قرون إلى الثقافة ، فلم يثبتوا أمام الغزاة بل خروا صرعى يجللهم العار القومي والبطولة الفردية . واجتاحت جيوش كوبلاي بلاد الصين حتى وقفت أمام كانتون آخر ملجأ لجأت إليه أسرة « سونغ » الحاكمة ، ثم استسلمت له بعد ان أبيد سكانها البالغ عددهم مائة ألف آثروا الموت مع امبراطورهم على التسليم .

وحكم كوبلاي بلاد الصين وعمل على مزج عادات قومه بعادات الصينيين باعتبارهم متفوقين على المغول في ميدان الحضارة . واستعان بالصينيين على إعادة

بناء البلاد فأعاد فتح القناة العظمى بين « تنسين » و «هانتشاو » وأصلح الطرق الكبرى وألغى الضرائب على المزارعين بسبب الجفاف ، وافتتح المجامع العلمية ، وشاد عاصمة جديدة للبلاد في بكين .

وظلت أسرة « يوان » المغولية تحكم الصين أربعة قرون دون أن تؤثر كثيراً في عادات الصينيين وأفكارهم ... لا بل واختلط الصينيون بالمغوليين فمدنوهم ثم غلبوهم على أمرهم في عام ١٣٦٨ حين تزعم أحد الكهنة البوذيين ويدعى « يونغ » ثورة على الفاتحين ودخل بكين منتصراً وأعلن نفسه أول امبراطور من أسرة « سنغ » أو الأسرة المتألقة .

وفي هذه الفترة بالذات غزت مملكة « المنشو » التي تعرف الآن باسم منشوريا البلاد الصينية بعد ان اقتحمت السور العظيم واحتلت العاصمة بكين مما اضطر آخر أباطرة « المانغ » ان يأمر زوجته بالانتحار فانتحرت ثم شنق نفسه بعد ان كتب على طية ثوبه : « نحن الفقراء في الفضيلة ، ذوي الشخصية الحقيرة ، قد استحققنا غضب الله العلي القدير ، لقد غرر بي وزرائي ، واني لأستحي ان ألقى في الآخرة آبائي وأجدادي،ولهذا فاني أخلع بيدي تاجي عن رأسي،وأنتظر – وشعري يغطي وجهي – ان يقطع الثوار أشلائي . لا تؤذوا أحداً من أبناء شعبي » .

وهكذا أسس « المنشو » الأسرة المالكة «الشانغ» – أي الطاهرة التي حكمت الصين واصبحوا هم أيضاً صينيين حتى قضت عليها ثورة صان يات صن عام ١٩١١ بإعلان الحكم الجمهوري .

*

ان الصين على الرغم مما تعرضت له من قسوة المحن من جراء تعدد قوميات سكانها ، وإلى ألوان كثيرة من النزاع والحروب الأهلية ، وما تعرضت له من الغزو الخارجي، ومن الفيضانات المدمرة ومن الجدب .. فانها قد أقامت حضارتها الخاصة بها منذ اكثر من أربعة آلاف سنة .

وفي خلال التاريخ الطويل للشعب الصيني أخرج هذا الشعب على نحو ما قرأنا كثيراً من اعاظم الساسة والفلاسفة والمخترعين والأدباء والشعراء وقادة الجيوش

الذين وضعوا مبادىء الحرب السوقية المعروفة بالمبادىء « الاستراتيجية » .

لقد كانت الصين من أول الأمم التي ارتفعت بالحضارة الانسانية إلى مستوى رفيع ، وكان من بين اختراعاتها الورق والحرير والبارود والطباعة والأواني الخزفية ، وأجهزة الكشف على الزلازل ، والبوصلة البحرية ... هذا فضلاً عن تقدمها على بعض الأمم الأخرى في بعض نواحي التنظيم الاقتصادي بما فيه استعمال العملة الورقية .

والصينيون كانوا يشعرون بأنهم أرقى الناس ، ولقد كانت الصين بالنسبة لهم « البلاد المركزية » في الدنيا ، أما الدول الأخرى فهي شعوب أدنى منها تعيش على الهامش .

ولعل أهم ما كان يميز تاريخ شعب الصين من غيره من شعوب الأرض هو ان حضارته قد نمت أساساً من منابع صينية أصيلة لم تستورد من الخارج... ذلك ان المجتمع الصيني المحافظ الذي عاش تاريخه في عالمه الفسيح ، كان قد أغلق أبواب عالمه على نفسه وظل على حاله هذه إلى ان طرق الاستعمار الأوروبي في القرن الثامن عشر أبواب الصين باسم التبادل التجاري .

وقال عنهم الأوروبيون بعد ان اختلطوا بهم ودرسوا حضارتهم : « أولئك قوم يفوقون كل من عداهم من الآسيويين في قدم عهدهم ، وفي فنونهم ، وعقليتهم ، وحكمتهم ، وحسن سياستهم ، وفي تذوقهم للفلسفة ، بل انهم ليضارعون في هذه الأمور كلها أرقى الشعوب الأوروبية وأعظمها استنارة » .

وقال فولتير : « لقد دامت هذه الامبراطورية أربعة آلاف عام دون ان يطرأ عليها تغيير يذكر في القوانين أو العادات أو اللغة ، أو في أزياء الأهلين . وان نظام هذه الامبراطورية لهو في الحق خير ما شهده العالم من نظم .

وقال الكونت « كسرلنغ » في قائمة كتاب له يعد من أغزر الكتب علماً وأعظمها نفعاً وأبرعها تصويراً : « لقد أخرجت الصين القديمة أكمل صورة من صور الانسانية ، وأنشأت أعلى ثقافة عامة عرفت في العالم كله ... وان عظمة الصين لتتملكني وتؤثر في كل يوم أكثر من الذي قبله ... وان عظماء تلك البلاد لأرقى

الاستعمار الاوروبي يطرق ابواب الصين

☆

ما بين عام ١٦٦١ – ١٧٢٢ حكم الامبراطور « كانغ شي » وهو من أسرة « الشانغ» المنشوكية البلاد واستمتعت الصين بعهد من الرخاء والسلم والاستنارة، وكانت رقعة حكمه تمتد إلى ما وراء بلاده فكانت تشمل معها بلاد المغول ومنشوريا وكوريا والهند الصينية وانام والتيبت وتركستان . وما من شك في انها كانت أكبر امبراطوريات ذلك العهد في العالم كله ، وأكثرها ثروة وسكاناً . ولقد عاصر « كانغ شي » لويس الرابع عشر ملك فرنسا ، وكان لا يرتاح كثيراً من الأساليب الغربية التي يتبعها التجار الغربيون الذين وفدوا إلى موانىء بلاده. وكان آخر ما نطق به وهو على فراش الموت في عام ١٧٢٣ هذه الألفاظ :

« اني لأخشى ان تتعرض الصين في مئات أو آلاف السنين المقبلة إلى خطر الاصطدام مع مختلف الأمم التي تفد إلى هذه البلاد من وراء البحار » .

وفي أواخر حكم الامبراطور « شين لونغ » الذي حكم البلاد ما بين عام ١٧٣٧ – ١٧٩٦ أرسلت بريطانيا – بعد ان أثارت غضب الصينيين باستيراد الأفيون إلى بلاد الصين – بعثة برئاسة لورد مكارتني لتفاوض في عقد معاهدة تجارية بين البلدين على أساس المساواة بين ملك بريطانيا وامبراطور الصين ... فرد الامبراطور « شين لونغ » جوابه التالي إلى الملك جورج الثالث :

« ان الأشياء العجيبة البديعة لا قيمة لها في نظري ، وليس لمصنوعات بلادكم فائدة لدي ، هذا إذن هو ردي على ما تطلبون إلي من تعيين ممثل لكم في بلاطي وهو طلب يتعارض مع عادات أسرتي ولا يعود عليكم إلا بالمتاعب . لقد شرحت لك آرائي مفصلة وأمرت مبعوثيك ان يغادروا البلاد في سلام عائدين إلى بلادهم ، وخليق بك أيها الملك ان تحترم شعوري هذا ، وان تكون في المستقبل أكثر إخلاصاً وولاء مما كنت في الماضي ، حتى يكون خضوعك الدائم لعرشي من أسباب استمتاع بلادك بالسلم والرخاء في مستقبل الأيام » .

بهذه العبارات القوية الفخورة حاولت الصين ان تدرأ عنها شر الانقلاب الصناعي في أوروبا الفتية النشيطة التي اكتشف أبناؤها القوى الآلية ، واستخدموها في صنع الآلات ومضاعفة الانتاج الرخيص الفائض على سكانها ... مما اضطرها إلى البحث عن أسواق خارجية لتصرف فيها ما زاد عن منتجاتها . فكان لا بد لها من ان تستعمر ، ودفعها الاستعمار إلى الحروب .

وهكذا شهد القرن التاسع عشر نزاعاً لا ينقطع بين ما كان في آسيا من حضارة قديمة ناضجة ومنهوكة ، وما قام في أوروبا الصناعية من حضارة فتية قوية مفهومة .

ومهد لهذا الغزو الاستعماري البرتغاليون المغامرون في أوائل القرن السادس عشر عندما استولوا على جزر ملقا ، وكانوا من قبل قد ثبتوا أقدامهم في الهند ، ثم طافوا حول شبه جزيرة الملايو ووصلوا بسفنهم ومدافعهم الرهيبة إلى كانتون في عام ١٥١٧ .

وكان البرتغاليون متوحشين لا يخضعون لقانون بشري ، قراصنة بحار يعدون كل الشعوب الشرقية فريسة مشروعة مباحة لهم ، وعاملهم الصينيون بالمثل فسجنوا ممثليهم ، ورفضوا ما عرضوه عليهم من تجارة ... على ان البرتغاليين استطاعوا بعدئذ من الاقامة في « مكاو » [1] فشادوا في تلك المدينة مصانع كبيرة لصنع الأفيون وعلموا الصينيين تدخين هذا السم الزعاف ، فدرت عليهم أرباحاً خيالية ، حتى ان مصنعاً واحداً كانت تعود ملكيته للحكومة البرتغالية در ربحاً سنوياً قدره ١٫٥٦٠٫٠٠٠ دولار أمريكي .

ثم جاء الاسبان وفتحوا جزر الفيليبين في عام ١٥٧١ ثم احتلوا جزيرة تايوان « فرموزا » .

وفي عام ١٦٣٧ دخلت خمس سفن حربية بريطانية نهر « سي كيانغ » «اللؤلؤ» فوصلت مدينة كانتون ، وأسكتت بدافعها القوية المدافع التي قاومتها ، وأنزلت

---

١ ـ ما زالت « مكاو » وهي شبه جزيرة صغيرة تبلغ مساحتها ٦ أميال مستعمرة برتغالية يحكمها البرتغاليون اسمياً ، ويستفيد من وضعها الصينيون لأنها بمثابة رأس جسر لتصدير واستيراد البضائع من والى الصين ـ راجع الفصل ١٠ (السياسة الخارجية) .

بالقوة بضائعها في المدينة .

وهكذا بدأ في مستهل القرن الثامن عشر استيراد الأفيون من الهند إلى الصين، ولم تجد قوانين الحكومة نفعاً بتحريم تعاطي الأفيون ، فعادة تدخينه قد انتشرت انتشار النار في الهشيم .

وكان رد الفعل الصيني ان أصدرت الحكومة لوائح الرقابة على الأجانب ، وجاء في تقرير « لي شي باو » نائب الملك عام ١٧٥٩ ما يلي :

(... ومن رأيي المتواضع جداً انه عندما يجيء البرابرة غير المتحضرين الذين يعيشون في أماكن بعيدة وراء حدود الصين إلى بلادنا للتجارة ، فينبغي ان لا يقيموا أية صلة إلا للأغراض الخاصة بأعمالهم ... ولذا فمن الأفضل اتخاذ اجراءات احتياطية لتقييد حركاتهم ، بدلاً من معاقبتهم بعد ان يخالفوا القانون ...)

وهكذا اتخذت حكومة أسرة « مانشو » في الصين سياسة العزلة التقليدية رداً على الغزو الاستعماري الأوروبي الذي بدت طلائعه تطرق أبواب الصين بعد ان احتل الهند وغيرها من بلاد الشرق الأقصى ، وأخذ يزحف سريعاً ليملأ الفراغ الذي يجده في هذه القارة الغنية التي تغط شعوبها في سبات عميق .

وكان الانكليز أبرع من أندادهم الفرنسيين والبرتغاليين والهولنديين في التفنن بالتسلل الاستعماري فلجأوا إلى محاولة « فتح الصين للتجارة » وفي هذه التجارة كانت الصين في البداية هي الموردة للمصنوعات ، فلم يقتصر ما كانت تصدره على الشاي ، بل تعداه إلى الحرير والمنسوجات القطنية والأواني الخزفية .. وفي مقابل هذا كانت الصين تستورد القليل وبصفة أساسية الغراء الخام والعقاقير الطبية وبعض مواد الطعام الممتازة لكي توضع على موائد الأغنياء .

وهكذا فتح الاستعمار البريطاني عن طريق « شركة الهند الشرقية » ثغرة في أسوار الصين المغلقة ، وبعد منتصف القرن الثامن عشر أصبحت شركة الهند البريطانية على أثر إخضاع الهند فوراً ، مشرفة على تجارة الصين الخارجية المربحة .

وكانت السلطات الحاكمة التي تخشى التغيير ، وترتعد من الأفكار الجديدة والتي قد تأتي نتيجة للاتصال بالعالم الخارجي ... لا تدرك على الاطلاق مدى القوة

العسكرية والاقتصادية التي بدأت الثورة الصناعية تطلقها من عقالها في أوروبا ، كما لم تدرك ما يجب ان يتبع ذلك من ضرورة الأخذ بالأساليب الحديثة لو أرادت إقامة نظام دفاعي قومي مناسب .

ولم يكن بوسع التجار البريطانيين في ذلك الوقت ان يبيعوا سوى القليل جداً من بضائعهم في الصين ، لأنه كان عليهم ان يدفعوا ثمن أغلب ما يشترونه بسبائك الفضة التي أوشك موردها ان ينضب على الرغم من اعتصارها من الشعب الهندي المستعبد في شكل جزية إجبارية فرضت عليه .

وبحثت شركة الهند الشرقية عن طريقة أخرى لكي تدفع ثمن البضائع الصينية.. فلم يكن لديها غير الأفيون فزرعت كل الأراضي المملوكة للشركة في الهند بأشجار الأفيون ووسعتها بعد ذلك حتى شملت الأراضي الزراعية الأخرى المستخدمة في إنتاج الطعام والملابس .

وفي عام ١٧٨١ ،وبعد إعداد منظم قامت الشركة بشحنتها الأولى من الأفيون الهندي للصين ، وبعد ذلك بدأت التجارة تتقدم بخطوات واسعة ، وسرعان ما أصبحت صادرات الصين من الشاي والحرير والبضائع الأخرى غير كافية لدفع ثمن الأفيون المستورد وبدأت الفضة تتسرب إلى خارج البلاد بدلاً من داخلها .

وفي عام ١٨٠٠ أمر الامبراطور « شياشينغ » وقد أقلقه بشكل خطير تأثير الأفيون صحياً واقتصادياً بتحريمه في الصين . ولكن كان عدد كبير من الناس في ذلك الوقت قد أصبحوا مدمنين ، وفسد عدد كبير من التجار والرسميين نتيجة للأرباح الطائلة الناجمة عن مساهمتهم في عمليات التهريب ، وهكذا قضت الرشوة والتهريب في النهاية على كل أثر لأمر التحريم .

وارتفع القدر السنوي المستورد من الأفيون من ٣٠٠ ألف رطل عام ١٨٠٠ إلى ٦ ملايين رطل عام ١٨٣٨ .

وازداد تدفق الفضة إلى خارج الصين حتى بلغ عشرين مليون أوقية عام ١٨٣٢ – ١٨٣٥ مما أدى إلى ارتفاع أسعار الفضة بشكل حاد في داخل البلاد ، وألقى العبء على كاهل الفلاحين فانخفضت أسعار الحبوب بينما كان كبار الملاك وجباة

الحكومة يستولون على نسبة أكبر من المحصول حتى يظل دخلهم مقدراً بالفضة ، كما كان من قبل ، وأضافت هذه الحالة مشكلة جديدة إلى متاعب المجتمع الصيني لدرجة ان عدداً من ثورات الفلاحين بدأت في منتصف القرن الثامن عشر ضد أسرة « منشو » الحاكمة مما اضطر الامبراطور إلى إصدار مرسوم أشد حزماً للقضاء على تجارة الأفيون ، وعين « لين تسي شو » وهو رجل صيني حازم ووطني كمبعوث خاص إلى « كانتون » للاشراف على تنفيذ المرسوم . وبتأييد من الشعب حاصر « لين » قسماً من المدينة الذي كان مسموحاً فيه للتجار البريطانيين والأمريكيين بإقامة مؤسساتهم ، وبهذه الطريقة أجبرهم على تسليم الأفيون الذي كان في حوزتهم وكان يربو على ٣ ملايين رطل في عشرين ألف صندوق ، وأتلفت الكمية بأسرها علناً .

حرب الافيون ما بين عام ١٨٣٩ ـ ١٨٦٠

*

وكانت النتيجة قيام حرب الأفيون الأولى التي انكشفت فيها للشعب الصيني كله أهداف سياسة السلب والنهب والقتل الجماعي البطيء الذي تنتهجه دول الغرب المتحضرة لإضعاف الشعب الصيني وللقضاء على الامبراطورية الصينية .

وقال الانكليز ان الحرب لم تكن حرب أفيون ، بل كان سببها انهم غضبوا لما أظهرته الحكومة الصينية من قحة وغطرسة في استقبالها ممثليهم أو برضها استقبالهم ، وما وضعته أمامهم من عقبات في صورة ضرائب باهظة ومحاكم فاسدة أقامتها القوانين والعادات الصينية التي تعطل بها تجارة منظمة مشروعة « هي تجارة الأفيون ! » . فأطلقوا نيران مدافعهم على المدن الصينية الساحلية التي كان بوسع أسطولهم الاقتراب منها ، فاحتلوا كانتون وشنغهاي وآموي واستولوا على القناة الكبيرة عند « شنكيانغ » وأصبحوا على بعد ٩٠ ميلاً من بكين ، فألقى بالصين في براثن الهزيمة لتأخرها ... وخسر جيش المنشو ثلاثين ألف قتيل ... وأدرك

الامبراطور من خسرانه للمعركة بسبب تذبذب وعدم كفاية حكومته ، فبدأ يفاوض الغزاة ، ووقع على معاهدة « نانكين » وهي أول معاهدة غير متكافئة أذلت الصين في تاريخها الطويل ... وقادتها فيما بعد إلى حافة الهاوية .

وتخلت الصين بمقتضاها عن « هونغ كونغ » إلى البريطانيين الذين دأبوا على استخدامها منذ ذلك الوقت كقاعدة للتدخل العسكري والسياسي والاقتصادي



كتاب « دايموندسوترا » أقدم كتاب مطبوع في العالم
فقد طبع في عهد ملوك « تانغ » عام ٨٦٨ بعد الميلاد

في الصين . وفتحت للتجارة البريطانية خمسة موانىء رئيسية للتجارة البريطانيـة والاستيطان وهي : كانتون ، واموي ، وفوشو ، وتنغبو ، وشنغهاي التي تحولت فيما بعد إلى جيوب اقليمية تحت العـلم البريطاني . وأرغمت الصين على تخفيض الضرائب إلى ٥ ٪ ، وفرضت على الصين غرامة حربية لتغطية نفقات الحرب وما أتلفته من أفيون واشترطت ان يحاكم الرعايا البريطانيون في الصين ، إذا اتهموا بمخالفة قوانين البلاد أمام محاكم بريطانية ، وطلبت عدة دول أخرى منها الولايات

المتحدة الامريكية وفرنسا واليابان والمانيا ان تطبق هذه الامتيازات الاجنبية على تجارها ورعاياها المقيمين في الصين وأجيبت إلى طلبها .

وكانت هذه الحرب بداية انحلال النظام القديم ، وسرعان ما ضعف سلطان الحكومة في كل مكان في الصين ، وما لبثت القوى الوطنية الشريفة ان ثارت علناً على حكومة بكين بقيادة رجل وطني متحمس يدعى « هونغ سيو شوان » في عام ١٨٤٣ ، وكان يعتقد ان الله قد اختاره ليطهر الصين من عبادة الأوثان ويحولها إلى المسيحية، وليطهرها من أسرة المنشو وايجاد أسرة جديدة هي أسرة«التاي‌بنغ» « أي السلم العظيم » وخاض أتباعه حرباً ضروساً واستولوا على « نانكين » وظلت في أيديهم اثنتي عشرة سنة وزحفوا على بكين ولكنهم هزموا وتشتتوا لعجز قادتهم .

وفي غمرة هذه الفوضى ، اضطرت الصين إلى مواجهة أوروبا مرة أخرى في حرب الأفيون الثانية ما بين عام ١٨٥٦ - ١٨٦٠ ، وكان سببها ان بريطانيا تعاونها فرنسا والولايات المتحدة الامريكية ، طلبت من الصين ان تجعل تجارة الأفيون تجارة مشروعة فتلغي قوانين تحريمها ، وان تسمح لها بالدخول في مدن جديدة غير التي كانت قد سمح لها بدخولها ، وان يستقبل الرسل الغربيون بما يليق بهم من التكريم في بلاط بكين. فلما رفض الصينيون هذه المطالب الجائرة استولى البريطانيون والفرنسيون على كانتون واقتحموا حصون « تنسين » وزحفوا على العاصمة ، ودمروا قصر الامبراطور ، وأملى الغزاة على المهزومين معاهدة جديدة فتحت لهم بمقتضى شروطها موانىء جديدة، وأعطيت للبريطانيين مدينة« كاولون» والأراضي المجاورة لها وهي على البحر الصيني مقابل هونغ كونغ، وجعلت استيراد الأفيون عملاً مشروعاً ، وفتحت أبواب الصين للبعثات التبشيرية ، وزادت في امتيازات الأوروبيين وحررتهم من الخضوع لقوانين البلاد ، وفرضت على الصين غرامة حربية جديدة لينفق منها على إخضاعها لسلطان الغربيين ولتدريب شعب الصين على أساليب الحياة الأوروبية .

وشجعت الدول الغربية انتصاراتها السهلة فأخذت تقتطع من الصين قطعة بعد

قطعـــة ، فاستولت روسيا على الأراضي التي تقع في شمال نهر امور وشرق نهر « الاوسوري » في عام ١٨٦٠ ، واستولت فرنسا في عام ١٨٨٥ على الهند الصينية بحجة موت أحد مبشريها .

وانقضت اليابان على جارتها ومصدر حضارتها ، وأثارت عليها حرباً فجائية في عام ١٨٩٤ وهزمتها بعد عام واستولت على فرموزا . كما استولت فيما بعد « عام ١٩١٠ » على كوريا ، وفرضت على الصين غرامة تبلغ ١٧٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار أمريكي لما سببته لها من متاعب جمة !



كونفوشيوس (٥٥١ - ٤٧٩ ق.م)

وتخاصم الروس مع اليابانيين على الأسلاب ، فأراد اليابانيون الاستيلاء على شبه جزيرة «لياتنغ» فمنعهم الروس على ان تـؤدي الصين غرامة اضافية لليابان ... فلما انقضت ثلاث سنين على هذا الحادث استولت روسيا نفسها على شبه الجزيرة .

وفي عام ١٨٩٨ استولت المانيا على شبه جزيرة « شانتانغ » لأن اثنين من مبشريها قتلا على يد الصينيين .

وأخيراً ، فقد قسمت الدولة الصينية إلى « مناطق نفوذ » تستمتع فيها كل دولة أوروبية بامتيازات في التعدين والتجارة لا تشاركها فيها غيرها من الدول ، وخشيت اليابان ان تقسم الصين تقسيماً حقيقياً بين الدول الغربية ، وأدركت

شدة حاجتها إلى الصين في المستقبل ، فانضمت إلىأ مريكا ، وطالبت الدولتان بسياسة « الباب المفتوح » مع الابقاء على مناطق النفوذ ، على ان تكون الضرائب الجمركية ونفقات النقل واحدة لجميع الدول على السواء ، على ان هذا الاتفاق لم يمنع الولايات المتحدة من الاستيلاء على جزر الفيليبين في عام ١٨٩٨ والاشتراك في النزاع القائم من أجل سلب خيرات شعب الصين .

سقوط الاسرة المالكة وقيام الحكم الجمهوري عام ١٩١١

*

لقد أثرت نتائج حرب الأفيون الأولى والثانية تأثيراً بالغاً في حياة شعب الصين ، لا بل أصابت مقتلاً في ضمير هذا الشعب الحضاري العظيم وهو يرى بأم عينيه الجيوش الغازية تحتل مدنه الساحلية، وتهين شرفه باستمرار الاستيراد القانوني للأفيون الذي يقتله قتلاً بطيئاً ، وتقضي الامتيازات الأجنبية التي تخضع اقتصاده على حياته .

ولكي نعرف قصة كفاح هذا الشعب العريق في أواخر القرن التاسع عشر ، وأوائل القرن العشرين يجب ان نعود مرة أخرى إلى الأحداث التي جرت على مسرح الصين ، وإلى العوامل المؤثرة في تلك الأحداث التي تشابك فيها الصراع بين المستعمرين ، وبين حكام الصين ، وبين الشعب نفسه .

وما من شك في ان الاستعمار الأوروبي والياباني معاً – بأساليبهما الوحشية وغير الانسانية – لا بل والدنيئة أيضاً على نحو ما ذكرنا من إجبار شعب الصين على تعاطي الأفيون ، واقتطاع الوطن وإخضاعه لحكمهم ... كان بمثابة الناقوس الذي ترددت أصداؤه في نفوس أبناء ذلك الشعب العظيم .

ثم ... ان الفترة الممتدة بين إعلان الاستقلال الأمريكي عام ١٧٧٦ ، وبين التحرر الحديث من نفوذ الدول الأوروبية لكثير من المستعمرات في آسيا وأفريقيا ... والأفكار والمشاعر التي تولدت عن الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ التي

تناولت حق الفرد إزاء الدولة من أجل حقوق الانسان.. قد سجلت كلها أثر اتجاهين ثوريين بالغي الاهمية بالنسبة لشعب الصين .

وبعد كل الذي حدث لم يكن من الممكن تجاهل حقيقة كون الحضارة الصينية القديمة لم تعد تجنب الأمة من التدهور في هاوية الفوضى والشقاء والاستعباد الأبدي ... وليس هناك من خيار في الأخذ بأساليب الغرب ونظمه التي أخذت بها اليابان لكي تقارع الحديد بالحديد .

وهكذا شهد التاريخ في آخر فصل من الرواية التي انتهت بحرب الأفيون الثانية التي دخل الحلفاء فيها عاصمة الصين ظافرين في عام ١٨٦٠ ، فصلاً جديداً يمثل وراء جدران القصر الامبراطوري في بكين ، فلقد فر الامبراطور « شيانغ فنغ» إلى جبهول فمات فيها وتولى العرش ابنه الطفل ، فاستولت على مقاليد الحكم أمه « تزه شي » التي عرفها العالم باسم الامبراطورة الوالدة ، فحكمت الصين حكماً طيباً صارماً ، وحافظت على بقايا الامبراطورية نحو ثلاثين عاماً مستعينة برجال من دهاقين السياسة أمثال « لي هونغ شانغ » ... محتفظة بالطابع التقليدي القديم مما أثار عليها الشعب الذي أخذ يطالب بان تحذو الصين حذو اليابان التي أخذت بأساليب الدول الغربية ، فتؤلف جيشاً قوياً عصرياً ، وتنشىء المصانع ، وتعبد الطرق ، غير ان الامبراطورة العجوز قاومت هذه الحركة بكل ما لديها من قوة ، مما حدى بالامبراطور الشرعي الذي كبر واسمه « شوانغ شو » ان يصدر في عام ١٨٩٨ عدة مراسيم تقدمية لإقامة نظام جديد للتعليم ، ودراسة العلوم والفنون الصناعية الغربية ، والقيام بإصلاحات عامة استعداداً لمواجهة الأزمة المقبلة على حد قوله هو : « لأننا محوطون من كل ناحية بجيران أقوياء يريدون بختلهم ان يظفروا بنا ، ويحاولون بتألبهم علينا ان يغلبونا على أمرنا » . وهال الامبراطورة العجوز الوالدة ان يصدر الامبراطور الشاب هذه المراسيم التي رأت فيها تطرفاً لا تحمد مغبته فسجنت « شوانغ شو » في أحد القصور الملكية، ونقضت مراسيمه ، وقبضت بيدها مرة أخرى على أزمة الحكم في الصين .

على ان حركة عنيفة قاومت هذه الردة ، قامت بها حركة « هو شوان » — أي

قبضات التوافق الصالحة التي أطلق عليها المؤرخون اسم حركة « البوكسر » وكانت هذه الانتفاضة هي النهاية لمقاومة الصين التي تعيش على التقاليد القديمة وتتمسك بها — لمنع التدخل الأجنبي ، ذلك ان الامبراطورة الداهية قد وجهت حركة البوكسر لمقاومة الغزاة الأجانب بدل ان يوجهوها لمقاومتها هي . فنادت حركة البوكسر بإخراج جميع الأجانب من بلاد الصين ، وجرف الشعب تيار الوطنية العارم فشرعت الجماعات الوطنية في عام ١٩٠٠ بذبح المسيحيين بلا تفريق أو تمييز ، فما كان من الجيوش الأوروبية المتحالفة إلا ان زحفت مرة أخرى على بكين لحماية مواطنيها الذين اختبأوا في دور السفارات الأوروبية ، وفرت الامبراطورة إلى « شيانغو » وانقض الجنود البريطانيون والفرنسيون والروس والالمان والامريكان واليابانيون على العاصمة بكين يسلبون وينهبون الممتلكات والتحف الثمينة ، ثم فرضوا على الصين غرامة حربية مقدارها ٣٣٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار يجمعونها من المكوس المفروضة على الواردات الصينية وعلى احتكار الملح .

وتأيد للشعب الصيني ان جيشه الذي اعتمدت عليه الأمة بطرد كل الأجانب من الصين ، أو الدفاع عن بلاده أعجز من ان ينجز واجبه لأنه كان يتكون من عصابات مسلحة من الفلاحين لا تلقى التأييد الكافي من الحكومة التي هي بدورها أعجز من ان تحفظ للشعب كرامته وحدوده ومصالحه الحيوية ، ما دامت تعيش على الماضي وتبتعد عن الأخذ بأساليب الحضارة الاوروبية الجديدة .

وبعد انقضاء مائة سنة على الثورة الامريكية التي تحرر بها الامريكان من الاستعمار البريطاني ... وعلى الثورة الفرنسية التي هزت الضمير الانساني وأيقظته من سباته ليتحرر من حكم الطغاة وانصاف الالهة ... شرع الطبيب الصيني الشاب صن يات صن الذي تخرج من إحدى الجامعات الامريكية في نشر أفكاره الثورية ، فأسس في سنة ١٨٩٥ أول حزب ثوري صيني يجمع تلك النخبة النيرة من شباب الصين الذين تعلموا في الغرب ، وفقدوا ايمانهم بدين آبائهم ، وسرهم ان يكونوا الرواد الذين نبذوا جميع العناصر التي تتكون منها حضارة بلادهم القديمة ، وهم حانقون على تأخر بلادهم المادي ، وسيرها البطيء في سبيل الحضارة الغربية ..

وكان هدف هذا الحزب هو الثورة على القديم بقلب نظام الحكم الملكي القائم في الصين منذ آلاف السنين الممثل اليوم في أسرة « المنشو » الحاكمة، ولكي تحرر الصين من السيطرة الاجنبية ، وقيادتها في طريق الديمقراطية السياسية والاجتماعية، وهدفه قد اجتمع بما سماه صن يات صن : مبادىء الشعب الثلاثة وهي : وطنية ، ديمقراطية سياسية ، تأمين حياة الشعب . وهي صدى لعبارات لنكولن الشهيرة : الحكم من الشعب وبالشعب وللشعب .

ولقد حاول صن يات صن ان يقابـل نائب الملكة الوالدة « لي هانغ شانغ » ليعرض عليه مشروعـاته التي تهدف إلى إصلاح أحوال البلاد واستعادة عزتهـا وكرامتها ، فرفض الحاكم مقابلته ، وعندئذ بدأ حياة كلها مغامرات ، فتجول في أنحاء البلاد يجمع تبرعات يؤجج بها نيران الثورة الصينية ، ولقي معونة مـن كثير من النقابات التجارية والجمعيات السرية القوية التي تناهض الاقطاع والرجعية، وتتوق إلى إقامة نظام ديمقراطي للحكم . ثم غادر الصين وأبحر إلى أمريكا وأوروبا يجمع المال من مواطنيه المهاجرين ، وظل خمسة عشر عاماً أخرى يتنقل في جميـع أنحاء العالم ، وجمع في تجواله مليونين ونصف مليون دولار مول بها الثورة دون ان ينفق شيئاً منها على نفسه . ثم جاءته على حين غفلة رسالة تنبئه ان قوات الثورة استولت على الجزء الجنوبي من الصين ، وانها بسبيل الاستيلاء على شمالها ، وانهـا اختارته رئيساً مؤقتاً للجمهورية الصينية ، وبعد بضعة أسابيـع وصل هونغ كونغ في طريقه إلى كانتون ... مركز الثورة .

عندما ماتت الامبراطورة الأرملة في عام ١٩٠٨ كانت الحكومة قد أدخلت كثيراً من ضروب الاصلاح التي تهدف إلى تجديد البلاد وصبغها بالصبغـة الغربية الحديثة ، فمدت الطرق الحديدية ، وأنشىء نظام جديد للتعليم ، ودعيت جمعيـة وطنية لتجتمع في عام ١٩١٠ لتنظر في مشروع يستغرق تنفيذه تسع سنين يهدف إلى إقامة حكومة دستورية ، وينتهي بتعميم حق الانتخاب تدريجياً ، وجـاء في المرسوم الذي اعلن به هذا المنهج ما يلي: « كل تسرع في إدخال هذه الاصلاحات سيؤدي في النهاية إلى ضياع كل ما بذل فيها من جهود » .

لقد جاءت هذه الاصلاحات متأخرة جداً ، ولم يكن البلاط الامبراطوري الذي عرقلته المصالح الرجعية والاقطاعية المكتسبة قوياً حتى يستطيع ان ينفذ هذه الاصلاحات ، ولم تكن الثورة لتوقف تيارها هذه النوبة الاصلاحية التي جهرت بها الأسرة المريضة وهي على فراش الموت ، وألفى الامبراطور الشاب « بويي » نفسه تحيط به الثورة من كل جوانبه . فالاضطرابات التي بدأت عند موت الامبراطورة في عام ١٩٠٨ في كانتون والتي دامت ثلاث سنين قد انتهت بثورة عسكرية في جنوب الصين، حيث كانت القوة الدافعة وراء الثورة تتمثل في الضباط الصغار من الجيش الذي أصبح يتمشى مع النظم الحديثة ، والذين أسرتهم الفكرة الجديدة عن الجمهورية الديمقراطية ، وكانوا يحظون بتأييد الطلبة الذين تلقوا علوماً غربية، وكذلك تأييد البورجوازيين الوطنيين من التجار في شنغهاي، والمدن الساحلية الكبيرة، على ان جماهير الشعب قد تقبلتها على انها تغيير للحكومة لا يعنيها كثيراً .

ولم ير الامبراطور بداً من ان يعلن تخليه عن العرش ، فأصدر نائبه الأمير « شون » مرسوماً هو أعجب ما صدر من المراسيم في تاريخ الصين كله إذ يقول :

« ان الشعب في جميع أنحاء الامبراطورية يتجه الآن بعقله نحو الجمهورية ... ان ارادة الله واضحة ، ورغبات الشعب غير خافية ، فكيف أستطيع ان أعارض رغبات الملايين الكثيرة للاحتفاظ بمجد أسرة واحدة وكرامتها؟ من أجل ذلك فاني أنا والامبراطور نرى ان تكون الحكومة في الصين جمهورية دستورية إجابة لرغبات الشعب في داخل الامبراطورية كلها ، وعملاً بآراء الحكماء الأقدمين الذين كانوا يرون ان العرش تراث عام » .

وكانت الثورة كريمة كل الكرم في معاملتها لبويي فلقد أمنته على حياته ومنحته قصراً ومرتباً سنوياً وخليلة يسكن إليها ، وقال لنا الصينيون بعدئذ أن بويي يعمل الآن جنائنياً وهو سعيد في عمله .

وهكذا جاء المنشو إلى الصين آساداً ، وخرجوا منها حملاناً ... وتلك الأيام نداولها بين الناس .

فترة التفكك في الحكم الجمهوري الجديد

*

كان مولد الجمهورية هادئاً سليماً، ولكن حياتها كانت عاصفة مليئة بالأحداث، فما ان قدم صن يات صن ليتولى قيادة الجمهورية الناشئة حتى طلب «يوان شي كاي» قائد الجيش في ان يتولى هو رئاسة الجمهورية ثمن تأييده لها ، وأجابه صن يات صن إلى طلبه واعتزل الحياة العامة في كرم وعزة نفس ولما يستمتع بعد بمنصبه الجديد، وأخذ يوان يعد العدة لأن يجعل نفسه امبراطوراً وينشىء أسرة حاكمة جديدة مستعيناً بالأجانب وبالرأسماليين ، وحجته في هذا ان الامبراطورية هي السبيل الوحيد لمنع تدهور الصين وتفككها . على ان صن يات صن قاومه واتهمه بالخيانة وأهاب بالشعب ان يجدد عهد الثورة ، وقبل ان يحدث الصدام مات يوان ، وعاد صن يات صن لرئاسة الجمهورية .

وتبين ان صن يات صن وهو في مركز المسؤولية والقيادة غيره وهو زعيم وخطيب ففشل في توليه زمام الحكم وقيادة الأمة ، فكان ينتقل من خطة إلى خطة ، ومن نظرية إلى نظرية مما أغضب من عاونوه من الطبقات الوسطى ، وانتهى أمره إلى الانزواء في كانتون ليعلم شبابها ويبث فيهم روحه ، ويحكم في بعض الأحيان .

وان حكومة الثورة التي أعلنها صن يات صن من « كانتون » في عام ١٩١٧ لم تعترف بها بقية أجزاء الصين ، كما وان التدخل الاستعماري الياباني الذي أطل برأسه على القارة الصينية في فترة الحرب العالمية الأولى، واطماع الجنرالات الصينيين جعل حكومة الثورة تزول عملياً من الوجود .

فلقد حرمت الصين من حكومة تعترف بها جميع أجزائها ، ومن ملكية كانت رمز وحدتها ونبذت عادة الطاعة والخضوع لتقاليدها وشرائعها وهي في بداية أمرها ضعيفة النزعة الوطنية التي تربط النفس بالوطن كله لا بالاقليم الذي تعيش فيه ، فشبت فيها نار حرب متقطعة بين الشمال والجنوب تارة ، وبين طائفة

وطائفة تارة أخرى ... ثم بين الأغنياء والفقراء ، وبين الشيوخ والشباب ، وقام لمغامرون يؤلفون الجيوش ويفرضون سلطانهم على الأقاليم النائية ، يجبون االضرائب ويزرعون الأفيون .

واضطربت الحياة الاقتصادية ايما اضطراب لكثرة ما كان يفرضها عليها قائد منتصر بعد قائد ، وأخذ قطاع الطرق يفرضون الاتاوات وينهبون ويقتلون دون ما رادع يردعهم ، ووجد الناس في اللصوصية والجندية وقاية لهم من الهلاك جوعاً.

وهكذا فان « الجمهورية الجديدة » لم تأت إلى البلاد إلا بالتفكك والفوضى ، فلم تستطع ان تخلق دولة حديثة للصين على أنقاض النظم القديمة كما كان يأمل أصحاب المثل والمبادىء . لقد تقوضت السلطة القديمة ولم يكن هناك شيء يكفي كي يحل محلها ، لقد ذهب الموظفون القدامى ، وانحدرت الملكية ، ولكن ماذا بقي ? لقد بقي فقط الجنرالات والحكام العسكريون للأقاليم الذين كانوا يدفعون مرتبات قواتهم المرتزقة من دخلهم الخاص ، وأصبحوا الآن يستخدمون هذه القوات كأداة في الصراع من أجل السلطان والنفوذ .

لقد أصابوا حين أطلقوا على هذه الفترة التي أعقبت وجود الجمهورية الصينية عام ١٩١٧—١٩٢٩ فترة التفكك ، وهي تعني فترة تقوضت فيها وحدة الدولة الصينية تماماً بسبب نزاع الطوائف العسكرية ، وعندما انقلب الجيش الذي كان من المفروض فيه ان يكون درع الصين ضد أي عدوان خارجي على نفسه في حروب أهلية مدمرة لا هدف لها ولا آخر .

ثم ان الأمم كالأفراد من العسير عليها الا تفيد من مصائب جيرانها،ومصداق ذلك اليابان التي كان يرى صن يات صن ان تكون صديقة الصين وحليفتها على الأمم الأوروبية ... غير انها وجدت في الفوضى التي تردت إليها معلمتها القديمة فرصة سانحة لتستغل ما تحتاج إليه من الحديد والفحم الموجود لدى جارتها الصين ، فلم تستطع ان تقاوم جشعها فاقتطعت جزءاً من الصين الضعيفة المقطعة الأوصال ، وانقضت على اقليم « شياو شو » الذي كان خاضعاً للاشراف الالماني ، وتقدمت إلى حكومة الصين بواحد وعشرين مطلباً لو أجابتها عليه الصين لأصبحت مستعمرة

سياسية واقتصادية لليابان .

على ان اليابان زحفت على منشوريا وأقامت « بويي » امبراطور الصين السابق رئيساً لجمهورية منشوكو ثم نصبته بعدئذ امبراطوراً عليها .

ومع ان الحكومة المركزية في بكين بقيت من الوجهة الاسمية ، إلا ان الصين كانت في واقع الأمر منقسمة إلى اثنتي عشرة ولاية منعزلة على حين انفصلت منغوليا الخارجية – بتشجيع من الحكم البلشفي الجديد ، وكذلك التيبت وأعلنتا استقلالها .

ولم يكن من الممكن حدوث أي تطور اقتصادي قومي في هذه الظروف ، وهكذا أصبحت سيطرة رأس المال الأجنبي على الاقتصاد الصيني اكثر من أي وقت مضى ... ولأن التجارة والصناعة في أمن من الأعمال الاستبدادية التي يقوم بها الحكام لأنها تحت حماية الأجانب .

هذه هي الصورة للموقف في الصين حين كانت البشرية في أوروبا وغربي آسيا تخوض حرباً عالمية دامية تتصارع فيها القوى المتكالبة للسيطرة على العالم وإخضاعه للغالب المنتصر ...

حكم الكومنتانغ

- الكومنتانغ والحزب الشيوعي وحركة ٤ مايو عام ١٩١٩
- حلف الكومنتانغ والشيوعيين للقضاء على حكم الجنرالات عام ١٩٢٦
- الحرب الاهلية وقيام الجمهوريات السوفياتية الصينية
- حرب ابادة الشيوعيين والمسيرة الكبرى
- الغزو الياباني عام ١٩٣٧ - ١٩٤٤
- الحرب الاهلية الشاملة .

الكومنتانغ والحزب الشيوعي وحركة ٤ مايو عام ١٩١٩

*

كانت فترة ١٩١١ – ١٩٤٨ هي الفترة التاريخية الحاسمة التي قررت مصير شعب القارة الصينية وقد امتد أثرها فيما بعد إلى شعوب آسيا وافريقيا أيضاً .

والخوض في تفاصيل أحداث هذه الفترة يقتضي بحثاً طويلًا قد يخرجنا عن موضوعنا الأساسي نظراً لتشعبها ومداخلة بعضها بالبعض الآخر من الناحية الزمنية والموضوعية معاً .

فلقد كانت هناك حكومة مركزية ممثلة في الكومنتانغ الذي يتزعمه صن يات صن ، وإلى جانب هذه الحكومة أقام الجنرالات الصينيون اثنتي عشرة حكومة اقليمية تتطاحن مع بعضها البعض .

وحدث ان قامت في روسيا عام ١٩١٧ ثورة قضت على حكم القياصرة وأقامت حكومة شيوعية تردد صداها في الصين ، فأعلن عن تأليف حزب شيوعي صيني سنة ١٩٢١ وقد لعب هذا الحزب دوره الفعال في حكم الكومنتانغ ، ثم تحالف الحزبان الكومنتانغ والشيوعي للقضاء على حكم الجنرالات عام ١٩٢٦ ثم عادا فاختلفا وتقاتلا بقسوة وضراوة .

وانفصلت في هذه الفترة « سنة ١٩١٩ » منغوليا الخارجية عن الوطن الأم بمساعدة روسيا ، ثم أعقبتها التيبت التي اعلنت انفصالها عن الصين أيضاً .

واشتعلت الحرب الأهلية بين الشمال والجنوب ما بين عام ١٩١٨–١٩٢٨ ...
وألف المنشقون في الشمال حكومة في بكين تتنازع السلطة مع حكومة

الكومنتانغ في كانتون .

وفي سنة ١٩٣١ ، وسنة ١٩٣٧ غزت اليابان أرض الصين وأقامت امبراطورية في منشوريا ، واحتلت جيوشها معظم سواحل الصين ، فتألفت على أثر هذا الغزو الجبهة الموحدة المعادية للاستعمار الياباني ثم انفصمت عرى الجبهة وعاد القتال على أشده بين الكومنتانغ والحزب الشيوعي الذي قام جيشه بالمسيرة الكبرى الشهيرة في التاريخ الصيني الحديث .

وتنتهي الحرب العالمية الثانية بهزيمة اليابان واستسلامها ، وتتدخل أمريكا والاتحاد السوفياتي في شؤون الصين الداخلية لتكسب كل منهما الصين إلى معسكرها وينشب صراع مرير بين الشيوعيين الصينيين وبين حكم الكومنتانغ الذي تزعمه شان كاي شك الذي خلف صن يات صن في قيادة الحركة الوطنية .

وينتهي المطاف آخر الأمر بانتصار الشيوعيين الصينيين الذين اقاموا جمهورية الصين الشعبية سنة ١٩٤٩ .

*

وفي خضم هذه الفوضى والاضطرابات كانت التغييرات التي حدثت في المجتمع الصيني والفكر الصيني أثناء وعقب الحرب العالمية الأولى مباشرة كانت أعمق وأكثر أهمية من كل التغيرات السابقة منذ حرب الأفيون . ذلك ان الوعي الوطني قد بلغ مرحلة عالية ، وكانت القوى الوطنية تلح في انهاء المعاهدات غير المتكافئة التي أضرت بسيادة الصين ، وان هذه المعاهدات – لو سمح لها بأن تظل سارية فانها ستمكن الاستعماريين بعد الحرب من استغلال امتيازاتهم السياسية والاقتصادية لوقف كل تقدم في الصين .

وأجبرت المطالبة العامة بإلغاء وضع الصين التبعي – الحكومة في بكين على ان تعطي التعليمات إلى وفدها الذاهب إلى مؤتمر الصلح في فرساي لأن يسعى إلى إعادة الصين إلى وضع المساواة بين الدول الأخرى وذلك على أساس حق الأمم في تقرير مصيرها وفق المبادىء الأربع عشرة التي أعلنها الرئيس ولسن وأيدها الحلفاء .

على ان الحلفاء رفضوا مطالب الصين العادلة هـذه مما أثار في الصينيين حركة لم يسبق لها مثيل من حيث مداها ، فلقد أدى إلى دفع كل القوى الوطنية في المجتمع الصيني إلى الصراع المباشر ضد المستعمرين وعملائهم الصينيين .

وفي ٤ مايو عام ١٩١٩ سار طلبة بكين في مظاهرة اتجهت إلى مباني الحكومة وصادف ان كان مجلس الوزراء مجتمعاً بالديبلوماسيين اليابانيين، وبعد ان أطلق البوليس النار وقبض على عدد من المتظاهرين اجتاحت البلاد موجة عارمة من الاحتجاج وقامت المؤسسات الوطنية بعدد من أعمال المقاطعة والاضرابات التي كانت الأولى من نوعها في تاريخ الصين . وفي ٢٨ حزيران « يونيو » استقال الوزراء الذين كانوا هدف المظاهرة وأعلنت حكومة بكين انها لن توقع معاهدة فرساي .

كانت حركة ٤ مايو نقطة تحول للثورة الوطنية الصينية . فقد حدثت بعد ثورة اكتوبر الاشتراكية في روسيا عام ١٩١٧ تلك الثورة التي غيرت مجرى التاريخ فقد أصبح للماركسية اللينينية تجسيد مادي على حدود الصين في روسيا السوفييتية واستطاع الكثير من أبناء الشعب الصيني أن يحكم عليها من خبرة العمل ... فبينما كان الحلفاء المنتصرون في الحرب العالمية الأولى يستأنفون مؤامراتهم من أجل استعباد الصين واستغلالها ... أعلنت الحكومة السوفييتية تنازلها دون قيد أو شرط عن كل الامتيازات التي كانت تتمتع بها روسيا القيصرية من قبل في الاراضي الصينية ... كالحماية والتنازلات والتعويضات و « معاملة الدولة الاولى بالرعاية » . وهكذا فان الوطنيين الصينيين الذين كانوا مصممين على تحقيق استقلالهم الوطني وتقدمهم ، رأوا بوضوح إذا كان الأعداء القدامى يقفون في جانب ، فان الحق والعدالة لا بد أن تكون في الجانب الآخر ...

ويقول شان كاي شك بكتابه : روسيا السوفييتية في الصين ما يلي :

« ... سعى الدكتور صن يات صن في خلال السنوات التالية من تأليف حكومة الثورة عام ١٩١٧ عبثاً للحصول على المساعدة الأجنبية ، فالدول الغربية كانت تصم آذانها عمداً لا سيا وان العديد من بنيها كان يحرص على صداقة الضباط

الذين كانوا يسيطرون على الأقاليم تحقيقاً لمصالحهم الخاصة. اما العسكريون اليابانيون فكان دأبهم تحريض الاقطاعيين الصغار الواحد بعد الآخر تمهيداً لاعتدائهم، فبقيت حالة البلاد تسير من سيىء إلى أسوأ، أما الجمهورية التي أقامها الدكتور صن فقد زالت عملياً من الوجود.

ان نجاح الانقلاب الذي قام به لينين في عام ١٩١٧ لم يؤد إلى قيام نظام جديد في روسيا فقط، بل تراءى كمثال يحتذى لكل نصير لحضارة انسانية في آسيا كما في أوروبا!

ان الاغراء الذي كانت تقدمه الشيوعية الروسية هو في انها تقود الشعوب بنتيجة ثورة عالمية نحو انشاء جنة عدن الجديدة. فجميع أعمال العنف والمظالم كانت تجد مبرراً لها، لأنها سوف تؤدي بعد النصر إلى إقامة دولة مثالية تنتفع من وجودها الانسانية جمعاء!..

وقد وجدت الفلسفة الشيوعية أرضاً خصبة لها في بلدان آسيا حيث زرعت مئة عام من الاستعمار الغربي — الاستياء والكراهية. فاستغل الشيوعيون الروس هذه المشاعر لشن أول هجوم في مخطط الثورة العالمية.

وان الصين التي كانت في حالة شبه مستعمرة نتيجة للامتيازات التي انتزعت منها كانت طريدة سهلة المنال بالنسبة للروس الذين بادروا إلى الاستعداد للتنازل عن حق روسيا المكتسب في الصين، وكان لها أثر عميق في اكتساب عطف الشعب الصيني.

وعندما تأسس الحزب الشيوعي الصيني عام ١٩٢١ سارعت روسيا إلى تزويده بالمال والتوجيهات وطلبت منه الانضمام إلى الكومنتانغ والتقيد بتوجيهات صن يات صن ليحققوا الثورة الوطنية.

وبدأت فترة تعاون و « تعايش سلمي » بين الكومنتانغ والحزب الشيوعي الصيني في الداخل، وبين الصين وروسيا في الخارج. إلا ان هذا التعاون وهذه الهدنة لم يدوما طويلاً...

فلقد سعى الشيوعيون إلى نسف الثورة الصينية وقد توصلوا إلى الاستيلاء على

القارة الصينية وفرضوا على شعبها دكتاتورية مطلقة . » – انتهى قول شيان كاي شيك .

حلف الكومنتانغ والشيوعيين للقضاء على حكم الجنرالات عام ١٩٢٦

✲

لقد كان الكومنتانغ والحزب الشيوعي الصيني الناشىء يعملان على تحقيق « دولة قومية قوية موحدة تسير على النظم الديمقراطية » .

ولقد أصيب « صن يات صن » زعيم الكومنتانغ بخيبة مريرة لنتائج ثورة عام ١٩١١ التي قوضت السلطة القديمة، ذلك أن الجمهورية لم تستطع أن تخلق الدولة الثورية الحديثة التي كان الوطنيون يحلمون بها، والواقع ان صن قد فشل في إخراج أية فلسفة ونظرية اصلاحية فقد كان برنامجه معوقاً بالوضع العام وبأفكاره الغامضة. وما ان جاء عام ١٩٢٣ ، حتى فقد ثقته في الديمقراطية البرلمانية كمثال عملي من أجل المستقبل العاجل للصين ، وبدأ يفكر في فترة من حكم « الحزب الواحد » أو اشرافه على الأقل .

وقد دفعه إلى التمسك بهذا المبدأ نظم الحكم الثلاثة التي اعتمدت على الحزب الواحد والتي ظهرت في ذلك الوقت في روسيا الشيوعية وإيطاليا الفاشية وتركيا أتاتورك ... وقد قوي إعجابه بالدولة التي يسيطر عليها الحزب الشيوعي باستجابته للدعاية المعادية للغرب، والتي كانت تأتي من موسكو . على ان هذه الدعاية لم تجعل منه شيوعياً ، ذلك ان أفكاره الاقتصادية كانت اشتراكية ديمقراطية ومع ذلك فقد كان لروسيا السوفييتية دعاتها في الحزب المنافس الخطير للكومنتانغ كقوة ثورية ، وهو الحزب الشيوعي الصيني الذي ظهر في عام ١٩٢١ . عندما بدأ « شان توهسيو » في تكوين المنظمات الشيوعية بكانتون ، كما كون « لي تاشو » جماعة

أخرى في بكين،اما في اقليم « هونان » فقد بدأ ماوتسي تونغ الذي أصبح يتمتع بنصيب من الشهرة نتيجة لكثرة ألوان نشاطه التنظيمي يساهم في المنظمات العمالية متأثراً في ذلك بالنظريات الماركسية والثورة الروسية . وفي حزيران « يوليو » ١٩٢١ ، تكون الحزب الشيوعي العلني في بكين وكانتون وشنغهاي وهونان . وبدأ الاستعداد لعقد أول مؤتمر للحزب .

ولقد شارك الشيوعيون الكومنتانغ فكرة حكم الحزب الواحد ، على ان الحزبين لم يستطيعا ان يتفقا على : « من منهما الذي يجب أن يحكم » وان اتفقا على هدف مشترك لمقاتلة عدو مشترك يكمن في الجنرالات والضباط الصغار الذين كانوا يسيطرون حقاً على الصين، وكان طبيعياً ان يقوم حلف مؤقت بين الكومنتانغ والشيوعيين لتحقيق الهدف المشترك وهو الاطاحة بأولئك الضباط .

وأيدت موسكو هذا التحالف فأرسلت مندوباً سياسياً محنكاً ليقوم بتنظيم الكومنتانغ على أسس حزبية سليمة،كما قدمت مساعدة عامة لتدريب جيش الحزب وكان على الصينيين الشيوعيين ان يلعبوا دوراً ثانوياً في هذه المهمة لأن دورهم لم يحن أوانه بعد . وفي الكلية العسكرية في كانتون التي قامت بتدريب الضباط للجيش الجديد ، كان آمر الكلية هو شان كاي شك ، وكان مساعده الأول هو « شواين لاي » الشيوعي !!

وما ان حلت سنة ١٩٢٣ وقد سوت روسيا المشاكل الأولى التي واجهت ثورتها وكانت مستعدة للمغامرة في الخارج ... حتى وجدت فرصتها في الصين لمساعدة صن يات صن وتلبية ندائه الذي وجهه إليها بعد ان يئس من الغرب . ولقد كان هدف روسيا هو ان تساعد صن في تنفيذ ثورته على حكم الجنرالات وعلى حكم الاقطاعيين وتربطه بنفس الوقت في تيارها وتحوله إلى معسكرها وتحفر له حفرة حتى تصبح الشيوعية في النهاية مكسب الثورة الوحيد ...

فتعهدت روسيا في سنة ١٩٢٣ بأن تقدم إلى صن يات صن كل مساعدة لازمة لتحقيق براجه الثورية، وفي الوقت ذاته أوعزت إلى الشيوعيين الصينيين بالانضمام إلى الكومنتانغ والتقيد بتوجيهات صن ليحققوا الثورة الوطنية .

ودفع هذا التأييد صن على أن يعلن في نهاية سنة ١٩٢٤ إلغاء الامتيازات الممنوحة إلى الأجانب ودعوة «هيئة شعبية وطنية» إلى الانعقاد ورغبته في الذهاب من كانتون إلى العاصمة بكين. وذكر الأمة بأن الثورة المنسجمة ومصالح الشعب هي وحدها التي تستطيع القضاء على الاقطاعية التي تساندها السلطات الامبريالية، وإعطاء الصين الاستقلال والحرية والوحدة.

وقد كسب صن عطف الأمة بكاملها وذهب إلى بكين غير أن المنية قد عاجلته فتوفي في مطلع عام ١٩٢٥.

لقد كان صن على يقين بأنه يستطيع ان يسيطر على الشيوعيين في الكومنتانغ وكان لينين يعتقد أن صن هو الرجل الذي يستطيع وحده ان يثير الصين ويوقظها ... اما الدول الغربية والجماعات التي كانت تؤيدها فقد كانت تعضد الاقطاعيين والحكام الاقليميين بما فيهم أولئك الانتهازيون الذين كانوا يسيطرون على العاصمة بكين.

وتولى شان كاي شك زعامة الكومنتانغ بعد «وانغ سينغ وي» الذي خلف صن يات صن وعندما وحدت حكومته مقاطعة كانتون في سنة ١٩٢٦ قرر إرسال حملة الشمال للقضاء على حكم الجنرالات الذين كانوا يملكون جيوشاً كثيرة العدد لإخضاعهم للحكومة الوطنية، وحدد هدف الحملة في بناء أمة مستقلة على قواعد مبادىء الشعب الثلاثة وحماية مصالح البلد والشعب.

وأعلنت اللجنة التنفيذية السابقة للأممية الشيوعية بموسكو بياناً قالت فيه: «ان الحماسة وتقدم الجيوش الوطنية السريع وما أحدثاه في نفوس الشعب الصيني إنما يشكلان المرحلة الثالثة من عمليات الثورة العالمية.»

والواقع ان حملة عام ١٩٢٦ التي زحفت فيها قوات الكومنتانغ والشيوعيين شمالاً من كانتون وبدأت تخضع الضباط والحكام الاقليميين الواحد بعد الآخر كانت بداية البداية في تاريخ الصين الحديث فقد انضمت إليها جموع الشعب بسبب الدعاية المنظمة حتى ان التقدم العسكري في كل مكان كانت تؤيده الانتفاضات والثورات الشعبية.

الحرب الاهلية وقيام الجمهوريات السوفياتية الصينية

*

وبينما كانت الثورة الجديدة تمضي في طريقها إلى الحكم في موجة عارمة من الحماس الوطني بدأ العداء الخفي بين الحزبين الثوريين يظهر بالتدريج . وقبل ان يتم الاستيلاء على بكين كان أعضاء الحزبين يقاتل كل منهما الآخر بطريقة وحشية وقاسية، وفي هذا الصراع انتصر حزب الكومنتانغ لأول مرة بفضل شخصية شان كاي شك الذي جمع السلطات بيده فضلاً عن معرفته لأهداف الشيوعيين وأساليبهم ، تلك المعرفة التي اكتسبها أثناء الفترة التي قضاها في موسكو، وعلمته كيف يكتشف الطبيعة الحقيقية للعناصر الشيوعية داخل الكومنتانغ ، فاستطاع بذلك كسب وتأييد معظم الجيش وان يسيطر على كل المدن الكبيرة التي تم الاستيلاء عليها في الحملات العسكرية المشتركة بين الحزبين .

وقد دهش ستالين عند قيام شان كاي شك بأول انقلاب مناهض للشيوعية بعد موت صن يات صن بعام واحد فقط ...

وفي هذه المرحلة أتم الكومنتانغ هدفه من حملة عام ١٩٢٦ بالاستيلاء على بكين ... وبعد ان حول العاصمة إلى « نانكين » حصل على « اعتراف دولي » بحكومته الجديدة على انها الحكومة الشرعية للصين كلها على الرغم من وجود جيوب كثيرة غير خاضعة لحكم الكومنتانغ .

اما الحزب الشيوعي الصيني بقيادة ماوتسي تونغ فقد استطاع – على الرغم من كل ذلك – أن يحتفظ بالجزء الجبلي من جنوب الصين حيث استطاع ان يقود ثورة ناجحة للفلاحين يتحدى بهم الكومنتانغ ويحتفظ بجزء صغير من البلاد .

وفي هونان مركز ثورة الفلاحين ومقاطعاتها الخمس المحيطة بها انتهى ماوتسي تونغ من تجربة خطيرة كانت تعتمل في نفسه طويلاً ، وهي الاعتقاد بأن طبقة الفلاحين هي طليعة الثورة ... وهو يقول : « انا إذ ننبذ هذه الطائفة وننكرها إنما ننبذ الثورة وننكرها ... » وكان هذا تعارضاً شديداً صريحاً مع اتجاه

الماركسية التي تصر على أن الثورة يجب أن تأتي من البروليتاريا في المدينة ... وهي التي لا توجد من الوجهة العملية في الصين .

والواقع ان فلاحي هونان قد علموا « ماو » في عام ١٩٢٦ الأساليب التي حاول بها أن يرسم صورة خاصة للصين بعد ان وصل إلى الحكم في عام ١٩٤٩ وقد كان يطلق على فلاحي هونان «المان الصين» وذهب مثلاً القول: « ان الصين لا تهزم أبداً إلا إذا مات رجال هونان ... » وكان هؤلاء الرجال هم الذين اخترعوا فكرة « الذعر بقرع الطبول » وفتحوا دورات لتعليم الجماهير وغسل عقولها والاجتماعات التي تركز على الاتهامات العامة والاعتراف بالجماعية ... وهذا كله هو جهاز الارهاب الذي طبقه « ماو » بعد ذلك على نطاق واسع !

وتزعم « ماو » حركة الفلاحين وأصبح أول رئيس لاتحاد الفلاحين في الصين كلها، ومع ان المؤتمر الخامس للحزب الشيوعي الصيني قد رفض مقترحاته من أجل الثورة في الريف وأنكر حتى رفاقه منظمته التي ألفها باسم « ثورة محصول الريف » فانه لم يتراجع قط ... لا بل وقد دعمت الأحداث اصالة رأيه وصواب وجهة نظره حين فشلت كل انتفاضات البروليتاريا في المدن والتي حث عليها ستالين،والتي انتهت بإبادة جماعية للشيوعيين في المدن،والتفاف كل القوى المناهضة للشيوعية حول شان كاي شك الذي أقام دكتاتورية في نانكين .

وقد اعترف ستالين بخطل سياسته ولكنه ألقى اللوم على الزعماء الصينيين الشيوعيين الذين طبقوا تعاليمه حرفياً !

ولم يكن « لماو » يد على حد تعبيره سوى « القوة تنبثق من المدفع » فألف من قواته المخلصة جيشاً مؤلفاً من ألف مقاتل وأقام قاعدة ريفية سوفييتية في مكان حصين بين « هونان » ونهر اليانغتسي دون علم وعلى غير رغبة الكومنترن الذي كان يترأسه ستالين ، أو علم ورغبة الحزب الشيوعي الصيني نفسه !

وقام ماو بإعادة توزيع الأراضي في المناطق التي خضعت له على الأسس السوفييتية وأعلن بأنه لن يحرم الفلاحين الأغنياء من الحصول على الأرض إذا أبدوا استعدادهم للتعاون معه،واستخدم نفس التكتيك بالنسبة للأسرى أو الفارين من جيش الكومنتانغ ... ومضى ماو إلى أبعد من ذلك فتحالف حتى مع

قطاع الطرق ليؤلف جيشاً كان يتزايد باستمرار . وكانت أقوى ضربة قام بها هي تحالفه مع الجنرال اللامع « شوته » وهو من السادة السابقين الذين تم اصلاحهم وأصبح المصدر الاول لقوة ماوتسي تونغ .

وفي سنة ١٩٢٩ استغل ماو فرصة انشغال جيوش شان كاي شك الرئيسية في حملاتها العسكرية ضد حكم السادة والجنرالات فتحرك إلى جنوب اليانغتسي واستولى على عدة مقاطعات في جنوبه ، وغربي « فوكين » وفي مطلع عام ١٩٣٠ أعلن رسمياً عن تكوين الحكومة السوفييتية الاقليمية في «جوشين» برئاسته . وفي نهاية العام عندما كانت قوة الجيش الاحمر الصيني تتزايد وبدا واضحاً عجز قوة الكومنتانغ الاقليمية في القضاء عليه باركت روسيا رسمياً تأليف « الحكومة السوفييتية الاقليمية » وانتخبه المؤتمر السوفييتي الاول لعموم الصين رئيساً للجنة التنفيذية المركزية ... وبعد فترة طويلة من النضال الشاق ضد ستالين وخبرائه الصينيين حقق ماو هدفه النهائي فاعترف به زعيماً رسمياً للحزب الشيوعي الصيني .

حرب ابادة الشيوعيين والمسيرة الكبرى

*

عاد شان كاي شك بعد ان أخضع معظم حكام الاقاليم من الاقطاعيين والجنرالات إلى سيطرته ، فركز جهوده كلها للقضاء على الحركة الجديدة النامية ، ويبرر شان كاي شك حملته هذه قائلاً :

« كان واجب الجيش الاحمر تحقيق الثورات الزراعية التي يقودها الشيوعيون الصينيون : فالمجازر والحرائق والسلب والنهب والقلاقل والفوضى كانت تؤلف البرنامج العسكري. أما البرنامج السياسي فكان قتل أصحاب الاملاك وتوزيع الاراضي وتسليح الشعب وإقامة نظام سوفييتي ... وارتأى الشيوعيون ان تقود المدن القرى بشكل لم يعد معه هدف الثورات الزراعية سوى الاستيلاء على المدن الكبرى، حيث حلت مكانها فكرة « حصار المدن عن طريق القرى » ، فاتخذت

وسائل البطش الشيوعية التي ظهرت بإثارة الفتن على الطريقة الروسية – شكل حركات تقوم بها العصابات .

وكانت القرى في الصين تحكم ذاتها بذاتها دائماً على أساس القبائل التي تجمعها رابطة الدم الواحد ... وبعد قرون من العلاقات الودية والتعاون أصبح جميع السكان مرتبطين بروابط الصداقة التي كانت تجمع حتى بين الملاكين ومستأجريهم.. لذلك لاحظ الشيوعيون ان دعاياتهم وحركاتهم الثورية لم تكن كافية لفرض مبدأ صراع الطبقات واشعال الثورات فعمدوا إلى الوسائل الأكثر جذرية التي يعتمدها عادة قاطعو الطرق كالسلب والقتل والخطف فحموا المجرمين وتعهدوهم لقتل الملاكين وأغنياء الزراع وأشاعوا الرعب والارهاب بين الناس واستطاعوا إثارة الحقد بين المستأجرين والملاكين، وكانوا قبل إشعال النار في بيوت الأغنياء يدعون الفقراء إلى نهبها ولم ينسوا ان يهدموا الاكواخ حتى لا يبقى أمام الفقراء الذين حرموا مساكنهم إلا أن ينضموا إلى عصاباتهم المتنقلة ... وأخيراً فان الشيوعيين لم يكونوا يستخدمون أقل من اثنين وسبعين وسيلة مختلفة من وسائل التعذيب..»
– انتهى قول شان كاي شك .

والغريب ان شان كاي شك لم يشر إلى خطر الغزو الياباني الذي كان قد بدأ في شهر ايلول « سبتمبر » عام ١٩٣١ حين أمر جيشه في شمال الصين بأن لا يقاوم اليابانيين بل ينسحب إلى الجنوب ، وقال :

« يجب علينا أولاً أن نوحد شعبنا بتصفية عصابات المتمردين الشيوعيين المسلحين » !

وفي السنوات الثلاث التي أعقبت ذلك كان اليابانيون يحتلون الاقاليم الثلاثة في شمال شرقي الصين « شمال شرقي النهر الأصفر » بينما كانت جيوش شان كاي شك تحيط بقاعدة الجيش الأحمر لإبادة من فيها .

وما بين عام ١٩٣١– ١٩٣٤ شنت جيوش الكومنتانغ خمس حملات إبادة على الشيوعيين ، موجة اثر موجة كل واحدة منها أقسى من سابقتها ، وانتهت بالنسبة للشيوعيين بالزحف الكبير – أو المسيرة الكبرى المعروفة في تاريخ الشيوعية في

الصين .

وكانت الحملة الخامسة هي الحاسمة فقد عبأ شان كاي شك في سنة ١٩٣٣ - ١٩٣٤ مليوناً من الرجال واحتفظ باحتياطي قدره أربعمائة ألف جندي لمهاجمة الشيوعيين على حين تم تدعيم ثلاثة خطوط من التحصينات أحاطت بالقاعدة الشيوعية .

لقد كانت الخطة تدعو إلى اليأس بالنسبة للشيوعيين ، فلم يكن بالمستطاع رد جيوش الكومنتانغ الحاشدة وكان السبيل الوحيد لماوتسي تونغ هو النكوص إلى الداخل حيث يمكن إقامة قاعدة سوفييتية جديدة في ظروف أفضل . وقد اتخذ ماوتسي تونغ قراره هذا اثر تقرير قدمه له شواين لاي يقول فيه : « ليس لدينا طعام يكفي فترة الشتاء . ولدينا الآن من العتاد ما يكفي فقط من أجل القيام بهجوم واحد قوي . والامدادات لا يمكن ان تصل إلينا ... ونحن لا نستطيع ان نخرج ... » وأجاب ماوتسي تونغ وهو يبتسم :

- لقد قررت أن نخرج .

ونظر « شوته » إلى خارطة الصين وقال : ولكن من أين سنخرج ؟

فأجاب « ماو » : نمضي إلى الشمال ... إلى التلال فيما وراء النهر الأصفر . ان اليابانيين هناك وشان كاي شك ليس له أصدقاء في اقليم « شانسي » ولسوف نحصل على الطعام ونواصل القتال ...

ونظر « شوته » إلى الخارطة وتطلع إلى « ماو » وقال: ولكن اقليم «شانسي» يقع على بعد ستة آلاف ميل ، فكيف نصل إلى هناك ؟

وهنا وقف «ماو» ورسم بقدمه خطاً على الخارطة وقال : سنسير ! وزحف الجيش الأحمر وكان زحفه أكبر مخاطرة عسكرية في القرن العشرين . وتمت حركة التراجع ليلاً إذ تجمع مائة ألف من الرجال في الجنوب وفي ٢٩ تشرين الأول «اكتوبر من عام ١٩٣٤» وفي ضربة عنيفة مباغتة تسللوا عبر خطوط الاستحكامات والمعاقل التي شيدتها جيوش الكومنتانغ المحاصرة وعن طريق خمس فجوات أحدثوها تدفقت « الجمهورية السوفييتية الصينية » كلها.. حيث بدأ الزحف الطويل. وحملت مئات الآلاف من عربات الفلاحين والخيول والأسلحة والذخيرة

والآلات وما يمكن حمله من طعام وفضة وحبوب وآلات طباعة وكتب ... وانتزع من مدن الصين السوفييتية كل شيء قد يكون مفيداً وقد يستطاع حمله وتحرك الجميع من عائلات رجال الجيش الأحمر وموظفي الحكومة والأطفال والنساء والعجائز .

وكان الجيش الرئيسي في الزحف بقيادة ماوتسي تونغ لفترة سنة كاملة عرضة للغارات الجوية التي لا تنقطع وكانت مئات الآلاف من جنود الكومنتانغ يتعقبون هذا الجيش الأحمر ويضعون أمامه العراقيل ويحيطون به ، وبالإضافة إلى ذلك كان عليهم أن يقاتلوا جيوش عشرة جنرالات في إحدى عشرة مقاطعة . وكانت المسافة التي قطعوها تبلغ ثمانية آلاف ميل ، وكانت المخاطر الطبيعية أكثر قسوة وعنفاً، فقد عبروا ثاني عشرة سلسلة من الجبال وأربعة وعشرين نهراً «لا جسور عليها » وكثيراً من الصحارى والأحراش وست مناطق يسكنها أناس متوحشون معادون .. وقد دخل هذا الجيش في أكثر من مائتي معركة ولم يكن يمر يوم دون أن يحدث قتال وقطع هذا الجيش ٨٤٠٠ كيلومتر سيراً على الأقدام!

وفيما كان الجنود الشيوعيون يسيرون زحفهم الطويل هذا .. كانت مسارحهم تعمل ، وكانت هناك لافتات تحمل شعارات تحرر العبيد وإلغاء الضرائب ونزع أراضي الملاك وإعادة توزيعها وقبل أن يغادر الجنود أي منطقة كان يتم تنظيم وحدات من العصابات ويترك هؤلاء مع قادتهم في المناطق .

وقد مات ثمانون ألفاً من المائة ألف أثناء هذا الزحف الطويل ما بين قتيل أو غريق أو مريض بوباء ، أو جائع .

وكانت الخطوة الأخيرة عبر مناطق الحدود بين الصين والتيبت شاقة جداً ولم يكن لدى الجيش ما يأكله سوى الخضروات الفجة .

وفي ٢٩ تشرين الأول « اكتوبر » عام ١٩٣٥ وصل الذين عاشوا إلى شمال مدينة « شانسي » بالقرب من حائط الصين العظيم ... وانتهى الزحف الطويل بقيادة ماوتسي تونغ الذي تعرض لهجمات سياسية خطيرة ضد قيادته وزعامته وجهها إليه أعوان ستالين من الصينيين واستطاع ان يبقى رغم هذا كله ... وأعلن بعد أسابيع قليلة من انتهاء الزحف قائلاً :

« ان لهذا الزحف دليلاً واضحاً فهو يعلن للعالم ان الجيش الأحمر جيش من الأبطال وان الاستعماريين ومطاياهم من شان كاي شك وأمثاله أناس حقيرون وهذا الزحف يعلن عن افلاس التطويق والمطاردة والاعاقة وكل المحاولات التي قام بها الاستعماريون وشان كاي شك !

والزحف الطويل يعتبر عنوان اثارة ، فهو يعلن لشعوب إحدى عشرة مقاطعة ان طريق الجيش الأحمر يؤدي إلى تحررها فبدون الزحف الطويل كيف كان يمكن للجماهير ان تعرف بسرعة ان هناك مثل هذه الآراء العظيمة في العالم مثل تلك التي يتمسك بها الجيش الأحمر ؟

ان الزحف الطويل آلة لبذر البذور وقد ألقى بالبذور الكثيرة في احد عشر اقليماً، وسوف تنبت هـــذه البذور وتبزغ في زهور وورود وتحمل الثمار وتنتج المحصول في المستقبل . » — انتهى قول ماو .

عندما انتهى الزحف الطويل في شتاء عـام ١٩٣٥ بدأ مصير الجيش الشيوعي والثورة السوفييتية الصينية مضطربين غير مستقرين ومع ذلك ففي عام ١٩٣٦ كان ماو — ابن الفلاح — يسيطر على عشرة ملايين نسمة على الرغم من ظروفه السيئة جداً ، فلقد كانت القاعدة وهي أكثر مناطق الصين تخلفــاً عبارة عن كهوف ومغاور في أقصى شمال الصين،وكان حزب الكومنتانغ المسيطر على معظم أراضي الصين يعمل ضده على حين رفض ستالين والكومنترن أن يؤيداه ، وبينما كانت أغلبية الجيش الشيوعي الصيني بعيدة عن سلطانه وإشرافه ...

ومع كل ذلك فقد كان ماوتسي تونغ ينشىء معاهد الجمهورية التي كان عليها أن تخرج زعماء المستقبل، وكان يشعر بثقة مطلقة في المستقبل فخطط وعمل لتصبح قاعدته قوية حتى يمكن أن تواجه تحدي الأعداء ... ثم ليهاجم منهـــا اليابانيين الغزاة ، وينتصر على شان كاي شك في عشرة أعوام ... أو عشرين عـــاماً ... وجاوز تخطيطه كل هذه المراحل فرسم الخطوط الرئيسية لإعادة تشكيل الصين كلها بعد هذه الانتصارات !..

لقد كان هذا العملاق الجبار يعتقد بهدوء وقوة وهو كامن في كهوف «شانسي»

ان كل الأفكار التي تتعلق بالطبيعة وهدف الانسان – كما تؤمن بها الانسانية – خاطئة ، وان الصين الظافرة سوف تقود كل البشرية في تطوير الجنس البشري وإعادة تشكيل معتقداته... وكذلك في تطوير ما قام به الانسان .

وبدأ رجال الزحف الطويل في شانسي يعدون أنفسهم لعمل المستقبل، فعاشوا جميعاً بظروف حياة متأخرة جداً يرتدون لباساً واحداً ويأكلون طعاماً بدائياً متشابهاً وكان زعماء الحزب وقادة الجيش وضباط الصف والفلاحون يحيون الحياة نفسها ويقاتلون نفس المعارك ويرتبطون ببعضهم البعض برباط أخوي وثيق ، وقد صهروا في جماعة واحدة فأصبحوا جزءاً لا ينتمي لطبقة بذاتها ولم تكن القنابل اليابانية تستطيع ان تسهم في مدينتهم ذات الكهوف كما ان الايدولوجية البورجوازية لم تكن تصل إلى عقولهم !..

الغزو الياباني عام ١٩٣٧ـ١٩٤٤

*

في ٧ تموز « يوليو » عام ١٩٣٧ شن الجيش الياباني هجومه على « لوكوشياو » على ساحل الصين القريب من العاصمة بكين وبعد بضعة أيام من الحرب العنيفة احتل ضواحي بكين ، وفي أواسط اغسطس شنت القوات البرية والبحرية هجومها المشترك على شنغهاي حيث صدتها القوات الصينية لمدة ثلاثة أشهر قبل ان تستسلم .

وحاولت طوكيو ان تنزل بالصين إلى مستوى المستعمرة الكاملة ، خارقة حتى تقاليد السيطرة شبه الاستعمارية . فواجه الشعب الصيني أكبر أزمة في تاريخه كله .

وفي الداخل حاول شان كاي شك ان يقوم بعمل مستحيل وهو مواجهة العدو بجزء من جيوشه والاحتفاظ بباقي قواته لصد تيار الحزب الشيوعي الصيني المتنامي . وفي المجال الدولي لم يصب أي نجاح في استغاثته بعصبة الأمم وسد

الانكلو-الأمريكان وحلفاؤهم آذانهم فلم يعملوا شيئاً إزاء العدوان الياباني الظالم.

وأسوأ من هذا كله ان شان كاي شك قد رفض ان يتحد مع الشيوعين ضد اليابانيين ... ولكن بعد ان اعتقل اضطر ان يوافق على إنهاء الحرب الأهلية وتأليف جبهة متحدة. ويقول هو نفسه بكتابه : « الاتحاد السوفييتي في الصين » ما يلي :

« على اثر الحرب الصينية اليابانية أذاعت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني بياناً قالت فيه انها مستعدة لحل الأزمة الوطنية العالقة على باقي أجزاء الأمة . وقد صيغ البيان في أربع نقاط :

١ — لما كانت مبادىء الشعب الثلاثة التي أعلن عنها الدكتور صن يات صن تتجاوب وحاجات الصين فان الحزب الشيوعي الصيني سوف يناضل من أجل وضعها موضع التنفيذ .

٢ — يتخلى الحزب الشيوعي الصيني عن سياسة الثورات المسلحة وصبغ كل شيء بالصبغة السوفييتية وهي الأمور التي يوجهها ضد الكومنتانغ ويتوقف عن تطبيق برنامج مصادرة الأراضي بالقوة .

٣ — يلغي الحزب الشيوعي الصيني الحكومة السوفييتية القائمة ويمارس من الآن وصاعداً الديمقراطية لتوجيه السلطة الادارية في البلاد .

٤ — يتخلى الحزب الشيوعي الصيني عن تسمية قواته العسكرية بالجيش الأحمر ويدمجها بقوات الثورة الوطنية ويضعها تحت سلطة المجلس العسكري الوطني للحكومة الوطنية وينتظر أوامر الذهاب لمقاتلة اليابانيين . »

ويعلق شان كاي شك على هذا البيان قائلاً :

« وبما ان الشيوعيين الصينيين قد تركوا نظرياتهم السابقة واعترفوا بأهمية الاستقلال الوطني ومصالح الأمة ، فاننا نأمل أن ينفذوا تعهداتهم بإخلاص ...

« وأنا بذاتي قد نظرت إلى الأمر بكثير من التفاؤل وقد أدى هذا الخطأ إلى نتائج فاجعة فقد برهن الشيوعيون انهم لا يعترفون بذرة من الولاء أو الإخلاص نحو الوطن وليس لديهم أي ضمير قومي ... »

« ... فلقد ألقى ماوتسي تونغ الخطاب التالي نصه في جيوش « يينان» عندما تلقى « شوته » الأمر في خريف عام ۱۹۳۷ لترك « شانسي » مع الجيش الثامن :
« ان الحرب الصينية - اليابانية تقدم للشيوعيين الصينيين فرصة ممتازة لزيادة قواهم ولسوف تكرسون ۷۰ ٪ من جهودكم في سبيل تقدمنا ، ۲۰ ٪ للحكومة ، ۱۰ ٪ لمحاربة اليابانيين ... »

وهكذا نرى ان شان كاي شك بينما كان يبدو أمام الجميع كرئيس لدولة من شعب متحد يحارب من أجل بقائه ... فانه ظل محتفظاً بنظرته القديمة، فكان يفكر ويتصرف في حدود المصالح الضيقة لزعامته الآفلة ، على حين أن الشعب الصيني تلقى نداء الحزب الشيوعي بأمل اليائس الذي يحارب الغزاة المستعمرين بآخر سلاح يمتلكه، خاصة وان الكومنتانغ لم ينفذ الاصلاحات التي وعد بها وقد تملكه الغضب من ديكتاتورية شان كاي شك ولذلك لم يعر أذناً صاغية لحملاته على الشيوعية خاصة بعد أن وجدوه يتهاون مع الغزاة اليابانيين ، وقد قبض بوليسه على آلاف لا حصر لها من الذين يقومون بنشاط معاد لليابانيين ... وانه منذ بداية عام ۱۹۳۹ فصاعداً لم يقم عملياً بحرب فعلية ضد اليابانيين بل كان يفضل تركهم يركزون مواقعهم ضد الجيوش الشيوعية الصينية وأوضح مثل على هذا هو انه ظل طوال أربع سنوات ونصف من بعد الهجوم الياباني على الصين عام ۱۹۳۷ دون ان يعلن الحرب على اليابان ولكنه أعلنها عليهم بعد يومين فقط منهجوم الأسطول الياباني على قاعدة الولايات المتحدة الأمريكية في « بيرل هاربر » في ديسمبر عام ١٩٤١، وحتى في هذا الوقت فان خطته هي أن يظل صامداً حتى تنقذه أمريكا من اطماع اليابانيين ... ومن قوى الشيوعيين الصينيين الشعبية أيضاً لأنه كان يعتبر أمريكا القوة الدولية التي لا تقهر أبداً ...

وفي هذه الأثناء كانت قوة الشيوعيين ونفوذهم وهيبتهم وامكانياتهم تتضاعف باضطراد ، وفي الفترة التي رفع فيها الكومنتانغ الحصار عنهم ... كان كل شيء يتدفق على قاعدتهم المركزية التي أطلق عليها اسم اقليم الحدود فجاءت الأموال والمواد والآلات والأسلحة والدواء والمدربون لينضموا إلى ماوتسي تونغ

وأصبحت القاعدة الشيوعية اسطورة الصين .

وكان الهدف الذي سعى إليه « ماو » هو أن يستفيد معظم سكان الريف من الاصلاحات التي جاءت بها جيوش الطليعة المناهضة لليابانيين والتي كانت تابعة له .. وكانت حصيلته من ذلك ان جماهير الفلاحين التي كانت تعيش وراء الخطوط اليابانية تقبلت تعاليم الشيوعيين وتوجيهاتهم وقدمت المساعدة التي تستطيعها لعمليات حرب العصابات التي كان يوجهها ماوتسى تونغ .

وكان هذا أعظم انتصار للشيوعيين على الكومنتانغ في معركة قامت من أجل عقول وقلوب الفلاحين الصينيين . فقد كان ماوتسي تونغ – بجمعيات الفلاحين التابعة له والحرس الشيوعي من الفلاحين ومجالس القرى – أول ثائر صيني نجح في إقامة استراتيجيته الثورية على أساس قاعدة الهرم الاجتماعي، وقد كسب معركته من أجل الفلاحين لأنه عاش وتكلم وشعر بما يشعر به الفلاحون .

وفي نهاية الحرب ضد اليابان كان هناك ٢٫٥ مليون من رجال الميليشيا الشيوعيين الفلاحين في الصين كلها ... وكانوا يحاربون عندما يستدعي الموقف العسكري ، كما أن روابط الولاء والصداقة للشيوعيين عمت جزءاً كبيراً من الريف الصيني بروابط لابيروقراطية أو استبدادية .

وعندما ألقيت القنبلة الذرية على هيروشيما كان ماوتسي تونغ رئيس دولة تتألف من تسع عشرة منطقة كبيرة متحررة تضم قرابة مائة مليون نسمة ... وكانت القوة الكلية للجيوش الشيوعية أكثر من ثلاثة ملايين جندي محارب ... وعلى نقيض ذلك نجد أن الكومنتانغ في الشهور الثمانية الأولى من عام ١٩٤٤ خسر أكبر جزء من الأقاليم الستة التي كان يحكمها وتركه لليابانيين ، كما خسر أكثر من نصف مليون جندي . ومع ذلك فقد كانت أمريكا – وحتى ستالين – ما تزال تؤيد شان كاي شك .

الحرب الاهلية الشاملة

*

وانبثق موقف تصرف فيـه كل رؤساء الدول المتحالفة المنتصرة على أسس خاطئة ... فأساؤوا الحكم على موقف الحزب الشيوعي الصيني وقوته وأهميته ، فبعد ان استسلمت اليابان ، هجم ستالين على منشوريا بقسوة وقضى على كل ما لم يستطع أن يأخذه . وبعثت الولايات المتحدة بالمساعدات إلى شان كاي شك وأقام الجنرال مارشال رئيس البعثة الأمريكية في الصين أمله على أحزاب سياسية أخرى وأهمها القوة الثالثة التي كانت تمثلها الجمعية الديمقراطية الصينية ... وهي حزب من أنصار الديمقراطية البرلمانية على نمط الديمقراطية الغربية ، وكانت تحظى بتأييـد الطبقات المتوسطة وتأييد الذين اختبروا دكتاتورية شان كاي شك وفساد حكمه وإرهابه ... ومع ذلك لا يريدون ان يعيشوا في ظل حكم الشيوعيين . على ان الجمعية هذه لم يكن لها جيش !!

ولما يئس الجنرال مارشال من وساطته ... اندلعت الحرب الأهليـة مرة أخرى على شكل حرب شاملة بين الصين الحمراء وصين شان كاي شك وذلك فيما بين عام ١٩٤٥ وعام ١٩٤٩ . وجاءت الأسلحة الأمريكية والدبابات والطائرات وكل أنواع الذخائر والمؤن ومئات ملايين الدولارات إلى شان كاي شك الذي قام بآخر وأعظم حملة للابادة ركزها على المـدن ، في حين كان خصمه ماوتسي تونغ يعود إلى القاعدة التي لا ينضب لقوتها معين .. إلى الريف الصيني الذي انتشر نفوذه فيه.. فاستولى ماوتسي تونغ على عتاد أمريكي يصل ثمنه إلى ألفي مليون دولار.

وبعـد حرب شاملة دامت قرابة ثلاثة أعوام حقق ماوتسي تونغ النصر تلو النصر بفضل المواطن الصيني وبفضل الأسلحة الأمريكية التي كان يستولي عليها من قوات الكومنتانغ !

ولعل آخر سهم وجهه مارتسي تونغ لحكم الكومنتانغ الذي بدا له أنه يترنح ويلفظ أنفاسه الأخيرة ان وجه نداء للشعب يؤكد فيه أهمية « الجبهة المتحـدة

الثورية » بعد النصر الشيوعي . وكان الحزب الشيوعي على استعداد لتشكيل حكومة ائتلافية على أن تعترف كل الجماعات والأحزاب الديمقراطية بالزعامة الشيوعية .

وكان لتعميم نشر هذا البرنامج في أرجاء البلاد الصينية أثره البالغ في اضعاف المقاومة المتصدعة لقوات الكومنتانغ التي اتبعها ماوتسي تونغ بهجوم استراتيجي مركز فكانت موجات المد للجيوش الشيوعية تشمل الصين كلها حيث يلتقون بالمنظمين السريين التابعين لهم ليؤلفوا فوراً مجالس للقرى مطعمة بممثلين من الطبقات الديمقراطية الأخرى .

واستخدم أتباع ماوتسي تونغ أساليب جديدة، فقد كانوا أولاً يقومون بعمليات الاثارة ثم يواجهون المطالب المحلية التي كانت تلقائية ومن ثم كان هدفهم هو أن يقنعوا السكان المحليين بأن الشيء الذي عليهم أن يقدموه هو النظام والأمن بعد عشرات السنين من الفوضى والخطر، وكذلك الادارة الأمينة بعد فساد الكومنتانغ ، والتنمية الاقتصادية بعد التضخم المخيف .

وكان عام ١٩٤٨ في المناطق الخاضعة للكومنتانغ مرعباً ومخيفاً فانتشرت المجاعة والعوز والمرض والبؤس وأصبحت حياة الناس كابوساً ... إذ كانوا يحملون سلالاً مليئة بالأوراق النقدية التي تهبط قيمتها كل نصف ساعة في الوقت الذي جمع فيه المضاربون ثروات هائلة عن طريق أولئك الذين حصلوا على كل أنواع الاحتكارات والتسهيلات من حاشية شان كاي شك .

وقد استطاع الشيوعيون – عندما عرضوا الأعمال العامة الهامة على غير الشيوعيين من الذين قدموا خدماتهم في حماسة وطنية عظيمة –أن ينجحوا في خلق انطباع عام بأن الحكم يقوم على أساس الأحزاب المتعددة ... وكانت دعايتهم الطاغية تغطي أحكام الاعدام التي صدرت ونفذت في مئات الألوف من أعدائهم من غير الشيوعيين الذين وصفوا بدقة وبراعة بأنهم جواسيس لليابانيين أو من الحكام الأشرار !

وبدأ في ذلك الحين تنفيذ سياسة جديدة خاصة بالمدن وتنميتها فقدموا

مساعدات عاجلة لأصحاب المصانع المستقلين وللتجار وأصحاب رؤوس الأموال الصغيرة والمتوسطة ... واتخذوا من هذه الاجراءات سلاحاً مؤثراً للدعاية ، نشرت في المناطق التي ما زال الكومنتانغ يسيطر عليها .

وقد اتضح ان هذه الأعمال – التي تقوم بها الادارة المدنية للجيش الأحمر الصيني – فعالة ومجدية في الحرب النفسية ، فتصدعت على الفور قوة الكومنتانغ ونفوذه إلى درجة ان أكبر وآخر حملة قام بها شان كاي شك في الشمال خسر فيها نحو نصف مليون من الرجال ، واستسلمت الأغلبية الساحقة من قوات الحكومة دون قتال ، وخضعت شمال وشرق الصين بأسرها للجيش الأحمر .

وفي اليوم الثالث من شهر شباط « فبراير » عام ١٩٤٩ دخلت قوات ماوتسي تونغ إلى بكين .

وتحرك شان كاي شك إلى آخر معقل له في البلاد – إلى كانتون حيث كانت قواته تشغل غربي الصين الذي كان أكثر المناطق تخلفاً من الوجهة الاقتصادية في البلاد . وكان السفير الأجنبي الوحيد الذي تبعه هو سفير الاتحاد السوفيتي !

وبعد ان تقدمت قوات الجيش الأحمر الصيني في جبهة واسعة جنوب نهر «اليانغتسي» أعلنت جريدة «البرافدا» في موسكو فجأة : انهيار نظام الكومنتانغ الرجعي .

وأصبح ماوتسي تونغ سيد الصين كلها دون أية مساعدة من الخارج « ولم ينس هذا مطلقاً ... »

مولد الصين الجديدة

ولقد استيقظ العملاق واعلن ماوتسي تونغ الزعيم الشعبي للصين الجديدة الموحدة – لمئات الألوف من مواطنيه الأحرار – وهو يتحدث في اعتزاز وطني لا حد له ، من فوق منصة « تيان آن من » أي بوابة السلام السماوي في بكين ، أعلن : « ان بلادنا لن تكون مرة أخرى بلداً يتعرض للاهانة والمهانة.. لقد وقفنا على أقدامنا».

دعوا هذا العملاق يغط في نومه.. والويل للعالم اذا استيقظ هذا العملاق ...

نابليون

أجل ! لقد انتهت الصين القديمة بمولد الصين الجديدة ... وهذا التحول لم تأت به معجزة سماوية ولا شيوعية، فلقد ماتت الصين القديمة تدريجياً خلال السنين الأخيرة لحكم أباطرة « المانشو » وخلال الحرب الأهلية بين لوردات الحرب والكومنتانغ وقد دامت اكثر من مائة عام وكان يحتمل أن تطول فترة الموت البطيء ، ولكن الشيوعيين عجلوا به بطرحهم اعتبارات محددة للنظم الجديدة مكان القديمة التي كانت مجرد خشب يابس ينتظر النار . وفي الماضي كانت الصين محافظة رجعية موغلة في الرجعية والاقطاعية ، وكان أهم أعمال الحكومة أن تمنع التغيير ... اما اليوم فان الحكومة تدفع الدولة بعنف كأنما تريد اللحاق بالقرن القادم من خلال الحقبة الحالية .

وعندما قام زعماء الصين الجديدة في عام ١٩٥٠ بإعادة تطوير الصين كان لديهم – الصيغة العامة – معدة للسنوات العشرين التالية، وقد افترضوا انهم بعد أن

يستولوا على الحكم - انهم قادرون على جعل فترة الانتقال إلى الاشتراكية في وقت أقل مما استغرقه زملاؤهم السوفييت . هذا بالرغم من حقيقة ان الصين كانت في عام ١٩٤٩ أكثر تخلفاً من روسيا في عام ١٩١٧، ثم ان الأحداث التي وقعت في السنوات الاثنتي عشرة التالية لمجيئهم إلى الحكم تظهر انهم في عجلتهم ولهفتهم تجاهلوا حتى مشروعاتهم التي تتسم بالحكمة والاعتدال ... مما اضطرهم إلى استخدام القوة المجردة للاسراع بمراحل الانتقال المتعددة التي فرضتها عليهم الظروف أحياناً .

وكان هناك عامل له شأنه في اتخاذهم الحلول المتطرفة ... ذلك ان العالم الخارجي قد امتنع عن الاعتراف بالحكم الجديد على الرغم من توحيده للبلاد وتأييد معظم الشعب له ... فاضطرتهم عزلتهم الدولية إلى أن يقيموا روابط دولية فقط مع الكتلة السوفييتية ... ولم يستطع ماوتسي تونغ ورفاقه أن يغفروا للعالم « الحر » عدم اهتمامه بالصين الجديدة ... وتحول غضبهم وثورتهم على أولئك الذين يقفون في سبيل الاسراع بجعل الصين دولة قوية حتى يضطروا العالم إلى الاعتراف بها ... وهكذا تحول الغضب والثورة إلى شعب الصين .

ففي عام ١٩٥٠ عندما بدأت الحكومة الجديدة في اعادة تطوير الصين كانت هناك جيوب من مقاومة العصابات... وقد كانت هناك ملايين تنتمي إلىالطبقات المعادية للشيوعية، والتي لا تكمن في بنادق رجالها المسلحين فقط بل في ملايين القلوب . وللقضاء على هذه المقاومة عمد ماوتسي تونغ إلى استراتيجيته القديمة التي صاغها بهذا المبدأ : «استغلوا المتناقضات لتكسبوا الأغلبية إلى صفوفكم،وعارضوا الأقلية واسحقوا الأعداء مجزئين » . ولكن أعداء اليوم لم يكونوا جميعهم أعداء الأمس، فهم اليوم عبارة عن طبقات متعددة،وكذلك الطوائف وجماعات الشعب الصيني ... وحاول ماوتسي تونغ بتكتيكه الذي يقوم على أساس « الصدمات » ان يعمل على اضطراب الدفاع النفسي للشعب كله . وقد استطاع وهو يخرج - الدعوة بحياة أفضل - بالتهديد والوعيد ان يجعل الشعب في حال تقرب من الهيستريا .

وبعبارة أخرى فقد اتبعت في هذه الفترة بالذات استراتيجية سماها ماوتسي



الاربعة الذين يحكمون الصين ، من اليمين : ماوتسي تونغ . شوته . ليوشاوشي . شواين لاي

تونغ : « استراتيجية الثورة المستمرة التي لا يقطعها شيء ».

وكانت مهمة الثورة العاجلة تتركز في اعـــادة « بناء الاقتصاد الوطني » إلى مستواه الذي كان عليه قبل أن يدمره المستعمرون اليابانيون،وتدمره الحروب الاهلية الطاحنة التي انتهت بانسحاب جيوش الكومنتانغ من البر الصيني ... إلى جانب تحرير الاقتصاد الوطني من نفـوذ المستعمرين السابقين ، ومن الرأسماليـة الأجنبية والوطنية على حد سواء .

وكانت الاشارة الأولى التي عرفها الشعب عما ينتظره في المستقبل قد جاءت مع حركة الاصلاح الزراعي التي تقدمت على غيرها لمساسها بحياة أكثريته،ولأن تاريخ الصين هو تاريخ فلاحيها ، وحضارة الصين قائمة على اقتصاديات بلدها القاري الذي لم يكد يستغل طوال تاريخه الطويل سوى الأرض .. فضلاً عن أن الكوارث التي حلت بشعب الصين وتتابعت على مر القرون كان منشأهـــا فيضانات الأنهر أو الجفاف إلى جانب سوء التنظيم الزراعي .

*

وقبل أن أتابـع البحث فيما حققته الحكومة الجديدة ـ بعد ميلادها من انجازات لخلق مجتمع صيني متطور ، وللاسراع بمراحل الانتقال لجعل الصين الجديدة دولة اشتراكية قوية عن طريق إعادة بنائها من جديد ...

أعود إلى رحلتي من بغداد إلى الصين لأتحدث قليلاً عن مشاهداتي وانطباعاتي واستنتاجاتي لما شهدت وسمعت وأحسست لأستكمل الصورة التي توخيت رسمها في هذا الكتاب دون ان أتقيد بالترتيب الموضوعي ، أو بالتسلسل الزمني لرحلتي.

من بغداد الى بكين

- مستعمرة هونغ كونغ
- كانتون ـ بكين

مستعمرة هونغ كونغ

✡

صورت لنا قصص ألف ليلة وليلة رحلات ومغامرات السندباد — وهو أحد مواطنينا العراقيين قبل أكثر من ألف عام، فوصفت السرعة الخاطفة التي كان يتنقل بها من جزيرة إلى أخرى.. بطيرانه على أجنحة النسور أو تعلقه بأرجلها ليحط رحاله في نهاية المطاف على أرض الصين .

> **تعالوا ... وشاهدوا ...**
>
> شوابن لاي

على ان طيراننا اليوم لم يسبق النسور ، ولا الرياح فحسب ، بل جاوزه إلى سباقه مع الوقت كذلك ، فلقد طوينا بطيران مستديم في ثماني عشرة ساعة أكثر من سبعة آلاف كيلومتراً ، ورجعنا إلى الوراء نصف نهار كامل بسفرة مريحة ممتعة ، فوصلنا « هونغ كونغ » في صباح اليوم التالي من رحيلنا من بغداد ، وبتعبير آخر فلقد وصلناها في منتصف ليلة سفرنا حسب توقيت بغداد .

ولم يسعفنا الوقت في بغداد لنحصل على تأشيرة دخول المستعمرة البريطانية هونغ كونغ من السفارة البريطانية ، على ان موظفي المطار الانكليز والصينيين لم يمانعوا من منحنا حق إقامة وقتية في هونغ كونغ .. فانتقلنا بصحبة ممثل جمهورية الصين الشعبية الدائم في المستعمرة الذي استقبلنا في المطار إلى أحد الفنادق المركزية في المدينة حيث بتنا ليلتنا قبل استئناف السفر إلى الصين في اليوم التالي.

تتألف مستعمرة هونغ كونغ – أو عاصمة المقاطعة على وجه أصح من مدينتين وعدد من القرى : الجزيرة هونغ كونغ ، وكاولون الواقعة على البر الصيني ، ويفصلهما مضيق بحري بعرض البوسفور في استامبول . ويقع المطار في البر الصيني، وتبلغ مساحة الجزيرة ٢٩ ميلاً مربعاً .

ويقطن مدينتي هونغ كونغ وكاولون وقرى المقاطعة الملحقة بها نحو ثلاثة ملايين نسمة ، ٩٩ ٪ منهم صينيون . ولا تختلف المدينتان في مظهرهما عن أرقى وأكبر مدينة أوروبية بشوارعهما المقامة عليها العمارات العالية الفخمة ، وبالحدائق الغناء والمواصلات الحديثة ، والمخازن المليئة بجميع أنواع البضائع الواردة من جميع أطراف الدنيا . وأسعار البضائع في هذه المستعمرة أرخص منها في أي بلد آخر في العالم، بما في ذلك البلاد التي صدرتها ، لأن الرسوم الجمركية ضئيلة جداً .. فالمستعمرة ميناء حر للاستيراد والتصدير .

والمدينتان محاطتان بجبال خضراء متناثرة ، تمتد بعضها في البحر كرؤوس التنينات [١] ، وتكون مناظر جميلة خلابة لا نظير لها في الدنيا إلا فيما ندر .

وميناء هونغ كونغ يعد من أكبر موانىء الصين الجنوبية . وتجارة الصين مع الدول الأجنبية – وعلى الأخص مع تلك الدول التي وضعت بعض القيود على التصدير إليها أو الاستيراد منها – تعتمد كل الاعتماد على ميناء هونغ كونغ الذي هو بيد البريطانيين وبتعبير أصح ، فان اتفاق المصالح لكلا الفريقين ، قد جعل من هونغ كونغ مركزاً كبيراً للتهريب بين بعض الدول الخارجية وبين الصين الشعبية ، كما وان موقعه الجغرافي يحول دون تدخل عدواني مسلح ضد القوافل البحرية التجارية من قبل حكومة شان كاي شك في فرموزا « تايوان » .

---

١ ـ جمع تنين والتنين حيوان خرافي مقدس لدى قدماء الصينيين ، ولقد اتخذوه شعاراً لهم بوصفه تجسيداً لجنيات الماء، فتخيلوه راقداً في قيعان الابار والبحيرات والانهار والبحار، يوقظه الرعد فينطلق صوب الشمس ، وتنجب انفاسه سحباً تمتطيها ، فبسبب ضغط اجسامها على تلك السحب سقوط المطر على الارض.وبما انها تسبب الفيضان او القحط فلقد استأثرت بالسلطة العليا التي تقرر مصير حياة شعب الصين ، ولذا باتت صورتها رمزاً للامبراطور .

ولقد اتخذت الحكومة البريطانية من هونغ كونغ ركيزة تعتمد عليها بتبادلها التجاري مع جمهورية الصين الشعبية دون رقابة من الولايات المتحدة الأمريكية التي يغيظها كثيراً تقدم التجارة ونموها بين حليفاتها وبين الصين الشعبية.

ولهذه الأسباب ، على ما أعتقد ، أغفلت جمهورية الصين الشعبية ذكر هونغ كونغ عند مطالبتها باسترداد أراضيها المغتصبة .

ولم يشر المسؤولون الصينيون في خطبهم العامة ، أو في أحاديثهم الخاصة ، كما لم تشر الصحافة والاذاعة بأي شيء عن هونغ كونغ مما يدل على متانة أعصاب الصينيين وبعد نظرهم ، وجديتهم في الشؤون الأساسية التي تتعلق بمصالح وطنهم الجوهرية ، فلا تخدعهم المظاهر ، ولا يغرهم إطراء ، ولا يسيرون وراء عواطفهم الخاصة إلا بالقدر الذي يريدونه ان يكون وفق خطط مدروسة .

ولقد تحدثت إلى عدد من الرجال المسؤولين وغيرهم من المواطنين الصينيين ، أسألهم عن سر إهمالهم الكلي المطالبة بهونغ كونغ ، خاصة وان القسم الأكبر منها هو جزء من البر الصيني المتصل بمقاطعة كوانتونغ قريباً من عاصمة المقاطعة كانتون .. فكان معظمهم يتنصل من الاجابة بلباقة عظيمة .. وقال لي أحدهم : أنسيت ان ٩٩ ٪ من مجموع سكان المستعمرة هم صينيون ، يقدرون مسؤولياتهم كل التقدير تجاه الوطن الأم ؟ وأضاف قائلاً : انها رهن مشيئتنا دائماً .. وحقنا في استردادها لا يثير حرباً على وجه التحقيق، ثم أطبق شفتيه وأدار الحديث وجهة أخرى .

كانتون

*

وركبنا في اليوم الثاني القطار الانكليزي من كاولون، مخترقاً أرض المستعمرة البريطانية ماراً بحقول الأرز التي لا نهاية لها ... وعلى جانبي سكة الحديد قرى عامرة مزدهرة متناثرة بين الحقول ، وبساتين الموز ، ومحاطة بالأشجار الكثيفة ،

وحقول الخضروات، وفي الأفق كانت تبدو سلاسل جبال عـالية تكسوها خضرة قاتمة .

وبعد مسيرة ثلاث ساعـــات ، وقف بنا القطار عند محطة « لو » وهي آخر حدود – المستعمرة – قريباً من جسر حديدي مشيد على نهر صغير .

وتطلعنا من نافذة القطار وإذا بعلمين يرفرفان على ساريتين مثبتتين على الأرض، ينتصبان إلى جانب بعضهما على بعد لا يزيد على عشرين متراً ... العلم البريطـاني المعروف بصليبه ، والعلم الصيني الأحمر بنجومه الخمس .

ونزلنا من القطار الانكليزي ، وبعد اجراءات بسيطة في محطة ريفية ودعنا الضابط البريطاني بنظرة لا تخلو من الفضول والحنق ، فمشينا خطوات معدودات عبر الجسر الحديدي. وعند مدخله الثاني كان ينتظرنا وفد صيني يتقدمه شاب صغير قدم لنا نفسه بلغة انكليزية فصيحة قائلاً لنا : أنا « جين » مرافقكم في زيارتـــكم لبلادنا .. وأضع نفسي تحت تصرفكم .. وتقدم شخص آخر قال انه ممثل مجلس العلاقات السياسية الخارجية يرحب باسم حكومته ، وباسم شعب الصين بوفـــد الصداقة الشعبي العراقي ، وفعل مثل ذلك ممثل مجلس مدينة كانتون عـاصمة اقليم كوانتونغ الجنوبي الصين .

وبعد ان تم التعارف مع مضيفينا وبدأنا سيرنا ، أحسسنا اننا نسير على أرض الصين الشعبية بنظامها وحياتها التي تختلف تمام الاختلاف عما خلفناه وراءنا على بعد خطوات ..

فسرنا في ممر طويل مزين بمئات الصور والشعارات التي تمثل السلام ، وترمز إلى كفاح الشعوب العربية وانتصار ثورة العراق ، وصور زعماء البلاد الاشتراكية .. وانتهينا بصالة كبيرة بمحطة « شن جن » .

وأحسسنا ونحن نتطلع إلى كل شيء تقع عليه أعيننا اننا قد انتقلنا حقاً إلى عالم آخر غير عالمنا الذي كنا نعيش فيه .

فالمرأة تعمل إلى جانب الرجل على حد سواء .. والجميع يلبسون ملابس زرقاء بشكل واحد وتفصيل واحد فيختلط علينا التمييز بين الرجل والمرأة أحياناً ، على ان الفتاة تتميز عن الفتيان بجديلة شعرها الطويلة التي تتدلى من رأسها .

ودعينا إلى تناول طعام الغذاء في بهو المحطة حيث أكلنا لأول مرة في حياتنا طعاماً صينياً خالصاً وفق التقاليد الصينية . فوضع أمام كل واحد منا صحن صغير بقدر صحن كوب الشاي مع عودين من العاج الخالص لتناول الطعام بوساطتهما . وقدم الطعام بأطباق كبيرة ، وبوجبات متعددة .

ولاحظ مضيفونا في بداية تناول الطعام عجزنا عن استعمال العودين ، فطلبوا لنا شوكات وسكاكين بدلاً عنهما .

وتصورنا ان وجبات الطعام لن تتجاوز أربعة أو خمسة أطباق،على ان المضيفين استمروا بجلب أطباق جديدة لأنواع جديدة من الطعام .. ثم اوتي بأكواب الحساء التي تصورنا انها ستكون خاتمة المطاف،والدلالة على انتهاء الوجبات ، وما ان انتهينا من احتسائها حتى أتوا لنا بالرز والخضراوات والحلوى فالفواكه .

وكان الشاي الأصفر الخفيف يقدم لنا باستمرار، ولا يوضع السكر فيه قط.. ولا يتصور الصيني ان هناك أحداً يشرب الماء البارد ، اللهم إذا كان الماء مغلياً .

وبعد استراحة قصيرة في محطة « شن جن » ركبنا القطار الصيني المتجه نحو كانتون .. وعربات القطار مقسمة إلى درجتين فقط ، وكلتاهما لا تختلفان عن أرقى عربات السكك الحديدية في أي بلد أوروبي من حيث فخامتها ونظافتها ونظام سيرها .

وكانت المنطقة التي مررنا بها عامرة ، تخترقها قنوات الري التي لا حصر لعددها وجلها مزروعة بالشلب « أي الأرز » والقسم الآخر اما ان يكون بساتين فاكهة « الليجي » أو الموز أو الأناناس .

لقد كان الجو خانقاً ومرطباً وحاراً ، وذلك ان اقليم كوانتونغ يقع في أقصى الجنوب فضلاً عن غزارة الأمطار في هذه المنطقة .

ووصلنا كانتون بعد مسيرة أربع ساعات ونصف، وكان في استقبالنا في المحطة أعضاء المجلس البلدي ومعاون محافظ المدينة ، وبعض ممثلات الجمعيات النسائية ، وعدد من الفتيات يحملن باقات الزهور لكل عضو منا ، ثم نقلتنا سيارات خاصة إلى أحد فنادق المدينة الفخمة وسط ترحيب الأهلين .

ان مدينة كانتون هي المدخل الطبيعي إلى الصين ، وأول مدن الصين التي دخلت في علاقات تجارية مع الأقطار الأجنبية ، وهي أول مدينة نزلها العرب في الصين ، وسكنوها ونشروا فيها الاسلام .

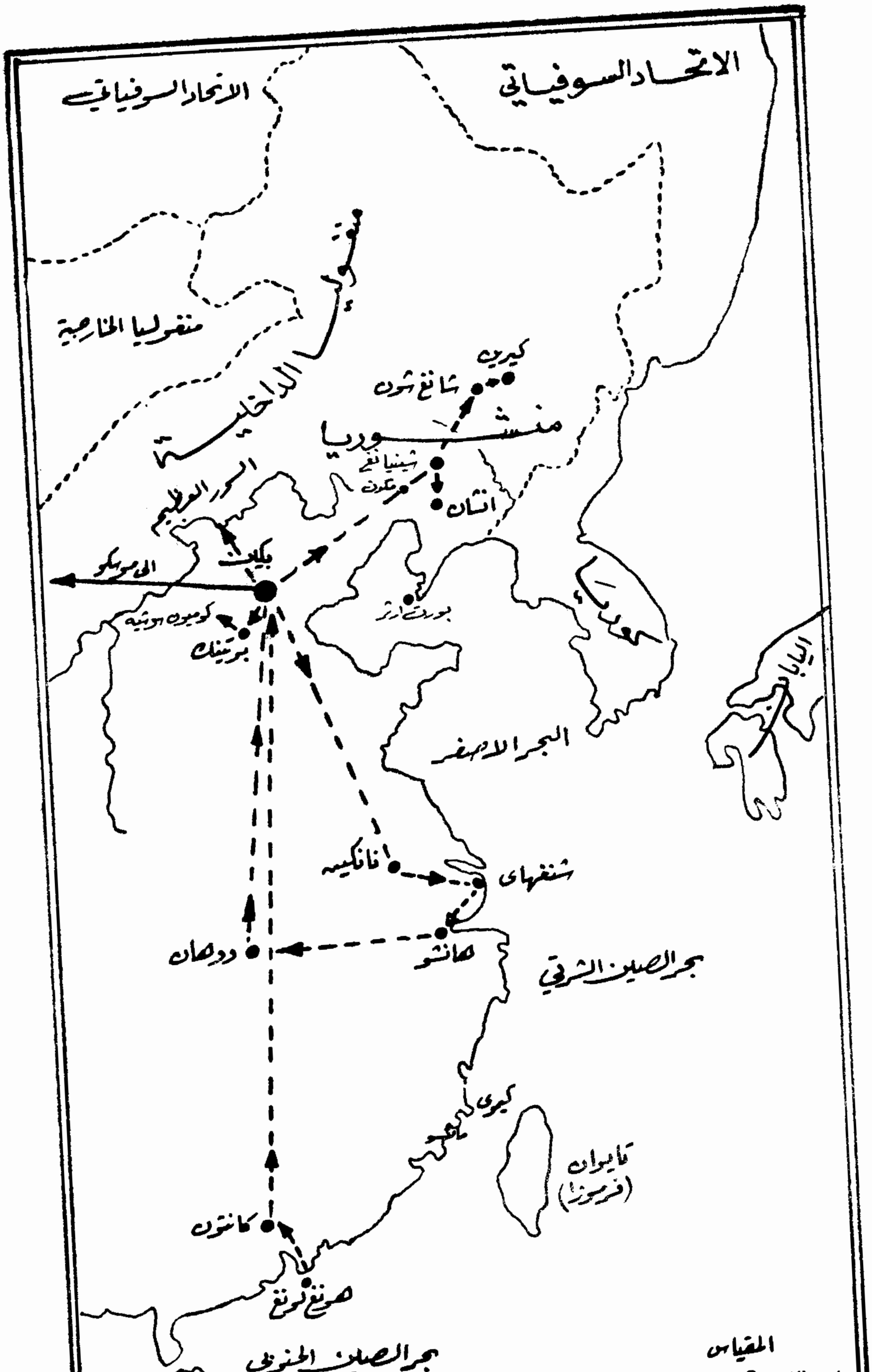
وكانتون بموقعها الجغرافي – كميناء الصين الجنوبي لعبت في تاريخ الصين دوراً خطيراً ، فمنها نفذ إلى الصين التأثر بالعالم الخارجي .. ونفذ من الصين إلى العالم شعاعات المعرفة الصينية والحضارة الصينية .

فالديانة البوذية قد صدرتها الهند إلى الصين عن طريق كانتون ، ودخل الاسلام إلى الصين عن طريقها أيضاً، ونبتت أشجار النخيل في كانتون بدخول العرب إليها.

وهي في الوقت ذاته أول المدن الرئيسية التي غزاها الاستعمار الأجنبي في الصين ، عن طريق تجارة الأفيون والمخدرات التي أدخلتها إلى الصين شركة الهند الشرقية على نحو ما ذكرنا في الفصل الثاني من هذا الكتاب ، ففتح الاستعمار البريطاني عن طريقها ثغرة في أسوار الصين المغلقة في منتصف القرن الثامن عشر.. وانتهت بحرب الأفيون بين عامي ١٨٣٩ – ١٨٤٢ التي انكشفت فيها للشعب الصيني كله أهداف سياسة السلب والنهب والقتل الجماعي البطيء للشعب الذي تنتهجه دول الغرب المتحضرة ، فأيقظته من رقدته ، فطوح بنظامه الامبراطوري وبحكم الكومنتانغ الرجعي بعده .

ولكانتون صفحة مجيدة في تاريخ الثورة الصينية، فمنها تطايرت شرارتها الأولى بموت اثنين وسبعين هتفوا بالحرية والتحرر ، وكانت قاعدة لحملة الحرب الشمالية وللحملة العسكرية ضد أمراء الحرب الصينيين . كما كانت مهد «كومونة كانتون» وهي أول سلطة سياسية في المدن أقامتها الطبقة العاملة الصينية ، ومعهد يعلم الصينيين فنون الثورة وأساليب الدعاية ويدربهم على بث الوعي الثوري في الريف، وكيف يتحدون جميعاً من أجل النصر .

وكان أول عمل قمنا به هو زيارة مقر « معهد تدريب كوادر حركة الفلاحين » وهو المعهد الذي أسسه الحزبان : الكومنتانغ والشيوعي في سنة ١٩٢٣، وكانا قد تحالفا على اثر البيان الذي أصدره صن يات صن ، ومندوب روسيا السوفييتية ..



خط رحلتنا الى الصين

وأكدا فيه ان النظام الشيوعي لا يمكن ان يطبق في الصين لأن ظروف الصين لا تسمح بقيام الشيوعية أو التجربة السوفييتية فيها .. ولأن مشكلة الصين الأولى هي تحقيق وحدتها واستقلالها .. وكان من نتائج هذا البيان ان انضم الشيوعيون إلى الكومنتانغ ، فنظموا تشكيلاتهم الثورية بداخله .

فأقيم المعهد لتدريب الفلاحين الصينيين واعدادهم اعداداً ثورياً يؤهلهم إلى المشاركة في إشعال ثورة لا تنتكس ولا تتراجع حتى تحقق غاياتها . وكان ماوتسي تونغ يوجه هذا المعهد بنفسه ويحاضر طلابه الذين بلغ عددهم ٣٢٧ طالباً ما بين سنتي ١٩٢٤ — ١٩٢٨.

وبعد انتصار الثورة في عام ١٩٤٩ أعدت الحكومة هذا المعهد ليكون متحفاً يروي صفحة من صفحات تاريخ الثورة ، ويضم المتحف الآن آثار ذلك المعهد حيث كان الطلاب وزعماء الثورة يعيشون فيه ، فالأثاث الخشبي آية في البساطة والأسلحة بدائية قديمة الصنع ، والتجهيزات بالية ممزقة . وكانت غرفة ماوتسي تونغ التي كان يعقد فيها اجتماعاته الخطيرة لا تحتوي إلا على منضدة وبضعة كراسي خشبية بالية وسرير خشبي واطىء .

ثم زرنا بعد ذلك الأثر التذكاري لشهداء حركة الفلاحين الأولى وعددهم اثنان وسبعون شهيداً، وخلف الأثر التذكاري أقيمت عدة أقواس نصر تذكارية أهداها أبناء الجاليات الصينية في الخارج .. وتضم حديقة المكان تماثيل مختلفة للمشهورين من الضحايا،وكان احدها تمثالاً لقائد بحري معروف كان قد انضم إلى صن يات صن في نضاله وعاونه في اعداد الثورة التي طوحت بالنظام الامبراطوري .

وتكرم مدير المعرض الصناعي فدعانا لمشاهدة المعرض الذي كان في دور الاعداد وكان من المقرر فتحه بعد شهر ، والذي أقيم في بناية حديثة مكونة من خمسة طوابق فخمة .. فاطلعنا لأول مرة على مدى التقدم الصناعي الذي حققته الصين إلى جانب تقدمها في شتى ميادين العلم والانتاج .

لقد كان ترحيب الناس بنا بالغاً حد الروعة ، وكانوا يتعقبون أخبار ثورة العراق بشغف واهتمام عظيمين..وهم كرماء يتفننون ويبالغون في إكرام ضيوفهم

كالعرب مؤدبين ، ظرفاء ، لا تفارق شفاههم الابتسامة التي يعبرون بهـا عن أحاسيسهم تجاهنا . وبسرعة مدهشة اندمجنا بهم واندمجوا بنا على الرغم من عـدم معرفة غالبيتهم المطلقة اللغة الانـكليزية ، ولكنهم يحـاولون بتصرفاتهم وبرقتهم المتناهية ، وبالاشارات الايقاعية ان يثبتوا لضيوفهم انهم اخوان لهم وأصدقـاء أوفياء مخلصون بلا تـكلف .

وتعداد سكان كانتون يزيد على مليونين وربـع مليـون نسمة يعيشون على التجارة وصيد الأسماك، ويقدر عدد المسلمين فيها بحوالى ٣٥٠٠ نسمة، ولهم مسجد وجمعية ثقافية ، وتعرف المنطقة التي نزل فيها العرب في كانتون لأول مرة في التاريخ باسم « كوانتا » حيث بنى فيهـا عربي يدعى ابن الوقاص أول مسجـد لعبادة الله في الصين .. إلى جانب أشجار النخيل التي نبتت من نوى التمر الذي كان يحمله العرب معهم في أسفارهم .

وغادرنا كانتون بالطائرة متجهين إلى العاصمة بكين فقطعنا معظم أرض الصين بخط مستقيم من جنوبها إلى شمالها فمررنا بسماء نهر اليانغتسي ونهر « هوانغ هو » أو النهر الأصفر ، وحطت بنا الطائرة الصينية بعدة مدن رئيسية قبل ان نصل بكين في طيران استغرق حوالى ثماني ساعات، قطعنا خلالها أكثر من ٢٥٠٠ كيلومتراً.

ومع اننا تأخرنا عن موعـد وصولنا المقرر لبكين بساعتين بسبب رداءة الأحوال الجوية، وبسبب العواصف والأمطار التي كانت تهطل بغزارة ، فلقد كان في استقبالنا في مطار بكين رئيس لجنة الشؤون الخارجية ، وعـدد من ممثلي الجمعيات ، ورئيس الجالية الاسلامية ، وفريق من الفتيات يحملن لنا الزهور ثم توجهنا بالسيارات إلى المدينة التي تبعد عن المطار مسيرة ساعة ، وحللنا ضيوفاً في فندق بكين ــ أكبر وأجمل فندق في العاصمة .

وبدأنا تنفيذ برنامجنا الذي أعد لنا لزيارة الصين ، والاطلاع على معالم نهضتها الحديثة والاجتماع بالمسؤولين فيها .. وقد استغرقت الزيارة قرابة شهرين ، كانت حافلة ومثيرة ومفيدة .

مدينة بكين ومعالمها

- تاريخ بكين ومعالمها
- القصر الامبراطوري في المدينة المحرمة
- هيكل سيد السماء
- قصر الامبراطورة الصيفي
- مظاهر الحياة في بكين
- حياة الليل في بكين

تاريخ بكين ومعالمها

*

لم يكن لبكين [١] — العاصمة الحالية التي تقع في القسم الشمالي الشرقي من الصين — حيث نشأت في هذا القسم المدنية الصينية ، وترعرعت حضارتها فيها .. تاريخ يستحق الذكر . ولم تتخذ يوماً عاصمة في حقب التاريخ الطويلة التي قامت في خلالها الامبراطورية التي امتد عمرها ثمانية وعشرين قرناً ...

> **ليس هناك غموض .. ولا بغايا .. ولا متسولون .. ولا ذباب .. انها ليست بكين عاصمة الصين ..**
>
> سائح غربي

وعرفت بكين وكانت تسمى « كمبلوك » من بين المدن التسعين من مدن المنطقة الشمالية الصينية التي دمرها جنكيزخان عن بكرة أبيها ، وسواها مع الأرض وفقاً لأساليبه وتقاليده البربرية ، حين غزا الصين في مطلع القرن الثالث عشر ودمر معالم مدنيتها .

على ان أحد خلفائه وهو « كوبيلاي خان » الذي فتح الصين وفعل ما فعل سلفه من تدمير بلاد الصين أقام فيما بعد حكماً ثابتاً ، وعمل على مزج قومه المغول بالصينيين ، معترفاً بتفوقهم الحضاري ، وشاد عاصمة جديدة للبلاد في موقع مدينة

---

١ — بكين او بيكنغ — كما يتلفظها الصينيون تعني « العاصمة الشمالية » باللغة الصينية ، ويسميها الصينيون — اليوم « بيبنغ » — اي الشمال المهدأ .

بكين في عام ١٢٦٧ م. كانت لروعتها وكثرة عامرها موضع إعجاب من زارها من الغرباء ، وشيدت فيها القصور ، وازدهرت العمارة ازدهاراً لم تر بكين ولا الصين له مثيلاً من قبل (١) . وفي فترة الفوضى التي سبقت حكم اسرة «ونغ» عادت بكين القهقرى إلى ان جاء الامبراطور « بونغ لو » في عام ١٤٠٣ — ١٤٢٥ م. فأعاد بناءها مرة أخرى ، فأشاد حول أقدم جزء منها سوراً عالياً تقوم بحراسته أبواب محصنة .. وعندما توسعت المدينة أنشيء سور ثان مقابل السور الأول .

على انه في عام ١٦٧٩ تهدمت بكين مرة أخرى ، ولكن بفعل زلزال دمر معالمها ، وتبعه بعد عام واحد حريق دمر فيه القصر الامبراطوري .

وفي عهد أسرة المنشو أعاد الامبراطور العظيم « كانغ شي » الذي وحد الصين ووسع الامبراطورية حتى بلغت حدودها تركستان والتيبت والافغان والبنجاب في الهند ، والهند الصينية ومنشوريا وكوريا ، وكذلك في القرن الثامن عشر للميلاد ... ولدت بكين من جديد ، وعادت إلى الحياة من تحت الأنقاض ، وتكونت وفق تخطيط وإعداد دقيق تكلف ثمناً بالغاً .

لقد قسم الامبراطور المدينة إلى مجموعات مستطيلة تتجه نحو الجهات الأصلية الأربع ، وبنى في وسطها « المدينة المحرمة » التي أشاد فيها قصره الامبراطوري وقصور الاسرة الامبراطورية ، ويحيط بالمدينة سور رمادي عال تحيطه قناة من جميع جهاته ، وتدخل الخاصة التي يسمح لها الامبراطور بدخول المدينة المحرمة عن طريق البوابة الشهيرة المعروفة باسم « تيان آن من » — أي بوابة السلام السماوي .

كما بنى الامبراطور هيكلاً يتعبد فيه خارج الأسوار وسمي « هيكل سيد السماء » وعدا هذين الأثرين الرئيسيين في بكين ، وقصر الامبراطورة الصيفي في ضواحي المدينة فليس هناك ما يلفت نظر الزائر في بكين ، لا بل انها تأخرت في

---

١ ـ أثارت مدينة بكين اعجاب ماركوبولو الايطالي فوصف قصورها وحياتها وصفاً رائعاً في كتاب رحلته الشهير .

عمرانها عن سائر المدن الصينية الكبرى كشنغهاي ونانكين وكانتون ومدن الشمال العديدة حينما اتخذ شيان كاي شك مدينة نانكين عاصمة لحكمه بدلاً من بكين التي أهملت فترة طويلة من الزمن .. ثم دبت فيها الحياة مرة أخرى بعد التحرير عندما اتخذها الشيوعيون مرة أخرى عاصمة للبلاد في عام ١٩٤٩ .

والواقع ان بكين اليوم لا تختلف عن أي مدينة شرقية قديمة يعمل أبناؤها بجد لتنفض عنها غبار الماضي ، وتحاول ان تسبق الزمن لتلبس ثوب القرن العشرين بمظاهره الجديدة التي يراها الانسان في لندن أو روما أو القاهرة أو شنغهاي ، وكما تفعل اليوم بغداد أو دمشق أو بيروت .

ولعل من أسباب طابعها الكئيب الذي تبدو فيه لعين ناظرها لأول وهلة هو بعدها عن الساحل الصيني الذي اتخذ الأجانب من مدنه مركزاً لنشاطهم الصناعي والتجاري ، فأقاموا فيها العمران في فترة استغلالهم بلاد الصين ، ولأن أباطرة المنشو في عهد حكمهم الأخير لم يسمحوا للأجانب بالاقامة فيها لاعتبارها المدينة المحرمة التي لا يدنس أرضها بربري قادم من خارج « العالم المركزي » إلا في حالات الضرورة القصوى .

وفضلاً عن هذا وذاك ، فالأباطرة قد حددوا ارتفاع المنازل ، فما كان ينبغي ان تضم أكثر من طابق واحد حتى لا تعلو على أبنية قصر المدينة المحرمة ، وفرض على الأهلين ألا تلون سقوف بيوتهم بالقرميد الذهبي المخصص للقصور الملكية (كما كان يفعل الملك فاروق الذي احتكر اللون الأحمر لسياراته الخاصة) فلم يكن من حق البكينيين سوى استخدام القرميد الرمادي القاتم الذي يجمع لون الأرض ولون الأسوار .

ولم يكن ليشق المدينة نهر .. سوى الترعة التاريخية القديمة التي أصلح حفرها الامبراطور « كوبيلاي » ما بين عامي ١٢٨٠ – ١٢٨٣ م. فربط بكين بنهر « هوانغ هو » (النهر الأصفر) ونهر اليانغتسي فأوصلت بكين بمناطق الصين الوسطى والجنوبية عن طريق مائي لعب دوراً كبيراً في انعاش البلاد الاقتصادي، فزاد سكان العاصمة زيادة كبيرة إلى ان بلغ تعدادها اليوم قرابة ثلاثة ملايين

ونصف مليون نسمة .

وعندما دخلنا بكين قادمين بالسيارات من المطار الذي يبعد عن العاصمة مسيرة ساعة بالسيارة مررنا بباب حصين مخترقين سور المدينة الخارجي ، مجتازين شوارع داكنة ، أقيمت على جوانبها بيوت خشبية أو طينية أو حجرية تبدو عليها الكآبة . ولم أستطع ونحن نجتاز الشوارع العديدة التي أوصلتنا في النهاية إلى فندق بكين الشهير ، ان أكون فكرة عامة لمنظر إجمالي لبكين .. بل أصبت بخيبة أمل فيما رأيت حتى تلك اللحظات ..

وفي منتصف شارع حديث متسع تقوم على جانبيه الأشجار ، انتهينا عند فندق بكين القائم على ذلك الشارع الذي يمتد بمحاذاة بوابة السلام السماوي وساحتها العظمى من جانب ، ويمتد من الجانب الآخر بمحاذاة شوارع المدينة التي تتجمع فيها أسواق بكين حيث ينتهي عند الحي الجديد الذي أقيمت فيه بعض سفارات الدول الأجنبية، وإلى الجانب الآخر من الشارع عمارات فخمة لسفارات الدول الأجنبية التي أسست علاقاتها السياسية مع الامبراطورية المنقرضة ، والتي صادرت بعضها حكومة الصين الشعبية فاتخذتها دوائر لبعض الوزارات .

وفندق بكين هو الفندق الوحيد من الدرجة الأولى في بكين ، ينزل فيه ضيوف الحكومة ، ويزدحم في أعياد اكتوبر من كل عام ، ويتألف من عشرة طوابق وقد أضيف إليه بناء جديد ملاصق له . والفندق مزين بزينة فاخرة بأعمدته الذهبية الصينية ، وبسقف طابقه الأرضي المتعدد الألوان .

وأعد جناح من الطابق الأرضي للخدمات العامة التي يحتاج إليها الضيوف كالحوانيت المليئة بالتحف والهدايا الصينية ، ومكتب بريد ، وبنك لتبديل العملة، ومكتبة لبيع الكتب الأجنبية بمختلف اللغات ، وصالون حلاقة ، وقاعات للبليارد ، ولعب الورق . ثم قاعة فسيحة تتسع لألف وخمسمائة شخص تشغل الجزء الأكبر من الطابق الأرضي . وهي تحفة فنية بالغة الروعة .

اما قاعة الطعام ففيها صفان من الأعمدة الملونة يحملان سقف القاعة. وجدرانها مزينة بصور مطبوعة . ويجتمع في هذه القاعة أناس يمثلون جميع أمم العالم ،

فيلتقون مع بعضهم ليأكلوا سوية كل ما اشتهر في العالم من أنواع الطعـــام ... ويتكلمون بعشرات ومئات اللغات .

وفندق بكين في أيام اكتوبر من كل عام بمثابة قلب الحياة الدولية ، ومركز نشاط الساسة ورجال الفكر والصحافة والجاسوسية أيضاً . ويعتبر هــذا الفندق الذي يقيم فيه عادة المسافر أو الضيف المركز الذي تدور حوله أيام إقامته ونظام زيارته للمدينة .

كان برنامجنا المعد لنا حافلاً ، غنياً وقاسياً أيضاً . فلم يترك لنا « جين » – وهو أحد أربعة من مرافقينا – مذ ان وطئت أقدامنا فندق بكين فراغاً قد اعتدناه وألفناه في بلادنا إلا وشغله في لقاء أو زيارة أو رحلة .

ويدرك ضيف الصين من أول وهـلة ان الصينيين حريصون غاية الحرص على اطلاع ضيوفهم على انتصاراتهم العظيمة على الماضي .. ليشهدوا بأنفسهم بدايـــة المستقبل الجديد لأمة الصين .

ففي مساء اليـــوم التالي لوصولنا ، اجتمعنا بالماريشال شين يي نائب رئيس الوزراء ، ووزير الخارجية ، وذهبنا في نفس الليلة إلى الأوبرا ، وقابلنا في اليوم التالي شواين لاي رئيس الوزراء، وتوالت زياراتنا بعد ذلك فالتقينا بأعضاء اللجنة الوطنية للمجلس الاستشاري السياسي المؤلفة مـن جميـع أحزاب الصين ، وزرنا قصور الأباطرة وشهدنا الاستعراض السنوي لأعياد اكتوبر،وشاركنا في الاحتفال العام لإعلان تأسيس جمعية الصداقة الصينية – العراقية ، وقمنا بزيارة لمصنع نسيج بكين رقم ٢ الشهير ، والجمعية الاسلامية ، واستمعنا إلى ايضاحات وافيـــة في الاصلاح الزراعي ، والتجارة الخارجية ، والانماء الاقتصادي من وكلاء الوزارات كل في اختصاصه . ودعينا إلى كثير من المـآدب ، منها مأدبة حسن رجب سفير الجمهورية العربية المتحـدة الذي بالغ بإكرامنا ، وحدثنا حديثاً قيماً عـن نهضة الصين وأحوالها .. واجتمعنا بماوتسي تونغ وليو شاوشي وشوتيه وشواين لاي وشين يي.. وهم أقطاب الصين وحكامها الذين يوجهون سياستها، ويقودون نهضتها، ويسيطرون بيد من حديد على مقدراتها ، فأظهروا جميعاً عواطفهم الفياضة لوفدنا

في حفلات أعياد اكتوبر مما لفت أنظار ألف وخمسمائة مدعو من مختلف ارجاء الدنيا ، فكنا ضيوف الشرف إلى جانب وفد الاتحاد السوفييتي .

واطلعنا على معالم مدينة بكين وحياة أبنائها وتحدثنا إليهم في نواديهم وجمعياتهم وجامعاتهم ونقاباتهم وفي أسواقهم فاكتسبنا من كل ذلك معلومات قيمة ضمنتها في فصول هذا الكتاب .. كل في موضعه دون التقيد بتسلسل الزمن .

القصر الامبراطوري في المدينة المحرمة

*

لا يزال هذا الأثر الرئيسي الذي كان يسكنه «سيد الدنيا» والقائم في مركز المدينة منعزلاً عن المدينة ، فلقد شيد حول ساحته التي تبلغ نحو ثمانية كيلومترات مربعة سور مرتفع ، علوه سبعة أمتار ، شيدت في أركانه أبراج قوية لحماية القصر .. ويدخل المرء القصر عن طريق البوابة الشهيرة « تيان آن صن » أي بوابة السلام السماوي وكانت هذه البوابة أول استحكام شديد أقيم لحماية القصر ، وبني تحتها جناح مذهب يضم الجنود المكلفين بحراسة القبة التي تخترق الحائط السميك ، ويمكن الوصول منها إلى القصر .

وعلى المرء بعد ذلك ان يجتاز القناة المائية التي تحيط بساحة القصر ، والتي تعتليها قناطر من الرخام ذات أسوار منحوتة ، وأمام القناطر تقوم أعمدة من الرخام نحتت فيها صور التنين والسحب ، وتحمل على قممها أجنحة صغيرة تحليها السحب ، ويسمونها « هوابياو » — أي الأعمدة المزدهرة .

وبعد اجتياز القبة يجد المرء نفسه في الفناء الخارجي للقصر الامبراطوري كما يسمى اليوم بدلاً من اسم « المدينة المحرمة » وعلى امتداد ألف متر تتابع الأفنية والشرفات الرخامية التي تحمل أجنحة ذات أسقف ذهبية مزينة بنقوش ورسوم زيتية تمثل حياة الأباطرة في مختلف العصور . وعلى جميع الطرق منافذ بلورية أقيمت للمراقبة .



معبد السماء في بكين

أما المباني الرئيسية في المحور الرئيسي فتصطف وتنتظم على الجـــانبين، وهي مزينة ومزخرفة وتحيط بها ساحـــات وحدائق جميلة كانت تسكنها الاسرة الامبراطورية .

وفي أقصى المكان يقوم « قصر السماء التي لا تغشاها السحب » المخصص لسكن الامبراطور ، وإلى جواره قصر « السماء الأرضي » الذي تسكنه الامبراطورة تحف بشرفاتها اسيجة من الرخام المنحوت الناصع البياض الذي كان يجلب مـن بورما على ظهور الأفيال التي كان عليها ان تقطع أكثر من خمسة آلاف كيلومتر قبل ان تحط رحالها عند قصر « ابن السماء » .

وطراز القصر الامبراطوري هو الطراز الصيني التقليدي الذي لا يتغير ... والذي تتميز سقوفه بقممها المدببة وأطرافها البارزة وزواياها المتجهة إلى الأعلى ، وهي مكسوة بالاردواز الاسطواني الشكل الذي يلمع طلاؤه الذهبي لمعاناً رقيقاً ، والتي تفصل بين مستوياتها مواكب الحيوانات الخرافية من تنين وبوم التي ترمز في اعتقادهم إلى الفضائل الامبراطورية . وعلى حافة الميازيب رسمت حيوانات خيالية أخرى مهمتها ان تشرب ماء السماء ، وان تدرأ شر الفيضانات ، على انهـا لم تقم يوماً بواجبها على الاطلاق .

ان قصور المدينة المحرمة التي أنهكتني في سيري الطويـل خلال تنقلاتي بـين أرجائها لم تبهرني بقدر ما أبهرتني فكرة فتح أبوابها التي ظلت مغلقة في وجوه من بنوها بعرقهم وانتاجهم قروناً طويلة .. فهي اليوم منتزه عـــام لأبناء الشعب ، يتناولون طعامهم تحت بواباتها ، ويلعب أطفالهم في ساحاتها ، ويشربون شايهم بظلال أروقتها.. ويقرأون كتبهم المفضلة في أحد قصورها الذي تحول إلى مكتبة عامة .. كما تحول البعض الآخر إلى قصر للثقافة ، ومقر لأركان الحكومة الذين كانوا يعيشون في كهوف « شانسي » قبل ان يحرروا وطنهم ... وتلك الأيام نداولها بين الناس .

هيكل سيد السماء

✲

والأثر الثاني الذي يستحق المشاهدة في العاصمة بكين هو معبد السماء الذي شيده الامبراطور خارج الأسوار بعيداً عن بكين وأهل بكين ، ليتعبد فيه ، وليقيم الشعائر وحده تكريماً للاله الأعلى : سيد السماء بوصفه صاحب الحق في التضحية للاله خلال إقامة الحفلات الدينية الرسمية ، في حين ان الناس – جميع الناس ما عدا الامبراطور يعبدونه ويرفعون إليه الصلاة باعتباره رمز القوة والسلطان .

ولقد شيدت منصة التضحيات .. وهي مكان مكشوف ومستدير كالسماء نفسها ، فتقام الحفلات فيه بعد منتصف الليل ، وقبل مطلع الفجر في المواعيد التي تحددها التقاويم الصينية مرة كل عام في اليوم الذي تبلغ فيه الشمس أقصى ميلها في الشتاء حيث يغادر الامبراطور قصره في مركبته الرسمية التي يجرها فيل ، وتصحبه حاشية تتكون من حوالي ألفي شخص من الأمراء وكبار رجال الامبراطورية وعازفي الموسيقى والخدم ، ويتوجه الجميع نحو معبد السماء ، ويأخذ الموكب طريق الجنوب ، ويجتاز باب « شنغ يانغ » الذي لا يفتح إلا للامبراطور متجهاً إلى « شاي كونغ » (قصر الزهد) حيث يستعد الامبراطور لتأدية واجباته بالتأمل وحيداً .

ويبدأ الحفل بعد أن يأخذ الكهان أماكنهم ، ثم ينحرون الذبائح ، وما ان تنتشر رائحة اللحوم المحروقة في الهواء وهي تحمل القربان إلى الإله ، حتى يؤدي الامبراطور الشعائر . ويحين بعدئذ التعبد للسماء في منتصف الليل على أضواء آلاف المشاعل والمصابيح والأفران التي تحف بالمذبح الكبير . وكان الامبراطور يركع ميمماً وجهه شطر الشمال .. معترفاً بكونه انساناً يخضع ويعترف بتبعيته للسماء . وبعد تقديم اللحوم المحروقة وصب الماء المقدس يلقي دعاء مكتوباً .. بينما يعزف الموسيقيون وتؤدي الراقصات رقصات تعبيرية عند أسفل المذبح .

ويرى المرء في هـذا المعبد شرفة ثلاثية من الرخام ، تشبه شرفات القصر الامبراطوري ، تحمل « قاعة الصلاة السنوية » وهي هيكل مصنوع من الخشب مستدير الشكل أزرق اللون مثل السماء ... تؤدي إليـه ثمانية سلالم من سبع وعشرين درجة ، يحيط بكل شرفة سياج يحتوي على ثلاثة صفوف من الأعمدة الاسطوانية . ويبلغ ارتفاع البناء ٩٩ قدماً .

وفي الطرف الآخر من الشرفة التي يشطرها الممر الامبراطوري معبد آخر مستدير الشكل أزرق اللون أيضاً. وهو أصغر من الأول حجماً. وكان الامبراطور يصلي في الأول من أجل موسم زراعي جيد ، اما في المعبد فقد كان يخشع قبل ان يمضي إلى معبد السماء حيث يقوم بتقديم القربان .

ان أعجب ما في هذه المجموعة من المعابد هو ترداد الصوت إلى ثلاثة أصداء في مكان ما فوق الطريق الامبراطوري . ومكان آخر منه إذا لفظت فيه عبارة عاد صوتك إلى أذنيك مكبراً يتذبذب وكأنه خلال مكبر صوت . وإذا تحدثت بصوت منخفض أمام نقطة معينة من الحائط الدائري سمعك سامع يقف مقابل تلك النقطة على مبعدة منك بوضوح تام ، مميزاً كل كلمة نطقتها [١] .

ويحيط بهيكل سيد السماء غابة كبيرة من السرو، يمتد عمرها إلى آلاف السنين كما قيل لنا، وتعسكر فيها اليوم وحـدات عسكرية تقوم بالتدريب اليومي على مقربة من ذلك الهيكل الذي حرم يوماً على الشعب الوصول إليه .

ولقد اعتنت الحكومة القائمة بالغابة فقسمتها إلى حدائق تتخللها طرق مرصوفة كما شجعت تكاثر الأسماك في البحيرة الكبيرة ليتسلى الناس بصيدها . ففي يوم العطلة الرسمية وهو يوم الأحد يتقاطر أهل بكين على هذه المنطقة ، يتنزهون تحت أشجارها الباسقة ، ويؤدي بعضهم رياضتهم القديمة المحببة إلى نفوسهم ، وكثير منهم يمارسون التجـديف فوق البحيرة ، وبعضهم يجلسون في مشارب الشاي حيث يتناولون الشاي الأخضر ، أو يرقصون على أنغام الموسيقى .

---

١ ـ هناك في مدينة اصفهان في ايران جامع شيدت فيه منارة تتميز بما تميزت به هذه المعابد من ترداد للصوت بشكل يثير الدهشة .

والبحيرة الرابضة بأكناف الجبال جميلة رائعة ، يرى المرء في الطرف الآخر منها أهم آثارها : « حائط الجنيات » وهو أكبر وأعلى وأجمل حائط في بكين، مزين بنحوت من الخزف المطلي بالألوان ، ويسمونه كذلك « حائط التنينات التسعة » إذ يرى الناظر على كل وجه من وجوهه تسعة تنينات تختلط فيها الألوان، تلعب وسط الأمواج بلؤلؤة ، يقال انها تصور الشمس التي ينتزعها التنين من قلب المياه بعد سبات الشتاء .

وتوحي هذه الرسوم الخزفية للعين بشيء من زخارف الحمامات الجميلة الرائعة وأجسام التنينات المرنة تهتز في عنف يحول دون ظهور أي جزء من المكان في وضع مستقر . وهذه الحركة ذاتها هي التي نجح الفنان في نحتها .

وعلى طول البحيرة يقوم الرواق الدائم ، وهو ممر مسقوف تحف به أسيجة من الأعمدة الخشبية الصغيرة ذات الجدائل المعقدة . وهناك كثير من القاعات المماثلة ، ومن الأكشاك ، ومن الأبنية الصغيرة ، والأبواب القمرية ، وهي فتحات مستديرة انتظمت في الجدران يكفي ارتفاعها لمرور شخص واحد ، والمنظر الطبيعي الذي يبدو منها يوحي للمرء انه يتطلع من منظار ضخم . أو كأنه بالمنظر ذاته وقد انعكس انعكاساً رأسياً تحت قوس قنطرة ، وانه ليصبح بهذا الازدواج ، واحداً من تلك المناظر التي يحب الصينيون اصطناعها من رسوم السماء والأشجار .

ان الطبيعة والصناعة تختلطان في تلك الصخور التي تتحلى بها جميع الحدائق الصينية ، مقلدين الأوضاع العارضة للأشياء والتي لم تمسها يد انسان ، وتعطي للأجنبي فكرة كاملة على حب الصينيين للطبيعة فراحوا يلتمسون على الجبال وعلى شواطىء البحيرات ملاذاً لهم من تكاليف الحياة الاجتماعية ، وأشاد شعراؤهم ورساموهم بها ... وإلى اليوم والصينيون حريصون على ترميم مبانيهم القديمة وصيانتها وزيارتها على الرغم من مشاعر أبناء الجيل الجديد الصاعد بأن هذه المخلفات كلها قد خلفها أباطرة مستبدون مترفعون عن شعوبهم إلى حد دعواهم انهم من ابناء الآلهة .

قصر الامبراطورة الصيفي

*

وفي تلك الضاحية الواقعة أسفل تلال الغرب ، أنشأ الامبراطور « كانغ هي »، حديقة سماها « جنة الربيع الممتد » ولقد أقام خلفه فيها قصرين متجاورين ، وصروحاً جديدة دمرتها جميعاً جيوش الحلفاء المنتصرين بعد فشل ثورة البوكسر عام ١٨٦٠ ، غير ان الامبراطورة الوالدة « شيوهي » أعادت بناها ، وكلفها ذلك مبالغ طائلة أرهقت ميزانية الدولة .

والقصر – على نحو ما وصفه أحد الأوروبيين – يشبه قصر « التريانون » في باريس ويجد فيه المرء تلالاً صناعية ، وبحيرة صناعية تشبه إلى حد بعيد بحيرة « هانشو » التي وصفناها في موضع آخر من هذا الكتاب . ففي وسط البحيرة أقيمت جزيرة صناعية أرسيت على قواعد من الرخام ، وتربطها بالأرض قنطرة بديعة الشكل ، ذات سبع عشرة قوساً ، وقنطرة أخرى رشيقة يطلق عليها اسم « ظهر الجمل » وهي ذات قوس وحيدة تعبر القناة .

وقبالة الجزيرة جناح من طابقين يعلو قاعدة، مبني من الرخام على شكل زورق صيني يتقدم فوق الماء . وتسبح حول البحيرة أروقة مسقوفة .

وعلى سفوح التلال تقوم أكشاك وأبراج . وعلى قمة أعلى التلال شيد معبد « الإله بوذا » الذي تكسو جدرانه تجاويف صغيرة تلمع بطونها بطلاء أخضر ، ويقيم كل منها تمثالاً لبوذا مصنوعاً من الفخار الأصفر .

أما مساكن الامبراطورة فمليئة بالتحف الصينية كالبرافانات المطرزة بريش الطيور ، والأواني الفخارية، والقطع الخشبية المتعرجة الخطوط، والتحف العظيمة، والأثاث الخشبي المرصع بأحجار من العقيق تمثل عروقها مناظر طبيعية من الجبال والسحب .

ويقوم في أحد الأفنية مسرح في الهواء الطلق كانت تمثل عليه فرقة تمثيلية خاصة بالامبراطورة . ولقد شهدنا آلاف المواطنين يروحون ويغدون

ويتمتعون بمشاهدة آثار الماضي ، والتنزه في هذه الضاحيـــة الجميلة الهادئة في عطلاتهم .

مظاهر الحياة في بكين

✡

وأعود مرة أخرى إلى ما شهدت في بكين لأستكمل صورتها للقارىء . وأول ما تقع عليه عين الانسان فيها – وفي سائر أنحاء الصين كلها هو توحيد زي أبنائها رجالاً ونساء على حد سواء ، فالجميـع – أو غالبيتهم العظمى يرتدون البذلة الزرقاء المنسوجة من القطن ، ستراتهـا « الجاكيتات » مغلقة ، وكان قد فرضها حـكم الكومنتانغ على الشعب ، وقليلات جداً مـن النساء يرتدين الجونيلة « التنورة » والبلوز « البلوفر » .

ثم ان الرجل والمرأة يعملان جنباً إلى جنب في جميـع ميادين الحياة دون مـا استثناء . ففي مدخـل فندق بكين رأيت فريقاً من العامـلات يحفرن بمعاولهن الأرض لتصليـح المجاري وأنابيب المياه المعطوبة في وسط الوحل والطين .

والمرأة الصينية لا تتميز عن الرجل بشيء ، ويميزها الأجنبي أما بضفيرة شعرها التي تتدلى على كتفيها – ان كانت آنسة ، أو بشعر رأسها الذي هو أكثف طبعاً من شعر رأس الرجل .

والواقع فان توحيد الزي في الصين ، وتواضع الصيني نفسه يعطيان صورة كاملة لمجتمع بلا طبقات . ومع انهم لا يعيشون في مستوى واحد من الحياة ، إذ توجد بينهم فروق كبيرة في الثروة وفي الدخل الفردي .. إلا ان غنيهم قد كيف نفسه ليحيا حياة أكثرية أبناء الشعب الفقيرة ، فيحيا حياة بسيطة هـــادئة بـل لا يجرأ هـذا الغني على عرض ثرائه أمام الملأ ، عرضاً من شأنه اثارة النقد عليه وعلى طبقته ...

كما لا خيار له في الحياة التي يحياها اليـوم ، فلقد انعدمت الامتيازات الـتي

يستطيع الانسان شراءها بالمال ، فالسيارات قد أصبحت أدوات عمل للدولة .. وبيوت السكن تشرف عليها الدولة لتوزعها على المواطنين .. ثم ان محلات تدخين الأفيون .. وبيوت الدعارة .. والبغايا .. والملاهي .. ودور القمار قد قضي عليها واختفت إلى غير رجعة ... وأقصى معالم الترف الذي يمكن أن تباح للصيني لا تعدو التردد على المسارح والمطاعم لتناول أفخر الغذاء الممثل في لحوم البط البكيني المشهور .. أو ارتداء ملابس الحرير خلف جدران البيوت ، واقتناء التحف كآخر رأسمال يمكن الافادة من بيعه في المستقبل .

والانصاف يدعو إلى القول بأن كثيراً من أغنياء الصين يزهدون فعلاً في الظهور بمظهر الغنى . غير انهم قد أكرهوا على قبول نوع من الحياة لا يرتضونها حتماً . فلقد سألت أحد المسؤولين : أيحق للعائلة البورجوازية ان تستقل بسكنها الذي تمتلكه ، ولا تقبل معها نزلاء آخرين ؟.. فأجابني : « نعم لها كل الحق في ذلك على ان أقارب العائلة أو أصدقاءها ينصحونها بان تعطي الغرف الزائدة عن حاجتها لمن لا سكن لهم من مواطنيهم .. » ثم أضاف قائلاً : « ولم نسمع بأن عائلة بورجوازية قد رفضت مثل هذا الرجاء حتى الآن » !!

أما الموظفون الرسميون الكبار الذين يتقاضون رواتب كبيرة ، تصل أحياناً إلى عشرة أضعاف راتب العامل المتوسط ، أو خمسة عشر ضعفاً جزاء لما يوازيها من خدمات يقدمونها للدولة ، فانهم يقومون بجهود عظيم وشاق يستغرق جل يومهم إذ انهم يبذلون وقتهم وقواهم لتلبية حاجات الدولة فلم تعد لهم امكانات أو وقت يسمح لهم بحياة الاستمتاع التي يشتهيها الانسان .

ان الأجنبي الذي يتجول في عاصمة كبيرة كبكين يبلغ تعدادها ثلاثة ملايين نسمة تعتوره الحيرة والدهشة المقترنة بالاعجاب والاجلال للمواطن الصيني الهادىء المتزن الذي لا تفارق الابتسامة وجهه ، والذي يتكلف المرح حتى في ساعات غضبه أو حزنه .. ولم أشهد طيلة اقامتي في بكين ، وتجوالي في مدنها شخصاً يخاصم آخر ، أو يتشاجر أو يتصايح معه . وقد يكون هذا من باب الصدفة ولكنه على أي حال مظهر رائع إذا قارنته بما يحدث في البلاد الأخرى ، وفي بلادنا العربية

على الأخص .

ويصعب على الذي يتجول في بكين ان يشهد مقهى أو مطعماً ، وقيل لنا انها تقع وراء الشوارع الرئيسية التي قلما تجد فيها عمارات شاهقة كالتي يراها المرء في العواصم الأخرى أو في مدن الصين القديمة ـ الساحليـــة منها على الأخص ... فالأبنية واطئة وبسيطة لا أثر فيها للزخرفة . على ان العمران قائم على قدم وساق في كل مكان ، فالأبنية القديمة تهدم لفتح شوارع جديدة ، أو لتقوم مقامها أبنية سكن حديثة .

ولم يكن يعنينا السؤال عن وسائل المواصلات ، إذ ليس في بكين ولا في سائر مدن الصين سيارات تاكسي « اجرة » ، فجميع السيـارات ملك للدولة تابعة للخدمات الرسمية ، وما عدا خطوط الترام ، وسيارات الأوتوبيس المخصصة لتنقلات الناس بأجور زهيدة ... وهي قليلة جـداً ... فان الشعب يستخـــدم الدراجـات الهوائية بكثرة تلفت الأنظـار ، وتقوم البلديات بتخصيص محـلات لتجميـع الدراجات فيصفها أصحـابها على حافات الأرصفة ، ويربطهـــا بعضهم بالسلاسل .. وهناك عربات صغيرة تتسع لشخصين تستخدم بالأجرة ، ويسحبهـا رجل من على دراجته الهوائية [١] .

وأسعار ركوب هذه العربات محدد ، ينفذها صاحب العربة الفقير بدقـــة وأمانة .. ولقد ركبت مرة مع صديقي سعد عمر إحدى هذه العربات في شنغهاي فقطعت بنا مسافة طويلة ، وبما ان التفاهم مع الصيني صعب جـــداً فلقد فتحت لصاحب العربة حقيبة النقود وطلبت إليه أن يأخذ أجرته فأخذ ما يعادل خمسة قروش مصرية (خمسين فلساً) .. فأعطيته المزيد فرفض وأصررت عليه أن يأخذ ما يعادل خمسة قروش أخرى فرفض بإصرار وهو يضحك ويقول « شي .. شي» أي أشكرك .. أشكرك ..

---

١ ـ قضت حكومة الصين الشعبية على عادة الصينيين القديمة التي كان الرجل نفسه يسحب عربة الركوب بدلا عن الحيوان ، وكانت تسمى « الركشا » التي ما زالت موجودة في مستعمرة هونغ كونغ ، وبعض بلاد جنوبي شرقي اسيا ، وهي منافية للكرامة الانسانية .

ومعظم الصينيين يفعلون ما فعل صاحب عربة الاجرة الصغيرة .. فلقد رفض جميع العاملين في الفنادق ان يأخذوا أي اكرامية قدمناها لهم .. ولقد وضعت مرة في جيب أحد الحلاقين الاكرامية التي اعتدنا ان نعطيها لأمثالهم في شتى البلاد الأخرى ، ولكنه أصر إصراراً عجيباً على إرجاعها وهو يكرر القول شي..شي..

وتوزع الحكومة السيارات الخاصة على المسؤولين الكبار وتخصص بعضها لتنقلات ضيوفها ، وبعض هذه السيارات من صنع أمريكي من بقايا العهد البائد ، أما أكثرية السيارات فاما ان تكون من صنع روسي ، أو تشيكوسلوفاكي أو من صنع بولوني ، وعدد هذه السيارات قليل جداً ، ولا أظن ان عددها في بكين كلها يزيد عن ألف سيارة .

ومما لا شك فيه ان انعدام البورجوازية في الصين أثر على حياة بنيها وعلى عمرانها، فبكين مثلاً مدينة تتشابه فيها الحياة ، وليس فيها سوى وحدة التكرار. ففي كل ركن من أركانها يجد الانسان نفس الشوارع السكنية،بنفس الطابع.. طرق ضيقة مستقيمة ، رمادية اللون ، تقوم عليها بيوت واطئة ذات جدران رمادية ، تعلوها سقوف رمادية أيضاً .. وحالما يأتي المساء يخيم الظلام والكآبة عليها وعلى بنيها أيضاً .

وطراز بيوتها لا يختلف اطلاقاً عن بيوت المدن العربية القديمة ، أو البيوت الايرانية . تدخل البيت من دهليز ملتو يؤدي إلى الفناء الداخلي الذي تنتظم حوله الغرف . وفي وسط الفناء توجد نافورة تمد البيت بالماء الصالح للشرب ، وترفه عن ساكنيه ، وسقوف البيت تقوم على أعمدة خشبية وليست على الجدران كبيوتنا القديمة ، والحواجز بين الغرف رقيقة غاية الرقة وهي اما من الخشب أو من الخيزران والقصب أو القش .

على ان البيوت والشوارع تمتاز بالنظافة والترتيب الذي لا يخلو من الذوق السليم .

وقريباً من فندق بكين شارع تجاري معمور ، مليء بالمخازن التجارية التي تجتذب الأجانب ببضاعتها الصينية الخالصة،وفي هذا الشارع عدة مكتبات كبيرة،

يقدم على شراء ما فيها من كتب مئات المواطنين مما يلفت النظر حقاً .

ويتفرع من هذا الشارع سوق المدينة التجاري.. وهو متاهة من الممرات المسقوفة التي تؤلف في مجموعها وحدة كاملة تشبه إلى حد كبير أسواق بغداد القديمة المحصورة بين سوق السراي وشارع الرشيد ونهر دجلة وشارع السموأل أو تشبه أسواق خان الخليلي في القاهرة أو الأسواق المتفرعة من سوق الحميدية في دمشق .

وعلى الرغم من كآبة هذه السوق ، ونصف الظلام الذي يخيم على مخازنها التجارية تجنباً من الاسراف في استهلاك القوة الكهربائية ... فانها المجمع الذي يلتقي فيه الأجانب بكثرة من مختلف الأجناس والشعوب .. يتهافتون على شراء ما فيها من السلع الصينية من حرير خالص ، وأقمشة حريرية مطرزة بالصور على أشكال تابلوهات ، وصور فوتوغرافية صينية ، وعاديات قديمة ، وتماثيل عاجية دقيقة الصنع وبرفانات وصناديق خشبية لا نظير لها في الدنيا كلها ، وسجاد ينافس سجاد ايران ، وأحجار كريمة مختلفة الألوان والأشكال، ولؤلؤ حقيقي أو صناعي مقلد ، ونسيج مطرز ، وسترات من الحرير الموشى المبطنة بالفراء، وحلل قديمة ، وبقايا من فرو وملابس باعها نبلاء وشرفاء وأغنياء الماضي المندرس، ولعب وهدايا لا حصر لأنواعها.. وكلها تباع بأسعار محددة رخيصة الثمن.. وإذا صادف الشاري مخزناً ما زال ملكاً لصاحبه فالمساومة تلعب دورها ، على ان الشاري لا يفلت من ذلك البائع أبداً .. لأن البائع يتساهل في البيع ولأنه مساوم ماهر رقيق طيب ساحر في رقته وخلقه وحسن معاملته .

والزائر الأجنبي وهو يرى كل هذه الذخيرة من الفن .. يرى نفسه مضطراً للاقبال على شرائها دون ما حساب ، ويغريه على الشراء البائع الصيني اللطيف المؤدب الذي يوحي بالثقة المطلقة ، وبإخلاص صميمي وهو يتحدث إليه ، ويقنعه بأنه يشتري تحفاً لن يجدها في المستقبل في الصين ، وبأرخص الأثمان .

وتحدثت يوماً إلى أحد الباعة ، في مخزنه الكبير المليء بالتحف فسألته : هل المخزن هذا ومحتوياته ملك لك ؟ فأجابني : من أين أنت قادم ؟ ولأي شعب تنتمي ؟ فقلت له : أنا عربي من العراق ، جئت بدعوة من حكومتكم لحضور

الاحتفال بعيدكم الوطني . قال : إذن أنت مسلم ؟ قلت : نعم . قال : وأنا مسلم أيضاً ، وان أكثر التجار في هذا السوق مسلمون .

ودعاني إلى الجلوس ، وطلب لي فنجاناً من الشاي .. ثم بدأ يشكو لي حياته، فقلت له : لم تجبني على سؤالي عما إذا كان هذا المخزن هو ملك لك أم للحكومة ؟ فقال : لقد كان ملكاً لي ولكن ...

وهنا دخل المخزن اثنان من الرجال يرتديان البذلة الزرقاء من نوع جيد يبدو انه من الصوف الانكليزي (النادر في الصين) .. وما ان رآهما حتى غير الحديث فجأة ، والتفت إلي قائلاً بصوت عال :

– ما لي وسؤالك ؟ تستطيع ان تسأل هذا السؤال من غيري .. في فندق بكين !

واشتريت منه التحفة ، وغادرت المخزن .

وذهبت مرة لأشتري بذلة وقمصاناً من الحرير الذي اشتهرت به الصين وتحدثت إلى صاحب المخزن نفس الحديث فأجابني انه أحد الأغنياء الصينيين وان الدولة استولت على عقاراته كلها بما فيها البناء الذي فيه مخزنه .. وانه الآن يعمل موظفاً براتب معين يتقاضاه من عمله. وان الدولة قد أعطته سندات بثمن ما تمتلكه منه، وانها تعطيه عن هذه السندات ، وعن ثروته التي وضعت يدها عليها فائدة سنوية قدرها ٥ ٪ . ولكنه من الناحية العملية لا يسفيد شيئاً من ثروته ولا من فائدتها. وانه رأى أن خير وسيلة له ليظهر ولاءه للدولة ولنظامها ان يتبرع بثروته في مشاريع خيرية – وهذا جائز بموجب الأنظمة المرعية . وقال : بأني بعملي هذا قد ضمنت عملاً دائماً يقيني شر العوز .

والواقع ان الحكومة الشيوعية القائمة لم تؤمم الاقتصاد الصيني تأميماً كاملاً خشية من عشرات الملايين الذين ما يزالون يعملون في الصناعة اليدوية ، أو في التجارة الصغيرة كباعة محترفين .

وماوتسي تونغ نفسه يؤمن بأهمية الجهد الفردي في بناء الصين الجديدة فيقول: « لمواجهة الضغط الاستعماري وللخروج من وضع التخلف الاقتصادي ، يجب على

الصين ان تستخدم كل عناصر الرأسمالية المدنية والقروية التي تهيىء للاقتصاد القومي ربحاً لا خطراً » .

وكما رأيت في الصين ، فان الاقتصاد الصيني في هذا القطاع الذي أتحدث عنه يشمل ثلاثة أنواع من المشروعات .

مشروعات الدولة ، ومشروعات مختلطة تنتمي رؤوس الأموال فيها بنسب متساوية أو غير متساوية للدولة والأفراد ، وثالثها مشروعات خاصة وهي عادة صغيرة ذات دخل ضيق .

ويرى الانسان في بكين – كما يرى في كل أرجاء الصين ، عناية خاصة بوسائل الدعاية الشيوعية ، فلقد علقت على الجدران ، وفي الميادين والشوارع لوحات كبيرة تمثل أحدث الشعارات المعبرة عن سياسة الحكومة .. كتحرير تايوان وكيموي وماتسو . وشعارات الرايات الحمر الثلاث الممثلة للقفزة الكبرى ، والطلب إلى الشعب ان يقتصد في الغذاء .. ومكافحة الآفات الأربع للقضاء على الذباب والطيور والجرذان والبعوض إلى جانب صور كاريكاتورية وكلمات تحمل كلها أقصى معاني الحقد والكراهية والغضب على الولايات المتحدة الأمريكية عدوة شعب الصين اللدود التي تحمي نظام شان كاي شك ، وتعضده في خصامه للوطن الأم ، وفي عزمه على غزو البر الصيني وتحرم الحكومة التي تحكم الصين وشعبها البالغ سبعمائة مليون من عضويتها في هيئة الأمم المتحدة ، ومن كرسيها الطبيعي في مجلس الأمن الدائم بوصفها الدولة العظمى الرابعة في العالم .. ثم لا تعترف حتى بوجودها .

وإذا أضفنا إلى وسائل الدعاية هذه ، الدور الكبير الذي تقوم به الاذاعة ، وتبث وسائل دعايتها الماركسية عن طريق مكبرات الصوت المنتشرة في كل ركن من أركان المدن ، وفي داخل المصانع والنوادي .. نجد ان الدولة قد أسرفت في هذا السبيل إسرافاً لا أشك في انه قد أحدث رد فعل معاكس في نفوس الصينيين فالتكرار الدائم ، واللجاجة في أي شيء يؤديان حتماً إلى الملل والعزوف .. لا بل والاشمئزاز في بعض الحالات .

فالمواطن الصيني الذي يعود الى مسكنه لينام ويستريح بعد عمله الشاق ، لا يروق له حتماً سماع الموسيقى المجلجلة المنبعثة من مكبرات الصوت ، وقد يضع في أذنيه قطناً ليخفف عن سمعه المبادىء والدعاية الماركسية التي يسمع ألفاظ شعاراتها تتكرر يوماً بعد يوم ، وعاماً بعد عام .. وأظن ان خبراء الدعاية النفسية « السايكلوجية » يشاركونني هذا الرأي .

حياة الليل في بكين

✡

ولا يرى المرء في بكين كازينو أو ملهى أو باراً على الاطلاق ، فلقد أغلقتها الحكومة كلها ، كما انها قضت على الرقيق الأبيض والبغاء قضاء تاماً . وتبذل الحكومة جهدها لسد الفراغ في حياة الناس بالاكثار من النوادي والسينمات والمسارح الشعبية ، والمكتبات العامة .

وعلى الرغم من اسراف الحكومة في عرض صور الحياة التي تبشر وتدعم وجهة النظر الماركسية في دور السينما وفي المسارح .. إلا انها تشذ عن هذه القاعدة أحياناً ، فلقد صادف خلال وجودنا في العاصمة ان دعينا إلى المسرح القومي ، وكانت تعرض فيه أوبرا بحيرة الاوز « Swan Lake » ، فكان عزف الفرقة الموسيقية بالغ الروعة ، لا يقل عن عزف أرقى فرقة أوروبية .. أما الرقص الايقاعي وكانت بطلته شابة صينية لم يتجاوز عمرها ثمانية عشر عاماً فقد كان حسناً ، غير ان المناظر التي تناسب هذه التمثيلية العالمية لم تبلغ المستوى الذي رأيته في بلاد أخرى .

وعندما أبديت ملاحظتي هذه لأحد مرافقينا أجاب : ان عمر الأوبرا عندنا قصير جداً ، ولم يبدأ إلا منذ سنتين ، ونحن جادون للتعلم من الدول الاشتراكية الأخرى التي سبقتنا في هذا الميدان .. وسنقفز قفزتنا لتحقيقه .

ودعينا لمشاهدة تمثيلية صينية طويلة ، وأفلام سينمائية ، واستعراضات وألوان



مي – لان – فانغ : أعظم فناني الأوبرا الصينيين
عمره ٧٠ عاماً ويمثل دوماً دور امرأة

شتى من ألعاب الاكروبات .

ولا أظن ان هناك أجنبياً واحداً يستطيع ان يتابع التمثيلية الصينية الطويلة حتى نهايتها دون ان ينام خلال عرض فصولها .. وكنت صريحاً في إجابتي لرئيس مرافقينا عندما سألني رأيي في التمثيلية التي شاهدناها فقلت له : لقد أوحت لي التمثيلية في الفترات التي صحوت فيها لمتابعة مشاهدها ما يحدث على سطوح بيوت بغداد في فصل تزاوج القطط في شهر شباط « فبراير » من كل عام حيث تختصم الهررة فيما بينها على الأنثى بعراك ومواء طويلين .. على نحو ما فعل ممثلوكم على خشبة المسرح !

على ان التمثيليات القصيرة التي شهدناها في مدن أخرى كانت رائعة ومثيرة للعواطف الانسانية ، وحماسية أيضاً ، وعلى غرارها الأفلام السينمائية التي تخرجها استديوهات الصين ، والتي تعرض لا في دور السينما وحسب ، بل وفي النوادي أو المعاهد أو الصالات العامة القريبة من دور السكن أو في العراء في طول البلاد وعرضها .

والصينيون يرتادون المسارح ودور السينما بكثرة تلفت الأنظار إذ لا وسائل للترفيه غيرها ، وأجور الدخول إليها رخيصة جداً ، وتفتتح الحفلات في حوالى الساعة السابعة والنصف مساء وتنتهي قبل الحادية عشرة إذ تنتهي حياة الليل في الصين ، اللهم إلا إذا كان هناك عيد وطني أو مناسبة شعبية ، فيبقى الشعب عندئذ يرقص ويغني في الشوارع والميادين حتى مطلع الفجر .

والتمثيليات والأفلام السينمائية مرتبطة كل الارتباط بأحداث الكفاح الوطني وبطولة المواطن الشيوعي ، أو بالبحث في المثل والتعاليم الاشتراكية الماركسية حتى ولو كان محتوى القصة غرامياً.ولم أشهد فيلماً أو مشهداً تمثيلياً يقبل فيه الرجل المرأة أو يغازلها ، وإنما يكتفي بالتعبير عن مشاعره وأحاسيسه ، وخلجات نفسه ، وجيشان عواطفه بحركات مناسبة ، حزينة تارة ، ومثيرة للمشاعر تارة أخرى !

ورأيت فيلماً سينمائياً قصيراً يمثل حياة المواطن الصيني بكل بساطتها وهدوئها وسيرها الرتيب، وكان بطل الرواية شيخاً عجوزاً كرس وقته في إنماء حديقته

الصغيرة ، والعناية بأشجارها وورودها ، فكانت قطعة من حياته نفسه .. وتسلل ذات يوم إلى الحديقة صغار القرية ، يقودهم فتى شرير ، وصاروا يقتطعون بعض فاكهتها وورودها .. ورآهم مرة يسرقون ويعبثون بالحديقة فتقدم إليهم فولوا هاربين، ولكنه أمسك بأحدهم الذي كان يرتعد خوفاً ، على ان الشيخ العجوز لاطفه وأسمعه كلاماً طيباً ونصحه .. ثم أخلى سبيله . فاطمأن بقية الأطفال ، وعادوا يستمعون إلى حنان الشيخ ونصحه .. وقبل ان يخلي سبيلهم قدم لهم سلة مليئة بالفواكه .

ولا يخلو التمثيل في الأوبرات من دور رجل اقطاعي ، أو حاكم ، أو ثري ، يمثل دور الظالم المستبد المستغل لجهود عامة الناس .. تحيطه حاشية منافقة انتهازية ويعيش حياة كلها بذخ واسراف وتبديد للأموال، واعتداء على الأعراض.. وشراء الذمم .. ثم ينتهي نهاية مهينة مزرية على أيدي أولئك الذين استغلهم واعتدى عليهم وقتل مواطنيهم .

والصينيون مولعون جداً بالألعاب السحرية والاكروبات، ولقد شهدنا كثيراً منها ، ووقفنا حيارى أمام الاكروبات الصيني المعجز ، نتابع ألعابها وخفتها ومغامراتها وبعضها يصل إلى درجة الخيال .

القضاء على الافات الاربع

*

لقد سمع الناس في جميع أنحاء العالم قصة القضاء على الآفات الأربع في الصين، التي تحدث عنها الصينيون كثيراً ، فخورين بتحقيق معجزتها .

والآفات الأربع التي يعنيها الصينيون هي : الذباب، والجرذان، والعصافير ، والبعوض. ولقد سألنا أحد المسؤولين عن الطريقة التي استعملت للقضاء على العصافير فأجاب : كانت طريقتنا في إبادة العصافير بسيطة جداً ، فلقد طلبنا من المواطنين أن يبيدوها فأبادوها . ومن وسائل إبادتها ان الناس في كل مكان ، كانوا يقرعون

الطبول ويحدثون ضجيجاً من شأنه ان تبقى الطيور محلقة ، لمدة أربع ساعات على الأقل ، فلا تتاح لها فرصة الاستقرار على الأرض فتسقط من الاعياء ويصطادها الناس فضلًا عن استخدام بنادق الصيد ووسائل الصيد الأخرى .

والواقع ان الحكومة قد قضت على الملاريا في جميع أنحاء البلاد ، فانها ترش جميع المناطق الموبوءة بالبعوض والناموس بمختلف المواد المبيدة للحشرات والبعوض ، ولمسنا ذلك في المدن وفي الريف على حد سواء . على ان هـذا لا يعني القضاء على الذباب مثلًا قضاء تاماً ، فلقد رأينا خدم فندق بكين ، وهم يطاردون الذباب ويقتلونه بمنشاتهم .

وبلاد الصين تمتاز بالنظافة ، والشعب يلعب دوراً أساسياً في تحقيقها ، فلقد رأينا أصحاب العربات التي تجرها الحيوانات ، يضعون أكياساً من الكتان خلف كل حيوان يجر عربة في المدن والأرياف ، فتتجمع فضلات الحيوانات في تلك الأكياس بدلاً من تلويث الشوارع بها – كما يحدث في بلادنا .

وفضلًا عن ذلك فانهم يستخرجون «غاز الأثيل» من تلك الفضلات ويستغلونها أيضاً للسماد .

ولقد أخبرنا الوزير المساعد للاصلاح الزراعي ، بأن كمية السماد الذي تخرجه المعامل الحديثة في الصين تبلغ مليوني طن في السنة ، وان أهل الريف يجمعون سماداً طبيعياً يقدر بنحو ١٢ مليون طن في العام الواحد .

ولقد سمعت أخيراً ان قتل العصافير في الصين قد سبب زيادة في الديدان والحشرات التي صارت تفتك بالمزروعات .

ان المرء الذي يتجول في الصين ، نادراً ما يلقى كلاباً أو قططاً فيها ، إذ ان الحكومة قد أمرت بإبادتها باعتبارها حاملة للجراثيم ، ثم ان الابقاء عليها يكلف كثيراً ، ولا يحب الصينيون هذه الحيوانات إلى الحد الذي يضحون من أجلها بجزء من قوتهم اليومي الذي هم بحاجة إليه .

مستوى معيشة الفرد في الصين

ما دمنا قد تحدثنا في الفصل السابق عن مظاهر الحياة في عاصمة الصين ، لا بد لنا قبل ان نسترسل في بحثنا الطويل القادم ، ان نعطي صورة لمستوى حياة معيشة المواطن الصيني على نحو ما قرأت عن ماضيه القريب ، وعلى نحو ما رأيت في حاضره .

ان العامل الأساسي المؤثر في حياة هذا الشعب وفي مستوى معيشته هو بلا شك تزايد عدد سكانه بمعدل عشرين مليون نسمة في كل عام . وعلى الرغم من مرور ثلاث عشرة سنة على نهضته الجبارة التي حققت له تقدماً عظيماً في شتى ميادين الحياة.. فان زيادة السكان في الصين كانت تعادل الزيادة السنوية في محصول الغذاء، وبات من الواضح ان أي أسلوب للتنمية يجب أن يتسق وهذه الحقيقة لكي يرتفع مستوى حياة المواطن إلى الأفضل .

ولقد حاول المسؤولون يوماً ان يعملوا على تحديد النسل ، فشنوا حملة قوية واسعة النطاق في شتى أرجاء البلاد ، وبجميع الوسائل ليقنعوا الشعب باستعمال عقاقير الغرب المانعة للحمل ، ووفروا هذه العقاقير بكثرة ، وبأرخص الأثمان .

إلا ان الجماهير الصينية قد أصيبت بدهشة كبرى لهذه الحملة واستنكرتها لأنها تؤمن إيماناً راسخاً بأن وجود عدد كبير من الأطفال يعد نعمة وبركة على العائلة مما دعا المسؤولين إلى إيقاف الحملة فجأة بعد ان استمرت شهوراً قلائل . وتوجه المسؤولون بكليتهم إلى رسم سياستهم الاقتصادية الجديدة التي تتسق وزيادة السكان.

ان الصين كانت على مولد جمهوريتها الشعبية عام ١٩٤٩ أكثر بلاد العالم فقراً، (بعد اندونيسيا) فكان دخل الفرد فيها أقل من دخل الأمريكي ٧٥ مرة . ونصيب الفرد في الصين من الغذاء يقابل ٢٠ ٪ من نصيب الفرد في فرنسا مع قلة

محتويات البروتينات في الغذاء الصيني عنه في الغذاء الفرنسي .

وتشكو الصين اليوم ، على الرغم من قفزتها العظمى، وبما اتخذته من اجراءات وتشريعات أزمة بطالة ، سترتها باستخدامها أكثر مما يلزم من الأيدي العاملة في جميع قطاعات الدولة .. لأنها ملزمة بتوفير الغذاء والكساء والسكن لشعبها ، وملزمة لأن تجد السبيل لرفع مستوى حياة الشعب .. وما المعركة العظمى التي تخوضها اليوم وستخوضها لسنين طويلة قادمة إلا لكي تتجنب خسران هذه المعركة المريرة التي يتوقف على نجاحها الكيان كله ، والنظام كله [١] .

وسيحكم القارىء بعد انتهائه من قراءة فصول هـذا الكتاب على ما قطعته الصين الشعبية من أشواط في هذا المضمار ..

ولمعرفة مستوى حياة الفرد الصيني في حاضره – كما رأيته – يجب ان نعرف دخله ، ونفقاته الشهرية الممثلة في قيمة العملة النقدية الصينية ، وفي قوتها الشرائية في الداخل .

ان وحدة النقد الصينية هي الين « UAN » والين يؤلف ١٠٠ سنت ، ولقد استطاعت حكومة الصين الشعبية بعد استيلائها على الحكم ان تعيد إلى الين اعتباره بعد تدهور قيمته الدولية تدهوراً خطيراً في عهد الكومنتانغ ، فثبت سعره في التعامل الدولي فأصبحت قوته الشرائية بما يعادل ٣ شلنات انكليزية – أي ١٥٠ فلساً عراقياً [٢] .

ويتراوح راتب العامل الشهري ما بين ٤٠ إلى ٨٠ يناً ومعدل أجر العامل الماهر هو ١١٠ يناً . أما رواتب المستخدمين والموظفين الصغار فيتراوح ما بين ٧٠ ، ٨٠

---

١ - ستظل مشكلة زيادة السكان في الصين عائقاً اساسياً يحول دون رفع مستوى الحياة لابنائها مهما بلغ تقدمها الصناعي ، ومهما وضعت من مناهج للتنمية الاقتصادية .. ثم نفذت تلك المناهج. واني لمقتنع بضرورة تحديد النسل في الصين ، اقتناعي بضرورته القصوى لمصر التي تجابه نفس المشكلة ، خاصة وان الامة العربية لم تصل الى الوعي الكافي الكفيل باعادة توزيع السكان بين اقاليمها .. وقد لا تصل اليه في سنين طويلة قادمة .

٢ - ينخفض سعره الحر (في السوق السوداء) الى نحو ثلث سعره الرسمي كما علمت من بعض الجهات هناك .

ينا . ويتقاضى المديرون وذوو الوظائف الكبيرة رواتب شهرية تتراوح بين ٢٠٠ و ٢٥٠ يناً . في حين ان رئيس المهندسين لمعمل كبير يصل راتبـــه الشهري إلى ٣٤٠ يناً .

أما النفقات الشهرية للعامل الذي يتقاضى ٤٠ يناً شهرياً فهي، كما أخبرني العامل « شانغ » الذي يشتغل في معمل السيارات رقم ١ في « شانغ شون » (عاصمة اقليم كيرين) على الوجه التالي :

من ٦ إلى ٢٠ سنتاً وجبة الطعام الواحدة حسب تعداد ألوانها ، ويدفع لمنامه في الغرفة التي يشاركه في سكنها بعض رفاقه نحو ٢ ين شهرياً ، وثمن بذلته القطنية ٨ ينات . وزوج الأحذية المصنوعة من القماش قيمته ١٠ ينات ، والمقعد في السينما ٢٥ سنتاً .

وقال العامل المذكور بأنه يتغذى بما يكفيه ، ويـذهب إلى السينما مرة كل اسبوع وبما انه مسؤول عن إعالة أبويه القاطنين في الريف فانه يقتصد في نفقاتـــه فلا يتجاوز صرفه الشهري ١٦ ينــاً ، ويرسل إلى والديه شهرياً ٢٥ يناً الباقيـــة لديه ، ولذلك فليس لديه وفر من عمله .

وسألت عاملة في مصنع نسيج بكين رقم ٢ عن دخلها ومصروفاتها الشهريـة فأجابت :

انها عاملة منذ أربع سنوات ، ولقد ارتفع مرتبها الشهري إلى ٦٠ ينـاً تنفق منه على غذائها ١٤ يناً ، وتدفع على سكنها الشهري نصف ين (لأنهـا تقطن مـع إحدى عشرة فتاة في غرفة واحدة) وتذهب إلى السينما أو إلى حفلة راقصة مرة في الأسبوع، وتستمع إلى الموسيقى والأخبار من مكبرات الصوت، وهي مقتصدة، ولديها بعد عمل دام أربـع سنين وفر قدره ٩٠ يناً .

وزرنا أسرة متوسطة الحال ، عندها طفلان صغيران ، وتقطن بيتاً صغـيراً ذات مدخل ضيق وفيه غرفة نوم واحدة ومطبخ صغير .

ولقد ملأ السرير الكبير غرفة النوم كلها ، حيث ينام الزوجان والولدان عليه جميعاً ، ويتدثرون بدثار واحد .

ودخل الزوجين معاً حوالى ١٠٠ ين ، يدفعان منه ١٢ يناً للسكن ، و٨ ينات لدار الحضانة المسؤولة عن تربية وإعالة الطفلين أثناء انشغال والديهما بالعمل، و٣٠ يناً للطعام ، وتصرف الأسرة ما تبقى من دخلها على الملبس والحاجيات الضرورية الأخرى ، ولم يدخر الزوجان مالاً يذكر .

ولقد شاهدت العمال وهم يتناولون غذاءهم في فترة الغداء ، وهو يتألف على الغالب من الأرز المخلوط بقطعة من السمك أو الخضار مع قطعة صغيرة من الخبز.

ومع ان حياة الفلاحين والعمال والباعة المتجولين .. وهم يؤلفون جميعاً الغالبية العظمى من الشعب ، يبدو عليها التقشف في الملبس ، وقدر محدود من الغذاء يسد رمقهم ، ويسكنون في مساكن كالسردين في علب الصفيح .. إلا انهم راضون عن حياتهم كما يبدو ، لأن مئات الألوف منهم كانوا إلى عهد قريب يموتون جوعاً ، أو يأكلون ولا يشبعون .. ويحيون حياة هي أدنى من حياة الانسان !

وهم أكثر من هذا وذاك يرون بأم أعينهم ان القلة من مواطنيهم التي كانت تحتكر انتاجهم ، وتبذر خيرات بلادهم على ملذاتها وشهواتها وقصورها وبذخها قد ولت إلى غير رجعة .. وان موارد بلادهم تصرف على ما فيه نفعهم جميعاً .. وانهم يتطلعون إلى مستقبل افضل .

لقد كتب « لي فوشون » الموجه لسياسة التخطيط في تقريره عن برنامج السنوات الخمس يقول :

« نحن لا ننكر ان مستوى المعيشة الحالي في بلدنا ما زال منخفضاً نسبياً ، ولكن إذا عرفنا من أي درك بدأ التعمير ، وعرفنا استحكام الفقر في الصين عام ١٩٤٩ فان الموازنة بين مستوى معيشة العامل الصيني ومستوى العامل في الغرب قد أصبحت غير ذات معنى .

اما إذا قارن الانسان حاله بحال الجيل الذي سبقه ، فانه يرى انها قد تبدلت تبدلاً تاماً .. وهي على أي حال ، تمتاز امتيازاً فائقاً على حال سواه من عمال آسيا .. لا بل أن القوانين الخاصة بالضمان الاجتماعي عندنا لتبهر الأجانب بعد تجوالهم في الهند وأندونيسيا وجميع الجزء الجنوبي الشرقي من قارة آسيا » .

ثم يقول في موضع آخر :

« ان اشباع حاجات الشعب تتحكم فيه القوى المنتجة والموارد المادية التي يمتلكها المجتمع . فتحسين مستوى المعيشة يجب ان يكون قائماً على تقدم الانتاج وزيادة الغلة ، وقد ازداد انتاجنا الصناعي وغلتنا الزراعية من عام إلى عام ولكنها ما زالت جد منخفضة ، والانتاج في جملته ليس عظيماً ، وإذا أردنا تنمية الانتاج والاستمساك بدرجة عالية من شأنها ان تكون الأسس المادية لتحسين معيشة الشعب ، وجب علينا التوسع في الصناعة الثقيلة وفروع اقتصادنا الأخرى .

اننا لا نستطيع استخدام كل الأرباح في رفع مستوى المعيشة ، وإنما علينا ان نستثمر جزءاً منها في بناء البلاد .. ان السياسة السليمة هي ادماج المصلحة العاجلة للشعب في مصالحه الآجلة .. فإلى جانب اعطاء الأسبقية لحاجات البناء يجب رفع مستوى حياته بشكل مناسب » .

أيام حافلة في بكين

- مع شين يي وشواين لاي
- تأسيس جمعية الصداقة الصينية ـ العراقية في بكين
- عند بوابة السلام السماوي
- مع الجالية العربية
- الجمعية الاسلامية في بكين
- زيارة سور الصين العظيم

مع شين يي وشواين لاي

☆

كان عبد الوهاب محمود رئيس وفد الصداقة الشعبي العراقي يحمل معه رسالة خاصة من رئيس وزراء العراق إلى شواين لاي رئيس وزراء الصين . ولقد أخبرنا المسؤولون بأن رئيس الوزارة في خارج بكين وسيعود إليها بعد يومين . على ان نائبه ووزير الخارجية الماريشال شين يي يرحب باجتماعنا به ، وليتسلم من رئيس وفدنا الرسالة التي أرسلها رئيس حكومتنا إلى شواين لاي.

> **نحن لا نصنع المعجزات ، ففي تسع سنوات قضيناها في اعادة تنظيم البلاد ، لم تظهر الكهرباء والقوة المحركة ، والسيارات ، والآلات الميكانيكية من العدم بطريقة سحرية.**
>
> شواين لاي

وتم اجتماعنا بشين يي في اليوم التالي لوصولنا العاصمة بكين « ٢٦ ايلول سبتمبر ١٩٥٨ » ودام الاجتماع حوالى ساعة ونصف، وكنا نعرف عنه انه أحد قادة الحزب الشيوعي الصيني الذين حققوا النصر الساحق على حكم الكومنتانغ وانه في طليعة القادة العسكريين الذين خاضوا معارك التحرير . وهو اليوم أحد خمسة رجال يحكمون الصين .

وشين يي رجل تجاوز الستين ، ولكنه يبدو نشيطاً وفعالاً ، ومع انه يرتدي الزي الشعبي الذي يرتديه كل الصينيين ، فانه يتحلى بذوق رفيع في ملبسه

ومظهره ، يجمع وجه بين صلابة الجندي المحـارب العنيد ، وبشاشة الديبلوماسي الرقيق الدمث .

لا يتمالك المتحدث إليه من الإعجاب به إعجاباً مشوباً بالود والاحترام معـاً . لا بل ويوحي إلى من يستمع إليه وهو يتحدث بلغته الصينية الغريبة على أسماعنـا بالثقة المقترنة بالاخلاص بعيداً عن ديلوماسية السياسي المحترف .

بدأ حديثه بالاعتذار عن عدم مقابلة شواين لاي لنا ليتسلم بنفسه رسالة رئيس وزراء حكومتنا لأنه خارج بكين ، ولكنه سيسلم إليه الرسالة وينقل إليـــه حديثنا . وقال :

انه معجب كأي صيني بثورة العراق الجبـــارة القاصمة لظهور المستعمرين وأذنابهم . فلقد أنجزتم بساعات ما لم ننجزه نحـن بسنوات مما أثار إعجـاب شعب الصين كله فخرجت جماهيره في كل أرض الصين بمظاهرات جماعية لتحية شعبكم مما لم تشهده الصين إلا قليلاً، ولقد استمرت المظاهرات في العاصمة أربعاً وعشرين ساعة متواصلة .

ونصيحتنا لكم المستمدة من تجربتنا نحن ان تأخذوا حذركم فلا تدعوا للخونة وأذناب الاستعمار فرصة ليعيدوا بها تنظيم صفوفهم ، فاقضوا عليهم قضاء تاماً لكي لا يعذبوكم كما عـــذبونا نحن من قبلكم ... وان كان موقفهم المعادي لحركتنا التحررية حافزاً لنا لنعمل أكثر ولنأخذ حذرنا منهم أكثر .

ونحن إذ نفتح لكم قلوبنا وبلادنا ، لتشاهدوا معالم نهضتنا .. نعترف لكم بأننا ما زلنا في بداية الطريق ، نتعثر ونقع في أخطاء كثيرة ، فدلونا على ما ترون من نواقصنا لنتلافاها .

*

وفي مساء اليوم الثاني اجتمعنا طويلاً بشواين لاي رئيس الوزراء فحدثنا عن سياسة بلاده حديثاً صريحاً قال فيه :

« نحن نحب السلام ونريده .. ولكننا لا نخشى الحرب . فنحن نستطيع ان نحرر تايوان والجزر التابعة لها متى شئنا ، ولكننا نفضل طريق السلام ، ولأن بقاء

الامريكيين في تايوان ومساندتهم للخائن شان كاي شك يزيد في حماسة شعبنا في البناء كما زاد احتلال اليهود لفلسطين من حماسة الأمة العربية ، اننا لسنا أقويـاء ولكننا ٦٥٠ مليون صيني متحد متضامن .

وما زلنا في بداية الطريق .. وما سترونه في تجوالكم ببلادنا ان هو إلا جزء يسير مما سنحققه في المستقبل .. ان توزيع الصناعة والانتاج الذي سترونه ، قد يثير اهتمامكم على الـ ٦٥٠ مليون صيني معنـاه اننا لم نعمل إلا النذر اليسير .



شواين لاي

اننا ندرك حق الادراك مشاعر العرب واعتزازهم بقوميتهم ، ونقدر عوامل تمسكهم بتراثهم القـومي والديـني ، وحرصهم على نظام الحكم المنبثق عـن حضارتهم وتاريخهم .

ان حكومتي ترى ان وجود اليهود الأجـانب بفلسطين ان هو إلا وسيلة للاستعمار الغربي ليتخذ من فلسطين قاعدة للعدوان على البلاد العربية ، ولكي يحول هذا الاستعمار الغربي دون وحدة العرب السياسية .. ولكني واثق من ان خلق دولة اسرائيـل سيؤدي إلى تمزيق الاستعمار في الوطن العربي وسيؤدي بالتالي إلى وحدة العرب .

ان الصين الشعبية لتفتخر بامكان تعايش القومية العربية المتحررة جنباً إلى جنب

مع الصين الاشتراكية على الرغم من سلوكهما طريقين متباعدين ، وانه اوضح لجمال عبد الناصر في مؤتمر باندونغ هذه الحقائق .

ان مطمح الصين الشعبية الوحيد في مؤازرتها وتأييدها ومساعدتها للأمة العربية هو ان لا تتخذ من أرض البلاد العربية – مرة أخرى – قواعد عسكرية للمستعمرين الغربيين ليهددوا بها دول المعسكر الاشتراكي .

وان شعبه لا ولن يتدخل في شؤون بلادنا الداخلية [١] .

ان في العالم اليوم قوتين : الأولى الدول الاشتراكية ، والثانية الدول الوطنية القومية التي يتزايد عددها في آسيا وافريقيا . واني لواثق بإمكان تعاون هاتين القوتين . وان قيام حرب عالمية ثالثة سيؤدي إلى خلق دول وطنية قومية أخرى على حساب تفتيت واضعاف الدول الغربية .. لا بل وقد تؤدي مثل هذه الحرب إلى القضاء على الدول الاستعمارية قضاء تاماً .

وأضاف شواين لاي قائلًا :

ان المستعمرين الأمريكان يصفوننا حين نطالب بضم جزء من بلادنا بالمعتدين.. اي ان المطالبة بضم جزء من الوطن إلى الجزء الأكبر يعتبر في نظر الأمريكان عدواناً..ثم يسمون احتلالهم لذلك الجزء من وطننا، واتخاذهم إياه قاعدة عسكرية لشن الهجوم علينا يسمونه دفاعاً عن عالم حر ..

ان لكل شعب ظروفه السياسية .. صحيح انكم قد تأخذون من كفاحنا العبرة فقط ، ولكن التجربة تنبع من ظروفكم أنتم ، ان ثورتكم في العراق قد قضت على الملكية الفاسدة ، وعلى أعوان الاستعمار ، ولذلك لن يجد المستعمرون وسيلة يلجون منها إلى بلادكم غير التخريب والدسائس ، وبهذا فقد تفوقتم علينا

---

١ ـ دفعاً لأي التباس على القارىء ، يدفعني واجبي القومي الى ان أسجل على الصينيين ان سفارتهم في بغداد قد آزرت وأيدت الشيوعيين في العراق ، وأمدتهم وحرضتهم

نحن الذين لم نقض على الخائن شان كاي شك فاستخدمه المستعمرون آلة بأيديهم وحجة يقيمونها على حق موهوم .

ان وراءكم مجهوداً أعظم لتحرير وطنكم الاقتصادي ، وبناء وطنكم .. على ان مهمتكم أسهل من مهمتنا لأن وضعكم المالي حسن ، ولأنكم تخلصتم من الاستعمار ومن أعوان الاستعمار .

ان أمام الجزائر كفاحاً مريراً وشاقاً قبل ان تحرر حكومتها الوطنية التي تقيم الآن في المنفى – أرض بلادها .. ان حكومتي تسند كفاح شعب الجزائر وتمده بالعون ، وتعترف بحكومته الوطنيـة دون ان تهتم بموقف فرنسا من هـذا الاعتراف .

ورد شواين لاي على قول رئيس وفدنا قائلًا : ان انتصارنا لقضيتكم العادلة ان هو إلا دفاع عن بلادنا وقضيتنا العادلة.. على ان الفضل أولاً وأخيراً يعود لكم أنفسكم في تحرير بلادكم ، كما حدث لشعب مصر الذي قاوم المعتدين ، وصمم على الانتصار فأرغم المعتدين على الانسحاب » – انتهى حديث شواين لاي .

وكانت التفاتة كريمة مـن شواين لاي في حديثه الخـاص معي كجندي ثائر قاوم الانكليز في حربهم العدوانية في ثورة ١٩٤١ ودافع عن عاصمة بلاده إلى ان وقعت شروط الهدنة معهم .

لقد قرأت كثيراً مما كتب عن شخصية هذا الرجل الذي يدير شؤون بلاده ، ويحكم خمس سكان المعمورة وليس لدي ما أضيفه بعد ان رأيته واستمعت إليه ، من مشاركة أشد خصومه عداء بوصفهم إياه : رجـل دولة ذكي لامع وساحر وداهية . يوحي إليك وجهه بوداعة طبيب ، وهدوء أديب فنان ، وتعبر ابتسامته عن سخرية بالغة لا يمكن ان تفسر إلا بجمع شخصية صاحبها للمتناقضات : انسانية بالغة في السمو والنبل ، وشخصية مؤمنة بما تعتقد وتفعل حتى ولو تركت خلفها ملايين من الضحايا من بني الانسان .

تأسيس جمعية الصداقة الصينية ـ العراقية في بكين

*

في قاعة مؤتمر الشورى السياسي الصيني في بكين اجتمع نحو عشرة آلاف من رجال ونساء الصين برئاسة نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية الماريشال «شين يي» ودعا وفد الصداقة الشعبي العراقي إلى الاجتماع للاحتفال بإعلان تأسيس أول جمعية صداقة صينية – عراقية .

ولقد حضر الاحتفال رؤساء البعثات السياسية الصديقة في بكين ، وعلى رأسهم السيد حسن رجب سفير الجمهورية العربية المتحدة .

كما حضر الاحتفال مئات المندوبين الممثلين لست عشرة جمعية صينية للاعلان عن تأييدهم ومباركتهم تأسيس جمعية الصداقة الصينية – العراقية ، وهم يمثلون :

١ – جمعية الثقافة الخارجية الشعبية الصينية .
٢ – لجنة مؤتمر التضامن الافريقي الآسيوي في الصين.
٣ – لجنة الدفاع عن السلام العالمي لشعب الصين .
٤ – اتحاد النقابات العامة لجميع الصين .
٥ – اتحاد الشباب لجميع الصين .
٦ – الاتحاد النسائي لجمهورية الصين الشعبية .
٧ – جمعية العلاقات السياسية الخارجية الشعبية الصينية .
٨ – جمعية السياسة والحقوق الصينية .
٩ – اتحاد العلوم والفنون الصينية .
١٠– جمعية الاسلام في الصين .
١١– لجنة تنمية التجارة الدولية في الصين .
١٢– اتحاد الرياضة البدنية في جميع الصين .
١٣– اتحاد الصحفيين في الصين .
١٤– جمعية الصليب الأحمر الصينية .

١٥– جمعية الطب الصينية .
١٦– اتحاد الفنون والآداب .

وافتتح المؤتمر الماريشال شين يي وزير الخارجية بكلمة ترحيب بوفد الصداقة الشعبي العراقي . وقال انه كأي مواطن صيني معجب بثورة العراق الجبارة القاصمة لظهور المستعمرين وأذنابهم . وتوجه إلينا قائلاً : انكم قد أنجزتم بساعات ما لم ننجزه نحن بسنوات ، على ان المستعمرين لن يدعوكم لترتاحوا فاحذروهم ، ولا تدعوا الخونة وأذناب الاستعمار يعيدون تنظيم صفوفهم .. ولنا نحن تجربة قبلكم : فلقد عذبونا كثيراً وان كان في موقفهم العدائي لنا، الحافز لنعمل أكثر، ونأخذ الحذر أكثر .

ثم بارك إعلان تأسيس جمعية الصداقة الصينية–العراقية التي هي امتداد تاريخي لعلاقات طيبة كانت قد نشأت بين العرب والصينيين .

ورد السيد عبد الوهاب محمود رئيس وفد الصداقة الشعبي العراقي معلناً تأييده الكامل لتأسيس جمعية الصداقة الصينية – العراقية . ووعد بإعلان تأسيسها في العراق حالما يعود الوفد إلى بلاده .

وتلاه عدد من خطباء الوطن العربي فتكلم السيد حسن رجب سفير الجمهورية العربية المتحدة ، كما تكلم ممثلو الجزائر والسودان ولبنان .

وكان مقرراً ان ألقي كلمة في الحفل فألقيت الكلمة التالية :

أيها الأصدقاء :

اسمحوا لي ان أبدأ بالشكر لكم لإعلانكم تأسيس جمعية الصداقة الصينية – العراقية في هذا الحفل الحاشد الذي سيقابل على وجه التأكيد بكل ترحاب وقبول لدى شعب العراق ، وسنعمل ما وسعنا العمل لتحقيق أهداف الجمعية .

لم نكن نحن أبناء العراق الذي يمثله وفدنا الجالس بينكم الآن ، لنحلم يوماً من الأيام ان نزور الصين .

لقد كان الغربيون يدعون : انكم والعالم الاشتراكي تعيشون وراء سور من حديد . والحقيقة هي اننا كنا نحن نعيش في سجن كبير . فالمواطن العراقي

الذي يزور بلداً اشتراكياً ثم يجرؤ على العودة إلى بلاده كان عليه ان يذهب مباشرة إلى السجن أو الاعتقال .

والآن ، بعد ان حطمنا قيود الاستعمار والرجعية ، تروننا أول من سارع لزيارة بلادكم .

ثقوا أيها الأصدقاء بأني لست مجاملاً لكم حين أقول لكم بأننا تعلمنا منكم شيئاً كثيراً ، وسننقل ما تعلمناه إلى شعبنا بامانة وإخلاص .

أنقله لأن ذراعي المارد الذي يمثل آسيا المستيقظة ، وهما الصين في الشرق ، والوطن العربي في الغرب يجتمعان في تاريخ حضاري متشابه.. وبآلام متشابهة.. وبآمال متشابهة ..

فكنتم وكنا حملة مشعل الحضارة الانسانية في أدوارها الأولى ، ومر علينا دور الانحطاط معاً . فحكمنا الأجانب المستعمرون ، وسيطر علينا ملوك متفسخون .. واحتكر خيراتنا اقطاعيون وسياسيون بيروقراطيون .

وكما كان الأفيون والأوبئة والفيضانات تكتسح الملايين من شعب الصين .. كان الغزاة،وكانت الأوبئة وكانت الفيضانات تهلك الملايين منأبناء الأمة العربية.

ولقد استيقظ شعبكم منذ مائة عام فخاض حروباً مبيدة قد درسناها واستوعبناها جيداً ثم انتصرتم ، وأسستم جمهورية الصين الشعبية التي حققت بسواعدكم ، وبحسن قيادة أبطالكم معجزة القرن العشرين التي نشاهدها اليوم في كل شبر من أرض الصين .

ونحن أيها الأصدقاء قد بدأ نضالنا منذ أربعين سنة ، فثرنا على الأجنبي الذي دنس أرض بلادنا مرات ومرات .. وقدم شعبنا ضحايا تجاوزت مئات الألوف من المجاهدين الأحرار المناضلين . وكان كفاحنا شاقاً وعسيراً لأن الأجنبي والرجعية قد تحالفا على اتخاذ بلادنا قاعدة رئيسية لا لسلب خيراتنا واغتصاب حرياتنا فحسب .. بل ولتهديد حرية اخواننا ومواطنينا في سائر الأقطار العربية المتحررة .

ولكي أعطيكم فكرة بسيطة عن كفاحنا المرير أقول لكم ان وفدنا الشعبي



المؤلف يلقي كلمته في حفلة تأسيس جمعية الصداقة الصينية ـ العراقية وحضرها عشرة آلاف من رجال ونساء بكين

المؤلف من خمسة عشر عضواً بين وزير سابق وضابط وصحفي وعامل وكاتب ورجل أعمال قد قضى بعض أعضائه في السجون ما مجموعه أربعون سنة .

ولا بد لنا ان نحصد ما زرعنا ، فانتصرنا انتصارنا الساحق في صبيحة يوم ١٤ تموز عام ١٩٥٨ ، فأبدنا الملكية الضالعة مع الأجنبي ، وقضينا على الاقطاع السياسي ، وبدأنا بالقضاء على اقطاع الأرض ، وأعلنا صداقتنا لجميع شعوب

الأرض على أساس كامل من المساواة والمنافع المتبادلة .

وما من شك في ان التأييد الكامل الذي لقيناه من اخواننا في الأقطار العربية وعلى رأسها الجمهورية العربية المتحدة ، ومن أصدقائنا من الدول الاشتراكية وفي مقدمتها الصين، كان من عوامل ترسيخ وتوطيد أركان جمهوريتنا .. فجئنا إليكم لنشكركم ولنحمل تحيات شعبنا إليكم .

أود ان أقول لكم أيها الأصدقاء بأننا ما زلنا في بداية الطريق . فالاستعمار والرجعيون والخونة ما يزال بأيديهم سلاح خطير ، هو سلاح اليأس .. واليأس قوة فعالة لا يستهان بها .. ولكن إيمان الشعوب الايجابي أقوى من اليأس، وسندحره على وجه التأكيد .

ثم ان أمامنا طريقاً طويلاً وشاقاً للبناء الاقتصادي،ولتنفيذ الاصلاح الزراعي، ونحن مع رغبتنا في المحافظة على مفاهيمنا في الحياة التي تلائمنا نرحب – كما أعلن قادتنا في إقامة تعاون وثيق مع الدول الاشتراكية المحبة للسلام – ولا أظنكم تبخلون علينا به .

هذا ، وان آخر وجه للتشابه فيما بيننا هو اننا نخوض اليوم معركة واحدة ضد الاستعمار .. فذراع آسيا الشرقي يكافح لتحرير تايوان وكيموي وماتسو لضمها إلى الوطن الأم .. وذراع آسيا الغربي يكافح من أجل تحرير فلسطين والجزائر والجنوب العربي .

فلقد أقام الاستعمار في فلسطين رأس جسر له بإقامة دولة دخيلة هي«اسرائيل» لتمزق وحدتنا، ولتهدد كياننا في كل لحظة كما فعل في تايوان وكيموي وماتسو.

وفي امارات الخليج العربي ، على سواحل جزيرة العرب ما زالت عدن وعمان والبحرين وغيرها تناضل في سبيل تحريرها من الاستعمار البريطاني لتنضم كل منها إلى الوحدة العربية الكبرى .

وفي الشمال الافريقي ما زالت الجزائر تناضل لتحرير نفسها من الاستعمار الفرنسي نضالاً بطولياً لا نظير له في تاريخ الشعوب على الاطلاق .

فدعونا أيها الأصدقاء ونحن نشترك معكم في الآلام والآمال نحيي ونهتف

لتحرير تايوان و كيموي وماتسو .. ونحيي ونهتف لنضال الجزائر وتحرير فلسطين وامارات الجنوب العربي .

عاشت الحرية حيثما تكون [1] .

وعاش السلام بين الشعوب .

والموت للمستعمرين حيثما كانوا.

عند بوابة السلام السماوي

*

أحاط الأباطرة قصرهم العظيم الذي يسكنونه بأسوار عالية ، وبقناة عريضة لكي تعزلهم عن عبيدهم الذين يحكمونهم فأبناء الآلهة وسادة الدنيا والسماء أرفع من أن تجاورهم رعية ، ولذلك كانت المدينة بكين .

> **ستتغلب الريح الشرقية على الريح الغربية .**
>
> ماوتسي تونغ

تولي « المدينة المحرمة » ظهرها . ان كبرياء الأباطرة قد سول لهم ان يتصوروا ان مقامهم كان يرفع المقام الذي كانوا يسكنونه إلى مستوى المدينة ، ولذلك سموا مقامهم « المدينة البنفسجية الأرجوانية » الذي يعني لوناً رمزياً يدل على نجمة القطب ، وحيث يقوم القصر السماوي الأعلى ، الذي يطاوله القصر الامبراطوري على الأرض. فكما ان النجم القطبي هو مركز العالم العلوي فقصر الامبراطور هو القصر الأوحد لهذا العالم السفلي الذي ييمم واجهته شطر القطب، مما يجعل «ابن السماء» حين يقابل « عبيده » يطل بوجهه إلى الجنوب باتجاه « بوابة السلام السماوي » وهي

---

١ - لم يهتف ولم يصفق المستمعون لهذه الجملة ، ومع ان هتافهم وتصفيقهم للفقرات الاخرى استمر طويلا .

المدخل الوحيد للمدينة المحرمة .

ان محيط السور الذي يحيط بالمدينة المحرمة من جوانبها الأربعة يبلغ ٣٥٧٢ متراً وارتفاعه نحو سبعة أمتار . وتحيط القناة بالسور الخارجي الذي شيدت على أركانه الأربعة حصون منيعة .

وعندما قضى الشيوعيون على « ابن السماء » أداروا وجهة « تيان آني من » -- اي بوابة السلام السماوي لكي ينظر القصر إلى بكين وينتمي إليها باعتباره من الشعب وإلى الشعب ، كما اتخذت جمهورية الصين الشعبية من صورة «تيان آن من» شعاراً لها تنيره خمسة نجوم ، وتحف به سنابل القمح فوق عجلة ذات أسنان .

واتخذت من بوابة السلام السماوي قاعدة التحية لاحتفالات يوم أول اوكتوبر -تشرين اول- من كل عام،وهو اليوم الذي أعلن فيه مولد جمهورية الصين الشعبية عام ١٩٤٩ ، حيث شيدت حول المنصة مدارج تستند على السور العظيم ، وتتسع لبضعة آلاف من الضيوف الذين يحضرون الاحتفالات من كل أطراف الدنيا .

واقيم أمام البوابة ميدان شاسع يعتبره الصينيون « ميدانهم الأحمر » ويتسع لمئات الألوف من الناس ، وينتهي عند كلا جانبيه بأعظم شوارع بكين اتساعاً وتنظيماً .

وفي صبيحة أول اوكتوبر - تشرين اول - اتخذنا مقاعدنا قريباً جداً من المنصة المخصصة لأركان حكومة الصين الشعبية التي وقف عليها الأقطاب الخمسة الذين يحكمون الصين : ماوتسي تونغ ، ليو شاوشي ، شواين لاي، شوته ، شين يي، فسفير الاتحاد السوفياتي .

وما ان أطل ماوتسي تونغ على ساحة العرض حتى علت أصوات نصف مليون مواطن صيني تهتف : ماو .. ماو .. ماو ، هتافاً مدوياً رهيباً دام طويلاً ، ترتعد منه الفرائص ويقشعر منه بدن الانسان ، وينتابه احساس عميق بأن هناك جيلاً جديداً لشعب يؤلف خمس سكان الأرض قد صيغ وأعد لرسالة قد تسعد البشرية، وقد تودي بها إلى بحر من دماء بنيها !

وفي اللحظات والساعات الطويلة التي استغرقها أعظم وأغرب عرض شهدته في

حياتي وشهده الآلاف من أمثالي القادمين من أقاصي المعمورة تذكرت معنى كلمة ماوتسي تونغ : « ستتغلب الريح الشرقية على الريح الغربية » ـ الكلمة التي يرددها سبعمائة مليون صيني في عالمهم المركزي ، فسمعتها من العامل في أقصى شمال الصين ، ومن ابن الكوميون في وسط الصين ، ومن البائع على ساحل الصين الشرقي في شنغهاي، ومن الفلاح على نهر اليانغتسي. سمعتها ورأيت كذلك معناها في العمل والجهد الذي يبذل من أجل وضعها موضع التنفيذ ... العمل المتواصل الذي يدوم إحدى عشرة ساعة في اليوم طوال الأسبوع.

لقد قدمت الصين في عيدها القومي هذا ، صورة حية لنهضتها ، وقفزتها ... وهي الأمة التي كانت إلى مـــا قبل جيل واحد فقط فريسة تنهش الكلاب أطرافها ، وتستغل مواردها وخيراتها ، وتذلها وتقضي على حيوية أبنائها بالأفيون، وتهين شرفها بمئات الألوف من بناتها البغايا اللواتي يعرضن أجسادهن للبيع علناً في الأسواق وفي بيوت الدعارة .. الأمة التي حرم على بنيها دخول المنتزهات العامة في أرضها هي.. باعتبارهم حيوانات أدنى من مستوى الكلاب، فكتب الانكليز على بوابة إحدى الحدائق العامة في شنغهاي لافتة كبيرة رأيتها بعيني :

« يمنع دخول الكلاب ... والصينيين » .

الأمة التي لم تجد في ذلك عاراً عليها ، لا بل وخلدت هذه اللافتة ، فأبقتها في موضعها الذي كانت عليه .. ولكنها أضافت تحتها كلمة : « ... ولا يمنع دخول الانكليز » . ثم انها فرضت على القنصل البريطاني في مدينة شنغهاي ان يقطن بيتاً خصصته له يقابل بوابة تلك الحديقة العامة .. ليرى اللافتة صباح.. مساء . وليحكم بنفسه وبضميره الانساني : من هو أدنى من فصيلة الكلاب من بني الانسان ...

أجل .. رأيت في ذلك الاستعراض قطعـــات الجيش من مختلف صنوفها ، دبابات ، ومدرعات ، ومدفعية ، وقاذفات الطوربيد ، وقاذفات اللهب، والأنوار الكشافة ، والصواريخ .. وغيرها من الأسلحة الحديثة.. كلها من صنع الصين .

ومرت الطائرات المقاتلة ، والقاذفة .. وحاملات الطوربيد .. وبعضها أسرع من الصوت .. وهي كلها من صنع أبناء الصين .

ومر الفدائيون والمظليون .. والجنود على اختلاف صنوفهم رجالاً ونساء وهم يصيحون عند وصولهم منصة الشرف ، صيحات رهيبة لم أفهم منها غير كلمة «ماو» ودارت بي الدنيا فلم أر شيئاً .. كانت الدموع تملأ عيني وذهب بي فكري بعيداً إلى وطني ، وإلى شعبي الذي يبني قادته حضارته ومجده بخطبهم وبشعرهم وبذكرى أمجادهم التاريخية .. والشعب يتمرغ بأوحال المذلة والاستعباد والفقر والجهل .

وانتهى العرض العسكري .. وبدأ العرض المدني الذي يعطي أصدق وأروع صورة عن حياة الصين الجديدة بكل ما تعني هذه الكلمات ، طلبة وطالبات يؤلفون بملابسهم الزاهية معنى من المعاني ، فلاحون يمارسون جميع أنواع عملهم ، ويعطون صورة حية لجميع وسائل الانتاج الزراعي . والعمال بجميع أدوات انتاجهم في الصناعة الثقيلة والخفيفة يسيرون بانتاجهم رافعي الرؤوس ... ويأتي بعد ذلك أعضاء النوادي الرياضية والفنانون وأرباب الحرف المختلفة وهم يمارسون فنونهم ، ورياضتهم ، وحرفهم من على الحافلات الكبيرة التي تجرها السيارات الكبيرة . ثم تأتي جموع لا حصر لها، يمثل كل فريق منها حياة شعب الصين بمختلف عصور التاريخ لمختلف ألوان الحياة التي كان الشعب يحياها . ثم تأتي جموع أخرى تمثل اثنتين وأربعين قومية من القوميات التي يتألف منها الشعب، في أزيائها المختلفة، وفي تقاليدها في الرقص والغناء .. والجميع يهتفون بمعبودهم وإلههم : ماو.. ماو..

وأخيراً ، فاني لست أديباً لكي أوفق بوصف ما شهدت عند « بوابة السلام السماوي » وصفاً يقرب إلى ذهن القارىء العربي حقيقة ذلك العرض ، ولكنني موقن بان أي كاتب أو أديب – مهما بلغت قدرته وبراعته في الوصف ... يعجز عن تصوير ذلك المشهد وإذا وفق في تصويره لا يستطيع على وجه التحقيق ان يعبر عن مشاعره الانسانية التي تعتمل في نفسه وفي ضميره عما شهده ، في ذلك العرض .

مع الجالية العربية

*

ولقد أتاح لنا السيد حسن رجب سفير الجمهورية العربية المتحدة في الصين الشعبية فرصة الاجتماع بالجالية العربية الصغيرة الموجودة في بكين ، ودعى وفد الصداقة الشعبي العراقي إلى تناول طعام العشاء بدار السفارة في حي السفارات الجديد . فأكرمنا ، وأمتعنا بمشاهدة الأفلام العربية التي عرضت بعد حفلة العشاء الفخمة التي حضرها العرب المقيمون ببكين ..

وكنا فخورين بهذا الرجل العظيم وهو يتحدث إلى الصينيين باللغة الصينية الصعبة التي تعلمها خلال إقامته في بكين تعلماً يعينه على التفاهم معهم بلغتهم إلى حد ما ..

وزاد إعجابنا به لسعة اطلاعه على حقيقة الأوضاع في الصين ، فحدثنا حديثاً طويلاً ، وخصني بإجاباته المفيدة القيمة على أسئلتي التي وجهتها إليه عندما أخبرته عن عزمي على وضع كتاب عن الصين .

ومما قاله السفير :

« ان الصينيين بتأليفهم للكوميونات يرمون إلى تحقيق المجتمع الشيوعي ، وهم يحاولون الآن القضاء على الأسرة ، بإعالة العاجزين وبإرسال الأطفال لدور الحضانة ، وبإقامة المطاعم الشعبية العامة . وعندئذ يتسنى لهم تشغيل جميع النساء في المعامل والحقول ونواحي الحياة الأخرى أسوة بالرجال . فهم سائرون الآن نحو الشيوعية بخطى سريعة وحاسمة ، خاصة وقد قضوا على الملكية تقريباً بمختلف صورها .

وتحدث عن نهضتهم الصناعية فقال : انها تحير العقول ، لقد استخدموا في مشروع السنوات الخمس الأولى ١٥ ٪ من إنتاجهم الوطني ، واستعانوا بالباقي من الدول الاشتراكية . وانهم استخدموا في مشروع السنوات الخمس الثاني ٥٠ ٪ من إنتاجهم الوطني . ان القفزات التي حققوها ، وضربوا بها أرقاماً قياسية خيالية

بالنسبة لما كانوا يأملون .. قد حيرتنا حقاً .

انهم شعب صبور ، قنوع ، وديع ، مطيع وطيب ... وشعب هذه صفاته يحقق المعجزات .

ان الطلاب اليوم ينتجون جنباً إلى جنب وتعليمهم النظري ..

ان الموظف الصالح في الصين ليس ذلك الرجل الذي ينجز عمله الورقي من وراء مكتبه ... بل هو ذلك الذي ينجز عملاً مادياً مهما كان نوعه إلى جانب الروتين اليومي .

ان زعماء وقادة الصين الشعبية يعيشون ببساطة متناهية ، انهم يديرون أعمالهم في مكاتب الأباطرة السابقين .. ولكنهم يعتبرون تلك المكاتب ملكاً للشعب ... يلبسون لباس الشعب ، ويأكلون ما يأكله الشعب .. ويشتغلون شغل الشعب ، وبالاضافة إلى كل ذلك فانهم يقودون شعبهم ويرسمون له خطط العمل ، وخطط بناء المستقبل .

وعلى سبيل المثال أذكر انهم قرروا بناء خزان « كوانتنغ » الذي يتحكم في نهر « هواي » ذي الفيضانات المدمرة التي كان يخشى خطرها على الدوام.. وطلبوا من الشعب المساهمة في بنائه بأسرع وقت مستطاع ... فهب الشعب ملبياً نداء قادته ..

على ان القادة كانوا في مقدمة العاملين على بنائه ... لقد ساهمت أنا نفسي في البناء (قول حسن رجب) جنباً إلى جنب مع ماوتسي تونغ ، وشواين لاي ، وشوته ، وليو شاوشي ، وشين يي ، فرأيتهم يحفرون التراب وينقلونه ، ويبنون كأي عامل آخر من أبناء الشعب . وتم بناء الخزان بستة شهور فقط ، فكان بحق معجزة من معجزات القفزة العظمى في الصين .

ولقد زرنا نحن هذا الخزان وأعجبنا بنظامه الهندسي الرائع .

ولا يفوتني بهذه المناسبة ذكر الشاعر الاستاذ نزار القباني الذي كان يعمل سكرتيراً في السفارة ، فلقد خصني أيضاً بمعلومات مفيدة أعانتني .



المؤلف يتحدث مع احد الزعماء المسلمين الصينيين

في الجمعية الاسلامية ببكين

*

كان وكيل الجمعية الاسلامية الصينية في بكين السيد شاهدي في مقدمة مستقبلينا لدى وصولنا مطار بكين ، وكان ورفاقه من الزعماء الصينيين المسلمين قريبين منا في أكثر الحفلات التكريمية التي أقيمت لنا ، لا بل وقد أقاموا لنا في المطعم الاسلامي وليمة غداء فاخرة قدمت فيها لحوم البط التي اشتهر بطبخها

الصينيون فضلاً عن زيارتنا لمقر الجمعية وللمسجد ، فتحدثنا إلى اخواننا في الدين حديثاً طويلاً . وأهدوا لنا نسخاً من القرآن الكريم « طبع بكين » وهو آية في جمال الطبع والتغليف .

وأسعدنا كثيراً ثناء قادة الصين على الجالية الاسلامية في بلادهم ، وعددهم يبلغ حوالى اثني عشر مليوناً منتشرين في شتى أنحاء البلاد ، وينتمون إلى قوميات مختلفة منها التتر والاوزبك والقازان والقيرغيز وشعب خوى ، وشعب تاجيك ، وايغور ويقطن غالبيتهم في مقاطعات سيكيانغ وشنغهاي ، ومقاطعات الصين الشمالية الغربية.

وقال لنا الصينيون ان المسلمين وقفوا دوماً إلى جانب الحركة الوطنية ضد المستعمرين ، وضد الخونة ، وانهم ساهموا في ثورة « التحرير » ، واشترك عدد كبير منهم في الكفاح المسلح ضد الغزاة اليابانيين .

لقد كان المسلمون إلى ما قبل قيام الجمهورية الشعبية مضطهدين ، يعيشون في فقر وبؤس وذل ، وكانوا مبعدين عن الحياة السياسية والاجتماعية والوظائف العامة.. وهذا ما دفعهم إلى تأييد حركة التحرير ، ومناهضة حكم الكومنتانغ الذي قضى على بعض انتفاضاتهم بوحشية بالغة ، فأبيد الآلاف منهم . وقدر لهم قادة الحزب الشيوعي مواقفهم النضالية فمنحوهم جميع حقوق المواطنين فانسجموا واندمجوا بنظام الحكم القائم الآن في البلاد .

ثم ان مكانتهم في الصين ، ومركزهم القومي بوصفهم مسلمين لا يختلف عن غيرهم من مواطنيهم ، يمارسون شعائرهم الدينية دون ما ضغط .. والواقع هو ان حكومة الصين الشعبية لم تعاملهم معاملة شاذة ما داموا لم يقفوا ضد نظامها ولم يعملوا على إعاقة حركته .. مع علم الحكومة انها لا تنتظر منهم تأييداً للمبادىء الماركسية التي تختلف وتعاليم الدين الاسلامي في أوجه كثيرة ...

والمسلمون الصينيون اليوم يسهمون في جميع قطاعات الحياة الصينية ، شأنهم في ذلك شأن كل الأديان والقوميات الأخرى ، ففي مجلس الشعب (البرلمان) أربعون عضواً مسلماً ، ويقدر عدد من يعمل منهم في الدولة بنحو ٢٠ ٪ من نسبتهم العددية ، و ١٥ ٪ منهم من أبناء الطبقة العاملة . إلى جانب مساهمتهم في جيش

التحرير ، وسائر القطاعات الأخرى كل حسب طاقته وقدرته وكفاءته في خدمة الكيان العام .

ولقد أنشأت الدولة في بكين معهداً اسلامياً أناطت الاشراف عليه إلى الجمعية الاسلامية ، وأعفت الحكومة الأراضي العائدة للمساجد والمؤسسات الدينية والخيرية الاسلامية من الضرائب ، وهي تقدم لهم الاعانات إذا اقتضى ذلك لترميم المساجد وإصلاحها حسبما قيل لنا .

ولقد أنشأت الحكومة إدارة لشؤون الأديان ، مهمتها تنسيق الصلات بين الحكومة ورجال الدين بحيث تضمن الدولة تلبية رغبات أصحاب الديانات جميعاً في حدود النظام العام للدولة .

ولقد قال لنا رئيس الجمعية الاسلامية : « لقد تغير وضعنا اليوم عما كان عليه تغيراً جذرياً ، فأصبحنا نتمتع بجميع حقوق المواطنة إلى جانب حريتنا الكاملة في العبادة ، وفي الحفاظ على التقاليد الدينية . وأعطينا حق التمثيل في جميع دوائر الدولة ، وفي المؤتمرات الشعبية . وهذه المساواة دفعتنا إلى الاندماج الكامل في مجتمعنا الجديد كمواطنين صينيين ، كما واننا سايرنا التشريعات الجديدة كتعديل شريعة الارث والاعتراف بالطلاق المدني .

ولدى زيارتنا الحي الاسلامي قالوا لنا ان حيهم قد تحسن كثيراً عن ذي قبل وقد تغيرت أوضاعهم البائسة التي كانوا عليها ، وان تسعين في المائة من أطفالهم تضمهم اليوم المدارس الحكومية في حين انه لم يكن لهم في الماضي مدارس خاصة بهم .

والواقع ان الحي الاسلامي ما زال متأخراً كسائر الأحياء الشعبية القديمة.

وفي بكين ٦٣ مسجداً ، منها مسجد المحلة ، وهو أثري بني منذ سبعمائة سنة ، والجامع رحب ومجهز بالسجاد الثمين وبالقناديل الأثرية ، ويتصدره منبر أثري تتلى منه خطبة الجمعة باللغة الصينية وتترجم آيات القرآن الكريم والحديث الشريف .

وفي زيارتنا للمسجد وقت صلاة الجمعة شهدنا عدداً قليلاً جداً من المصلين وكلهم شيوخ جاوزوا الخمسين من أعمارهم .

وإلى جانب المسجد دار يسكنها الامام ، اتخذت من إحدى غرفها مكتبة غنية بكتب الدين والمخطوطات ، وصناديق وقطع أثرية من صنع دمشق .

وقبل ان أنهي حديثي عن المسلمين في الصين ، أرجو ان يتجدد الاتصال بين مسلمي الصين وبين العالم الاسلامي ، فتتساهل حكومة الصين الشعبية قليلًا لتسمح لبعض طلبة الدين الاسلامي ان يدرسوا العلوم الدينية في المعاهد العربية الاسلامية كما ان على الهيئات الاسلامية العربية كالأزهر في مصر،ودوائر الأوقاف الاسلامية في سوريا والعراق أن تعمل على إقناع حكومة الصين الشعبية لقبول وفود دينية في بلادها ليقوموا بواجبهم الديني إزاء اثني عشر مليون مسلم صيني تتجه قلوبهم وأرواحهم نحونا دائماً وأبداً .

زيارة سور الصين العظيم

*

وكان لا بد لنا من زيارة سور الصين العظيم الذي يعتبر أحد عجائب العالم السبع ، ان لم يكن الاعجوبة البشرية الأولى على مر العصور ، فهو أضخم بناء أقامه الانسان في جميع عصور التاريخ، ويقول عنه فولتير : « ان اهرامات مصر العظيمة إذا قيست إليه لم تكن إلا كتلًا حجرية من عبث الصبيان لا نفع فيها » ..

لقد اهلك جيلا من الناس ...
ولكنه أنقذ كثيراً من الاجيال ..

وان الحقائق التي تبدو من تاريخ الصين ، تتجه كلها إلى حوض نهر «وانغ هو» في شمال الصين الذي نشأت فيه المدنية الصينية وترعرعت حضارتها في ربوعه .

ولم يكن ليشغل بال الشعب الصيني في « عالمه المركزي » غير مهمتين رئيسيتين : ان يمنع الأنهار التي تفيض مجاريها المنبثقة بالطمى، وخاصة النهر الأصفر



احد المعجزات السبع: سور الصين العظيم طوله ٥٠٠٠ كيلومتر

« وانغ هو » وان يمنع الهمج المتوحشين الممثلين في الشعب المغولي والتتري من التدفق على بلادهم من الشمال والشمال الغربي .

ولقد رأينا في بحثنا في تاريخ الصين القديمة ان تاريخ الصين قائم على مقاومة العدوان الخارجي الممثل في خطر « الشياطين الأجانب » مما استلزم قيامهم بمحاولات كثيرة لدرئه ، وهكذا وجد شعب الصين نفسه ملزماً بإنشاء هذا السور العظيم فبنيت أجزاؤه في عصور لم يدون تاريخها ، على ان السور لم ينته تشييده إلا بعد قرون عديدة من البدء فيه حين تولى السلطة الامبراطور « شيي هوانغ تي » عام ٢٢١ قبل الميلاد والذي وحد بلاده بالدم والحديد ، والذي احتكر الألوهية لنفسه فاجتمعت فيه على حد قول المؤرخين عقائد نيتشه ، وعظمة بسمارك .

فأتم هذا الامبراطور بناء الأسوار التي كانت قد أقامتها الولايات السبع من قبل عند حدودها ، ووصلها كلها ببعضها ، فأوصله من الناحية الشرقية إلى ساحل البحر الشمالي الشرقي في منشوريا ، وأنهاه في الغرب حتى حدود التيبت عند ولاية « تسن » الغربية التترية التي كان التتر يتدفقون منها على الصين .

ويبلغ طول هذا السور العظيم ٢٧٠٠ كيلومتر ، ويتضاعف طوله بتعرجاته العديدة ، قاطعاً الأنهار والسهول والهضاب وسلاسل الجبال مهما كانت عالية أو وعرة .

ولقد استغرق بناؤه في عهد « شي شوانغ تي » عشر سنين ، ووجد في أعدائه المقيمين في داخل البلاد مورداً بشرياً هائلاً يستمد منه حاجته من العمال لتشييد هذا البناء العظيم الذي يعد رمزاً لمجد الصين ، ودليلاً على عظيم صبرها وقيل ان مائة ألف رجل قد سخروا في بناء السور الذي كلف نفقات باهظة يصعب تقديرها .

والواقع ان هذا السور العظيم الذي قال عنه الصينيون : .. « انه أهلك جيلاً من الناس، وأنقذ كثيراً من الأجيال » قد صد الهمج عن الصين ، وعطل هجومهم عليها أو قلل من حدته ، وانه حال بين قبائل الهون وبين اغاراتهم على أرض الصين زمناً ما، فاتجهوا غرباً إلى أوروبا فاجتاحوا بلاد ايطاليا وسقطت روما في أيديهم لأن الصين بنت سورها العظيم .. على انه لم يمنعهم فيما بعد من اجتيازه واجتياح

الصين المرة تلو المرة على نحو ما ذكرنا في الفصل الثاني من هذا الكتاب .

ولكنه مع ذلك ظل أثراً تاريخياً فريداً في تاريخ الحضارة الانسانية القديمة ، يأتي إليه السياح من أطراف المعمورة ليشهدوا عظمته ، وفن بنائه الفذ . ولقد شهدنا في زيارتنا له قسمه الشرقي الواقع إلى الشمال من بكين ، فذهبنا إليه بالسيارات ، قاطعين الهضاب والسلاسل الجبلية الخضراء حيث يشاهد المرء أجمل ما يمكن ان تتحلى به الطبيعة من روعة وجمال .

ولقد شيد السور من أحجار ضخمة بطريقة هندسية رائعة ، وعلوه يختلف حسب ارتفاع الهضبات فيتراوح ما بين ستة وعشرة أمتار ، ومعدل عرضه خمسة أمتار ، ولقد شيدت عليه أبراج وحصون تتألف من طابقين يتخذ من اسفلها ثكنات للجنود ، ومن أعلاها حصون يحتمي الجند خلف جدرانها ويقاتلون من ورائها الغزاة ، ويصعد إليه الجند من الناحية الجنوبية بسلالم مخفية بالغة الاتقان .

والواقع انه يصلح كخط دفاع حتى في الحروب التي تستخدم فيها الأسلحة التقليدية في العصر الحديث ، إذ يصعب حتى على مدفعية الميدان تدميره وقد تفتح فيه ثغرات صغيرة إذا صرفت ذخائر كبيرة .

الديمقراطية الصينية: نظام الحكم في الصين الشعبية

- نظام الحكم كما أقره الدستور
- الحزب الشيوعي الصيني هو صانع القرارات الوحيد
- اجتماع مع أحزاب اللجنة الوطنية للمؤتمر الاستشاري السياسي
- تفسير للمتناقضات بين حكم الحزب الواحد والاحزاب الديمقراطية
- رأيي في المنظمات الديمقراطية الصينية ، والغرض منها

نظام الحكم كما أقره الدستور

*

بعد ان تمت مرحلة الانتقال التي تولى « المؤتمر الاستشاري السياسي » الحكم خلالها ما بين عام ١٩٤٩ – ١٩٥٤ بموجب المنهاج العام للمؤتمر الذي كان بمثابة دستور مؤقت للبلاد .. أقر المجلس الوطني الأول لنواب الشعب في ٢٠ ايلول « سبتمبر » ١٩٥٤ دستور الجمهورية الشعبية الصينية .

ويتألف الدستور من مقدمة و ١٠٦ مواد قسمت على أربعة فصول :

الفصل الأول – النصوص العامة .

الفصل الثاني – تركيب الدولة .

الباب الأول – المجلس الوطني لنواب الشعب .

الباب الثاني – رئيس الجمهورية الشعبية الصينية .

الباب الثالث – مجلس الدولة .

الباب الرابع – المجالس المحلية لنواب الشعب واللجان الشعبية المحلية .

الباب الخامس – هيئات الاستقلال الذاتي في أقاليم الاستقلال الذاتي القومي .

الباب السادس – المحاكم الشعبية والنيابات العمومية الشعبية .

الفصل الثالث – حقوق وواجبات المواطنين الأساسية .

الفصل الرابع – العلم الوطني والشعار الوطني والعاصمة .

ونقتطف من المقدمة ، ومواد الدستور بعض الفقرات التي لها علاقة مباشرة بهذا البحث :

« ان الشعب الصيني ، بعد نضاله البطولي الذي دام أكثر من مائة سنة ، قد أحرز أخيراً في سنة ١٩٤٩ تحت قيادة الحزب الشيوعي الصيني ، انتصاره العظيم في الثورة الشعبية ضد الاستعمار والاقطاعية والرأسمالية البيروقراطية، وبذلك أنهى مرحلة طويلة من الاضطهاد والاستعباد ، وأنشأ الجمهورية الشعبية الصينية دولة ديكتاتورية الشعب الديمقراطية ، ان نظام الديمقراطية الشعبية في الجمهورية الشعبية الصينية أي نظام الديمقراطية الجديدة يضمن لبلادنا ان تتمكن من تصفية الاستعمار والبؤس وبناء مجتمع اشتراكي مزدهر سعيد عن طريق سلمي ...

وفي غمرة النضال العظيم من أجل انشاء الجمهورية الشعبية الصينية انتظم شعب بلادنا في جبهة ديمقراطية شعبية موحدة واسعة متألفة من الطبقات الديمقراطية والأحزاب والكتل الديمقراطية والمنظمات الشعبية يقودها الحزب الشيوعي الصيني. ان الجبهة الديمقراطية الشعبية الموحدة في بلادنا ستظل تضطلع في المستقبل بدورها في تعبئة شعب بلادنا بأسرها وتوحيد صفوفه من أجل تحقيق المهمات العامة الموضوعة أمام الدولة في المرحلة الانتقالية ، ومن أجل النضال ضد الأعداء وخارجها ... » — المقدمة

« الجمهورية الشعبية الصينية هي دولة ديمقراطية شعبية تقودها الطبقة العاملة وتقوم على اساس التحالف بين العمال والفلاحين . » — المادة ١

« يجب على جميع هيئات الدولة ان تعتمد على جماهير الشعب، وتقيم على الدوام علاقات وثيقة معهم ، وتصغي لرأيهم وتخضع لمراقبتهم . » — المادة ١٧

« يجب على جميع العاملين في هيئات الدولة ان يخلصوا لنظام الديمقراطية الشعبية ... » — المادة ١٨

« تدافع الجمهورية الشعبية الصينية عن نظام الديمقراطية الشعبية ، وتقمع كل نشاط خائن للوطن ومناهض للثورة ، وتعاقب جميع الخونة والعناصر المعادية للثورة .

وتحرم الدولة ، وفقاً للقانون الملاكين العقاريين الاقطاعيين والرأسماليين البيروقراطيين حقوقهم السياسية لفترة معينة ، وتهيء لهم في الوقت نفسه سبيلاً

للحيـــاة لـكي يصلحوا أنفسهم بالعمل ويصبحوا مواطنين يعيشون على عملهم الخاص . » — المادة ١٩

« المجلس الوطني لنواب الشعب في الجمهورية الشعبية الصينية هو الهيئة العليا لسلطة الدولة . » — المادة ٢١

«اللجنة الدائمـة للمجلس الوطني لنواب الشعب هي هيئة دائمة للمجلس الوطـني لنواب الشعب .

« تتألـف اللجنة الدائمـة من الرئيس ، نواب الرئيس ، رئيس الأمـــانة ، الأعضاء . » — المادة ٣٠

«بناء على قرارات المجلس الوطني لنواب الشعب أو قرارات لجنته الدائمة يصدر رئيس الجمهورية الشعبية الصينية القوانين والمراسيم ، ويعين ويعزل الوزير الأول[1] ونواب الوزير الأول والوزراء ... » — المادة ٤٠

« مجلس الدولة [2] للجمهورية الشعبية الصينية،أي الحكومة الشعبية المركزية، هو الهيئة التنفيذية العليا للهيئة العليا لسلطة الدولة ، هو الهيئة الادارية العليـــا للدولة . » — المادة ٤٧

«لمواطني الجمهورية الشعبية الصينية حرية الكلام،وحرية النشر،وحرية الاجتماع، وحرية تنظيم الجمعيات، وحرية الخروج بالمواكب ، وحرية المظاهرة،وتقدم الدولة التسهيلات المادية الضرورية لضمان تمتعهم بهذه الحريات . » — المادة ٨٧

الحزب الشيوعي الصيني هو صانع القرارات الوحيد

*

والواقع ان الحزب الشيوعي الصيني هو صانع القرارات الوحيد في الصـــين الشعبية ، والمكتب السياسي المؤلف من ١٧ عضواً و ٦ أعضاء مناوبين هو الذي

---

١ ـ اسم رئيس الوزراء .

٢ ـ مجلس الوزراء .

يصنع القرارات داخل الحزب[1] . والحزب يراقب الدولة عن طريق تولي كبار أعضائه لأعلى مناصبها ، فتعطى لأعضائه رئاسة مجلس الدولة (رئاسة الوزارة) ونيابات الرئاسة العشر ، ووزارات الخارجية ، والدفاع ، والمالية ، والأمن العام، ووكالات الدولة للتخطيط ، والآلات الصناعية والطاقة الكهربائية والخطوط الحديدية ، وهي كلها مراكز ومناصب رئيسية ، وتعطى لغير الحزبين الشيوعيين المناصب الثانوية .

وما جاء في المقدمة والمواد ١٧ و ١٨ و ١٩ من الدستور تقضي على جميع الأعضاء بتنفيذ السياسة والاجراءات التي يقررها الحزب ، أي تلك التي يرسمها المكتب السياسي ، الذي تتألف نواته من لجنته الدائمة التي تضم كلًا من: ماوتسي تونغ ، وليو شاوشي ، وشواين لاي ، وشوته ، وشين يي وهم يؤلفون فريقاً متحداً يحمل عبء مسؤوليات الحكم في الصين حتى الآن .

ومع ان الدستور يخول المجلس الوطني سلطات الهيئات التشريعية في البلاد الديمقراطية الغربية ... إلا ان اللجنة الدائمة للمجلس الوطني هي التي تهيمن على المجلس ، وهذه اللجنة يسيطر عليها أعضاء الحزب ... كما ان سلطات مجلس الدولة (مجلس الوزراء) تطغى على سلطاتها ، وتجعلها أشبه شيء بهيئة شكلية احتفالية ، مهمتها الرئيسية إضفاء نوع من الدعاية للقرارات المتخذة .

أما المؤسسات السياسية الأخرى فهي تشبه مؤسسات البلاد غير الشيوعية شبهاً اسمياً لا فعلياً، فالأحزاب الديمقراطية الصينية لا تلعب أي دور في الوضع السياسي الجديد ، وعدد أعضائها في المجلس الوطني محدود وضئيل ، وتضم هذه الأحزاب الكثيرين من رجال الأعمال والمفكرين والمغتربين الصينيين .

كما وان الحزب الشيوعي الذي يشترك مع هذه الأحزاب في ما يسمى « اللجنة الوطنية للمؤتمر الاستشاري السياسي » هو الذي يسيطر عليها ويوجهها ... ويشرح لها مسؤولياتها السلبية بوصفها تشارك في تنفيذ سياسة الدولة لا في وضعها . حيث

---

١ ـ التقرير المقدم للمؤتمر الوطني الثامن للحزب الشيوعي الصيني في ايلول (سبتمبر)ـ كانون اول ـ ١٩٥٦ في تحليله للعلاقة بين الحزب والدولة .

تقوم هذه المنظمات إلى حد بعيد بوظائف موازية لوظائف المنظمات الجماهيرية المنتشرة في صفوف الشعب ، وعليها دائماً ان تشيد بحريتها الديمقراطية السياسية واستقلالها التنظيمي لكي تضفي على نظام الحكم في الصين الشعبية ديمقراطية لا نظير لها في الاتحاد السوفياتي .

اجتماع مع أحزاب اللجنة الوطنية للمؤتمر الاستشاري السياسي

*

دعتنا « اللجنة الوطنية للمؤتمر الاستشاري السياسي » إلى اجتماع بمركزها الرئيسي في بكين للاستماع إلى آراء منظماتها في سياسة الحكم في **الصين** ، ودور أحزابها في الكفاح السياسي إلى جانب الحزب الشيوعي ،ذلك الكفاح الذي تمخض في النهاية عن قيام الجمهورية الشعبية الصينية .

وحضر الاجتماع قادة بعض أحزاب اللجنة الوطنية للمؤتمر الاستشاري السياسي ، وشرح كل منهم طبيعة ودور حزبه ، وأجابوا مشتركين على أسئلتنا الكثيرة التي طرحناها عليهم ... ودار الحديث على هذا النحو :

« تأسست اللجنة الوطنية بعد التحرير مباشرة في سنة ١٩٤٩ ، وهي تضم تسعة أحزاب سياسية رئيسية إلى جانب تسعة وعشرين هيئة عاملة أخرى كالاتحاد الصيني للنقابات ، والاتحاد الصيني للنساء الديمقراطيات ، والرابطة الشعبية الشيوعية ، وجمعية الصداقة الصينية السوفياتية ، وجمعية ٣ سبتمبر ، وغيرها ... فألفت تلك الأحزاب الديمقراطية والهيئات العاملة جبهة متحدة انضوت بلواء « المؤتمر الاستشاري السياسي » ولقد اتخذ المنهاج العام لهذا المؤتمر والذي وضع في عام ١٩٤٩ ، أساساً لدستور الجمهورية الذي كان بمثابة تطور لذلك المنهاج .

ان مسؤولية المؤتمر الاستشاري السياسي لم تنته بعد تلك الانجازات الأساسية ، لا بل ولم تنتقص . فلقد أحرز المؤتمر بعدها انتصارات باهرة في مختلف النواحي ، ولعب دوراً خطيراً لتحقيق التضامن ، ونصرة الثورة ، وبناء الدولة الاشتراكية .

واللجنة الوطنية للمؤتمر الاستشاري السياسي التي تمثل جميع الاحزاب الديمقراطية في الصين ، تسير في الطريق الوطني بمكافحتها الاستعمار ، تحت راية الحزب الشيوعي الصيني ، وتحت راية الاشتراكية . وهي تضم رجالاً من مختلف الميادين .. اما لجانها المحلية فتجمع شتات المواطنين من رجال الأعمال والمهن إلى جانب الهيئات الاجتماعية المتنوعة .

ان على رأس أحزاب اللجنة الوطنية حزب «اللجنة الثورية لحزب الكومنتانغ» فلقد انقسم حزب الكومنتانغ (وهو في الأصل حزب صن يات صن ، ثم حزب شان كاي شك) إلى شطرين : أحدهما يميني وعناصره الملاكون الاقطاعيون وطبقة الامبراطور ومن إليهم وهم يعادون الحزب الشيوعي ، ويخاصمون الاتحاد السوفياتي ، ولقد خرج أعضاء هذا الحزب من الصين بخروج شان كاي شك ، والآخر يساري يؤيد ثورة اوكتوبر في الاتحاد السوفياتي ، ويقر التعاون مع الحزب الشيوعي الصيني. ولقد كون هذا الفريق «اللجنة الثورية لحزب الكومنتانغ» واشترك مع سائر الأحزاب الديمقراطية لوضع البرنامج للبناء والتحويل الاشتراكي، وهو يؤمن بأنه لا يمكن إسقاط الحكم الاستعماري والاقطاعي في الصين إلا إذا سار في طريق الاشتراكية والثورة السوفييتية بزعامة الحزب الشيوعي وقيادته .

والحزب الثاني هو حزب « الحلف الديمقراطي الصيني » ويضم في الأصل ستة أحزاب ديمقراطية قد اندمجت في حزب واحد .

ولقد تكون هذا الحزب في شكله الأخير خلال الغزو الياباني ، إذ اتحدت تلك الأحزاب الستة لإخراج اليابانيين من البلاد ، ومحاربة حكومة شان كاي شك التي اتبعت سياسة الاستسلام مع المحتلين فخانت قضية الوطن .

ويضم هذا الحلف : الأساتذة والأدباء والمثقفين وطلبة المعاهد العالية، ثم انضم إلى قيادة الحزب الشيوعي بعد التحرير في سنة ١٩٤٩ واقتصرت مهمته على البناء الثقافي لجمهورية الصين الشعبية .

والحزب الثالث هو « حزب البناء الديمقراطي » ولقد تألف بعد استسلام اليابان وخروجها من أرض الصين . وغرضه هو وضع حد للحرب الأهلية التي

نشبت بين جيش التحرير بقيادة الحزب الشيوعي وبين حكومة شان كاي شك على أساس بناء كيان ديمقراطي سليم للصين .

وطابع هذا الحزب هو : سيطرة رجال التجارة والصناعة والزراعة عليه ... فمعظم الرأسماليين الكبار هم أعضاء فيه .

ولقد اشترك هذا الحزب في سنة ١٩٤٩ في المؤتمر الاستشاري السياسي،ودخل لجنته الوطنية ، وقرر بعدها قبول قيادة الحزب الشيوعي بعد ان وافق على سياسة الاصلاح الزراعي ، وعلى التحول السلمي للصناعة والاقتصاد الوطني إلىالاشتراكية تدريجياً .

ولقد استجاب هذا الحزب في سنة ١٩٥٦ لاتجاه الدولة الاشتراكي القاضي بدمج الصناعات ، كما وافق على السير في الطريق الوطني لمكافحة الاستعمار تحت راية الحزب الشيوعي ، وراية الاشتراكية [١] .

أما الأحزاب الستة الأخرى ، كالحزب الوطني ، وحزب الفلاحين والعمال الديمقراطيين ، وحزب الانشاء الديمقراطي ، وحزب تنمية الديمقراطية ، وحزب شكونغ (وهو حزب الجاليات الصينية في الخارج) ، فلقد وجدت نفسها بعد صراعها الدامي وانتصارها الساحق على الرجعية الصينية الممثلة في حكم شان كاي شك في موقف يتطلب منها أحد أمرين : اما السير وراء الحزب الشيوعي ، والخضوع المطلق لإرادته وتعاليمه ... واما اللحاق بركب الخونة المتآمرين... الذين مات منهم – كما قيل لنا – أكثر من مليوني مواطن في عمليات التطهير التي أنجزها الحزب الشيوعي الصيني بجدارة وكفاءة !

وختم المتحدث كلامه قائلاً : « لقد فضلت هذه الأحزاب اختيار أهون الشرين ، فقبلت السير وراء الحزب الشيوعي لأسباب لا يتسع وقتنا للخوض في أمرها ... على انها لم تفهم أو تهضم الاشتراكية والشيوعية بعد . ولا ترغب بهما ، لأن الطريق الذي سارت فيه الشيوعية في البلاد طريقاً ملتوية ... على اننا واثقون

---

٢ – بموجب المخطط العام للدولة ، فان الرأسمالية الصينية قد انتهت في عام ١٩٦٢ ولم يعد لها وجود في الصين سوى ذكرياتها بهذا الحزب .

من حسن قيادة الحزب الشيوعي ، وسنسير خلفه سيراً حسناً إلى النهايـــة في كفاحه للرجعية والاستعمار » !

تفسير المتناقضات بين حكم الحزب الواحد والاحزاب الديمقراطية

*

وكان لا بد من أسئلة كثيرة يثيرها بعض أعضاء وفد الصداقة العراقي لدى اجتماعهم بأعضاء هذه الأحزاب .

على أن الأحزاب قد احتاطت مقدماً لمثل هذا الموقف ، فطلب سكرتيرها تدوين جميع الأسئلة ، ثم يجاب عليها أو على بعضها – إذا سمح لنا وقتنا بالاستماع إلى الاجابات – لأن أمامنا موعداً لدعوة غداء رسمية تنتظرنا .

ولقد أجيب على سؤال وجهته : ما دام الحزب الشيوعي هو الذي يحكم ، وانكم على نحو ما تقولون سائرون وراءه ومنفذون لأوامره وتعليماته... مؤمنون بزعامته ، وبقدرته على تحقيق المعجزات لوطنكم ... فلماذا إذن لا تندمجون في هيكله وتذوبون فيه ؟

ثم كيف يمكن تفسير موقفكم،وفيكم الرأسماليون الوطنيون،والاشتراكيون المؤمنون بالاشتراكية المتطورة ، والديمقراطيون المؤمنون بتعدد الأحزاب ، مع الحفاظ على ملكية الفرد.. من حزب شيوعي ترتكز عقيدته على الصراع الطبقي، وعلى القضاء على رأس المال ، وما إلى ذلك من المبادىء الماركسية ذات الخطوط والمعالم الواضحة ؟

فكان الجواب : « ان جميع الأحزاب تؤمن بالاشتراكية ، وان علاقتها بالحزب الشيوعي هي التعايش الطويل الأمد معه لتحقيق الاشتراكية ، وان هذا التعايش يفيد قضية الاشتراكية ، وان هناك ناحيتين مهمتين، ناحية تاريخية : ذلك ان الأحزاب الديمقراطية في الصين قد مضى على تأليفها بضع عشرة سنة ، ويجب علينا ان لا ننكر التطور التاريخي ، وان التقليد الطبقي قد يتطور ويختلف ،

وهذا يحتم التحرر منه باستمرار وجود احزاب اخرى . وناحية واقعية : ذلك انه ما زالت في مجتمع اليوم طبقات مختلفة ، منها الطبقة البورجوازية ، ومن الواضح بأن لكل طبقة أفكارها الخاصة . فبقاء هذه الأحزاب يساعد على تحقيق الهدف المشترك ، في حين أن اندماجها لا ترتجى منه فائدة . »

وأجيب على سؤال آخر ما يلي : ان الحزب الشيوعي يحترم استقلال سائر الأحزاب الديمقراطية ، وان ليس هناك « لا ارادية » لتلك الأحزاب التي لها منظماتها ومؤتمراتها ومقرراتها ... (ولم نقتنع بالبديهة بهذا الرد المخالف للواقع) .

لقد وضع الرئيس ماوتسي تونغ ستة مقاييس لتعريف اليمينية وهي :

١ — أفي صالح وحدة وتضامن القوميات المختلفة في الصين أم في غير صالحها ؟

٢ — هل هي في صالح التحويل الاشتراكي والبناء الاشتراكي أم في غير صالحه؟

٣ — هل الأمر في صالح ديكتاتورية الشعب الديمقراطية أم في غير صالحها ؟

٤ — هل الأمر في صالح تدعيم المركزية الديمقراطية أم لا ؟

٥ — هل الأمر في صالح تدعيم قيادة الحزب الشيوعي الصيني أم لا ؟

٦ — هل الأمر في صالح دعم التضامن الأممي الاشتراكي ، والتضامن الأممي بين شعوب الأمم المحبة للسلام أم لا ؟

— فإذا كان الجواب إيجابياً قولاً وعملاً فاليمينية الصينية تبقى .

ورد على سؤال : كيف تم الترشيحات لانتخاب أعضاء المجلس الوطني لنواب الشعب ؟ هل تم عن طريق القائمة الواحدة من الحزب الشيوعي ، أم قائمة موحدة من جميع الأحزاب ، أم قوائم متعارضة ؟

وكان الجواب : يرشح كل حزب من يريد ترشيحه ، وتعرض قائمة مرشحيه على « اللجنة الوطنية للمؤتمر الاستشاري السياسي » التي تنسق الترشيحات في قائمة موحدة . وللحزب الشيوعي في النهاية القول الفصل .

ورد على سؤال : كيف يتم اختيار الوزراء ؟

والجواب : يتوقف ذلك على عدة عوامل منها : اخلاص المرشح للقضية الاشتراكية وللنظام الاشتراكي الشعبي ، وكفاءته ، وتاريخه في الثورة ، وسمعته

وشهرته في المجتمع . ولقد اعتاد المسؤولون ان يشاوروا الاحزاب الديمقراطية عند اختيار الوزراء . والوزارة المركزية الحالية ، وتتألف من اربعين وزيراً تضم ثلاثة عشر وزيراً من غير الشيوعيين ، وبعضهم لا حزبي ، كما تضم ثلاث وزيرات.

رأيي في المنظمات الديمقراطية الصينية والغرض منها

*

ان الانطباع الذي خرجت به من هذا الاجتماع ، هو أن لدى حكام الصين غرضين أساسيين من وجود المنظمات الديمقراطية في بلادهم إلى جانب الحزب الحاكم : غرض داخلي ، وغرض خارجي .

والغرض الداخلي هو مشاركة تلك المؤسسات الديمقراطية في تنفيذ سياسة الدولة لا في وضعها . ووجودها واستقلالها التنظيمي يضفي على نظام الحكم ديمقراطية تشد وثاق الملايين من الصينيين غير الشيوعيين [١] بسلسلة متصلة تنتهي عند إدارة الدعاية في الحزب الشيوعي الذي يوجهها الوجهة التي يريد .

ثم أن هذه المؤسسات الديمقراطية تتخذ دوماً قرارات بتأييد برامج الحزب الشيوعي الصيني ... وتعقد اجتماعات شعبية طارئة لإعلان تأييدها الحكومة في سياستها الداخلية والخارجية الهامة . فضلاً عن ان الرأي العام يفقد بذلك زمام المبادأة في توجيه الحزب ، لا بل وان الحزب نفسه عن طريق تلك المنظمات الطيعة يقوم بتعبئة الرأي العام في نصرة قراراته وسياسته .

كما وان هذه المنظمات الديمقراطية توحد تفكير الشعب في القضايا الخطيرة كما تريد الحكومة ، عن طريق تنظيم الحملات التي قد تدوم أياماً وأسابيع فيجمع الشعب كلمته بتأييدها تأييداً كاملاً أو تضيق شقة الخلاف في الرأي إلى الحد الأدنى ... وهذا يفيد الحكومة في أعمال يمكن أن تقوم عليها دون ان تلتزم

---

٢ ـ يقدر عدد اعضاء الحزب الشيوعي الصيني اليوم بـ ٢٥ مليون من مجموع السكان البالغ عددهم نحو ٧٠٠ مليون .

بالاقدام عليها... وهذه الحملات كثيرا ما تجني الحكومة منها فوائد جمة إذ تدفعها إلى التحريض على زيادة الانتاج، وتعزيز روابط الولاء لنظام الحكم القائم،واشاعة شعارات الوحدة.

أما الغرض الخارجي ، فيتسم بالبراعة الفائقة والقدرة العظيمة على إلباس نظام حكمهم المغالي في ماركسيته ، لبوساً يوحي إلى من ينظر إليه عن بعد، بأنه نظام حكم أقرب ما يكون إلى مفاهيم الديمقراطية الغربية منه إلى ديكتاتورية الحزب الواحد.

وانهم في الوقت الذي يعملون فيه على تجاوز مرحلة الاشتراكية بقفزة خطرة، يسوقون فيها شعبهم إلى مرحلة المجتمع الشيوعي عن طريق تأسيس «كوميوناتهم» العديدة التي انتشرت في شتى أرجاء بلادهم الفسيحة ... فانهم يمثلون دوراً بارعاً لتصدير بضاعتهم إلى العالم الآسيوي والافريقي،والأمريكي واللاتيني بمئات ملايينه، من غير ان تستفز هذه الملايين مبادىء تقوض عقائدها ، ومثلها ، وفضائلها الانسانية ، أو تزعزع مجتمعاتها التي ارتضتها عبر القرون والأجيال ، وتعمل اليوم على تطويرها ...

ولذلك كله رأينا لعبة شواين لاي الماهرة البارعة في مؤتمر باندونغ ... ولمسنا أثر الدعاية الواسعة التي انتشرت عن الصين الشعبية في كونها كيفت الماركسية كي تلائم شعبها العريق في مدنيته وتقاليده وحضارته فلا تقضي على المعتقدات أو تجتث جذورها ، ولا تزيل الملكية في مجتمعها ، ولا تحرم الضمير الانساني من حقه في التفكير ... ولا تزعزع الفرد بإيمانه بحريته ... في حين انها تسلبه أولاً كل معاني تلك القيم ، وترفض حتى خبرة الاتحاد السوفياتي في الاشتراكية كمرحلة انتقالية أولى من الكفاح الذي ينتهي عند قيام المجتمع الشيوعى ، فتبادر بتأسيس مجتمعها : «من كل حسب طاقته .. ولكل حسب حاجته .. » ثم لا بأس عليها من القول بوجود أحزاب ديمقراطية في الصين.. ووجود ملكية ، لا بل ورأسمالية ممثلة في ذلك المليونير البائس «بانغ» القابع بفيلته بشنغهاي ليستقبل أمثالنا من الزائرين الأجانب ، ويتحدث إليهم من على مائدة الغداء الشهية عن فضائل

الشيوعية !

وعلى أي حال، فانها وسيلة من وسائل التعبير عن الخلق الصيني الرفيع لأولئك العاطفين من أبناء الشعوب الشرقية والشعوب الامريكية اللاتينية الذين يزورون الصين ولما يهضموا بعد « ديكتاتورية الشعب الديمقراطية » ولا يزالون واقعين تحت تأثير الدعاية الغربية المركزة الموجهة إلى صميم نظام حكم ديكتاتورية البروليتاريا.

ثم .. ان « الماوية » التي استطاعت ان تخطو بالصين بمثل خطوتها الجبارة التي لم تشهد البشرية لها نظيراً في التاريخ ... تسعى جـــاهدة في اندفاعها نحو التحول الشيوعى بأسلوبها الجديد لانتزاع المبادأة من الاتحاد السوفياتي لتؤول إليها زعامة العالم الاشتراكي بعد فترة من الوقت .. إذا لم تحدث لها انتكاسة ما !

السياسة الخارجية

- صينيون بعيون شيوعية
- حدود الصين الطبيعية
- آراء حول سياسة الصين الخارجية
- الهند والصين
- شواين لاي .. يرد
- الخلاف بين الصين والاتحاد السوفيتي
- الجاليات الصينية في جنوب شرقي آسيا

صينيون بعيون شيوعية

*

أشار دستور الصين إلى المبادىء التي تقوم عليها سياستها الخارجية قائلاً :

« ... من أجل النضال ضد الأعداء في الداخل والخارج ... وتوكيد الصداقة التي لا تنفصم عراها مع اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية وبلدان الديمقراطية الشعبية.. وإلى اقامة وتطور العلاقات الديبلوماسية مع جميع البلدان على أساس مبادىء المساواة والمنافع المتبادلة والاحترام المتبادل للسيادة وسلامة الأراضي .. والسعي لأجل قضية السلم وتقدم الانسانية »[1] .

> **ان الحياد مجرد خداع ، اذ ليس هناك وجود لطريق ثالث بين الشيوعية والرأسمالية ...**
>
> ماوتسي تونغ

وقادة الصين اليوم – كما وصفتهم مع بحث سياستهم الخارجية بحثاً علمياً هم : صينيون ، ولكنهم ينظرون إلى محيطهم بعيون شيوعية ، وهي عقيدتهم ... وهم يعلنون بوعي وإدراك عميقين اتخاذها قاعدة لسلوكهم .

وبكونهم صينيين ، فان المجال الحيوي اللازم لوجود الصين هي تلك الحدود الطبيعية لأرض الصين ، الضرورية لبقاء الأمة الصينية. وأي تقسيم لها، أو اغتصاب

---

١ – مقدمة دستور الصين الشعبية لسنة ١٩٥٤ .

لجزء منها يعتبر تهديداً لسلامة الأمة يوجب على الشعب النضال من أجله .

ويذهبون إلى أبعد من هذا ، ذلك أن مفهومهم التقليدي للحكومة الذي لم يتغير عبر العصور هو : « انها وديعة من السماء لمن يستطيع الدفاع عن الحدود ضد غزوات البرابرة ، وان يحفظ الأمن الداخلي من الثورات » .

كما وان الصينيين يعتبرون « الشيطان الأجنبي » مسؤولاً عما يحيق ببلادهم من كوارث . والحكم الشيوعي القائم اليوم في البلاد لا يختلف في نظرته للأجانب عن نظرة حكم الكومنتانغ لهم ، والتي عبر عنها شان كاي شك قائلًا :

« ان النشاط الاستعماري هو سبب قيام الحرب الاهلية التي نشبت بين حكام المقاطعات لا بل وان انهيار الامبراطورية كان مبعثه المعاهدات غير المتكافئة ، التي هدمت حياتنا الوطنية ، وأفقدت شعورنا بالشرف والحياء، فاضطرب الكيان التقليدي للعائلة والقرية والأمة ، وحل التنافس والتحاسد محل فضيلة التعاضد ، وأهمل التصميم العام ، ولم يبق بيننا من يهتم بالشؤون العامة .. » .

أما حكومة الصين الشعبية فتقول : « ... ان الاستعماريين يرسلون كلابهم داخل الصين للقيام بأعمال تخريبية ولإحداث القلاقل، ويستخدمون شان كاي شك وعصابته لمحاصرة موانئنا ، ولا يكتفون بهذا بل يقذفون بغامريهم وجيوشهم للسطو على حدودنا وإثارة الاضطرابات حولها ، انهم يريدون ان يصطنعوا كل الوسائل لاستعادة مركزهم في الصين،فيتآمرون لتهديم استقلالها وحريتها وسلامتها الاقليمية ، وليسترجعوا امتيازاتهم الخاصة فيها ، فعلينا أن نكون في غاية اليقظة لأنهم لا يستطيعون ان يكونوا الأصدقاء الحقيقيين للشعب الصيني ، بل هم الأعداء الألداء لحركة تحرير الشعب الصيني » .

حدود الصين الطبيعية

✲

ونتسائل هنا : ما هي حدود الصين الطبيعية في نظر الصينيين ؟

يرى الصينيون الشيوعيون منهم والوطنيون أن هنالك أجزاء كثيرة من أرض الصين قد اقتطعت منها خلال المائة سنة التي سبقت قيام الحكم الشيوعي للبلاد وتبلغ مساحتها نحو مليوني كيلومتر مربع ... فكوريا كانت جزءاً من الامبراطورية الصينية القديمة ... كما كانت منغوليا الخارجية التي اعترف باستقلالها عام ١٩٤٥ ، ثم انضمت بعدئذ إلى جمهوريات الاتحاد السوفييتي جزءاً من بلاد الصين .

كما وأن الحدود في الغرب ، وفي الشمال الغربي ما زالت بحاجة إلى تحديد جديد تراعى فيها مطالب الصين الاقليمية ، فمنطقة « البامير » في الغرب يتنازع على ملكيتها اليوم كل من الاتحاد السوفييتي والصين وافغانستان ... كما وأن الصين تعتبر جزر الكورال « توانشا » الواقعة في أقصى الجنوب جزءاً من أراضيها .

أما التيبت التي تدعي الصين أنها جزء من الوطن فلقد زحفت عليها جيوشها في عام ١٩٥٠ وألحقتها بالبلاد الصينية وأعطتها حكماً محلياً، وبقيت مقاطعات شاسعة تقدر بنحو ٦٧٧ ألف كيلومتر كانت انكلترا قد ضمتها إلى حدود الهند وإلى بورما عندما كانتا خاضعتين لحكمها، وتطالب الصين حكومتي الهند وبورما باستعادتها.. ولقد توصلت في عام ١٩٦٠ إلى تسوية مشاكل الحدود مع بورما بطريقة ودية، في حين أن جيوشها دخلت بعض أجزاء المقاطعات الهندية قدرت مساحتها بـ١٨ ألف ميل مربع مما خلق توتراً سياسياً ملحوظاً بين كل من الهند والصين الشعبية في السنتين المنصرمتين .

وتطور النزاع الصيني – الهندي فاتخذ في تشرين اول « اوكتوبر» ١٩٦٢ طابعاً عسكرياً خطيراً أخذ يهدد بحرب شاملة بين أعظم وأكبر أمتين آسيوتين ، فلقد حشدت الصين الشعبية ما يقرب من ١٤٠ ألف جندي على حدود الهند تحت ستار غزو موهوم تتوقعه على سواحلها المقابلة لفرموزا « تايوان » ، ثم فاجأت الهند بالزحف من التيبت على مناطق لاداخ ، وسيكام ونا كاس المتاخمة لبورما ، مما دعى الهند إلى إعلان حالة الطوارىء ، وطلب العون العسكري من جميع الدول لصد العدوان الصيني على أراضيها .

أما ما يتعلق بفرموزا « تايوان » وجزيرتي كيموي وماتسو التي اتخذت حكومة شان كاي شك الوطنية جزرها مقراً ومستوطناً لها ولمن هاجر معها من الصينيين .. فان حكومة الصين الشعبية تطالب بها بقوة .. وقد لجأت في السنوات الثلاث المنصرمة إلى قصف هذه الجزر بالمدفعية المنصوبة على ساحل الصين المقابل لها ، ويقول ماوتسي تونغ بصدد استعادة الأرض الصينية المفقودة ما يلي : « ان مهمتنا الفورية هي استعادة أراضينا المفقودة .. وهي لا تشمل كوريا التي سبق لها أن كانت مستعمرة صينية ، ولكننا سنكون مستعدين ، بعد أن نستعيد أراضينا ، لتلبية طلب الكوريين فيما لو أرادوا مساعدتنا ليتخلصوا من نير الاستعمار .. وينطبق نفس الشيء على فرموزا .. أما جمهورية منغوليا الخارجية فانها ستصبح بصورة آلية جزءاً من الاتحاد الفدرالي الصيني ، وسيطالب أهاليها بذلك ، وسيؤلف كل من الشعبين الاسلامي والتيبتي جمهورية مستقلة استقلالاً داخلياً ومرتبطة بالاتحاد الصيني . »

ومما يدعو إلى الدهشة والاستغراب في سياسة الصين الخارجية هو انها لم تحاول إثارة موضوع هونغ كونغ الجزيرة الصينية القريبة جداً من الساحل الصيني ومدينة « كاولون » الملحقة بها والكائنة على البر الصيني نفسه وتحتلها بريطانيا كمستعمرة تحكمها ، ويخضع لحمايتها ٣٫١٣٠٫٠٠٠ من المواطنين الصينيين .

ومما لا ريب فيه هو ان الصين تستطيع ان تحرر هونغ كونغ وكاولون بيسر وسهولة لا بل وان أبناء هونغ كونغ أنفسهم يستطيعون ان يفعلوا ذلك متى أرادوا . على أن الصين لم تفعل ذلك حرصاً منها على الابقاء على علاقاتها السياسية والاقتصادية مع بريطانيا ، ولكي تتخذ من هذه المستعمرة البريطانية جسراً حراً يوصلها بالعالم الغربي والأمريكي معاً ، فيضعف الحصار الاقتصادي الأمريكي عليها، ويفتح لها اسواق العالم تستورد منه ما تحتاج إليه ، وتورد إليه ما تريد ان تصدره من بلادها عندما تكون هنالك عقبات دولية تحول دون فعل ذلك .

كما وان الصين لم تحاول إثارة موضوع مستعمرة « ماكاو » البرتغالية وهي شبه جزيرة صغيرة تقع في جنوب الصين – غربي هونغ كونغ ولا تزيد مساحتها

على ستة أميال مربعة ، ويقطنها ٣٠٠٫٠٠٠ صيني ، ولقد احتلها البرتغاليون في عام ١٥٥٧م-ولم يتخذ احتلالها صفة قانونية حتى عام ١٨٨٧ حين وقعت الحكومة الصينية القائمة حينذاك اتفاقاً اعترف للبرتغال « بالسيادة » على ما كاو .

وطبيعي ان هذه « القانونية » لم تكن-ولا يمكن ان تكون مبرراً للاحتلال أو لاستمراره .. فليس اغتصاب أرض الغير بالقوة ثم محاولة إضفاء الصبغة القانونية على ذلك الاغتصاب بالمبرر له أو بقائه .. اللهم إلا إذا كان لصاحب الأرض نفسه مصلحة في بقائه !!

وهذا هو واقع الأمر بالنسبة للاحتلال البرتغالي لما كاو ، فحكومة الصين الشعبية هي صاحبة الكلمة في ما كاو ، وهي قادرة على انهاء هذا الاحتلال بدقائق معدودة ومن دون إراقة دماء ، ذلك ان عدد حاميتها البرتغالية ألف جندي لا يملكون من أمر الدفاع عنها شيئاً .. وحاكمها البرتغالي ينفذ أوامر حكومة بكين بالرغم من انه مسؤول رسمياً أمام حكومته .

وهكذا نرى ان طبيعة العلاقات القائمة بين الصين والبرتغال في ما كاو قائمة على احتلال اسمي بموافقة الدولة صاحبة الشأن لمصلحة الطرفين.. فالبرتغاليون يقومون بدور الوسيط بين الصين الشعبية والبلاد التي لا تتعامل سياسياً أو تجارياً مع الصين ومن بين هذه البلاد الولايات المتحدة الأمريكية التي تستورد البط الصيني عن طريق ما كاو . والبرتغاليون بهذه الوساطة يخدمون الصينيين خدمة كبيرة إذ انهم يدفعون ثمن ما يستوردونه من الصين الشعبية بالعملات الأجنبية التي تحتاج الصين إليها ، كما وانها تستورد عن طريق ما كاو كثيراً من المواد الاستراتيجية التي لا يسمح الغرب ببيعها إلى الصين الشعبية بيعاً مباشراً !

والصين بهذه النظرة الواقعية البعيدة المرمى تضرب مثلاً في ضبط النفس ، والتغلب على العواطف حين تقتضي الضرورة والمصلحة الوطنية ذلك .

وبكون العقيدة الشيوعية ، مقوماً لسلوك الحكام الصينيين في رسم سياستهم الخارجية فان أول هدف للشيوعية هو التصميم على انتشارها في العالم كله، لاعتقادهم أن العلاقات الانسانية علاقات تنازعية ، ومتناقضات العملية الديالكتيكية كامنة

فيها ، وان أعلى صور النزاع بين الطبقات على الصعيد الدولي هو الذي ينبثق من التناقض بين الشيوعية الدولية والرأسمالية الدولية ، وان المقوم الشيوعي لهذه السياسة، ومحتوياته الايدولوجية تحددها تعاليم ماركس ولينين وستالين وماوتسي تونغ .

وعندما أعلن خروشوف في مؤتمر الحزب العشرين عام ١٩٥٦ « ان الحرب ليست حتمية بين المعسكرين الشيوعي والرأسمالي » وقفت الصين موقفاً معارضاً منه ، وعبر حكام الصين في البداية عن خلافهم مع الاتحاد السوفييتي تعبيراً مهذباً تمليه عليهم اعتبارات كثيرة ، فمع مشاركة الصين والاتحاد السوفييتي في ايدولوجية واحدة فان ذلك لا يعني بالضرورة وحدة في وسائل التنفيذ أو في توقيته ، وترى الصين ان هناك تناقضاً جزئياً في علاقات البلاد الاشتراكية من حيث تقرير الأهداف الموضوعية ، ذلك ان اهتمامها كله منصب على القضاء على حكومة شان كاي شك ، وتحرير فرموزا « تايوان » و « ماتسو » و « كيموي » لكي تتخلص الصين الشعبية من الازدواجية الدولية للصين إذ ان حكومة الصين الوطنية هي الممثلة حتى الآن في هيئة الأمم المتحدة ، ويعترف بها عدد من الدول وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية ، في حين انها لم تمثل في تلك الهيئة على الرغم من سيطرتها الكاملة على الأراضي الصينية ، واعتراف معظم دول العالم بها اعترافاً قانونياً وفعلياً . ويستتبع هذا ان العلاقات بين أمريكا والصين الشعبية ليس مرده إلى الايدولوجية الشيوعية وحسب ... وإنما لأن الصين الشعبية ترى ان أمريكا هي التي أيدت شان كاي شك في الحرب الاهلية ثم قاتلتها في كوريا ، ووقفت حائلاً بينها وبين عضويتها في الأمم المتحدة ، واحتلالها كرسيها الدائم في مجلس الأمن باعتبارها الدولة العظمى الرابعة ، فضلاً عن حصارها الاقتصادي الذي ضربته حول الصين .

كما وان الاتحاد السوفييتي لا يقر الصين الشعبية في ممارسته الضغط العسكري على الهند وغيرها في جنوب آسيا لانتزاع أقاليمها المسلوبة منها بالقوة .. لأن مثل هذه السياسة قد تؤدي بتلك الدول إلى التخلي عن سياسة الحياد التي تتبعها في

الصراع بين المعسكرين ، ومن ثم تميل إلى المعسكر الغربي .

وفضلاً عن ذلك ، فان هناك خلافات في كثير من الأمور الداخلية بين الاتحاد السوفييتي والصين الشعبية ، ففي الحرب الكورية اعتمدت الصين على المساعدات العسكرية السوفييتية ، وقد اعتبر السوفييت تلك المساعدات وقد قدرت بـ ٢٤٠٠ مليون دولار بمثابة قرض على الصين . وكذلك الخلاف على استثمارات المعادن والبترول في«سينكينغ» إلى جانب الخلاف على الحدود السياسية بين البلدين–بما في ذلك مصير منغوليا الخارجية التي انضمت رسمياً للاتحاد السوفييتي بوصفها جمهورية سوفييتية .

آراء حول سياسة الصين الخارجية

*

يخاطب خروشوف أولئك الذين يريدون ان يدعموا الشيوعية بالحرب فيقول: « ان من المستحيل ان نطبق ما قاله لينين في ظروف تختلف تمام الاختلاف عن الظروف التي وجد فيها لينين . وإذا قدر للرفيق لينين ان يعود مرة ثانية للحياة ، فانه لا يسعه إلا ان يشد على اذن هؤلاء الرجال ... ان من يشعل حرباً عالمية جديدة ما هو إلا مجنون او مخبول » .

والأمريكيون يرون : ان الحد الفاصل بين الحقيقة والخيال قد يكون مائعاً بالنسبة لعقل الصين الشيوعي الوهمي ، ذلك ان حوادث عظيمة في سياسة الصين الخارجية تدل على ان الزعماء الصينيين قد أخذوا النظريات الشيوعية مأخذ الجد ، كما ان التطورات الداخلية في بلادهم قد أثرت على سياستهم الخارجية إلى حد بعيد، مما أدى إلى تمييز سياسة الصين الخارجية بالصلابة المتناهية تارة،وباللين تارة أخرى.. وتعود بعد ذلك إلى الصلابة – خاصة بالنسبة لاتجاه الولايات المتحدة ، وإلى سياستها في جنوب شرقي آسيا .

ونتيجة لهذا ، فقد بقي الأمريكيون وما يزالون حتى الآن واقعين تحت تأثير

الأحداث التي لا يملكون زمام المبادأة فيها ، فلم يستطيعوا مواجهة الحقائق الأساسية للمشكلة الصينية ، وبالتالي فان علاقاتهم بالصين وبجنوب شرقي آسيا ستظل تواجه العقبات القاسية طالما لم يفعلوا ذلك .

ان الامريكيين موقنون انه بدون الاعتراف بالحكومة الفعلية للصين ، واعادة تشكيل مجلس الأمن بموجبه ، فانه لن يكون بالامكان إحراز السلام في آسيا ، وهذا الأمر لا يمكن ان يتحقق ما لم تصبح فرموزا جزءاً من الصين، على ان أمريكا لا يمكن ان تضحي بمثل هذه السهولة بحكومة « شان كاي شك » على الرغم من يقينها بأن شان كاي شك أعجز من ان يقوم بالمستقبل بمحاولة لوضع قدمه على أرض الصين .

وقد يبدو في الأفق « حلاً وسطاً » وهو الاعتراف بالصين الشعبية ، وقبولها عضواً بهيئة الأمم المتحدة ، وإعطائها الكرسي الدائم في مجلس الأمن بدلاً من حكومة فرموزا ، على أن تبقى فرموزا حكومة مستقلة تتمتع باستقلالها الذاتي ، أو يتقرر مصيرها باستفتاء سكانها .

وهذا الرأي الوسط له في نظر بعض المحايدين ، ما يبرره ، فجزيرة فرموزا التي تبلغ مساحتها ١٤٫٠٠٠ ميل مربع ظلت مرتبطة على نحو ما بتاريخ الصين بضع مئات من السنين ، واعتبرت مقاطعة صينية لأول مرة في التاريخ في عام ١٦٨٣ ، وفي عام ١٨٩٥ خضعت لحكم اليابان ، وظلت خاضعة لحكمها خمسين عاماً إلى ان احتلتها القوات الأمريكية في الحرب العالمية الثانية .

وعندما هزم شان كاي شك من بلاده عام ١٩٤٩ اتخذها مقراً لحكومته ، ومعه مليونا صيني من جيشه وموظفيه ، وسائر الذين فروا معه من الصينيين، وهم الآن يكونون غالبية موظفى الحكومة المركزية في العاصمة تايوان، وثلثى الجيش الذي يبلغ حوالى ٦٠٠٫٠٠٠ رجل .

وخلال السنوات الماضية ، ركزت السياسة الأمريكية إزاء فرموزا اهتمامها بهذه الأقلية الحاكمة من الصينيين ودعمتها بأسطولها، ولكن أهل فرموزا الأصليين البالغ عددهم ٨ ملايين نسمة هم الذين يقررون مصيرها في النهاية .

وهؤلاء الذين يتكلمون بلهجة « الفوكيان » قد تأثروا كثيراً بالحياة اليابانية، وفيهم من يشعر بصلة القربى باليابان ، على ان حكم شان كاي شك قد جعل من الجيل الجديد صينياً أكثر منه شعوراً بالقربى لليابانيين . وهناك من الأمريكيين من يقول : بامكان وجود اقليم « فرموزي » تغلب عليه الثقافة الصينية ويرتبط بوطنه وبأمته الصينية برباط الوشاج،ولكنه يميل إلى الاستقلال الداخلي،خاصة بعد تطويره وتقدمه الثقافي والاقتصادي بفعل المساعدات الأمريكية التي قدمت له ما بين عامي ١٩٤٩ – ١٩٦٢ .

وعلى هذا التقدير يأمل بعض الأمريكيين المسؤولين انه لن يكون بوسع حكومتهم تأثير إيجابي على توجيه أحداث شرقي آسيا في المستقبل إلا عندما تتخلى عن موقفها الجامد هناك ، مبتدئة بإيجاد وتنفيذ سياسة خلاقة قائمة على الاعتراف بدولتين صينيتين : جمهورية الصين الشعبية ، وجمهورية تايوان « فرموزا » الصينية التي يقرر شعبها مصيرها بإشراف دولي .

ومثل هذه السياسة لن ترضى عنها حكومة شان كاي شك ، كما ان حكومة الصين الشعبية تستنكرها ، لا بل تحتقرها بشدة، كما ان مواطني فرموزا القدامى الذين يطالبون الأمريكيين بتنحية شان كاي شك عن الحكم ومساعدتهم على إقامة حكومة من بينهم قد يعارضون هذه السياسة .

ومع ذلك ، فإذا اتجهت أمريكا إلى تبني هذه السياسة ، وجب عليها ان تتجه (فيما يرى ذلك الفريق من الأمريكيين المسؤولين) إلى إثبات ما يلي :

١ – الاصرار على مقاومة التغلغل الشيوعي في جنوب شرقي آسيا ، والحيلولة بين الصين الشعبية ، وبين احتلالها لفرموزا ، ولو أدى بها الأمر إلى الدخول بحرب عالمية .

٢ – امتناع أمريكا عن مساعدة شان كاي شك مساعدة عسكرية من شأنها الابقاء على احتمال قيامه بحركة طائشة لغزو جزء من البر الصيني .

٣ – ان المساعدة الأمريكية لفرموزا يجب ان تتسم بطابع مساعدة بلد حر قائم بذاته يسهم سكانه جميعاً في حكم جزيرتهم ، ويقررون مصيرهم بأنفسهم .

ان من شأن مثل هذا الاتجاه المقترح للسياسة الأمريكية ان يوجد احتمالاً لإنجاح الحل الوسط ، قد تقبل به حكومة الصين الشعبية ولو على مضض ، بوصف كونه إحدى حقائق الحياة في آسيا ، كما فعلت إزاء الأمر الواقع في منغوليا الخارجية .

وقد يقترن إيجاد مثل هذا الحل الوسط بتفاهم ابعد مدى بين الولايات المتحدة الأمريكية وبين الصين الشعبية إذا تأيد لدى الصين الشعبية ان هناك في أمريكا من يعطف على أمانيها فيعينها على تحقيق برامج تنميتها الاقتصادية والصناعية لرفع مستوى حياة شعبها ، وقد يصل الطرفان إلى أبعد من ذلك، فيضعان قواعد راسخة لسلم دائم لجنوب شرقي آسيا .

وقد تقتضي استراتيجية كل منهما إلى مثل هذه التسوية أو الاتفاق ، بأمل التوازن في القوى بعد ان اتسعت شقة الخلاف بين الصين والاتحاد السوفييتي لدرجة احتمال القطيعة بين المعسكرين الشيوعيين !

أما إذا ظلت الولايات المتحدة تسير بعناد وإصرار على سياستها الحالية إزاء الصين والتي لا تتسق ومنطق واقع الحياة ، فان لدى الصين ورقة رابحة في هذا الميدان لا تكلفها كثيراً ، وذلك بسبب تطور الاتجاهات الخطيرة التي تأتي من وراء الشعور القومي الملتهب لدى شعوب شرقي آسيا . وسياسة الصين الخارجية تعمل على تطبيق استراتيجية الوحدة والنضال من أجل التحرر السياسي والاقتصادي لشعوب آسيا ، فتجلب لها أقصى ما يمكن من مكاسب ، وتكلفها أقل ما يمكن من خسائر، فما دامت مجتمعات جنوب شرقي آسيا غير مستقرة سياسياً واقتصادياً، وما دامت الولايات المتحدة الأمريكية تعطي الأولوية للمساعدات العسكرية فتبدو لدى شعوب المنطقة وكأنها المسؤولة عن ضياع حرياتهم السياسية وعن شقائهم بحكامهم المستبدين المتفسخين الذين تدعمهم الولايات المتحدة وتثبت سلطانهم المتداعي بالأحلاف وبالمساعدات العسكرية التي بلغت حد التدخل العسكري المباشر أيضاً .

ففي كوريا الجنوبية ، وفييتنام الجنوبية حكومات مستبدة لم تنبت جذورها

من الشعب ، فالأمل المشرق في الحكم القوي المصلح الذي تتولاه جماعة الضباط في كوريا لم يحقق هدفه فيها حتى الآن . أما الحرب المناهضة للشيوعية في فييتنام الجنوبية المنقسمة على نفسها ما زالت تفتقر إلى الوحـــدة الوطنية وإلى الأساس السياسي المنطقي اللازم لتحقيق الاستقرار في بلد قسمته الدول إلى فييتنام شيوعية في الشمال ، وفييتنام جنوبية في أبنائهـــا من يؤمن بالشيوعيـة ، فألفوا جيش « الفايتكونغ » وقوامه عشرون ألف رجل، ينظم حزبه « ناوشو » الذي يعد من أبرز رجال الحزب الشيوعي الصيني خبرة في حرب العصابات وفي استراتيجيتهـا العسكرية ، وتقدم الصين لفييتنام الشمالية مساعدات عسكرية ضخمة لتمد هذه بدورها المساعدة إلى ثوار فييتنام الجنوبية الذين يقودهم « فونجوين جياب » بوصفه القائد الأعلى لجيش الشعب الشيوعي .

أما جيش الامبراطور « باوداي » بقيادة «نجو دينه ديم» فلقد فشل حتى الآن في ضمان سيطرته على فييتنام الجنوبية التي يتطاحن أبناؤها في خلافات مذهبيـــة ودينية لا آخر لها !

وفي لاوس التي تحدها من الشرق كل من فييتنام الشمالية وفييتنام الجنوبية ، ومن الشمال الصين الشعبية وبورما ، ومن الغرب تايلند « سيام » ومـن الجنوب الغربي كمبوديا فتتنازعها ثلاثة اتجاهات يمثلها ثلاثة أمراء: الأمير «بون اوم» الموالي للغرب ، والأمير « سوفانافوما » المحايد ، والأمير « سوفانوفونغ » زعـيم منظمة الباتت لاو الشيوعية التي أخذت تستخدم الضغط العسكري لتحقيق آمالها بتكوين دولة محايدة برئاسة سوفانافوما الذي يستمد قوته من الشيوعيين وهم سر قوته .

ولقد تم فعلاً تأليف هذه الحكومة المحايدة برئاسة سوفانافوما وفقاً لاتفاقيـة جنيف التي وقعت عليها الدول الغربية الثلاث الكبرى ، كما وقعت عليها الصـــين الشعبية والاتحاد السوفييتي .

وتأمل منظمة الباتت لاو الآن بأن دولة لاوس المحايدة ستخطو في المستقبـل خطوتها الأخيرة بالانضمام إلى المعسكر الاشتراكي .

أما الوضع في كمبوديا ، التي يحكمها الأمير « سيهانوك » — وهو محايد — فهو

ساخط على أمريكا لتأييدها لحكومة تايلند ولفييتنام الجنوبية اللتين تحيطان بمملكته ، خاصة وان تايلند منضمة إلى حلف جنوب شرقي آسيا في حين ان فييتنام الجنوبية ممزقة ، وجماعة «الباتت لاو» الشيوعية تعمل على الاغارة عليها من أراضي كمبوديا وفييتنام الشمالية معاً.

وحتى الملايو التي يرأس حكومتها « تنكو عبد الرحمن » الموالي للغرب ، قد وفقت أخيراً إلى تكوين اتحاد الماليزيا [1] الذي يتألف من الملايو ومستعمرة سنغافورة وبروني وشمال بورنيو وساراواك . ولقد عارضت اندونيسيا والفيليبين هذا الاتحاد ولم تعترفا به بسبب مطالبهما الاقليمية في بعض أجزائه وخاصة في بورنيو الشمالية وساراواك .

واتحاد الماليزيا الجديد هذا ، يقاومه شيوعيو المنطقة، ويواجه معارضة متزايدة من « ليم شن سيونغ » وجبهته الاشتراكية التي تنادي بأن اتحاد الملايو الجديد ما هو إلا مؤامرة استعمارية جديدة فكر فيها البريطانيون لتعزيز نفوذهم العسكري والاقتصادي في الشرق الأقصى .

وحركة « ليم » التي يغذيها الصينيون آخذة في النمو يوماً بعد يوم . وهذه المشاكل جميعاً تفعل اليوم فعلها في تقرير مصير جنوب شرقي آسيا ، وتستغلها الصين لمواجهة الولايات المتحدة الأمريكية لخلق المصاعب والمشاكل البالغة الخطورة لها بوصفها زعيمة حلف جنوب شرقي آسيا .

كما وان الصين قد استغلت اتفاقيتها التي عقدتها مع بورما لتسوية النزاع على الحدود في زيادة نفوذها فيها .

وتستخدم الصين مواطنيها الذين يبلغون نحو ١٦ مليون نسمة والمتغلغلين في جنوب شرقي آسيا في أعمال مناهضة لسياسة الغرب وضد أمريكا بالذات في الملايو

---

١ ـ تبلغ مساحة اتحاد الملايو الجديد ٥٨٠٠٠ ميل مربع ، وتعداد سكانه ١٠ ملايين نسمة ، منهم ٤٫١٠٠٫٠٠٠ صيني ! الى جانب عدد كبير من الاقليات المختلفة الاجناس كالهنود والاندنوسيين .

وتايلاند واندونيسيا ، متعاونين مع الأحزاب الشيوعية المحلية في تلك البلاد [١] .

ويعتمد الأمريكيون في هجومهم المضاد على سياسة الصين الخارجية على حلف جنوب شرقي آسيا ، وعلى المساعدات العسكرية والمالية للحكومات الموالية لهم في المنطقة وإلى تدخلهم المباشر في الحرب الساخنة والباردة ، وعلى الحصار الاقتصادي الذي ضربته على الصين .

والأمريكيون يعلقون بعض الأمل على خلاف دولتي الروس والصين بعد ان دخلت علاقاتها في طورها الجديد ، ذلك ان الاتحاد السوفييتي أخذ يميل إلى كبح جماح التدخل الصيني في المنطقة قبل ان يصل إلى النقطة التي تهدد بنشوب حرب أكثر اتساعاً مما هي عليه اليوم .

فلقد عارض الاتحاد السوفييتي الصين في نزاعها مع الهند حول الحدود الصينية الهندية ، كما تساءل كذلك بشأن نزاع بكين مع اندونيسيا حول حقوق التجار الصينيين في اندونيسيا .

وتطورت المنافسة بين موسكو وبكين على اكتساب النفوذ لكلتا الدولتين في كل من كوريا الشمالية، وفيتنام الشمالية ، ومنغوليا الخارجية، كما فاز الروس على الصينيين في تقوية الناحية الشيوعية الحيادية في لاووس ، وكسبوا كذلك أكثر الأحزاب الشيوعية المحلية الأخرى القائمة في جنوب شرقي آسيا إلى صفهم في النزاع الايدولوجي القائم بين موسكو وبكين .

ويرى الأمريكيون بأن الأحزاب الشيوعية الآسيوية لها ميل قوي نحو الاتحاد السوفييتي وليس هناك من يرحب بسيطرة الصين عليها ، لأنها أي الأحزاب الشيوعية الآسيوية تؤمن إيمان السوفييت : بأن التعايش السلمي هو الذي يضمن النصر في المعركة بين الشرق والغرب في النهاية .

على ان الأميركان مع اعتقادهم بأن الوقت الذي سيكون في مقدور الصين القيام بتحد إيجابي حقيقي لنفوذ الغرب في آسيا - بوصفها قوة عظيمة - ما زال

- يجد القارىء في نهاية هذا الفصل بحثاً خاصاً عن الجاليات الصينية في جنوب شرقي آسيا.

بعيد التحقيق، إلا انهم من الناحية الأخرى يرون ان الخطر الذي يهدد الغرب يكمن في احتمال قيام منافسة بين أكبر دولتين شيوعيتين في المجال العسكري لتظهر كل منهما قوتها إلى الأخرى .

وأخيراً فالأميركان يرون بأن تحول الصين عن روسيا سوف لا يحدث في المستقبل القريب ، وفرض انفصال دائم بين الصين والاتحاد السوفييتي ما زال بعيد الاحتمال . والحد الأقصى لهذا الخلاف هو اختلاف « مكان » في الأهداف بالاضافة إلى اختلافه من حيث الزمن والتطور ، فأوروبا الموضع الأول لاهتمام الروس ، في حين أن اهتمام الصين منصب على محيط آسيوي يمتد من طوكيو إلى كابل .

*

ويرى « بون أوم » الأمير السائر بركاب الغرب في لاوس : « بأن الصين الحمراء ستسيطر في نهاية المطاف على جميع دول جنوب شرقي آسيا ، غير أنها تحتاج إلى ثلاثين السنة القادمة إلى السلام الذي يمكنها من تنمية زراعتها وصناعتها .. وترغب الصين الآن أن تحيط بها دول محايدة ، ولكن بعد ثلاثين عاماً سوف لا ترضى بذلك » .

وزعماء الدول الصغيرة في جنوب شرقي آسيا – في تايلند وكمبوديا وفيتنام الجنوبية وكوريا الجنوبية يشاركون أمير لاووس رأيه ويضيفون قائلين : بينما ينظر الشيوعيون الصينيون إلى شيوعيتهم على أنها عنصر حيوي في تقرير علاقاتهم مع العالم الخارجي ، فان كثيراً من جيرانهم يعتبرون أن عقيدتهم لا تمت إلى ذلك بصلة كبيرة !!.. لأن الدول الصغيرة يشغل تفكيرها بشدة أمر بروز الصين كقوة موحدة ضخمة ولا يوجد خوف من أن تقوم الصين بغزو جنوب شرقي آسيا كي تستولي على فائض الأرز الموجود هناك لتسد حاجة سكانها الذين يتزايدون بسرعة ، لأن الدول المجاورة تدرك أن ذلك الفائض لا يعد ذا قيمة كبيرة بنظر الصينيين ... إنما يتعدى ذلك كله إلى ابتلاعها في خضم « العالم المركزي » .

الهند والصين

*

أما رأي الهند في خلافها على الحدود مع الصين الشعبية فلخصه نهرو قائلاً :

« اننا نريد أن نسوي قضية الحدود بالوسائل السلمية ، وإلا فستكون نكبة علينا وعلى الصين وعلى آسيا إذا ظللنا نعيش في عداء وضغينة طوال الخمسين عاماً القادمة .

وقال نهرو أيضاً : « ... لا يمكن أن تجري مفاوضات بشأن هذا النزاع ما دامت القوات الصينية تحتل الأراضي الهندية. اننا لا نريد–بل اننا لنكره بشدة– قيام حرب مع الصين ، ولكن ذلك قد خرج عن حدود سيطرتنا ، ولهذا يجب علينا أن نستعد للطوارىء ، ونحن نزداد قوة لمواجهتها » .

ولم يقتصر عزم الهند على استرداد منطقة « لاداخ » في الهملايا بالتصريحات فحسب ، وإنما اعتمدت الهند على تعزيز قواتها المسلحة ، فعقدت اتفاقاً مع الاتحاد السوفييتي لتجهيزها بطائرات « الميغ ٢١ » التي لم تحصل عليها الصين وزادت من اعتماد ميزانية الدفاع فبلغت نسبتها ٢٥ ٪ من مجموع الميزانية العامة للدولة في حين أن هذه النسبة لم تكن لتتجاوز ٢٠ ٪ في السنوات الماضية . ثم عقدت اتفاقات أخرى مع الدول الغربية قبلت بموجبها المساعدات العسكرية على أوسع نطاق ، فتخلت بما فعلت عن سياستها التقليدية القائمة على الحياد .

وبينما كانت الهند ماضية في الاستعدادات التمهيدية إذا بها تفاجأ في شهر تشرين الثاني «نوفمبر» عام ١٩٦٢ بغزو صيني قوي قد أعدت عدته من قبل تحت ستار شديد من الكتمان ، غطته بأعظم خدعة سوقية « استراتيجية » حيث ادعت أن هناك غزواً محتملاً يعد عدته « شان كاي شك » على البر الصيني .

واستفاق نهرو على صوت المدافع التي تدوي على حدود بلاده الشمالية ، وعلى الجيوش الصينية وهي تكتسح معظم منطقة لاداخ ، وكذلك مناطق الحدود الشرقية ، وكان شجاعاً أميناً حين قال لمواطنيه : « لقد خدعتكم ... لقد كنا

بعيدين عن حقائق العالم الحديث، لقد كنا نعيش في جو مصطنع من انشائنا ، ولم يعد يجدي السكوت عليه حتى نختنق فيه . »

وكشف قائد القوات الهندية الجنرال « كول » زيف ما أكده وزير الدفاع السابق « كريشنامنن » من أن الموقف العسكري في قطاع الحدود الشمالية الشرقية في صالح الهنود أكثر منه في صالح الصينيين ، وذلك ان القوات الهندية في حاجة لقدر كبير من الامدادات والأسلحة إذا كان يراد لها مواصلة مهمتها بنجاح.

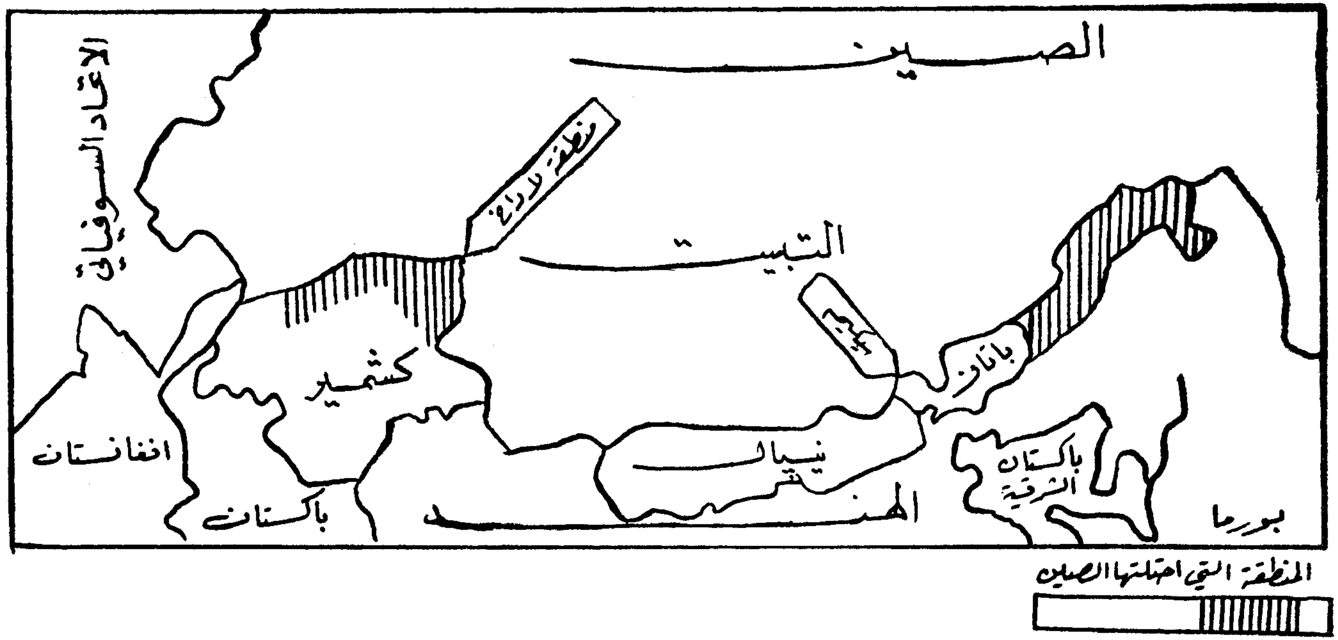
فعزل كريشنامنن من منصبه على الرغم من صلته الوثيقة بنهرو ، وأعلن نهرو للعالم قائلًا :

« ان العدوان الصيني على الهند هو نقطة تحول في تاريخ العلاقات الآسيوية،ولم تقدر الصين الشعبية مسؤولياتها اطلاقاً حين اتخذت من الحرب وسيلة لتسوية كل شيء فهذا التصرف هو نوع جديد من الاستعمار ... ونحن إذ نقبل هذا التحدي، ونتحمل جميع عواقبه ، فان الهند لن تستسلم أبداً ... ولن يلين عزمنا على طرد الصينيين من أراضينا ... »

وقال نهرو : « ان الأهداف التي وقعت بأيدي الصينيين منذ يوم ٨ ايلول «سبتمبر»١٩٦٢قد قضت تماماً على الأمل في تسوية الخلافات على الحدود سلمياً وفق المبادىء الدولية التي تتبعها الحكومات المتحضرة..ان الهند ستواصل طلب المعونات العسكرية وتسلمها من الدول الصديقة لتعزيز دفاعها واقتصادها » .

وتطورت حوادث الحدود ، فأصبحت القوات الصينية على بعد ٤٠ كيلومتراً من سهول اسام ، وسقط ممر سيلا ومدينة « بومديلا » ، واتسعت جبهات القتال فشملت ثلاث جهات : بين التيبت ولاداخ ، منطقة الحدود الهندية الشمالية الشرقية ، ووادي شوهي بين سكيم وباتان ، حيث أصبحت الصين تهدد المناطق الصناعية في شمال الهند إلى جانب عزل المنطقة الشمالية الشرقية كلها عن بقية البلاد.

ويعتقد المراقبون الدوليون ان هدف الصين البعيد المدى هو السيطرة على سيكيم وبوتان ونيبال والمنطقة المطلة على سهل الهند الشمالي ، ان لم يكن سهل أسام نفسه الذي يستوعب عشرات الملايين من الصينيين الفائضين على بلادهم !



خريطة مناطق النزاع بين الصين والهند

وبدت للعيان صيحة ماوتسي تونغ عام ١٩٤٦ حين قال: « ان الحياد مجرد خداع إذ ليس هناك وجود لطريق ثالث بين الشيوعية والرأسمالية » .

ونهرو يقول : « ان الهند ستواصل اتباع سياسة عدم الانحياز بتحفظ واحد يقوم على أساس ان ظروف الحرب تخلق بواعث خاصة بها ... كذلك فانه إذا التقت مصالح الهند والغرب من أجل هدف مشترك فان هذا لا يعني بالضرورة ان تتخلى الهند عن عدم الانحياز ولو من الناحية النظرية » !

وفجأة أعلنت الصين في ٢٢-تشرين الثاني «نوفمبر» ١٩٦٢ توقف القتال بين الهند والصين، وانها ستنسحب في أول -كانون الاول -ديسمبر إلى مسافة ٢٠ كيلومتراً وراء الخطوط التي كانت تسيطر عليها يوم ٧ تشرين الثاني « نوفمبر » ١٩٥٧ ، وقالت: ان هذا القرار يمثل جهداً صادقاً من جانبها لانهاء النزاع مع الهند بسرعة، وفتح باب المفاوضات للوصول إلى تسوية سلمية لمشكلة الحدود .

وردت الهند على ذلك قائلة : ان هذه الشروط تتيح للقوات الصينية البقاء داخل أراضي الهند والتوغل فيها لمسافة ألف ميل ، ولا يمكن للهند ان تتيح للقوات الصينية بأن تجني ثمار عدوانها على الأراضي الهندية .

وهكذا فان الخلاف بين أعظم دولتين آسيويتين قد تعدى نطاق خلاف على الحدود فلقد وصل إلى حد تحرك عسكري ضخم من جانب دولة كبيرة هي الصين، ألحق هزيمة عسكرية واضحة بدولة أخرى كبيرة هي الهند . ولقد تعمدت الصين إلى هذه النتيجة لتثبت لجارتها أنها مجتمع مستعد للحرب، قادر على تحقيق أهدافه.. وانها إذا أوقفت القتال فان على الهند ان تتحمل عبء تجدده ، وانه إذا بدأت مفاوضات جدية فان الصين ستفاوض وهي في مركز القوة ، وستظل كذلك حتى إذا نجحت المفاوضات وعاد السلام إلى تلك المناطق من الحدود المشتركة بين الصين والهند .

ولقد أبدت دول عدم الانحياز الآسيوية والافريقية وفي مقدمتها الجمهورية العربية المتحدة اهتماماً بالغاً بهذا النزاع- لا من أجل السلام في آسيا الممثل في أكبر بلدين آسيويين فحسب - وإنما بمستقبل «عدم الانحياز» كتيار دولي بناء، وكدول

تنهج هذه السياسة ، وترى فيها فرصة تحقيق تطورها الاجتماعي والاقتصادي بعيداً عن مؤثرات الحرب الباردة .

فالهند برغم كل النيات الحسنة لقيادتها الحكيمة ، قد تجد نفسها مشدودة إلى سياسة الكتل الدولية ، وهذا وضع سوف يكون له أثره البعيد على شعوب آسيا وافريقيا . ان هذه النقطة بالذات في نظر هـذه الدول أولى بالاهتمام لأنها أخطر نتائج النزاع . أما مشكلة خط الحدود ذاتها ، والخلاف عليها فمسألة ثانويـــة في نظرها . ولقد عقدت تلك الدول مؤتمر كولومبو في سيلان لكي تجد حلاً سلمياً لهذه المشكلة الدقيقة .

*

وقد يتساءل القارىء العربي عن موقف باكستان من النزاع الهندي – الصيني، وهي الدولة الاسلامية الكبرى التي تجاور الهند ولها حدود مشتركة مع الصين ؟

لقد استغلت باكستان هذا الخلاف فسوت خلافاتها على الحدود مـــع الصين لصالحها ، وعقدت معها معاهدة حسن جوار ، وجاوزته إلى أبعد من ذلك لغرض ايجاد التوازن بين قوتها الضعيفة نسبياً وبين القوى الهندية التي تهددها في مصيرها ، وتعمل على ضم مقاطعة كشمير الاسلامية إلى أراضيها ، وترفض الهند بإصرار ، قرار هيئة الأمم المتحدة القاضي باستفتاء سكان كشمير ليقرروا مصيرهم !

ومع أن باكستان تقدر المخاطر الناجمة عن تقربها إلى الصين الشيوعية ، إلا أنها مضطرة إلى اتخاذ هذا الموقف بعد أن رأت ان عضويتها في حلف جنوبي آسيـــا لا يجنبها خطر غزو هندي على أراضيها ، ولا الحيلولة دون ابتلاع الهند لكشمير في المستقبل ...

وحجتها في ذلك ، ان الهند المهددة بجد بغزو صيني كاسح على أراضيها الشمالية لم تسحب جيوشها الرئيسية المحتشدة على حدود باكستان لتقاتل بها الغزاة الصينيين. ثم ان حلفاءها الأمريكان والانكليز أخذوا يغدقون على الهند مساعدات عسكرية فعالة ستستخدم يوماً ضد باكستان ! وما على باكستان إذن من سبيل إلا مد يـد الصداقة لعدو عدوها !

شواين لاي يرد ...

*

ويرد « شواين لاي » على أولئك الذين يتخبطون في تحديد معالم سياسة بلاده الخارجية ، ويؤكد ان سياسة الصين عامل هام من عوامل تشكيل المستقبل السياسي العالمي ، فالصين يزداد دورها يوماً بعد يوم في التوجيه العالمي لدرجة انه لم يعد من الممكن الوصول إلى حلول في عديد من المسائل الدولية – ومنها مشكلة نزع السلاح بدون الصين .

وفي تصريح شواين لاي الخطير لصديقه الصحفي الأمريكي المعروف « ادغار سنو » في عام ١٩٦١ يؤكد على ان معاهدات الصداقة وعدم الاعتداء مع بورما ونيبال والافغان وكمبوديا وسيلان واليمن قد عقدت على أساس المبادىء الخمسة للتعايش السلمي الذي تؤمن به الصين وهي :

١ – احترام سيادة كل دولة ووحدتها الاقليمية .
٢ – عدم الاعتداء على الدول الأخرى .
٣ – عدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول الأخرى .
٤ – المساواة في الحقوق والمنافع .
٥ – التعايش السلمي .

ثم يلقي ضوءاً على الخلاف الروسي – الصيني فيقول : « ... اننا نؤمن جميعاً بمبادىء كارل ماركس ولينين. والجميع يضعون سياستهم بادماج تلك المبادىء مع الظروف الخاصة بكل دولة من تلك الدول . بيد ان هذا لا يعادل القول بعدم وجود خلافات بين الحزبين فيما يتعلق بنظرة كل منهما إلى بعض المسائل المعينة وسياسة كل من الدولتين ... انه من المستحيل في عالم الفكر ألا يوجد خلاف على الاطلاق ، فالفرد نفسه تختلف نظرته إلى المسائل، فأحياناً ينظر إليها نظرة معينة تختلف عن نظرته إليها في ظروف أخرى ، فمن الطبيعي ان يكون ثمة خلاف بين الحزبين الصيني والسوفييتي على المسائل النظرية ، وعلى النظرة التي ينظر

بها كل منها إلى الأشياء ، إذ من غير المعقول ان تنطبق آراء كل منها على آراء الآخر تماماً ...

ان موقف كل من الصين وروسيا على مسألة الحرب ومناهضتها الاستعمار واحد ، ولكن نظراً لأن روسيا عضو بالأمم المتحدة بينما الصين ليست عضواً بها ، فان تصرف كل منهما يختلف طبقاً لظروفها الخاصة .

ان الدولتين تعارضان فكرة قيام دولتين باسم الصين ، وكل منهما ترى ان عصابة شان كاي شك لا تمثل الشعب الصيني ، ومع ذلك فان وفد روسيا يشترك في جلسات يحضرها ممثل شان كاي شك بمجلس الأمن والجمعية العامة للأمم المتحدة وهو أمر لا تقبله الصين بأي حال لو انها كانت عضواً بالأمم المتحدة ، وإلا لكان معنى هذا موافقتها على فكرة وجود دولتين باسم الصين . ومع ذلك فروسيا متفقة مع الصين على ان عصابة شان كاي شك لا يمكن ان تمثل الشعب الصيني . فالمهم هو ان الدولتين متفقتان على النقط الرئيسية وأما الخلافات الشكلية المنبعثة من اختلاف نظرة كل دولة إلى مسألة معينة ، فمسألة قانونية ...

اننا لسنا نمثل الجناح الأيسر الانتهازي كما تقول الصحافة الغربية ، ونرى ان الصحافة الغربية تلقي بالتكهنات بقصد بذر بذور الشقاق بين الصين والاتحاد السوفييتي ، والحقيقة هي ان حكومة الصين والحزب الشيوعي الصيني ضد تمكين المعسكر الاستعماري الرأسمالي من شن حرب ، فهما يدعوان إلى التعايش السلمي بين الدول مهما اختلفت نظمها الاجتماعية . وهذا هو موقفنا منذ البداية وسيظل موقفنا بلا أدنى تغيير .

وفيما يتعلق بنظرتنا إلى الاستعمار والمؤامرات التي يدبرها لإثارة الحروب فنقول اننا متمسكون بالبيان الصادر من موسكو سنة ١٩٥٧ القائل : « انه سيكون ثمة مجال للحروب ما دام الاستعمار الرأسمالي قائماً لأنه يهدف إلى فرض سيطرته على العالم عن طريق الحروب ، ولكن قوة المعسكر الاشتراكي بالاضافة إلى ازدياد حركة التحرير في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية وازدياد مناهضة هذه الشعوب وتمسكها بالسلام .. كل هذا سيؤدي إلى منع الاستعمار الرأسمالي من شن الحروب

أو إلى تأخير شنها على الأقل » .

وهذا هو ما تؤمن به الصين ، ولكنها تزيد من يقظتها ومن مراقبتها لحظة الحرب ، فأين الخلاف المزعوم ؟

وبصدد العلاقات مع أمريكا يقول شواين لاي : ان أمريكا منذ أيام دالاس تخشى من سحب قواتها من فرموزا حتى لا يؤدي هـــذا إلى اضطرارها لسحب قواتها من كوريا واليابان والفيليبين ، ولكن لو ان أمريكا سحبت قواتها وعقدت معاهدات مع الدول الآسيوية تحترم فيها سيادتها واستقلالها لزالت مخاوف أمريكا، ولأمكن عقد اتفاق بين أمريكا والصين وروسيا واليابان لضمان الأمن في منطقة الشرق الأقصى والمحيط الهادي وآسيا . ولكن هذا هو ما لا تريده أمريكا . إنما تريد السيطرة على البلاد الآسيوية ، وتريد إنشاء مزيد من القواعد العسكرية كما هي الحال في لاووس حيث تريد ان تحصل عن طريق مساعـداتها العسكرية على قواعد عسكرية في تلك الدولة الصغيرة .

بيد ان الشعوب تعارض هذه السياسة الأمريكية،عارضتها في كوريا الجنوبية نفسها وفي اليابان وفي تركيا وفي لاووس .

فهل الصين هي التي حرضت تلك الشعوب على مناهضة السياسة الأمريكية ؟

وفيما يتعلق بمسألة نزع السلاح فمن المفروغ منه ان الصين لن تلتزم بأي اتفاق يعقد دون ان تشترك فيه رسمياً .

الخلاف بين الصين والاتحاد السوفييتي

*

لكي نسبر غور الخلاف القائم الآن بين الصين والاتحاد السوفييتي ، علينا ان نضع نصب أعيننا حقيقة كون سياسة الصين الخارجية قائمة على انهم صينيون ، ولكنهم ينظرون إلى محيطهم بعيون شيوعية . هذه هي عقيدتهم ... وهم يعلنون بوعي وإدراك عميقين اتخاذها قاعدة لسلوكهم .

فالعلاقات المتوترة اليوم بين الاتحاد السوفييتي والصين الشيوعية بسبب الخلافات المذهبية بينهما حول إمكان التعايش السلمي بين الأمم، ومناقضته لمحتويات الايدولوجية التي حددتها تعاليم ماركس ولينين وستالين وماوتسي تونغ ... ثم ازدياد تلك العلاقات سوءاً إلى الحد الذي تبودلت فيه الاتهامات المشينة بين الجانبين ... تلك الاتهامات الكلاسيكية التي كان يوجهها المعسكران الشيوعيان الروسي والصيني إلى الذين هم خارج معسكرهم لا إلى « المعصومين » بداخله !...

أقول ان توتر العلاقات هذا يرجع إلى أسباب وعوامل أبعد مدى من الخلافات المذهبية ، وتعد في الحقيقة أقدم حتى من الثورة الصينية نفسها . ان موسكو وبكين مختلفتان حول عدة قضايا أساسية كما أوضحناها في مطلع هذا الفصل ، وسوف يستمر هذا النزاع بالتأكيد .

فدولة الاتحاد السوفييتي تعتبر اليوم إحدى الدول الفتية الناجحة، وقد تحققت لها مكاسب لم تكن لتحلم بها بعد أن التهمت -في ميدان السياسة الخارجية أكثر مما تستطيع ان تمضغه ، بل أكثر مما كان في استطاعتها ان تهضمه حتى الآن - على حد قول د. س. زاجوريا[١] وهي تقر الآن وجهة النظر القائلة بأن كل دولة يمكنها ان تحل مشاكلها الخاصة بالتعايش السلمي ، أو إعادة بنائها الشيوعي بطريقتها الخاصة . وهي ترغب رغبة شديدة في السلام لأنها ستفقد الشيء الكثير إذا نشبت حرب عالمية .

في حين ان الصين دولة فقيرة متعجلة تضم أكبر عدد من السكان على وجه الأرض ، يغمر قادتها وحكامها الطموح والاحساس بتبليغ رسالة انسانية في حين انها لم تستعد حتى أقاليمها السابقة التي سلبها منها المستعمرون ... بل ان للصين مطالب اقليمية في روسيا ذاتها فهي ما زالت تعتبر منغوليا اقليماً مقتطعاً منها ، وهي تريد ان تكون كوريا في منطقة نفوذها وليست خاضعة لنفوذ الاتحاد السوفييتي القريب أو البعيد .

---

١ - مؤلف كتاب : الصراع الصيني - السوفييتي « عام ١٩٥٦ - ١٩٦١ » .

والاتحاد السوفييتي لا يعارض فكرة التوسع الصيني وحسب ، وإنما وقف بجانب الدول الآسيوية التي لم تسلم بمطالب الصين الاقليمية في بلادها ... ثم قطع مساعداته الاقتصادية للصين إلى حد مؤثر ، ولم يساعدها على إنتاج الأسلحة النووية ، ولم يبذل مجهوداً لحل الخلاف على استثمارات المعادن والبترول في «سينكينغ» وإنما شجع سكان هذه المنطقة وهم مسلمون على التمرد على الحكم الصيني ، وما زال يعتبر مساعداته للصين في الحرب الكورية وقد قدرت بـ ٢٤٠٠ مليون دولار أمريكي بمثابة قرض على الصين .

ولقد عارض السوفييت فكرة قيام المجتمع الشيوعي الممثل في الكوميون الصيني عام ١٩٥٨ وقاوموه ، وحالوا دون قيامه دون جدوى ، واعتبروه خطراً على اشتراكيتهم النامية التي نبتت فيها « جرثومة » البورجوازية [١] !

والصين اليوم تأخذ بزمام المبادأة إلى تأييد الحركات الثورية في الخارج ، وهي تشكو في نفس الوقت من تأييد السوفييت للحركات التحريرية الوطنية « البورجوازية » في أفريقيا وآسيا ، على اعتبار ان هذا التأييد يجب ان يقتصر على الشيوعيين الأصليين فقط ...

على ان هذه الظواهر المتباينة لوجهات النظر الصينية والسوفييتية التي أدت إلى حدوث الخلافات العنيفة بينهما لم تؤثر حتى الآن على المصالح الرئيسية للدولتين ، فتتمسك الصين بها طبقاً للمفهوم الشيوعي لسياسة الصين الخارجية الذي يحملها على رؤية العالم الخارجي كمعسكر عدائي تقوده الولايات المتحدة الأمريكية التي تمتلك أسلحة التخريب والتدمير التي لا تمتلكها هي . فالصين – إلى ما قبل حدوث الأزمة الكوبية التي ظهرت في خريف ١٩٦٢ كانت ترى ان حماية الاتحاد السوفييتي الذي يمتلك ما تمتلكه أمريكا من أسلحة نووية وهيدروجينية هي الضمانة الوحيدة

---

(١) رأيت في زيارتي لموسكو التفاوت الطبقي واضحاً وجلياً في حياة السكان ، فالقادة والزعماء والفنيون والكتاب وغيرهم يعيشون عيشة البورجوازيين في وطننا العربي ، وفي حين أن الطبقة العاملة وطبقة الفلاحين يكدحون ليل نهار من أجل لقمة العيش ، ويعيشون في غرف أشبه ما تكون بالسردين في العلب المصفحة !.

لبقائها إلى ان تستكمل عدتها وتستطيع الاعتماد على نفسها في إنتاج السلاح النووي.

إلا ان الأزمة الكوبية التي ظهرت في خريف ١٩٦٢ وكأنها نذير حرب نووية مدمرة ... ثم خفت حدتها بتسليم الاتحاد السوفييتي لمطالب الولايات المتحدة الأمريكية بزوال القواعد الصاروخية ، وقاذفات القنابل من كوبا .. قد أتاحت للروس والأمريكان معاً اتصالاً مباشراً جرت فيه مفاوضات تجاوزت حدود الأزمة الكوبية ، وكان من نتائج تلك المفاوضات ان صرح « دين راسك » وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية في أوائل كانون الأول « ديسمبر » ١٩٦٢ قائلًا :

« ان الأحوال العالمية تدخل في مرحلة حاسمة ، وان العالم يقف على حافة أحداث خطيرة لا يمكن التكهن بها .. ان العالم مقبل على فترة يتحتم فيها ان نراجع أنماط تفكيرنا وأساليبها وقد نعيد ترتيبها من جديد ... »

ان أهم الظواهر المختلفة التي أشار إليها وزير خارجية أمريكا – ما حدث من من تغيير هام في الحرب الباردة ، بدت نتائجه في الانقسام الخطير داخل المعسكر الاشتراكي كله ، والذي تعدى الخلاف بين الاتحاد السوفييتي كدولة – والصين كدولة أخرى ، ووصل إلى حد الانقسام داخل كافة الأحزاب الشيوعية في العالم أجمع ، سواء في داخل الكتلة الشرقية أو الغربية، وأصبح داخل كل حزب فريق موال للصين أو الاتجاه الستاليني كما يسميه الروس ، وفريق موال لسياسة خروشوف – أو الاتجاه التحرري في الاتحاد السوفييتي الذي يريد ان يقلد الغرب في بعض نواحي حياته التي حققت له مزيداً من التقدم الحضاري .

وأخذت الصين لأول مرة في تاريخها الحديث تهاجم شخص خروشوف صراحة وبمنتهى العنف، وتشكك كذلك في حقيقة نيات الروس الذين يرى فيهم ماوتسي تونغ انهم قد انتابهم ميكروب الدول الكبرى مما جعلهم يسعون للاتفاق مع الدول الكبرى الأخرى رغم تميزها بالرأسمالية ، لا بل واتفقوا معها على تحريم التجارب النووية عام ١٩٦٣ .

وتقول جريدة صينية رسمية بهذا الصدد :

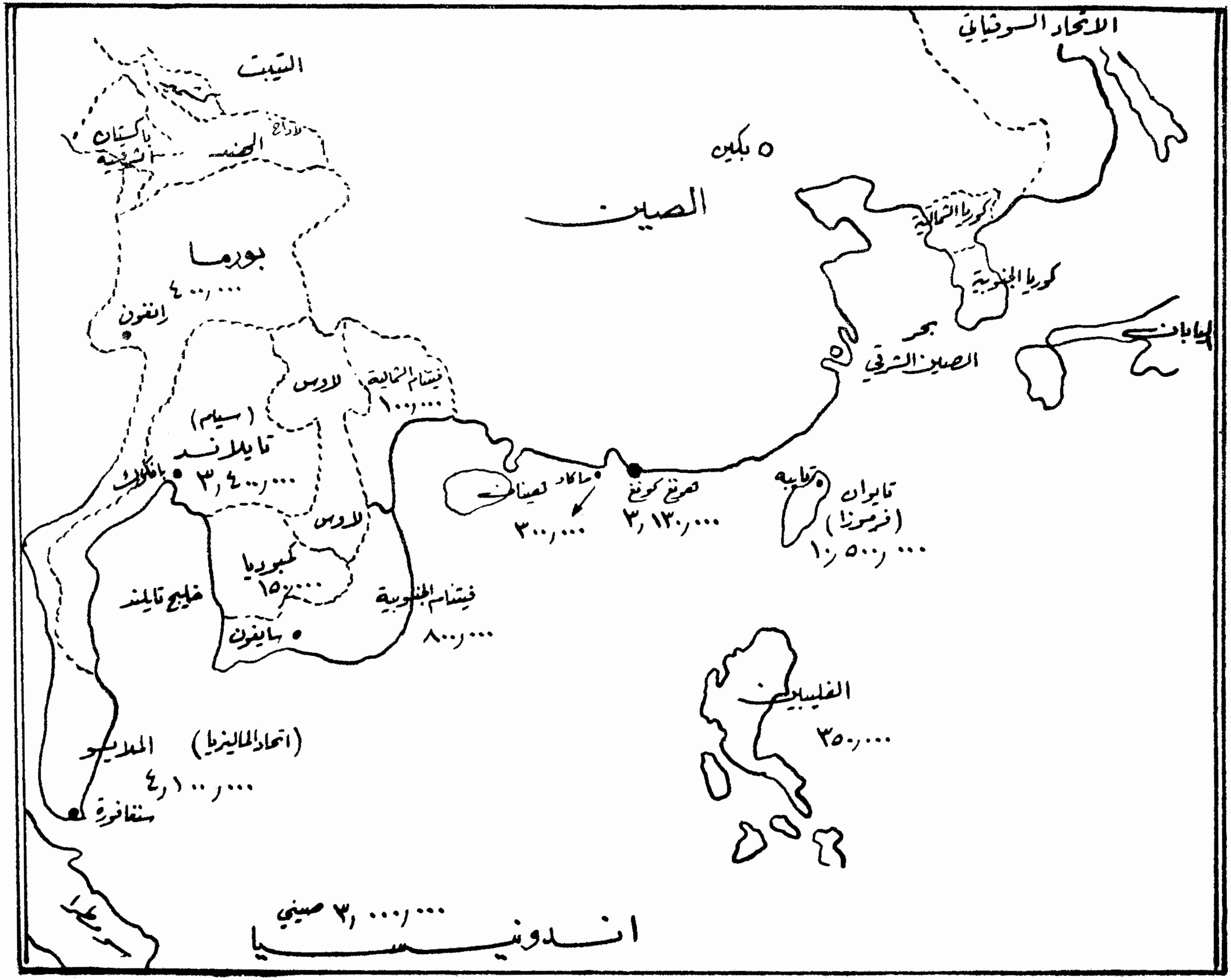
« ان الاتحاد السوفييتي – شأن الدول الاستعمارية الأخرى يعترف بدولتين صينيتين : إحداهما حكومة بكين الشيوعية ، والثانية حكومة تيوان الوطنية التي سمح لها بتوقيع معاهدة موسكو بتحريم التجارب النووية ... ان صانعي معاهدة موسكو يقفون كالمشعوذين الدجالين على المسرح يلوحون بأيديهم فيحولون حكومتي المانيا إلى المانيا واحـدة . ثم يلوحون بهما ثانية فيخلقون حكومتين صينيتين من صين واحـدة ... ان الشعب الصيني لا يسعه إلا ان يشعر بالأسى والغضب لأن الاتحاد السوفييتي – وهو حليف الصين يفترض بأن الصين تستطيع ان تلعب – وذلك واجب محتم عليها – مثل ذلك الدور الحقير الوضيع ... ومن الواضح بأن الزعماء السوفييت يحاولون استغلال معاهدة حظر التجارب النووية لتكون أداة لمقاومة الصين الاشتراكية ، ولكن زعماء السوفييت لن يستطيعوا إخفاء خياناتهم لمصالح الشعب الصيني والشعب السوفييتي بالذات . » !

وهكذا يبدو ، ان الخلاف بين الصين والاتحاد السوفييتي لم يعد يدور حول من منهما يتزعم العالم الشيوعي .. وإنما يدور في الواقع حول سؤالين :

الأول – إلى أي مدى يستطيع الاتحاد السوفييتي ان يوجه الحركة الشيوعية العالمية في اتجاه نظريته عن التعايش السلمي بين المعسكرين – في سبيل زيادة انتاجه وتحقيق الرخاء في الاتحاد السوفييتي وان اضطر إلى تغيير وتعديل النظرية اللينينية ؟

والثاني – إلى أي مدى ستذهب فيه الصين الذي يبلغ تعداد سكانها في عام ١٩٧٠ ربع سكان المعمورة كلها ، وهي تفتش عن مجالات حيوية لمئات الملايين من أبنائها الفائضين عن أرضها ... ثم لا تجد غير الهند ومنغوليا وسيبيريا متسعاً لهم ؟!

لا عجب إذا رأى الجيل القادم (ما يراه جيلنا مستحيلاً) – حرباً مصيرياً بين الصين ومن يتبعها من شعوب آسيا .. وبين من كان شيوعياً مثلها بأمسه الغابر !



جنوب شرقي آسيا ؛ عدد الاقليات الصينية في أقطارها ، والصراع الصيني الأميركي فيها

الجاليات الصينية في جنوب شرقي آسيا

*

ان مواطني الصين هم أكثر مواطني بلاد العالم انتشاراً خارج حدود دولتهم الطبيعية ، فما يربو على ١٦ مليون صيني ، مبعثرون عبر القارات الخمس ، وان تسعة أعشار هؤلاء يقطنون بلاد جنوب شرقي آسيا .. وهي البلاد التي يطلقون عليها اسم « نانصبان » ومعناه محيط الجنوب . وظاهرة الهجرة هذه قديمة ، يرجع تاريخها الى ما قبل الميلاد .

وبفضل ما اكتسبه الصيني من مقاومة جدية كبيرة ، وبفضل ما له من استعداد على تحمل الاجواء المختلفة فان هؤلاء المهاجرين قد أقاموا صرح امبراطورية اقتصادية مترامية الاطراف في جنوب شرقي آسيا، مبنية لا على التجارة والصناعة والزراعة في بلاد عدة فحسب ، بل على النفوذ السياسي أيضاً .

فهم يحتكرون في كمبوديا الصيد في البحيرات ، وفي سنغافورة يملكون المطاط والقصدير ، ولديهم فيها ثروة من أعظم ثروات العالم .

وفي تايلاند يملكون ٨٠٪ من مزارع الارز ، وفي الملايو تقتصر عليهم تربية الخنازير والدواجن ، وفي بورما يسيطرون على صناعة الاسماك المحفوظة ، اما في جنوب فيتنام فيديرون البنوك ويشرفون على البقالة ، وفي جزر الفلبين يسيطرون على ثلث التجارة .

وهكذا فان الدور الذي يقوم به هذا العدد الضخم من المهاجرين الصينيين في تنمية تلك الأقطار الغريبة عن الوطن المركزي دور لا يمكن الاستغناء عنه .

وجميع هذه الجاليات الصينية منظمة تنظيماً دقيقاً ، فهي تملك صحافة قوية ومدارس وجامعات ومستشفيات ،وكونت فيسنغافورة وفي بورنيو اجهزة سياسية قوية ، تستخدمها الصين الشعبية لخدمة سياستها الخارجية على الرغم من أن اولئك الصينيين – الرأسماليين بطبيعة عملهم – يحاولون ان يحتفظوا بالتوازن بين بكين وتايوان – عاصمة (شان كاي شك) . فالحرية في نظرهم هي اثمن ما يملكون ،

حتى أنهم في أندونيسيا قد نالوا موافقة قانونية بالسماح لهم بحياتهم الطبيعية ، مع موافقة أندونيسيا على الاعتراف لهم بالجنسية المزدوجة .

وعلاوة على ذلك توجد عاصمة ثالثة -- هي العاصمة الحقيقية الوحيدة للصينيين – المهاجرين – هي « هونغ كونغ » فهذه المدينة التي بلغت ذروة التنمية ، هي الرأس الحقيقي ، والعقل الحقيقي لامبراطورية تجارية تقلق اليابانيين كما تقلق الامريكان بقدر ما تخدم المصالح التجارية البريطانية التي اتخذتها رأس جسر تعبر منه تجارتها الى ما وراء حدود هذه المستعمرة في البر الصيني ، فتلعب دوراً خطيراً في تجارة الصين الشعبية ، وتلعب مستعمرة ما كاو البرتغالية الدور ذاته ولكن بمقياس صغير ، فهي بمثابة الحربة التي تخترق حصار امريكا المضروب على استيراد وتصدير الصين الشعبية .

ولقد شجعت حكومة الصين مواطنيها على استثمار رؤوس اموالهم في مشروعات الجمهورية الصينية في الوطن الام ، ولقد استجاب عدد كبير منهم الى هذه الرغبة ، فأنشئت شركات مشتركة لتسهيل استثمار اموالهم . ففي كانتون افتتحت « شركة الصين الجنوبية » و « شركة البناء الصناعي للصين فيما وراء البحار » وشركة « كانتون للاستثمار » ومصانع سكروجوت وغيرها في مدن عدة أخرى .

وتعهدت حكومة الصين بأن تبقي رؤوس الاموال للمغتربين ملكاً شخصياً لهم ، يستثمرونها ويتقاضون عنها فائدة مستديمة لا تقل عن ٨٪ حتى اذا تحول الاقتصاد اشتراكياً كاملاً في الصين .

هذا وان عدد الجاليات الصينية خارج آسيا قد تضاعف عما كان عليه بنسبة كبيرة جداً فهناك ٤٠٠،٠٠٠ صيني في الامريكتين ، منهم ١٧٠،٠٠٠ في الولايات المتحدة و ٦٠،٠٠٠ في كندا ، و ٣٢،٠٠٠ في كوبا و ٣٠،٠٠٠ في كوستاريكا .

اما في افريقيا فيوجد ٢٥،٠٠٠ صيني في جزيرة موريس وفي مدغشقر ، فضلاً عن وجود ٢٠،٠٠٠ في اوروبا، نصفهم في انكلترا.

وافريقيا باعتبارها قارة تستوعب مزيداً من السكان فان هجرة الصينيين اليها تتزايد يوماً بعد يوم خاصة وان غينيا تشجع دخول الصينيين في بلادها .

التجارة الخارجية

التجارة الخارجية

*

لقد احتكرت الحكومة — منذ مولد الجمهورية الشعبية ، التجارة الخارجية فسيطرت عليها وزارة التجارة . وفي عام ١٩٥٢ تألفت وزارتان للتجارة ، احداهما وزارة التجارة الخارجية التي تشرف وتسيطر على تجارة ما وراء البحار ، والاخرى وزارة التجارة الداخلية التي تشرف وتسيطر على الانتاج الداخلي وعلى المبيعات والمشتريات في داخل البلاد .

وتألفت مؤسسة عامة تابعة لوزارة التجارة الخارجية تقوم بتنسيق عمليات الاستيراد والتصدير حسبما تقتضيه احتياجات برامج الاقتصاد الوطني .

ففي عام ١٩٥٠ سيطرت المؤسسات الرسمية على ٧٠٪ من الواردات ، وعلى ٥٤٪ من الصادرات ، وتوسعت السيطرة الحكومية على التجارة حتى كادت تكون سيطرة كاملة في عام ١٩٥٥ .

ففي عام ١٩٥٣ كانت المؤسسات الحكومية تسيطر على ٩٢٪ من مجموع التجارة.

وفي عام ١٩٥٤ » » » » على ٩٧٪ »

وفي عام ١٩٥٥ » » » » ٩٩،٢٪ »

وأصبحت التجارة الخارجية جزءاً متمماً لخطط ومشاريع الحكومة العامة ، وتقوم على مبدأ المقايضة التي تقررها المعاهدات الطويلة الاجل التي عقدتها الحكومة الصينية مع دول المعسكر الاشتراكي ، والقائمة على اساس سعر الروبل الروسي كوحدة للحسابات بين المتقايضين التي تنتهي عادة بالتصفية النهائية عن طريق

التقايض وليس عن طريق المدفوعات النقدية . ولا ينحصر هذا التعامل بالتجارة فقط بل يتعداه الى سائر المدفوعات التي تقوم بتنظيمها البنوك الرئيسية للفرقاء المتعاقدين .

ومع ان الصين لم تشترك في « هيئة المساعدة الاقتصادية المشتركة للدول الاشتراكية » التي تأسست عام ١٩٤٩ والتي تقوم بتنظيم وتنسيق المشاريع الاقتصادية ، وتحدد العلاقات التجارية بين تلك الدول .. إلا انها (اي الصين) ترسل مراقبين إلى اجتماعات تلك الهيئة .

وكانت لدى الصين الى ما قبل الحرب الكورية عام ١٩٥٠ علاقات تجارية عادية مع الدول الغربية ، وبعد ان اقرت هيئة الامم المتحدة فرض الحصار الاقتصادي على الصين بسبب موقفها من الحرب الكورية ، واخذ الاسطول الامريكي ، واسطول شيان كاي شك يحاصران شواطىء الصين ... اصبحت التجارة مع الصين محفوفة بالمخاطر ، واضطرت حكومة الصين إلى دفع مشترياتها نقداً حالما يتم شحن البضاعة المصدرة إلى الصين من موانىء المنشأ ...

على ان الصين قد استطاعت ان تعقد اتفاقيات تجارية مع الدول التي اعترفت بها كالهند وفنلندا .

وبمرور الزمن صارت تعقد اتفاقيات تجارية غير رسمية مع الدول التي لم تعترف بها ، او التي أقرت مبدأ « عدوانها » في الحرب الكورية وعلى رأس هذه الدول بريطانيا التي أرسلت وفداً « غير رسمي » يمثل المصالح الاقتصادية والتصدير للشركات التجارية البريطانية .

وبعد عقد المؤتمر الاقتصادي الدولي في موسكو عام ١٩٥٢ تألفت لجنة « تشجيع التجارةالدولية » وعن طريق هذه اللجنة عقدت الصين مع فرنسا معاهدة تجارية ، على الرغم من عدم اعتراف فرنسا بحكومة الصين الشعبية . وعلى هذا النحو فعلت اليابان في عام ١٩٥٥ حين عقدت مع الصين معاهدة تبادل تجاري ، وقعها بالنيابة عنها ممثلو هيئات غير رسمية .

ولقد استفادت الصين كثيراً من نظام « هيئة حسابات التحويل » التي ألفتها

بريطانيا لتنظيم عمليات الدفع للتجارة بين البلدان المتعددة ، بوصفها عضواً في الهيئة وأقرت اعتبار وحدة الدفع بالجنيه الاسترليني في تجارتها الخارجية القائمة على مبدأ المقايضة في البضائع .

وبما ان تجارة الصين الخارجية هي أداة لسياسة الحكومة الاقتصادية التي تتمثل في مشاريع السنوات الخمس الرامية الى إنماء الصناعات الثقيلة ، فان قانون التعريفة الجمركية كان دواماً لصالح الواردات التي تحقق هذه الغاية ، فعمدت على تخفيض الرسوم على الآلات والماكينات ، والمواد الاولية التي تحتاجها لصناعتها .. في حين انها فرضت ضرائب عالية جداً على الواردات التي تستطيع الصين انتاجها لحماية المصنوعات الصينية من أي منافسة خارجية .

وعمدت الصين في قانون التعريفة الجمركية الى التفريق بين الدول المصدرة الى الصين ، فخفضت الرسوم على الواردات التي تصدرها الدول التي عقدت معها اتفاقيات اقتصادية ، ورفعت الرسوم على غيرها .

في عام ١٩٥٢ كانت قيمة التجارة الخارجية للصين تقدر بحوالي ١٠٠٠ مليون دولار امريكي ، وهو يعادل الرقم الذي كان عليه فيما قبل الحرب .

وازدادت هذه القيمة فبلغت في عام ١٩٥٨ ، ٤٥٠٠ مليون دولار امريكي.

وتشير الارقام الرسمية الى ان الميزان التجاري للصادرات والواردات قد تعادل منذ عام ١٩٥٩ فلم يحدث عجز يذكر في ميزان المدفوعات .

على ان الجفاف والقحط اللذين منيت بهما الصين بعد ذلك العام ، واللذين داما سنتين متواليتين قد اضطراها الى استخدام احتياطيها من الذهب لسد العجز في ميزان مدفوعاتها من جراء ارتباطها بعقود ضخمة لاستيراد المواد الغذائية من معسكر الدول الغربية .

على ان توسع الصين في سياسة المقايضة لتجارتها الخارجية ، واحتكارها للتجارتين الخارجية والداخلية قد أعانها كثيراً على التغلب على اختلال ميزان مدفوعاتها التجارية . ولقد لعب المهاجرون الصينيون ، المقيمون في الخارج دوراً ايجابياً في هذا السبيل ، فلبوا نداء دولتهم فاستثمروا رؤوس اموال طائلة في

الوطن الام ، مقابل منحهم فائضاً مناسباً لرؤوس اموالهم بلغ حد ٨ ٪ ، ومزايا خاصة تحمي رؤوس اموالهم المستثمرة في الصين نفسها . فلا يشملها التأميم الاشتراكي بأي حال من الأحوال .

وقامت الحكومة بتأليف شركة « الاستثمار الصيني لما وراء البحار » غطى الصينيون في المهجر رأسمالها ، فأسست هذه الشركة صناعات لتصفية السكر وتكرير البترول وغيرهما واستثمار هذه الصناعات حالياً ، تعاوني مختلط بين أولئك وبين الحكومة .

وعمدت الحكومة إلى ضمان إرسال المبالغ التي يحولها المهاجرون لذويهم في الصين ، وحمايتها ، والسماح لمن يستلم هذه المبالغ بالتصرف بها على حياته الخاصة .

كما وان الصين تحصل أيضاً على النقد الأجنبي من تجارتها الواسعة مع « هونغ كونغ » ومع « مكاو » .

*

أما تجارة الصين مع الاتحاد السوفييتي ، وسائر الدول الاشتراكية السائرة بركابها فلقد تضاعفت أكثر من ٧ مرات ما بين عام ١٩٥٠ وعام ١٩٥٨. وبالنسبة لمجموع تجارة الصين الخارجية فلقد ارتفعت هذه التجارة مع المعسكر الاشتراكي من ٢٦ ٪ في عام ١٩٥٠ إلى حوالى ٨٠ ٪ في عام ١٩٥٨ وزادت النسبة فيما بعد فبلغت ٩٣٫٥ ٪ ، ثم أخذت تنحسر بعد عام ١٩٦١ بسرعة مذهلة !

وقيمة تلك التجارة كانت حوالى ٣٥٠٠ مليون دولار أمريكي في السنة الواحدة ، في حين ان قيمة تجارة الصين مع الغرب – بما في ذلك الدول الآسيوية غير الشيوعية وصلت اليوم إلى حوالى ١٠٠٠ مليون دولار ، وهذا الرقم ليس أكثر مما كان عليه قبل الحرب الكورية ، ان حوالى ٧٥ ٪ من هذا الرقم يعود إلى تجارة الصين مع الدول الآسيوية الافريقية ، وخاصة مع الملايو وسيلان (التي تجهز الصين بالمطاط) فاليابان فالباكستان .

أما اتجار الصين مع الدول الغربية فأكثره مع المانيا الغربية التي حصلت مرة أخرى على مركزها الذي كانت عليه ، قبل الحرب ويليها سويسرا فبريطانيا التي

تتراوح استيراداتها السنوية ما بين ١٢ و ١٤ مليون جنيـــه استرليني ، وبلغت صادراتها في عام ١٩٥٧ حوالى ١٣ مليون جنيه .

*

ان الاتحاد السوفييتي حتى عام ١٩٦٢ هو العميل الرئيسي للصين ، إذ يصدر إليها جميع أنواع الماكينات والبترول والمواد الكيماوية والجرارات ومختلف أنواع السيارات والتجهيزات السلكية والكهربائية ، والمواد الخام للصناعات الكيماوية ، وصدرت الصين مقابل ذلك الحبوب وفول الصويا التي بلغت كمياتها في بعـــض السنين نحو ٣ ملايين طن .

وتليها المانيا الشرقية وتشيكوسلوفاكيا وهما أكثر الدول الاشتراكية تقدماً في الصناعة إذ تستورد منهما الصين المواد الهندسية والمكائن .

وتستورد الصين من بولندا الآلات الزراعية ، وآلات الماكينات وآلات حفر المناجم ولقد أرسلت بولندا إلى الصين مصنعين كاملين لتصفية السكر .

وتلعب بولندا دوراً أساسياً في تبادل تحميل البضائع بين الصين وأوروبـــا الشرقية . وبهذا خف الضغط على المواصلات البرية

وتتاجر هنغاريا مع الصين فترسل لها سيارات الحمل التي اشتهرت بها فضلاً عن تجهيزها بآلات الماكينات والقاطرات .

أما رومانيا فترسل للصين البترول ، وآلات التنقيب عن البترول .

وترسل بلغاريا إلى الصين السماد الصناعي ، وبعض المواد الكيماوية .

وبالاضافة إلى ما تقدم فان الصين اليوم تعمل بجد على زيادة عـــدد أعضاء البعثات العلمية والفنية بينها وبين جميع دول المعسكر الاشتراكي .

وهناك بعثة تجارية مقيمة في المانيا الشرقية منـذ عام ١٩٥٢ وظيفتها تنسيق المشتريات من الدول الشرقية .

*

وبدأت الصين في الوقت الحاضر توسع تجارتها الخارجية مع الدول غـــير الشيوعية،وخاصة مع دول جنوب شرقي آسيا التي تجد فيها سوقاً رائجة لمنتوجاتها

الصناعية الخفيفة .

ومنذ ان بدأت الصين بتنفيذ مشروع السنوات الخمس الثاني،عملت على توسيع تجارتها مع هونغ كونغ وسنغافورة واندونيسيا، وسائر بلاد جنوب شرقي آسيا، فأرسلت بضائع استهلاكية كثيرة الى تلك البلاد كالنسيج والدراجات الهوائية والاحذية وآلات التصوير والسكر ، وحتى بعض المواد الغذائية وطرحتهـا في أسواق تلك البلاد باسعار رخيصة جداً لدرجة عجز فيها اليابانيون ومستعمرة هونغ كونغ عن منافستها .

وكثيراً ما لعبت السياسة دورها في تجارة الصين الخارجية ، فلكي تخلق بعض المشاكل الاقتصادية لليابان ولفرموزا (حكومة شيان كاي شك) فانها اضطرت الى خوض حرب اقتصادية مع الحكومتين فطرحت في اسواق جنوب شرقي آسيا كميات كبيرة من السكر والاسمنت باسعار غاية في الرخص ، في وقت هي أحوج ما تكون فيه الى هاتين المادتين لسد النقص الذي يعانيه شعبها منهما .

على ان هذا التوسع يرمي في حقيقة الامر الى الحصول على المزيد من العملات الاجنبية التي تحتاجها الصين لتمويل مشترياتها من ماكينات التصنيع والمواد الرئيسية التي تستوردها من الغرب .

ولقد كانت الصين تعاني مشكلة رئيسية تعوق تجارتها - الا وهي النقص في حمولة اسطولها التجاري الناشىء ، واستغلال الغرب هذا النقص في رفع اجور الشحن ، فعمدت الصين إلى حل هذه المشكلة بأن استأجرت اكثر من ١٠٠سفينة تجارية بعقود طويلة الاجل ، بالاضافة الى شراء عدد من بواخر الشحن الصغيرة المماثلة لبواخر « الليبرتي » التي اشتهرت بصنعها الولايات المتحدة، يديرها صينيون. وتعمل الصين اليوم على صنع مثل هذه البواخر بحماسة ناشطة .

*

وعند تطبيق مشروع السنوات الخمس الاول وضعت حكومة الصين منهاجاً لتجارتها الخارجية يرمي الى تصدير الرز والشاي والحرير وعلف الحيوانات والبيض وفول الصويا وبعض المعادن النادرة والتبغ والريش والمنتوجات الحيوانية

والنسيج الى المعسكر السوفيتي .

واقتصرت صادراتها الرئيسية للدول الغربية التي تتعامل معها على المواد الغذائية ، والزيوت النباتية وفول الصويا .

وتوسعت بعد ذلك في تنويع صادراتها الى جنوب شرقي آسيا فشملت بضائع الصناعات الخفيفة كالملابس القطنية (وكانوا قبلًا يستوردونها) والدراجات وارساليات متنوعة من الصناعة الفولاذية التي ارسلت الى بورما والى الجمهورية العربية المتحدة . كما انها جهزت اندونيسيا بمصانع للنسيج وبعض آلات التجهيزات الصناعية .

وأخذت الصين تصدر بعد ذلك الآلات والماكينات لصنع الاسمنت والورق، وماكينات الديزل ، واطارات السيارات والراديوات ، ومكائن الخياطة والانسجة الصوفية .

وفي السنوات الاخيرة عملت بريطانيا على تخفيف الحصار الاقتصادي المفروض على الصين ، لكي تعود التجارة الدولية معها الى حالتها الطبيعية ، باستثناء تصدير المواد الحربية اليها ، ولقد أثمرت المساعي البريطانية فتبودلت البعثات بين الطرفين، وشملت بعض بلدان غربي اوروبا ايضاً .

ولقد كان لدى الصينيين اموال بالعملات القابلة للتحويل الاجنبي الغربي ، ففي عام ١٩٥٥ كانت تمتلك حوالي ٤٠ مليون جنيه استرليني، وارتفع هذا المبلغ الى ٦٧ مليون في عام ١٩٥٦ ثم وصل بعد عام ١٩٥٧ الى ١٠٠ مليون ، وكانت الصين تتوخى من تجميد هذه العملات شراء مواد استراتيجية حيوية لها من المعسكر الغربي حالما تخف عنها قيود الاستيراد التي فرضتها عليها امريكا .

وتحقق لها ما أرادت في عام ١٩٥٧ فخففت تلك القيود وشمل التخفيف معظم وسائل النقل ، والقاطرات ، ومنتوجات الالمنيوم والنحاس، والمولدات الكهربائية والمطاط الخام ، وبعض المواد الكيماوية .. ثم شملت بعدئذ الطائرات المدنية ، ومكائن الطائرات ، وانواع كثيرة من مشتقات البترول ، وانواع من السفن التجارية .

ونتيجة لهذا التخفيف من القيود المفروضة على تجارة الصين مع الغرب، اتجهت الصين الى انكلترا ، والمانيا فاشترت كثيراً من ماكينات النسيج ، واسلاك النحاس ، وماكينات النقل ، والتجهيزات الكهربائية .. ومع أن هذا التخفيف لم ينل رضى الولايات المتحدة الامريكية الا انها لم تتخذ اجراء ايجابياً سوى امتناعها هي عن التعامل التجاري مع الصين الشعبية امتناعاً كاملاً .

وهناك تساؤل عن المدى الذي يمكن ان تتسع فيه التجارة بين الصين وبين المعسكر الغربي الاوروبي كنتيجة لرفع قيود الحظر على كثير من الصناعات الضرورية للصين ؟

والرد هو ان صادرات بريطانيا الى الصين قد زادت في عام ١٩٥٧ بنحو ١٣٪ عما كانت عليه قبلا ، وقد أخذت هذه النسبة تتزايد عاماً بعد عام .

ثم ان الصين صارت تشعر بتخفيف العبء عن كاهلها بتخفيض صادراتها من المنتوجات الزراعية – التي تحتاجها – الى الاتحاد السوفيتي ، لان الصين أخذت تدفع اثمان استيراداتها من الدول الغربية باحتياطيها من العملات الحرة التي تجاوزت ١٠٠ مليون جنيه استرليني .

والواقع ان توسع تجارة الصين مع الغرب يتوقف الى حد كبير على مقدرة الصين على الدفع او على زيادة صادراتها اليها .

فالمواد الخام كالحديد والفحم التي كانت تصدرها الى الغرب ، صارت تستعملها هي في صناعتها المتنامية – ولو انها وعدت اليابان بامكان تصدير الحديد والفحم اليها في المستقبل القريب .

كما أن الزيادة في السكان صارت تأخذ أكبر قسط من زيادة الانتاج الزراعي .

ومقابل ذلك فان باستطاعة الصين مواصلة تصدير منتجاتها التقليدية كالحرير والجلود الحيوانية وزيت السمسم والريش .. كما ان منتوجاتها الصناعية الحديثة كالنسيج والاحذية والكفوف والدراجات الهوائية وماكينات الخياطة وغيرها من الصناعات الخفيفة تجد قبولاً حسناً في جنوب شرقي آسيا ، بل ونافست الصناعة اليابانية وصناعة هونغ كونغ بجودتها ورخصها ايضاً .

وباتساع النمو الاقتصادي الصيني ، تتوقع الدول الغربية الكبرى امكان زيادة حجم التجارة بينها وبين الصين–على حساب تجارتها مع شقيقاتها الدول الاشتراكية.

على ان الصين نفسها لا تعتمد كثيراً على مثل هذا التوسع ، لانها تبذل مساعي جبارة لكي تحقق لنفسها الاكتفاء الذاتي بكل ما تحتاج اليه،على ان هذا الامل لن يتحقق قريباً ، وستظل بحاجة الى مزيد من الماكينات والتجهيزات الصناعية الغربية .

ان اليد العاملة الصينية المؤممة تجعل البضاعة الصناعية في مركز قوي في الاسواق التي تصدر اليها ، وهذه البضاعة في تزايد مستمر كنتيجة طبيعية لقدرة الصين على انماء اقتصادها .

وفي نفس الوقت فان استيعاب صادرات الصين للمعسكر السوفييتي كاد يصل الى حد الاشباع ، فالصادرات الصينية لدول اوروبا الشرقية كثيراً ما يعاد تصديرها مرة أخرى للاسواق الاوربية الغربية لتباع باسعار أقل من أسعارها الاصلية .

واخيراً ، فان تجارة الصين مع الدول الغربية ستعتمد على مقايضة ما تصدره من مواد غذائية ، مقابل الماكينات والآلات الفنية التي تحتاجها الصين ، وستظل كذلك الى ان تستطيع الصين تنمية صادراتها الاقتصادية تنمية محسوسة .

*

وقبل ان انهي هذا الفصل أنقل ملخصاً لحديث الوزير المساعد للتجارة الخارجية لدى اجتماعه بأعضاء وفد الصداقة العراقي في بكين ، فقال :

لقد تحرر اقتصادنا وتجارتنا الخارجية الى جانب تحررنا السياسي ، فغيرنا النظام الاقتصادي ، واسلوب تجارتنا الخارجية تغييراً جذرياً حالما سيطرنا على شؤوننا المالية في عام التحرير سنة ١٩٤٩ .

لقد ازدادت تجارتنا الخارجية عما كانت عليه قبل عشر سنوات ١٥٠٪ وتعادل ميزاننا التجاري لاول مرة منذ اكثر من مائة عام .

اننا نتعامل اليوم مع ٩٤ بلداً في العالم ، و٧٥٪ من تجارتنا الخارجية تتم مع

البلاد الاشتراكية وفق معاهدات خاصة ، تقوم في اغلب الاحيان على مبدأ المقايضة . وسياستنا العامة تقوم الآن على مبدأ توسيع التجارة مع اكبر عدد ممكن من الدول على اساس المساواة ، وموازنة الاستيراد والتصدير ، والعلاقات الحسنة .

ولقد اضطرتنا سياسة القفزة في منهاج السنوات الخمس الثاني الذي بدىء بتنفيذه في عام ١٩٥٨ على التوسع في التجارة الخارجية لحاجتنا الكبيرة الى استيراد البترول ، والماكينات الثقيلة ، والمواد المعدنية الحديدية ، والمولدات في حين اننا زدنا في كميات التصدير وفي نوعيتها ايضاً كالمنسوجات الحيوانية ، والجلود والصوف ، والماكينات الخفيفة ، والمنتوجات الزراعية وفي مقدمتها الشاي ، والمنتوجات الصناعية الخفيفة والثقيلة الى جانب الحرير والتحف . ويقدر الحجم العام للتجارة الخارجية بـ ٤ بليارات دولار امريكي .

وتجارتنا مع البلدان العربية تتزايد يوماً بعد يوم ، فلقد بلغ حجم التبادل التجاري مع الجمهورية العربية المتحدة – بموجب الاتفاقية المعقودة معها ١٣ مليون جنيه استرليني من كل جانب . فضلاً عن اتفاقياتنا مع لبنان وتونس واليمن .

وأجاب على سؤال وجهته له قائلاً : إننا نرحب بشراء النفط العراقي – من حصته للحكومة الصينية ، ولكن البلدين يفتقران الى ناقلات النفط ، كما ان استيرادات الصين من النفط تتم من رومانيا وفق ميثاق التبادل التجاري المعقود معها ، وأضاف قائلاً : لا بد وانكم لاحظتم في الاسواق وجود التمور الصينية المغلفة ، ونحن نصدر كميات منها الى الخارج .

حركة الاصلاح الزراعي

- تحويل النظام الاقطاعي الى نظام ملكية الفلاحين للارض
- ثورة الفلاحين الكبرى
- تطبيق النظام الجماعي ونتائجه
- القفزة الكبرى او الزحف العظيم وتكوين الكوميونات

تحويل النظام الاقطاعي الى نظام ملكية الفلاحين للارض

*

كانت المهمة الاساسية للدولة بعد حرب التحرير وحركات التطهير ، واثنـــاء فترة التعمير التي أعقبت التحول الذي حدث في الانظمـة الاقتصادية في الدولة .. هو بناء الاقتصاد الوطني الذي لا يمكن له ان يقوم في بـلد زراعي يعيش فيه سنة ١٩٤٩ – ٣٠٠ مليون فلاح من مجموع سكانه الذي يبلغ تعدادهم ٤٥٠ مليون مليون من دون بناء الاقتصاد الزراعي . فلقد كانت الزراعة دائماً هي الغالبة على اقتصاد الصين ، وكان الاطار العادي هو ان حوالي ثلاثة ارباع الشعب يشتغلون مباشرة بالزراعة، بينما يبلغ الذين يعتمدون على الارض حوالي اربعة اخماس الشعب.

فالصين تنتج من المواد الغذائية التي تعتمد على الزراعـة : الارز وهو المحصول الرئيسي في احواض الانهار التي تخترق ارض الصين عرضاً ، والقمح والذرة والذرة الشامية والفول السوداني الذي يزرع اساساً من اجل الزيت الذي يستخرج منـه ، وكذلك الخضراوات والى جانب هذه المحاصيل الزراعية تنتج الصين محاصيل هامة يمكن تسويقها او استهلاك جزء منها محلياً كالقطن والحرير والتبـغ والشاي .

ولقد كان الفلاح الصيني ماهراً في حدود امكانياته مع انه كان محافظاً في الطرق التي يسير عليها ، كما ان معظم ادواته بدائية مثل المحاريث الخشبية التي مـــا زالت مستعملة في أجزاء كثيرة من الصين .

وتعتبر السيطرة على الانهار من أهم العوامـل الحيوية في الاقتصاد الصيني، ذلك بسبب الكوارث التي تسببها الفيضانات المتكررة من الانهـــار ، فضلا عن ان

الجفاف بسبب قلة الامطار في الاراضي الزراعية الشاسعة التي تعتمد على المطر يجب تلافيه في خطط الانماء الزراعي .

وكان هدف الحكومة الصينية الحاضرة منذ قيامها العمل على بناء مجتمع اشتراكي كامل تكون فيه كل وسائل الانتاج والتوزيع بيد الدولة ، كما نصت عليه المادة ٢٦ من البرنامج المشترك الذي كان بمثابة الدستور المؤقت الذي أقره المؤتمر الاستشاري للشعب الصيني في عام ١٩٤٩ .

والبرنامج المشترك كان يقضي بصفة خاصة بأن تقوم الجمهورية بطريقة منهجية بتحويل النظام الاقطاعي أو شبه الاقطاعي لملكية الأرض إلى نظام ملكية الفلاحين للأرض وان الاصلاح الزراعي هو الشرط الذي لا غنى عنه لتنمية القوى الانتاجية وتصنيع البلاد .

وفي جميع المناطق التي ينفذ فيها هذا الاصلاح الزراعي ستتم حماية ملكية الأرض التي اكتسبها الفلاحون .. وتعبئة الفلاحين لإقامة منظمات الفلاحين ، ولتنفيذ سياسة « الأرض لمن يزرعها .. لا لمن يملكها » يجب ان تتخذ الاجراءات الحاسمة للقضاء على المستبدين المحليين ، وعلى الجماعات اليمينية ، وتخفيض الايجار وسعر الفائدة .

وقد نفذت حركة الاصلاح الزراعي بقوة في المناطق الحديثة التحرر ، وما ان حل عام ١٩٥٣ إلا وتم تنفيذ هذه المهمة التاريخية الكبرى في جميع أنحاء البلاد ، فأنجزت جمهورية الصين الشعبية أخطر وأعظم إصلاح في تاريخ الجماعات البشرية عبر عصور التاريخ .

كان الملاك والفلاحون الأثرياء الذين يمثلون نسبة تقل عن ١٠ ٪ من سكان القرى يمتلكون ما يقرب من ٦٠ ٪ إلى ٧٠ ٪ من مجموع الأراضي المزروعة لا بل كانت هذه النسبة تزيد على ٨٠ ٪ في قطاعات واسعة ، بينما نسبة الـ ٩٠ ٪ المتبقية من السكان الزراعيين والعمال الزراعيين والفلاحين الفقراء والمتوسطين كانوا لا يملكون سوى المتبقي فقط .

وقد اضطرت أغلبية السكان لأن يستأجروا الأرض من الملاك أو يؤجروا

أنفسهم ويعيشوا تحت رحمة الملاك ، وكان الاستغلال في صورة ايجارات الأرض والرهونات الفاحشة وبسعر الفائدة الباهظة على القروض بشكل خال من الرأفة ولا يحتمل بذاته، فقد بلغت ايجارات الأرض إلى نسبة نصف وثلثي المحصول، وأسوأ من هذا ان الرهونات كانت لا بد ان تسدد من الأرض المؤجرة وبالعمل المجاني الذي يبذله الفلاح إذا لم يكف المحصول سدادها ، وكان سعر الفائدة المقرر على القروض يرتفع بسعر خيالي ما بين ٢٠و١٠٠٪ من المبلغ الأصلي .

وحصيلة هذا كله لم يتمكن السواد الأعظم من الفلاحين من اكتساب ما يكفي لوجبة طعام جيدة أو لكساء أجسادهم كساء محترماً ، بالرغم من عملهم المرهق الذي لا يتوقف طوال العام . وكان سواد شعب الصين يعيشون في أدنى مستوى من الحياة كبشر أي بشر ... وهنا كان يكمن السبب الرئيسي في ان تتعرض الصين للعدوان والاضطهاد والفقر ، فظلت متأخرة عن الركب الحضاري وهنا كانت تكمن العقبة الأساسية التي عاقت استقلال الصين وحالت دون تصنيعها وتقدمها .

ولذلك فقد كانت مهمة الاطاحة بالاقطاع وتنفيذ قانون الاصلاح الزراعي مهمة رئيسية للثورة الجديدة في الصين ، فنص قانون الاصلاح الزراعي على ضرورة « القضاء على نظام ملكية الأرض للاستغلال الاقطاعي من جانب طبقة الملاك وإدخال نظام ملكية الفلاحين للأرض لتحرير قوى الانتاج الفردي وتنمية الانتاج الزراعي ، ومن ثم تمهيد الطريق إلى تصنيع الصين » .

وقدر لهذه المهمة الجبارة ثلاث سنوات لاستكمال الاصلاح الزراعي بطريقة منظمة في المناطق الصالحة للزراعة والتي تبلغ مساحتها ٥٠ مليون هكتار (الهكتار ١٠٫٠٠٠ متر مربع) والتي يبلغ التعداد الاجمالي لسكانها القرويين ٣٠٠ مليون نسمة .

ثورة الفلاحين الكبرى

*

وكان الخط والسياسة العامة للاصلاح الزراعي هو وجوب الاعتماد على فقراء الفلاحين والعمال الزراعيين ، وشل حركة الاقطاعيين والفلاحين الأثرياء والطبقات المعادية الأخرى من الرجال المناهضين للشيوعية ، وتمشياً مع نصوص هذا القانون أصدر المجلس الاداري الحكومي قرارات عديدة منها : قرارات بشأن تباين الوضع الطبقي في الريف . ولوائح تحكم تنظيمات جمعيات الفلاحين ، ولوائح حكم تنظيم محاكم الشعب .

وبموجب هذه القوانين تم تدريب ٣٠٠ ألف جندي شيوعي ليقوموا بإعلان « ثورة الفلاحين الكبرى » في جميع أنحاء الصين . وزحف الجند من قرية إلى أخرى ،وفي كل قرية قاموا بالحملة اللازمة . وزاروا كل فرد من سكان القرية ، يشجعون لجميع على السخط والهجوم على وضعهم الذي كانوا عليه ، كما بثوا في الشعب روح التطاحن والمنازعات ، ووضعت ممتلكات جميع الأفراد في قوائم ،وصودرت جميع ملكيات الأراضي والبيوت والآلات الزراعية وحيوانات الحرث والمواشي والحبوب والتقاوي . كما استولي على الأراضي القروية الملحقة بأضرحة الجدود والمعابد والأديرة والكنائس والمدارس وغيرها من الأراضي التي تمتلكها الهيئات العامة .

وعندما بلغت الدعاية ذروتها ، وصل القضاة ، وشكلت محاكم الشعب إلى جانب المؤتمرات الشعبية وصدرت أحكام الاعدام على نطاق كبير في كل مكان ، وبمجرد ان انتهت هذه الاجراءات تسلم صغار الفلاحين عقود تمليك الأراضي الجديدة التي كانت ستصبح ملكهم في فترة الانتقال الثانية .

وبعد أسابيع قليلة حدث ان قام بين صغار الفلاحين ثوار جدد يناهضون الثورة الأولى ، موجهة في هذه المرة ضد الفلاحين المتخلفين الانانيين المحافظين المجاملين الذين لا يتمتعون بنظرة ثاقبة في الشؤون السياسية ، ويريدون على حد

تعبيرهم ان يعيشوا بسلام .

واسفرت هذه الحملة عن إعادة النظر في قانون الاصلاح الزراعي، كما أسفرت عن موجة جديدة من الاضطراب والخوف والمرارة .. واضطر الفلاحون الفقراء إلى التنازل عن بعض أراضيهم ، فأعطي لكل فلاح أو عامل زراعي ما يقرب من ثلاثين « مو » [1] مع احتساب الأبناء وصغار السن في التوزيع . وقد يندهش المواطن العربي من صغر الأرض التي منحت للفلاح الصيني ، وتزول دهشته لدى علمه بأن الأرض القابلة للزراعة في الصين تقدر بنحو ١٧٪ من مجموع أراضي الصين، وان الشعب الصيني قد تكدس معظمه في هذه الأرض التي اكتظت بسكانها لدرجة ان كثافة السكان اليوم قد بلغت ٤٠٠ نسمة في كل كيلومتر مربع من الأرض القابلة للفلاحة ، ويرتفع هذا الرقم إلى ١٣٠٠ في الصين الجنوبية .

وفي ضوء هذه الحملة أمر ماوتسي تونغ بالقيام بحملة تنوير في الريف ، الهدف منها إعداد الفلاحين لفترة الانتقال ــ أي نظام الجمعيات التعاونية الزراعية .

ولقد أصبح التعليم والنظام والانتاج لا يتم إلا بالارهاب، واتضح ان عشرات الملايين من المناهضين للثورة ، ومن الرجعيين أجبروا على القيام بأعمال السخرة ، وعلى الحياة في معسكرات الاعتقال . وفي هذه الأثناء كان سكان المدن بل الشعب بأسره يتعلمون عن طريق مشاهدة تنفيذ أحكام الاعدام أمام الملأ ، كما عقدت مؤتمرات الشعب لتوجيه الاتهامات في كل مكان .

ويقول « تنغ تسي هيو » مدير إدارة الأعمال الزراعية في الصين بكتابه « النجاح الكبير لحركة الاصلاح الزراعي في الصين » في تعداد مراحل التطبيق العملي للاصلاح الزراعي ما يلي :

« كان الترتيب النموذجي للأحداث في الأراضي حديثة العهد بالتحرر على

---

١ ـ المو ؛ هو الوحدة الزراعية في الصين التي تقابل « الفدان » في مصر و « الدونم » في العراق وسوريا . ومساحة « المو » ستمائة متر مربع فقط في حين ان الفدان المصري يساوي ٤٠٠٠ متر مربع، والدونم العراقي يساوي ٢٥٠٠ متر مربع، والدونم السوري او الفلسطيني او الاردني يساوي ١٠٠٠ متر مربع .

النحو التالي :

أولاً – تعبئة الفلاحين لتطهير أراضيهم المجاورة من العصابات وقطاع الطرق المحلية ، ثم بدء حملة لتخفيف إيجارات الأرض وأسعار الفائدة ، وبعد ذلك أتت مصادرة الأرض ، وأخيراً التحقق من تنفيذ القرارات الخاصة بتوزيع الأرض .

ان منطق الأحداث واضح ... ففي مرحلة تطهير العصابات وقطاع الطرق تم القضاء على العصابات ، ونزع سلاح القوات المسلحة للملاك ، وقد أدى تنفيذ هذا إلى إقامة الحكم الثوري في الريف « وهو شرط أساسي للاصلاح الزراعي »، وتمت الاطاحة بحكم العصابات الحاكمة التي كان يسيطر عليها الملاك فيما مضى ، ومن ثم النهوض بالفلاحين .

وفي المرحلة الثانية وهي حملة تخفيض الايجار وسعر الفائدة ثم اضعاف طبقة الملاك بأسرها أكثر من قبل ، وانطلق الفلاحون إلى مرحلة أكثر تقدماً من مراحل التعبئة ، وزيادة على ذلك أقيمت سيطرتهم السياسية على طبقة الملاك ، وعلى هذا الأساس أمكن اتخاذ الترتيبات اللازمة للقسم الرئيسي للاصلاح الزراعي الشامل ، وهو مصادرة وتوزيع الأراضي ، وقد عملت السلسلة الكاملة لمراحل نظام الطبقة المكافحة على دفع الوعي الطبقي لدى الفلاحين إلى مستوى أعلى ، وتعبئتهم بطريقة محكمة ، ومن ثم المضي في تنفيذ الاصلاح الزراعي .

وبعد ذلك تم إقرار سياسة وقف نشاط أثرياء الفلاحين وحماية الصناعة والتجارة ومنح علاوات خاصة لصغار المؤجرين ... وقد نجحت هذه السياسة . وهكذا تم اكتساب البورجوازية الصغيرة في المدن إلى جانب الفلاحين في الاصلاح الزراعي ، وأبقت البورجوازية بنادقها في حالة استعداد ، ولم يكن لديها أي سبب للعمل ضد الاصلاح الزراعي . وتم تأليف لجان اتصال بين المدن والقرى لها ممثلون محليون لمعالجة المشكلات التي طرأت على الصناعة والتجارة خلال فترة الاصلاح الزراعي . وبهذه الطريقة تم توفير العدد الفعال من جانب سكان المدن لنضال الفلاحين ضد الاقطاع ، وفي الوقت نفسه أقر النظام الثوري في المدن ، ومن ثم فقد تشكلت للنضال من أجل الاصلاح الزراعي جبهة موحدة ضد الاقطاع على أوسع نطاق

ممكن .

ولقد أباد هـــذا الاكتساح القوي للاصلاح الزراعي في هذا البلد المترامي الأطراف الاقطاع الذي دام قروناً، وحرر أكثر من ٤٠٠ مليون فلاح مـــن العبودية ، وارتفعوا من كونهم حيوانات لطبقة الملاك إلى حكام لريفهم ، ومـــن كونهم عبيداً لـلأرض إلى سادة لها . وقد اكتسب الريف الصيني ملامح جديدة حقاً سواء أكانت مادية أم معنوية .

وكانت التغييرات المادية مذهلة في ذاتها ، ففي هـذه الفترة الكاملة للاصلاح الزراعي انتقلت ملكية ٤٧ مليون هكتار [١] من الأراضي ، وحيوانات للجر لا حصر لها ، وأدوات زراعية ، ومساكن ومخازن للغذاء ، من أيدي طبقة الملاك للتوزيـع على نحو ٣٠٠ مليون فلاح . وبتحرير الفلاحين من علاقات الأرض الأولى الاقطاعية اكتسبت القوى الانتاجية في الريف شيئاً جديداً للحياة . والآن بعـد ان امتلك الفلاحون الأرض وسائر وسائل الانتاج ، وفلحوا أراضيهم ، لم تعرف حماستهم أي حدود ، فازداد الانتاج إلى حد كبير . وبإلغاء الايجـارات الباهظة أصبحت المحاصيل تغل ربحاً يمكن استثماره مرة أخرى .

وعن طريق الاصلاح الزراعي تم النهوض بجماهير الفلاحين وتنظيمهم ، وقـد نتجت عن الاصلاح الزراعي منافع عظيمة فارتفع مستوى معيشة الفلاحـــين . وافتتحت لهم مدارس جديدة ، وتم توفير تسهيلات أكثر للقارىء الفلاح ، ونطاق أوسع لتنمية سائر النشاط الثقافي في الريف .

هـذه هي نتيجة الاصلاح الزراعي ، والملامح الجديدة للريف الصيني بعـد الاصلاح الزراعي » . — انتهى قول « تنغ تسي هو » .

---

١ ـ أي نحو ١٨٨ مليون درنم عراقي انتقلت ملكيتها الى الفلاحين .

تطبيق النظام الجماعي ونتائجه

*

والواقع هو ان ما تم نتيجة الاصلاح الزراعي ما بين عامي ١٩٤٩ – ١٩٥٢ كان المرحلة الأولى من مراحل التنمية الزراعية حيث ثار الفلاحون على النظام الفردي الذي أبقى على ملكيتهم الخاصة. وأعقبتها المرحلة الثانية في فترة مشروع السنوات الخمس الأولى من عام ١٩٥٣ إلى عام ١٩٥٧، وهي الفترة التي صدر فيها دستور الجمهورية الشعبية الصينية وأقره المجلس الوطني الأول لنواب الشعب وجاء فيه:

«... ان الملكية الجماعية الجزئية للجماهير الشغيلة هي شكل انتقالي لتنظيم الفلاحين الفرديين وأصحاب الصناعات اليدوية الفرديين وسائر الشغيلة الفرديين وقيادتهم إلى الملكية الجماعية للجماهير الشغيلة.

تحمي الدولة أملاك التعاونيات وتشجع وتوجه تطور الاقتصاد التعاوني وتسدي إليه المساعدة وتتخذ تطوير التعاون في الانتاج طريقاً رئيسياً لتحويل الزراعة الفردية والصناعة اليدوية الفردية». – مادة ٧

«تحمي الدولة، وفقاً للقانون حق الفلاحين في امتلاك أراضيهم وغيرها من وسائل الانتاج [١]، ترشد الدولة الفلاحين الفرديين، وتساعدهم على زيادة الانتاج وتشجعهم على تشكيل تعاونيات الانتاج وتعاونيات البيع والشراء وتعاونيات التسليف على أساس الرضى والاختيار.

وتنهج الدولة سياسة حصر وتصفية تدريجية إزاء اقتصاد الفلاحين الأغنياء». – مادة ٨

عممت في هذه الفترة الجمعيات التعاونية في عمل جماعي مع بقاء الأراضي بأيدي الفلاحين، ثم تلتها القفزة الثالثة – فترة الزحف العظيم – أو سياسة القفزة التي

---

١ – يرى القارىء ان الحكومة لم تلتزم بهذا النص الدستوري في فترة «القفزة الكبرى» عندما اسست «الكوميونات» الشعبية.

تقضي بدمج الجمعيات التعاونية العليا في بعضها البعض لتتألف منها وحدات كاملة أطلق عليها اسم « الكوميون » وهي منظمة موحدة تجمع بين سلطة مجموعة من القرى أو المدن وبين انتاجها العام ، ويعيش الفرد فيها وفق مبدأ : « كل حسب طاقته ... كل حسب حاجته » فيتحقق بذلك حلم كارل ماركس في تكوين المجتمع الشيوعي المنشود .

ففي عام ١٩٥٣ ارتأى الحزب بأن الابقاء على الملكية الخاصة للفلاحين سيؤدي حتماً إلى إعادة تركيزها مع الزمن ، ولإنقاذ الاصلاح الزراعي ، كان لا بد في نظرهم من إلغاء الملكية، لا لكونه اجراء اصلاحياً فحسب، بل هو اجراء ثوري.

ان الحزب الشيوعي الصيني لم يعتبر مطلقاً توزيع الأراضي غاية في حد ذاتها ، وإنما اعتبرها مرحلة أولى من مراحل حركة ينبغي ان تفضي إلى النظام الجماعي ، وعندئذ سوف تلغى الملكية الخاصة ، ويلغى نهائياً الطريق المؤدي إلى الماضي .

وتساءل الحزب : هل ينبغي للنظام الجماعي ان يصاحب استخدام الآلات في الزراعة أم يسبقه ؟

وكان الحل الثاني هو الأفضل في نظره ، لأن تعميم الآلات لن يتم قبل عشرة أعوام أو خمسة عشر عاماً ، ثم ان بعض مظاهر عدم المساواة القديمة ستظل قائمة ، ذلك ان توزيع الأراضي غير قابل للتغيير بينما تطرأ التغييرات على صميم الاسرة التي تتبدل أحوالها ، فالفلاح الذي ولد له منذ سنة ١٩٥٠ ثلاثة أو أربعة أطفال يدركه الفقر ، وكذلك الأمر في تربية الأسرة أو ما يصيبها من أمراض أو عاهات بما يقتضي زيادة في نفقاتها في حين ان الفلاح الصيني قد استغل أقصى طاقاته في استغلال الأرض بما لا يدع أي امكانية للتوسع في الانتاج وبالتالي رفع دخله ليتسق ومقتضيات زيادة النفقات ، فيضطر الفلاح الفقير إلى بيع أرضه ، فتتسع ممتلكات الآخرين ... وهكذا ينشأ فقراء جدد ، ومتوسطون جدد ، وأغنياء جدد ، فيستأجر الموسرون الجدد جهود من لم تواتهم سعة الحال . فلا بد إذن من الحيلولة دون العودة إلى الاستغلال وإلى الرأسمالية بوضع تخطيط جماعي بأسرع ما يمكن لتلافي الرأسمالية في الريف ، ولإغناء الفلاحين والدولة .

وأعلن ماوتسي تونغ بهذا الصدد : « ان الطريقة الوحيدة التي يتغلب بها الفلاحون على البؤس هي السير التدريجي نحو النظام الجماعي ، والسبيل الوحيد إلى النظام الجماعي هو الجمعيات التعاونية » .

وفي فترة مشروع السنوات الخمس الاول من عام ١٩٥٣ الى عام ١٩٥٧ طبقت الخطط الرامية الى النظام الجماعي بمراحل . كانت اولاها « تجميع العمل » وذلك بتأليف (وحدات المساعدة المتبادلة) دون المساس بالملكية الخاصة ، فالقرية المؤلفة من بضع عشرة اسرة يتعاون أفرادها على زراعة ارض القرية مشتركا ، ويوزع الحاصل او الارباح من جميع الارض على اساس : سهم واحد من الاجور يقابل سهماً واحداً من العمل ، وقد خصصت نسب من الدخل أجراً لحيوانات الحرث والنقل ، او الآلات الزراعية التي يمتلكها أفراد القرية .

ولدى تنفيذ هذه الخطة ظهرت مشاكل عديدة أدت الى منازعات بين الفلاحين بشأن الاجور وتقسيم العمل ومواعيده ، ومسؤوليات التسميد ، وتنظيف الحقول ، الى جانب الخلافات التي نشبت بين الفلاحين وموظفي الحكومة ، فعدل النظام بمنهاج للعمل المتوسط بالنسبة لجودة الارض ومساحتها وانتاجها . ومنهاج لتقدير الانتاج الذي روعي في تحديده نوع الارض ومساحتها ايضاً ، وبفضل السماد والعناية بالزراعة ازداد الانتاج كما تحسنت التربة .

وكانت المرحلة الثانية من مراحل النظام الجماعي الأخذ بنظام التعاونيات الزراعية التي سبق للشيوعيين الصينيين ان طبقوها بشمال « شانسي » إبان العدوان الياباني وبلغ عددها حتى سنة ١٩٥١ قرابة ٣٠٠٠ جمعية تعاونية وتزايدت فبلغت ١٤٫٠٠٠ جمعية في ايلول «سبتمبر» ١٩٥٣ حين قررت الحكومة مضاعفتها باستمرار خلال تنفيذ مشروع السنوات الخمس الاول . وما ان حل خريف ١٩٥٤ حتى بلغ عدد التعاونيات في شتى ارجاء الصين ١٠٠ ألف جمعية . وتزايد عددها فبلغ ٦٥٠ ألف جمعية في حزيران « يونيو » ١٩٥٤ تضم ١٦٫٩٠٠٫٠٠٠ عائلة بمتوسط ٢٦ عائلة في كل جمعية .

وهذه الجمعيات بوجه عام جمعيات صغيرة ، ولكن بينها بعض الجمعيات الكبيرة

فيضم بعضها ٧٠ او ٨٠ عائلة والبعض القليل يصل الى ١٠٠ او أكثر .

وهذه الجمعيات – بوجه عام ذات طابع نصف اشتراكي ، ولكن عدداً قليلاً منها تجاوز هذا الطابع على درجة أعلى ، وأصبح ذا طابع اشتراكي ، كما ان الدولة قد أنشأت عدداً قليلاً من المزارع الاشتراكية .

ان الملكية في هذه الجمعيات معترف بها ، ولكن الاراضي الخاصة بالاعضاء تعتبر جزءاً من مال الجماعة ، ويكون الانتفاع بالريع مشتركاً ، ويتقاضى الفلاح صاحب الماشية والادوات التي يعيرها للجمعية دخلاً دورياً معيناً . ويقدر حساب العمل الذي يؤديه كل فلاح او فلاحة بعدد من الاسهم مع مراعاة الوقت والانتاج ، فالارباح توزع بين أعضاء الجماعة بنسبة رأس المال الذي قدمه كل عضو وعدد الاسهم التي نالها . وعلى الاعضاء الجدد في الجماعة ان يدفعوا اشتراكاً بمثابة شراء الحق في الانتفاع برأس المال الذي قد تجمع من قبل ، وهو فوق ذلك بمثابة صندوق التأمين .

وفي حلول عام ١٩٥٦ شملت الجمعيات التعاونية جميع انحاء البلاد ، فأصبح الاقتصاد الزراعي اقتصاداً تعاونياً .

وتشير احصاءات نهاية سنة ١٩٥٧ على ان التعاونيات الزراعية قد بلغت ٧٥٠،٠٠٠ جمعية تضم ٩٦٪ من أسر الفلاحين في الصين، وتبلغ ١٢٢ مليون أسرة يبلغ عدد أفرادها حوالي ٥٤٠ مليون فلاح .

ونتيجة لهذا التحول ، نشأ في الريف الصيني وضع جديد – وصفه لنا رئيس لجنة التخطيط في بكين بمحاضرة طويلة، استخلص منها في هذا الفصل المعاني التالية:

لقد استغلت الارض استغلالاً جماعياً ، ومن المستطاع تجميع الزراعات واختيار أصلح الاراضي لكل منها ، وتمكنت التعاونيات – بفضل تجميع مواردها من شراء السماد والمواد القاتلة للحشرات ، والآلات الحديثة بدلاً من المحاريث الخشبية القديمة ، وفي شتاء ١٩٥٧ تم حرث جميع أراضي الصين الزراعية بعمق يتراوح بين ٣٠ و٥٠ سم بدلا مما كانوا يفعلون في الماضي من حرث الارض بعمق ١٠ سنتيمرات ، واستعملت طريقة الزراعة الكثيفة أي بزراعة الحبوب بمسافة ٦ اصابع بدلا من ٩ مما يزيد الانتاج . واختيرت البذور الممتازة، وارتفع

مستوى ادارة المزارع ، وتقدم الفلاحون انفسهم وبتجاربهم الخاصة في النواحي الفنية .. لدرجة ان الكليات الزراعية لم تعد تجد في الكتب التي تدرسها فائدة تطبيقية – مما حدا بالمؤسسات الفنية الى وضع كتب جديدة على ضوء تجارب وافعال الفلاحين ، وضرب على ذلك لنا مثلاً بأن الفلاحين قد حسنوا بأنفسهم الادوات التي بأيديهم وأدخلوا عليها تحسينات جذرية ، فجعلوا المحاريث القديمة تصلح للحرث العميق ، وأوجدوا آلات جديدة لبذر البذور الكثيفة ، وأضافوا على الآلات المحورية ، محاور جديدة Ball Bearing فتضاعفت حركتها كما اخترعت محاريث جديدة تجر بالحبال .

وقامت الحكومة – من ناحيتها بمسؤولياتها في الانماء الزراعي لزيادة رفاهية الفلاحين ، فتوسعت في إنشاء المستشفيات ، وزادت عدد المدارس ودور الحضانة والنوادي ، وساعدت على إنماء الصناعات اليدوية والريفية وهدفها من ذلك كله هو إذابة الفوارق بين الريف والمدن ، وتهيئة الاسباب للدخول في النظام الشيوعي الذي يتساوى فيه الجميع .. بجميع الحقوق بصرف النظر عن نوعية انتاجهم وأهمية انجازاتهم .

وفي مشروعي السنوات الخمس الاول والثاني ، قامت الحكومة بجهود ضخم في سبيل اعانة الزراعة ، اذ أنفقت في المشروع الاول ٤٦٠٠ مليون «ين» في القروض وشغل الري ، وإغاثة المنكوبين بالفيضانات وغيرها .

وبلغ ما وزعته مصانع الدولة على الفلاحين حتى بداية عام ١٩٥٨ نحو ١٬٨٠٠٬٠٠٠ محراث عادي و ٥ ملايين محراث من الطراز الجديد و ٦٨٠ ألف مضخة ماء ، و٢٠ مليون طن من السماد الكيمائي ، وأنشأت عدداً من معاهد البحث الزراعي ، كما أسست ٣٢ محطة تجارب و٣٤ مدرسة زراعية جديدة .

وأتمت الحكومة إنجازات كبرى في منشآت الري والاصلاح التكنيكي ، وازدادت الاراضي المستغلة فارتفعت من ٤٧ مليون هكتار الى ١١٣ مليون هكتار (أي ٤٥٢ مليون فدان عراقي) في سنة ١٩٥٨ ، وأصلحت من الاراضي المنخفضة بجوار البحيرات ٦٠ مليون دونم عراقي ، وتمت صيانة مساحة ٢٥٠ الف

كيلومتر مربع من اراضي المناطق الجبلية التي كانت الامطار تجرف تربتها فتضعف إنباتها .

وكان الفلاحون في الماضي عبيداً للطبيعة ، اذ كانوا يعتمدون – فيما يعتمدون في زراعتهم – على الامطار في بعض المناطق ، فبدأوا الآن يسيطرون على الطبيعة ويخضعونها لمشيئتهم[1] ، وضرب لنا أحد المسؤولين مثلاً لانجازات الشعب في هذا السبيل فقال : لقد نقل الشعب لغرض تخزين المياه في سبعة اشهر ٢٥ ألف مليون متر مكعب من التراب والحجارة لبناء الخزانات ، وهذه الكمية تكفي لصنع طريق عرضه ٦٦ متراً وسمكه متراً واحداً يمتد من الارض الى القمر .

وكان من نتائج هذا كله أن زاد انتاج « المو » الواحد من ٢٤٠ كاتي[2] – «أي نحو ٩٥» كيلو في السنين التي سبقت التحرير الى ٣١٥ كاتي « أي ١٢٥ كيلو » ثم الى ٣٨٠ كاتي (أي ١٥٠ كيلو) وهم يتوقعون زيادات أخرى في انتاج المو الواحد بعد اكمال مشاريعهم العمرانية .

وقد ارتفع الانتاج العام للحبوب والاقطان ، وسائر المنتجات الغذائية وتضاعف عاماً بعد عام على النحو التالي في الجدول .

---

١ ـ الواقع ان الطبيعة هي التي تغلبت في النهاية عليهم ، اذ مرت عليهم ثلاث سنوات عجاف اذاقتهم الامرين .

٢ ـ الكاتي : وزن يزيد على الرطل قليلا وكل ٢٠٠ كاتي تقريباً يساوي كيلو واحد .

الانتاج الزراعي في الصين (بآلاف الاطنان) [١]

المادة	١٩٤٩	١٩٥٢	١٩٥٣	١٩٥٤	١٩٥٥	١٩٥٦	١٩٥٧	١٩٥٨	١٩٥٩	١٩٦٠
الحبوب التي تشتمل على مايلي :	١١٣ر١٨١	١٦٣ر٩١٣	١٦٦ر٨٣٢	١٦٩ر٥١٣	١٨٣ر٩٩٣	١٩٢ر٧١٦	١٨٥ر٠٠٠	٢٥٠ر٠٠٠	٢٧٠ر٠٠٠	٢١٧ر٠٠٠
رز	٤٨ر٦٤٥	٦٨ر٤٢٦	٧١ر٢٧٢	٧٠ر٨٥١	٧٨ر٠٢٤	؟	؟	؟	؟	
القمح	١٣ر٨٠٨	١٨ر١٢٣	١٨ر٢٨١	٢٣ر٣٣٢	٢٢ر٩٦٥	؟	؟	؟	؟	
حبوب متنوعة	٣٥ر٧٩٩	٥١ر٥١٩	٥٠ر١٩٥	٤٩ر٢٦٩	٥٤ر٩٢٦					
البطاطا بما فيها البطاطة الحلوة	٩ر٨٤٣	١٦ر٣٢٦	١٦ر١٥٣	١٦ر٩٨١	١٨ر٨٩٧					
فول الصويا	٥ر٠٨٦	٩ر٥١٩	٩ر٩٣١	٩ر٠٨٠	٩ر١٢١	١٠ر٢٥٠				
القطن	٤٤٠	١ر٣٠٤	١ر١٧٥	١ر٠٦٥	١ر٥١٨	١ر٤٤٥	١ر٦٤٠	٢ر١٠٠	٢ر٤١٠	٢ر١٠٠
الجوت	٣٧	٣٠٥	١٣٨	١٣٧	٢٥٧	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	
التبغ المحسن	٤٣	٢٢٢	٢١٣	٢٣٢	٢٩٨	٣٩٩				
قصب السكر	٧ر٦٤٢	٧ر١١٦	٧ر٢٠٩	٨ر٥٩٢	٨ر١١٠	٨ر٦٧٨				
البنجر	١٩١	٤٧٩	٥٠٥	٩٨٩	١ر٩٥٦	١ر٦٤٤				
الفول السوداني	١ر٢٦٨	٢ر٣١٦	٢ر١٢٧	٢ر٧٦٧	٢ر٩٢٦	٣ر٢٢٦				
الفجل	٧٣٤	٩٣٢	٨٧٩	٨٧٨	٩١٩	٩٢١				

١ - يستبان من هذا الجدول المأخوذ من كتاب التنمية الاقتصادية في الصين الشيوعيــة ومن مصادر هيئة الامم ، ومن الدليـل السنوي في الشؤون العالمية على تأييد الملاحظة التي أشار اليها باحثون غربيون كثيرون التي تكشف في صحة ارقام مكتب الدولة للاحصاء ، وعلى سبيل المثال فان الاحصائيات التي راجعتها الجهات الرسمية كانت تشير الى ان انتاج عام ١٩٥٨ وقد بلغ ٣٧٥ مليون طن ، على ان الاحصاء الرسمي الذي صدر في عام ١٩٥٩ اشار الى ان انتاج عام ١٩٥٨ هو ٢٥٠ مليون طن كما مذكور في الجدول اعلاه .

وهناك شكوك في صحة هـذا الرقم استناداً الى النتــائج التي ادت الى المجاعة في الصين والى استيراد كميات كبــيرة من المواد الغذائيــة من دول المعسكر الغربي .

وازدادت الثروة الحيوانية في البلاد زيادة ملحوظة ، وعلى النحو التالي في الجدول :

الثروة الحيوانية في الصين (بمئات الألوف من الرؤوس)

	١٩٤٩	١٩٥٢	١٩٥٣	١٩٥٤	١٩٥٥	١٩٥٦
الابقار والثيران	٤٥ر٩٣٦	٥٦ر٦٠٠	٦٠ر٠٨٣	٦٣ر٦٢٣	٦٥ر٩٥١	٦٦ر٦١١
الخيل	٤ر٨٧٥	٦ر١٣٠	٦ر٥١٢	٦ر٩٣٩	٧ر٣١٢	٧ر٣٨٥
الحمير	٩ر٤٩٤	١١ر٨٠٦	١٢ر٢١٥	١٢ر٧٠٠	١٢ر٤٠٢	١١ر٦٥٦
البغال	١ر٤٨١	١ر٦٣٧	١ر٦٤٥	١ر٧١٧	١ر٨٢٣	١ر٧٠٦
الماشية والعنز	٤٢ر٣٤٧	٦١ر٧٧٩	٧٢ر٠٢٣	٨١ر٣٠٤	٨٤ر٢١٨	٠ ٠
الخنازير	٥٧ر٧٥٢	٨٩ر٧٦٥	٩٦ر١٣١	١٠١٧١٨	٨٧ر٩٢٠	٨٤ر٤٠٣

وقبل ان ننتقل الى القفزة الكبرى ـ او الزحف العظيم الذي بدأته الصين في مشروعات السنوات الخمس الثاني لا بد لنا من اعطاء صورة للنتائج التي ترتبت على تطبيق النظام الجماعي معززة بالارقام التي يشير اليها الجدولان المدونان فيما يلي :

١ – الانماء الزراعي لفرق المساعدة المشتركة والتعاونيات (آلاف بيوت الفلاحين المشتركة)

	١٩٥٠	١٩٥٢	١٩٥٣	١٩٥٤	١٩٥٥	١٩٥٦	نسبة المشاركة في جميع بيوت الفلاحين المشتركة ١٩٥٠	١٩٥٢	١٩٥٣	١٩٥٤	١٩٥٥	١٩٥٦
مجموع بيوت الفلاحين المشتركة	١٠٥ر٣٦	١١٣ر٦٨٣	١١٦ر٣٣١	١١٧ر٣٣١	١١٩ر٢٠١	١٢٥ر٠٠٠	%١٠٠	%١٠٠	%١٠٠	%١٠٠	%١٠٠	%١٠٠
مجموع البيوت المشتركة لفرق المساعدة والتعاونيات	١١ر٣١٣	٤٥ر٤٢٣	٤٥ر٩١٢	٧٠ر٧٧٥	٧٧ر٣١٠	٠٠	١٠ر٧	٤٠ر٠	٣٩ر٥	٦٠ر٣	٦٤ر٩	٩٦ر٠
الجمعيات التعاونية لكل من :	٢١٩	٥٩	٢٧٥	٢ر٢٩٧	١٦ر٩٣١	١٢٠ر٠٠٠	٠٠	ر١	ر٢	ر٢	١٤ر١	٩٦ر٠
الجمعيات التعاونية العليا	٣٢ر٠	١ر٨	٢ر١	١٢	٤٠	١٠٠ر٠٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٨٨ر٠
الجمعيات التعاونية الدنيا	١٨٧ر	٥٧	٢٧٣	٢ر٢٨٥	١٦ر٨٨١	٢٠ر٠٠٠	٠٠	ر١	ر٢	١ر٩	١٤ر٢	٨ر٠
فرق المساعدة المشتركة لكل من :	١١ر٣١٣	٤٥ر٣٦٤	٤٥ر٦٣٧	٦٨ر٤٧٨	٦٠ر٣٨٩	٠٠	١٠ر٧	٣٩ر٩	٣٩ر٣	٥٨ر٤	٥٠ر٧	٠٠
الفرق الدائمة	٠٠	١١ر٤٤٨	١٣ر٣٢٩	٣٠ر٧١٣	٣٢ر٨٤٣	٠٠	٠٠	١٠ر١	١١ر٥	٢٦ر٢	٢٧ر٦	٠٠
الفرق الموسمية	٠٠	٣٣ر٩١٦	٣٢ر٣٠٨	٣٧ر٧٦٥	٢٧ر٥٤٦	٠٠	٠٠	٢٩ر٨	٢٧ر٨	٣٢ر٢	٢٣ر١	٠٠

ملاحظة : ان ارقام فرق المساعدة المشتركة والتعاونيات المذكورة في اعلاه هي التي شاركت في الانتاج وساهمت في التوزيع لحصاد الربيع

٢ – الحقول التي بامرة وزارة الزراعة

	الوحدة القياسية	١٩٥٠	١٩٥٢	١٩٥٣	١٩٥٤	١٩٥٥	١٩٥٦
	عدد واحد	١٬٢١٥	٢٬٣٣٦	٢٬٣٧٦	٢٬٤١٥	٢٬٢٤٢	٤٥٠
عدد الهكتارات المزروعة	آلاف الهكتارات	١٥٥–٠	٢٤٦–٩	٢٥٠–٨	٢٩٤–٥	٢٩٤–٦	٩٠٠
	عدد واحد	٣٦	٥٠	٥٩	٩٧	١٠٦	١٦٦
عدد الحقول المزروعة التي تستخدم فيها المكائن	آلاف الهكتارات	٨٩–٣	١٣٥–٨	١٤١–٣	١٨٥–٨	٢٦٩–٣	٤٤٨–٠

القفزة الكبرى ـ أو الزحف العظيم وتكوين الكوميونات

*

لقد أتمت الحكومة فيما بين عام ١٩٥٣ – ١٩٥٧ إنشاء ٧٥٠ ألف جمعية تعاونية تضم ٩٦ ٪ من أسر الفلاحين في الصين وعددها ١٢٢ مليون أسرة ، يبلغ عدد أفرادها حوالى ٥٤٠ مليون فلاح كما سبق لنا ذكره في هذا الفصل .

وكان العمل في هذه الجمعيات يسير على نمط النظام السوفيتي . وقد مكن للحكومة المركزية الاشراف التام على إنتاج المواد الغذائية والمنتجات الاساسية الأخرى ، كما مكنها من جعل الفلاحين يقومون بعمل مضاعف .

وعندما وضعت الحكومة أسس برامج التنمية الاقتصادية الجديدة في مشروعها الثاني للسنوات الخمس القادمة ، كان همها محاولة تحقيق قفزة كبيرة إلى الأمام ، واستعجال الزمن في بناء قاعدة صناعية في الصين تنافس أعظم قوة صناعية أوروبية ، إلى جانب تعزيز قوتها العسكرية ، وتوسيع التزاماتها في آسيا وافريقيا لكي تحتل مكانها اللائق بها بين الدول الأربع العظمى في العالم -- بوصفها واحدة منها .

ففي مشاريع القفزة الكبرى خصص للتنمية الاقتصادية ٦٥ ٪ من ميزانية الدولة العامة في حين انه لم يخصص سوى ١٠ ٪ فقط للزراعة والغابات واحتجاز المياه والمحافظة عليها و١٣٪ للنقل والمواصلات. وكانت الخطة الرئيسية التي وضعت لعام ١٩٥٩ وقدرت نفقاتها الكلية بـ ٢٧ بليون « ين » تقضي بتخفيض ٧ ٪ فقط للزراعة والغابات ومشروعات المحافظة على المياه . وفضلاً عن هذا ، فانها قد استعانت بالأموال التي بدأت تتكدس في خزائن الجمعيات التعاونية فخصصتها لمشاريع التصنيع .

وفي بداية تنفيذ مشروع السنوات الخمس، وعلى ضوء النتائج الحقيقية للمحاصيل الزراعية ، تبين للمسؤولين بأن زيادة السكان في الصين كانت تعادل الزيادة السنوية في محصول الحبوب . وبات من الواضح ان أسلوب التنمية الذي سارت عليه الصين حتى ذلك الوقت في تخطيطها الاقتصادي لا يصلح تماماً للصين التي تواجه مشاكل

تختلف عن المشاكل التي تواجه النظام السوفييتي في فترة مقابلة للفترة التي تمر بها الصين في التنمية الاقتصادية ، وكان لا بد من ادخال التعديلات على الطرق التي اتبعتها روسيا لتلائم الموقف في الصين التي شعرت انها بحاجة الى اجراءات جديدة .

لقد كان الموقف في بداية عام ١٩٥٧ بالغ الخطورة ، ذلك ان التنمية الزراعية لم يعد في الامكان وضعها في المرتبة الثانية في سبيل تركيز التنمية على الصناعات الثقيلة . وأصبح واضحاً تماماً ان النمو الصناعي يرتبط ارتباطاً دقيقاً بالانتاج الزراعي ، وتعتمد كمية الاستثمارات التي تقوم عليها الاستثمارات الصناعية والاستثمارات الاخرى على محاصيل السنة الماضية ، والمحصول الجديد يسمح بقيام استثمارات رأسمالية كبيرة في الاثني عشر شهراً التالية ، بينما يقلل المحصول غير الجيد من هذه الاستثمارات .

وفي الواقع فان الاقتصاد بكامله يرتبط (لسنة كاملة) بالتقلبات التي تنتاب الانتاج الزراعي ، وتظل ردود فعله قائمة حتى موسم الحاصل الجديد .

وأدرك المسؤولون الصينيون هذه الحقيقة في منتصف عام ١٩٥٧ عندما جاءت المحاصيل الشتوية والصيفية أقل كثيراً مما أصر المتعصبون في الحزب على أنهم حققوه .

وهنا أثيرت مشكلة ما اذا كان البرنامج الذي وضعته الدولة للاستثمار - بالنسبة للمشروع الثاني للسنوات الخمس يجب تغييره لكي يولي الزراعة اهتماماً أكبر على حساب الصناعات الثقيلة ؟

والجواب كان : هو ان هذا التغيير يتعارض مع الهدف الاساسي الموضوع في التنمية الاقتصادية ، وكذلك مع الافكار الايدولوجية للحزب الشيوعي الذي يؤمن بما قاله ماركس في كتابه رأس المال :

« ان الصناعة الواسعة النطاق في الزراعة ستقضي على دعامة النظام الاجتماعي وهو الفلاح » .

وقد عبر عنه اتباعه بقولهم : « المزرعة مصنع بلا جدران ، وان الفلاحين والمزارعين يتشابهون مع العمال » .

وبدلاً من معالجة جذرية للموقف الطارىء فان اللجنة المركزية للحزب الشيوعي أصدرت سلسلة من التوجيهات لمعالجة الموقف ، وأهمها ما صدر في ١٤ ايلول « سبتمبر » ١٩٥٧ وكان يتعلق بتحسين الادارة للمزارع الجماعية وجاء فيه :

«ان حجم المزارع الجماعية والقائمين على الانتاج فيها يتوقف عليه نجاح الادارة».

ولما كان الانتاج الزراعي يتميز بمميزات عدة في الوقت الحاضر ، ولما كانت المستويات الفنية والادارية في المزارع الجماعية الحالية ليست مرتفعة ، أثبتت الخبرة في الاماكن المختلفة في السنوات القليلة الماضية ، ان المزارع الجماعية الكبيرة ، وكبر عدد العاملين فيها لا تتناسب بصفة عامة مع ظروف الانتاج الحاضرة. وعلى ذلك يجب تقسيم المزارع الجماعية الكبيرة جداً والتي لا تجد الادارة المناسبة ، الى وحدات صغيرة بما يتناسب مع رغبات الاعضاء ، هذا باستثناء المزارع الكبيرة التي تجد الادارة الحسنة . ومن ثم ، يجب ان تكون المزرعة الجماعية بصفة عامة في حجم القرية التي تعيش فيها مائة أسرة . ويمكن ان تصبح القرية التي تكبر ذلك حجماً ، مزرعة جماعية واحدة أو تنظم الى عدة مزارع ... أما عن حجم الجماعات القائمة بالانتاج ، فان كل عشرين اسرة متجاورة هو العدد المناسب لذلك .

وبعد ان يتم الاتفاق على حجم المزارع الجماعية ، وحجم الجماعات القائمة بالانتاج يجب ان يعلن على الجمهور ان هذه المنظمة يجب ان تبقى دون تغير في السنوات العشر التالية » — انتهى .

وكان من الواضح أن فترة السنوات العشر التي لن يتخللها التغيير كان المقصود بها تهدئة الفلاحين ، واعطاء النظام فرصة لتدعيم مركزه في الريف .

كما وان توجيهاً هاماً آخر قد صدر في ٢٥ تشرين الاول « اكتوبر » ١٩٥٧ وهو مسودة معدلة لبرنامج التنمية الزراعية من عام ١٩٥٦ حتى عام ١٩٥٧ ، وكان الغرض من هذين التوجيهين إشعال شرارة الحركة القومية لتعبئة جمهور المزارعين لتتسق وشعار « الزحف العظيم » الذي حشدت جماهير الشعب الصيني لانجاحه .

وشهدت الصين ابتداء من تشرين الثاني « نوفمبر » ١٩٥٧ وربيع ١٩٥٨ أعظم حركة عمل جماعية قام بها شعب يعد سكانه خمس سكان البشرية كلها ، وقيل لنا إن

عشرة ملايين فـــلاح قد حشدوا لجمع جميع انواع الاسمدة العضويـة في الريف ، ويعملون يومياً نحو احدى عشرة ساعة في أماكن بعيدة عن منازلهم .. وأدى ذلك الى البدء في إنشاء (صالات مشتركة للطعام) .

وعندما حل موسم الزرع أحس المسؤولون بوجود نقص في الأيدي العامـلة ، وكان لا بد من تدارك الامر للحصول على أقصى فائدة من الاستثمار فقاموا بأعظم عملية ترحيل من المدن المكتظة بالسكان ، ومن المكاتب والمصانع التي يعمل بهـــا أناس أكثر من طاقتها ، وقذفوا بتلك الكتل البشرية الى الريف .

وتقرر ضم النساء الى القوى العاملة ، وذلك بتحريرهن من الاعمـــال المنزلية عن طريق التوسع في إنشاء صالات الطعام العامة ، والإكثار من دور حضانـــة الاطفال .

ولما كان ذلك يتطلب خطة عمـل دقيقـة لتجنب الفوضى في توزيـع الواجبات والمسؤوليات وضمان غذاء تلك الملايين يومياً ، والاشراف على حياة وتربيـــة الاطفال .. فان الامر كان في حاجة الى شيء يشبه التنظيـم العسكري .. وهذا ما حدث بالفعل في نشوء وتطور تأسيس « الكوميونات الشعبية » .

ومع ان هذا التطور كان يتعارض تماماً مع توجيهات الحزب التي أشرنا اليها ، فان سلسلة الاحداث التي أدت الى هذا التطور بدت لقيـادة الحزب الشيوعي على انها تبرير للقيام بخطوة جريئة نحو إقامة المزارع الجماعية وتطويرها لحـــل مشكلة غذاء الشعب المحيرة .

ومنذ حلول شهر ايلول « سبتمبر » ١٩٥٨ بـدأت حركة تعمـيم الكوميونات الشعبية تعميماً أساسياً في جميـع انحاء الصين ، وانتشرت بسرعة هائلة ، وقد تألفت بانضمام الجمعيات التعاونية العليامع بعضها البعض وكونت فيما بينها وحدات كبيرة كاملة تضم عدة قرى وفقاً للوضع المحلي او الجغرافي او الاقتصادي .

وهذه الكوميونات تقوم الى جانب الزراعة ، بالانتـــاج الصناعي ، وصيد الاسماك والرعي ، ومختلف الحرف المهنيـــة .. الى جانب مسؤوليتها الثقافيـــة والصحية . كما انهـــا تؤلف من بعض رجالها ونسائها وحدات المقـاومة الشعبية

« الميليشيا » لحماية نظام الحكم الشيوعي من المعتدين او الخونة .

والكوميون وحدة تجمع بين سلطة مجموعة من القرى وبين إنتاجها العام ، وتستطيع ان تستغل الاراضي والمنشآت المائية ، والثروات الطبيعية ، والتنويع في الزراعة حسب قابلية الارض ونوعها ، وباستطاعة الكوميون زيادة وإنماء تلك المنشآت كما تطور تلك الصناعات الريفية .

وقد تم في عام ١٩٥٨ تأسيس عشرة آلاف كوميون ، وان سبع مقاطعات من مجموع مقاطعات الصين السبع والعشرين قد أصبحت ضمن تأسيسات الكوميون .. وسرعان ما عمت الكوميونات معظم المقاطعات الاخرى .

وهنا قد يتساءل القارىء : وهل حلت مشكلة الغذاء في الصين ؟ وما هي النتائج التي حصلت عليها الصين ، كثمرة من ثمرات التعبئة الجماعية للشعب ، ومن تأسيس « الكوميونات الشعبية » ؟

الواقع ان الذي يدعي القدرة على الاجابة الصحيحة على هذين السؤالين لا يعدو كونه مكابراً ، يجافي الحقيقة ، وذلك لسبب بسيط وهو ان الارقام الحقيقية للانتاج الزراعي في عام ١٩٥٨ وما بعده لم تعرف بدقة الى الآن .. وانه حتى اذا توصل الباحث الى ارقام تقريبية – بين ما نشرته دوائر الاحصاء الصينية الواقعة تحت تأثير حركة الجماهير المأخوذة بنشوة الزحف العظيم ، الى جانب رغبة الاالصين « ماوتسي تونغ » في انجاح حركة « الكوميون » التي تبناها وباركها – وبين تلك الارقام التي نشرها الباحثون الاقتصاديون الأوربيون الذين يتوخون اهدافاً بعيدة لا علاقة لها بالبحث العلمي ، أقول إننا حتى لو توصلنا الى ارقام الانتاج الزراعي القريبة من الحقيقة ، فاننا نجابه مشكلة أخرى عويصة لا نخرج منها برأي دقيق ، ذلك ان برامج التنمية الاقتصادية في مشروعها الثاني للسنوات الخمس قد حققت باعتراف الاعداء قبل الاصدقاء انجازات رائعة في استصلاح الاراضي وزيادةالرقعة الزراعية ، ومشاريع جبارة لحفظ المياه .. ويقابل هذه الانجازات ما حل بالبلاد في سنتي ١٩٥٩ و١٩٦٠ من كوارث طبيعية بسبب الجفاف ، والقحط في بعض مناطق الصين الوسطى والجنوبية ، وفيضانات الانهار ، والامطار الغزيرة المدمرة

في أقصى الشمال... الى جانب انتشار الاوبئة الزراعية في مناطق غير هذه وتلك.

على ان هذه العوامل جميعاً لا تعفي الذي يقدم على البحث من مسؤولية بحث الجوانب التي تلقي الضوء على ما حدث ، واستخلاص ما يستطيع استخلاصه من المتناقضات والمفارقات .

وما من شك في ان انتاج الفلاح والعامل الزراعي ومن سخر في الانماء الزراعي في فترة مد الزحف العظيم قد اختفى كثيراً بسبب الارهاق في العمل ، والسرعة في الانجاز ، وبسبب سوء التغذية ايضاً .. الى جانب العوامل النفسية غير المشجعة على العمل الاجباري ، والحرمان من الحياة العائلية التي يستمد المرء منها طاقات عمله الجديد في اليوم التالي بعد نوم مريح .

ثم ان تعبئة الجماهير الريفية في قمة حركة الكوميونات قرابة انتهاء محصول الخريف في عام ١٩٥٨ (وهي الفترة التي كنت فيها في الصين) لانتاج الحديد الزهر والصلب من اجل تحقيق « القفزة الكبرى » كانت ترمي الى الاحتفاظ بالشعب العامل مشغولاً تماماً دون احتياج الدولة الى الدخول في أي استثمار ... وهكذا شغلت الملايين في الريف في العمل في « فرن الفناء الداخلي[1] » وكانت غالبيتها لا تستطيع الانتاج ، وخرجت معظم الافران التي استطاعت الانتاج بمنتجات رديئة لدرجة ان المواد الخام كانت أفيد منها بالنسبة للمصانع الحديثة ، وبصرف النظر عن المشروع بصفة نهائية في ربيع عام ١٩٥٩ ، بينما سمح بمزاولة الانتاج الصناعي بالاساليب المحلية في الاماكن التي حققت نجاحاً محدوداً والتي ينتظر منها النجاح .

وتبين في عامي ١٩٥٨ و ١٩٥٩ ان استهلاك المواد الغذائية الرئيسية قدانخفض بصفة عامة كثيراً ، وقد كان النقص الشديد في الرز والقمح منتشراً في الدولة كلها لدرجة ان هبطت جراية الطعام الى ١٥٠٠ وحدة حرارية في اليوم وانقصت الى ١٣٠٠ وحدة حرارية في بعض المناطق ، في حين ان الحد الصحي الادنى لحاجة

---

١ ـ يشبه برج الحمام في مصر، وبحجمه، انتشر بناؤه في كل مكان بالصين، لصهر الحديد الخام .

الانسان هو ٢٠٠٠ وحدة حرارية .

وكان يتعين على الكوميونات في عام ١٩٥٨ وما بعده ان تضع جانباً ما بين ٥٠٪ و٧٠٪ من الانتاج الكلي لتكاليف الانتاج والادارة ... وأشارت الدراسة التي قام بها مكتب الاحصاء في بكين الى ان قيمة الاستهلاك في عام ١٩٥٧ بلغت ٨٩٪ ، وبذلك يبقى للتجميع ١١٪ فقط .

ولما كان اجمالى الانتاج الزراعي قد ازداد في الواقع بنسبة ٢٥٪ فقط ، وان صافي الانتاج قد ازداد بنفس السرعة .. فلا بد ان يكون الاستهلاك قد انخفض بحوالى الثلث .

وهناك رأي يقول : بأن ماوتسي تونغ قد شرع في صبغ الزراعة بصبغة جماعية بأسرع مما فعل ستالين في الاتحاد السوفييتي ، فلقد طبق ماو النظام الجديد بعد توزيع الاراضي بستة اشهر ، بينما امتدت فترة الانتقال في الاتحاد السوفييتي الى عشر سنوات ولم يمض وقت طويل حتى برزت مشاكل النظام الجماعي في مزارع الصين من حيث الكيف في عدم كفاءة العمال ، ومن حيث الكم في ندرة وجود الايدي العاملة في الحقل ، وبدلاً من معالجة تلك المشاكل بوسائل ايجابية في قطاع التنمية الزراعية عرض تكريس كل القطاعات للقفزة الكبرى الصناعية .. فان ماو قد أصر بعناد على صبغ النظام الجماعي بصبغة عسكرية ، فجعله يواجه ازمة المزارع الجماعية عام ١٩٥٨ بانشاء الكوميونات ، وتجنيد الجميع بما فيهم النساء في الاقتصاد الجماعي . وقد قضت هذه الكوميونات على الحافز الفردي للفلاح الذي انتزعت منه حتى الارض الصغيرة التي كان يزرع بها الخضراوات ، كما قضت على البقية الباقية من الماشية فاضطرت النساء الى سحب المحاريث بالحبال كما شهدت ذلك بنفسي في كوميون « سوشيه » ، واجبرت الرجال على ان يزرعوا الارض دون تعويض .

ولقد سمعت في بداية شتاء ١٩٥٨ في موسكو ردوداً متشابهة على سؤالي عن رأيهم في كوميون ماوتسي تونغ : انه الغباء « المثالي » بعينه الذي كان يشير اليه ستالين .

وكنت أكثر منهم تحرراً حين كتبت قبل نهاية ذلك العام في مقال طويل

عن « الكوميون » متنبئاً بفشله ... وتساءلت : هل سيتحطم مـاوتسي تونغ على صخرة الكوميون ؟ وكان جوابي : نعم[1] !

واذا كان ماوتسي تونغ لم يختف من الميدان نهـائياً لانه الاله الاوحد الذي تعبده مئات الملايين من أبناء الجيل الجديد وهم يقرأون المعجزات التي حققها لهـم بطلهم الخرافي في نضاله الطويل من اجل تحرير ووحدة واشتراكية الصين.. فلقد تنحى عن رئاسة الجمهورية في عام ١٩٥٩ لزميله « ليوشاوشي » واستعـاد الحزب حوافز هامة ليعيد في النهاية – في ذات العام كل شيء الى اصحابه .. حتى رقع الارض التي كانت تزرع خضراوات ، وأصبح استخدام قاعات الطعام العامة أمراً اختيارياً ، وتخلت الدولة عن محاولة ادارة المزارع على اساس شبه عسكري .

ولم يكن من اليسير التراجع عن فكرة المجتمع الشيوعي السعيد ، القـائلة : من كل حسب طاقته ... لكل حسب حاجته لولا الادراك بأن نظـام الحكم في الصين ، أصبح مرهوناً بحل مشكلة الارض ومن عليها من الفلاحين .

واليوم .. وبعد تلك التجربة الاليمة ، لم يبق من القرى الجماعية سوى اسمها ، وتخلت الصين عن فكرة زراعة الحقول على نطاق واسع على ايدي جماهير كبيرة من الرجال والنساء والاطفال تعمل كجماعات عمالية كبرى تحت قيـادة مركزية ، وتنتقل من منطقة الى أخرى حسبما يتراءى لرؤساء الحزب المحليين .. وقد خسرت القرى الجماعية ملكية ما يسميه الشيوعيون باسم الاشياء الاربعة التالية وهي : الايدي العاملة ، والارض ، والدواب ، والادوات الزراعية . وبدلاً من ذلك فقد تقرر ان تنظم كل قرية في ريف الصين على صورة « فرقة انتـاجية صغيرة » تقوم بنفسها بتنظيم عملها ، وتدبير شؤون ادواتها ودوابهـا ، وتحصل بالفعل على نصيب اكبر من محصول زراعتها .

وستظل قاعات الطعـام المشتركة كما هي عليه لان معظم الفلاحين كانوا قد اضطروا في فترة « القفزة الكبرى » الى تقديم اوانيهم واوعيتهم الى القرى الجماعية،

---

١ - نشرت لي مجلة الاحد البيروتية سلسلة مقالات عن الصين في اواسط عام ١٩٥٩ .

ولم يعد لديهم الان ما يطهون فيه. وستظل القرى محتفظة بدور الحضانة بها ورياض الاطفال ، لان الحزب لا ينوي اعادة الامهات الى منازلهن لان عملهن في الحقول ما زال مطلوباً .

وكانت التعليمات تقضي – بعد فشل الكوميون بأن تقسم نسبة ٩٥٪ من جملة الايدي العاملة في الريف الى فرق صغيرة ، أما الخمسة بالمائة المتبقية من الايدي العاملة فيمكن استغلالها في الجمعيات والفرق الانتاجية الجماعية الكبيرة .

وتبين لهم ان قنوات الري والصرف التي حفرتها فرق العمل الجماعية أدت الى الاخلال بمستوى الحياة ، فضلاً عن ان حرث الارض بعمق متزايد دون النظر الى طبيعتها ، وكذلك بذرها بذراً كثيفاً قد أفسد مساحات شاسعة من الاراضي الزراعية ..

وتبين ايضاً ان قوى الفلاحين قد أنهكت بعد ان امضوا سنتين كاملتين في أعمال جماعية ، وضاقوا ذرعاً بالاخطاء التي وقع فيها المسؤولون المحليون في الحزب. ولم يكن هناك أي حافز على العمل في الاراضي ، نظراً لان الفلاحين كانوا معرضين دائماً لان ينقلوا للقيام بأعمال طارئة في جهات اخرى وبدون اجر ... فعمد الفلاحون الى ان يتركوا ادواتهم الزراعية لتصدأ بتعرضها للمطر او الى الاهمال في استعمالها مما يؤدي الى تحطيمها .

ودل تحقيق آخر في احدى المقاطعات بأن عملية بذر سبعة أفدنة بالارز قد تطلب عشرين يوماً .

وفي نهاية عام ١٩٦٠ أعلن شواين لاي قائلاً : « لقد تضاءل مفهوم الزحف العظيم في الوقت الحاضر ، فأصبح الزحف الى الامام ، وبدأ العمل باضعاف الكوميونات ، وأبلغ الفلاحون بأن في امكانهم ان يعملوا بالصورة التي كانوا يعملون بها قبل تأسيس الكوميونات – أي بالجمعيات التعاونية ، وقيل لهم : ان الحكومة لن تنتزعهم مرة أخرى من قراهم للعمل في فرق عمالية ما لم يكن ذلك برضى جمعياتهم التعاونية فانخفض التجميع في الكوميونات من ٦٥٪ الى ٣٠٪ وأصبح الاشتراك في الصالات العامة لتناول الغذاء اختيارياً . على ان الحزب

احتفظ بسلطته في تقرير المحصول الذي يجب ان تنتجه كل قرية من القرى، ويحدد وقت تسليمه ، ويقدر السعر الذي تدفعه الدولة .

واتخذت الحكومة بذات الوقت اجراءات ايجابية اخرى لمواجهة الموقف ، فاضطرت الى تخصيص مزيد من احتياطها من الذهب لشراء الحبوب من الاسواق العالمية ، وارتبطت فعلاً على شراء ستة ملايين طن من القمح من كندا واستراليا وفرنسا بمبلغ يصل الى ١٥٦ مليون جنيه استرليني لكي تسد النقص الملح للمواد الغذائية .

ويروي الصحفي السويسري « فرناند ليلون » الذي سمحت له حكومة الصين بدخول اراضيها والتقاط صور عديدة..

يروي هذا الصحفي قصة تؤيد رواية الجافين للواقع في الصين الشيوعية ، وتناقض تماماً دعاية بكين ، والقصص المتحمسة التي يرويها الزوار المتأثرون مثل فيلد مارشال مونتغومري . والحقيقة ان زعماء الصين انفسهم المعروفين بتفاخرهم يعترفون بوجود متاعب داخل الصين .. فلقد صرح ماوتسي تونغ للوزير الفرنسي السابق « فرانسوا ميتراند » انه علم ان صحفاً غربية بدأت تكتب عما يسمونه المجاعة في الصين ، وأصر ماوتسي تونغ على ان هذه ليست مجاعة وانما فترة تقل فيها الموارد .

كانت المجاعة في الصين احدى نتائج الحرب في أغلب الاحيان ، او بسبب حدوث كوارث طبيعية او بسبب الجهل في استغلال الارض ، وعلى العكس من ذلك نجد المجاعة الحالية في الصين هي احدى نتائج خطة عامة .

فهذه المجاعة تحدث لاول مرة منذ عشرات السنين مع انه لا توجد حرب في الصين ، وفي الوقت الذي يحارب فيه الفقر في كل مكان ، وفي ظل نظام وعد بوضع حد للتخلف والظلم الاجتماعي .. انها ترمز الى فشل أضخم تجربة اجتماعية شاملة قامت بها دولة واحدة ـ المحاولة الشيوعية لتحويل الصين بين عشية وضحاها من أفقر دولة في العالم الى اكبر دولة صناعية .

... وكان من الواضح لفترة من الوقت ان القفزة الكبرى كانت في الواقع

قفزة على الـكارثة ، ولكن الفشل بدأ يتضح الان فقط ، وبتعصبها للصناعة قضت الصين في الواقع على الزراعة – دون ان تصل الى أهدافها الصناعية ايضاً .

وكان الشيوعيون يفتخرون بانتصارهم على الفيضانـات والجفـاف ، ولكن في العام الماضي لم تسقط الامطار في وسط الصين لمدة ٢٠٠ يوم على التوالي . وفي شمال الصين جف النهر الاصفر تماماً لدرجة ان السيارة كانت تستطيـع السير في مجـراه ، ولكن في منشوريا أغرقت الانهار منـاجم الفحم ومصانع الصلب في « انشان » ولكن سوء الاحوال الجوية كان بعيداً كل البعد عن تفسير آلام الصين .

الكوميون الذي رأيته

- في الطريق الى الكوميون
- كوميون سوشيه
- من وحي الكوميون
- الكوميون يستفز السوفييت
- تضاؤل مفهوم الزحف

في الطريق الى الكوميون

*

كنت قد قرأت هذه الكلمات المنشورة إلى جانب هذا الكلام ، في الليلة التي سبقت زيارتنا لأحد الكوميونات التي أسستها الدولة ، واعتبرت تكوينها شعاراً من ثلاثة شعارات تمثل أهم ما في حياة الصين كلها ، وأطلق عليها اسم : « الرايات الحمر الثلاث » وهي :

١ - الخط العام (أي السياسة العامة التي يرسمها الحزب الشيوعي للشعب) .

٢ - القفزة العظيمة إلى الأمام ، وقد تحدثنا عنها في فصل سابق .

٣ - الكوميونات الشعبية .

والكوميون الذي أراده الحزب الشيوعي عبارة عن اتحاد ضخم يضم الجمعيات التعاونية وتكون له القدرة على تعبئة الناس لإنجاز مهمة واحدة ، على ان يكفل النظام الكوميوني كل حاجاتهم ومطالبهم المعيشية كلها ... وبعبارة

> **لا تقاتل في معركة لست مستعداً لها ، ولا حتى في معركة لا تضمن نتيجتها ، هذا هو شعار حزبنا اثناء الحروب الثورية الماضية، وهو صالح ايضاً للتطبيق على العمل من أجل بناء الاشتراكية ، واذا أردت ان تتأكد من نتائج المعركة يجب ان تكون هناك استعدادات كاملة ، وهناك خطوات كبيرة يجب ان تتخذ من قبل اذا كنت عازماً على تكوين مجموعة من الجمعيات التعاونية في احدى المقاطعات او الوحدات الادارية او الاقاليم .**
>
> ماوتسي تونغ

اخرى هو « وحـدة اجتماعية » تغطي منطقة جغرافيـة بأكملها ، وينظم آلاف الملاك داخل وحدة واحدة ، وتعتبر السيطرة على الطاقة البشرية كاملة ، وتخول الكوميون سلطة تعيين أي شخص بصرف النظر عن السن أو الجنس في أي وظيفة تعتبر هامة بالنسبة للجماعة الجماعية ، وتعتبر المطاعم المشتركة ومحلات الحياطة العامة وتربية الأطفال أعلى مراحل الحياة الاجتماعية .

ويعتبر الكوميون شيئاً أكثر من ان يكون مرحلة لتجميع الزراعـــة . فالكوميون عبارة عن تجميع سلسلة كاملة من حياة السكان الريفيـــين الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . انه لا يعني الزراعة وحدها ، فهو عبارة عن وحدةاساسية في التنظيم الاجتماعي لكي ينخفض او يتلاشى نشاط الاسرة الفردية . فالكوميون يستولي على الطعـام ويعنى بالاطفال وكذلك الحـــال بالنسبة للنشاط التعليمي والاقتصادي ، وفيما يتعلق بالملكية فان الكوميون يجعـــل من السهل التقدم من « الملكية عن طريق الجماعية » الى « الملكية عن طريق الشعب » وعندئذ تكون الاشتراكية قد دخلت عهد الشيوعية .

والكوميون خطوة كبيرة وهامة في توجيه المجتمع الشيوعى الصيني فهو يربط بين الزراعة والصناعة ، ويزيل الفروق بين العمال والفلاحين ، فالشؤون الزراعية والصناعية والتجارية والتعليمية والعسكرية قد وحدت جميعها ، ويعتـبر المواطن في نفس الوقت كفلاح وعامل وتاجر وطالب وجندي من اعضاء الميليشيا وعلاوة على ذلك فان لجان الكوميون الادارية سوف تستولي تدريجياً على مهام الحكومة المحلية ، وبالتدريج فلـــن يحتاج الى موظفي الحكومة المنفصلة ، وتقتصر مهام الحكومة على العلاقات الخارجية ، والحماية ضد العدو الخارجي .

ولقد وعد الحزب الشيوعىالصيني ، شعب الصين بالرخاء القريب ما دام يحمل: الراية الثالثة .

ولقد قرأنا في الصحافة الصينية ، والنشرات التي تطبعها الحكومة الكثير عن هذه الكوميونات ، وسمعت الى جانب ذلك ملاحظـــات عديدة حولها في بعض صالونات الدبلوماسيين وهم يحتشدون في العاصمة بكين بمناسبة الذكرى التـــاسعة

لتحرير الصين ، وكنت حريصاً على تنسيق معلوماتي ومشاهداتي وانطباعاتي واستنتاجاتي التي استخلصتها من ذلك كله لأعطى القارىء العربي صورة أوضح مما كتبت حتى الآن عن الكوميونات الشعبية الصينية - لاعتقادي بأنه سيترتب على نجاح او فشل هذه التجربة الانسانية أخطر وأعظم النتائج في سير المجتمع الانساني في المستقبل .

وكما ذكرت في فصل « الاصلاح الزراعي » فان الكوميون الشيوعي وليد الانتصار الذي حققه الاصلاح الزراعي ، فما ان استولى الحزب الشيوعي على الصين كلها في عام ١٩٤٩ حتى صودرت جميع ملكيات الارض وملحقاتها ووزعت على الفلاحين ، وما ان حل عام ١٩٥٦ حتى تعممت الجمعيات التعاونية الأولية ، فالتعاونيات العليا في جميع أنحاء الصين ، وأصبح الاقتصاد الزراعي اقتصاداً تعاونياً يضم ٩٦٪ من اسر الفلاحين في الصين وعددها ١٢٢ مليون اسرة تتألف من ٥٤٠ مليون فلاح ، يستثمرون ٤٥٢ مليون دونم عراقي .

لقد حفز هذا الانتصار ماوتسي تونغ على السير الى نهاية الشوط باتباعه سياسة « القفزة » لتحقيق حلم الشيوعية المنشود، فبدأ بتعميم الكوميونات تعميماً اساسياً في آب « اغسطس » ١٩٥٨ .

*

كوميون سوشيه :

وفي اليوم التاسع من شهر تشرين الأول « اكتوبر » ١٩٥٨ استقللنا القطار متجهين الى الجنوب ... ولاحظنا في طريقنا الى الكوميون ، ونحن راكبون القطار تارة ، والسيارة تارة اخرى ، ان الريف الصيني مزدحم بالسكان وان الجبال والسهول تكسوها الخضرة اليانعة ، والعمل يجري كما لو كان الناس في نفير الى الحرب . فالأفران البدائية التي تشبه كور الآجر الصغيرة (في العراق) أو تشبه أبراج الحمام (في مصر) .. وقد ابتكرها الصينيون لصهر الحديد الخام ، مقامة في كل مكان من أرض الصين ، ونارها ودخانها يملآن جو الصين طوال النهار وطوال

الليل ، ولقد نصبت حتى في الحدائق العامة ، وفي فناء أي بناء مقام[1] .

وشهدنا العمل في الحقول يجري وفق تصميم صارم ، وكذلك يقوم بالعمران، وتشييد المصانع ، وتنقل مادة خام الحديد والفحم بالسفن الشراعية التي تسير في القنوات الصناعية وفي الأنهار ، أو بالعربات التي تجرها الجياد ، أو العربات التي يسحبها الانسان ، وندر ان ترى على الطريق العامة سيارة حمل ، وأكثر ندرة ان ترى سيارة ركاب ، او ترى انساناً بلا عمل .

وبعد ساعتين ونصف الساعة في القطار وصلنا مدينة « بوتينك » عاصمة اقليم « هوبي » في طريقنا الى اتحاد جمعيات تعاونية كونت لها كوميوناً على مسافة ساعة من عاصمة الاقليم قطعناها بالسيارات على طريق ترابي ضيق تقوم على جانبيه حقول القطن ، وعندما قيل لنا إنكم قد دخلتم حدود الكوميون ، شاهدنا المئات من الشباب يخططون الأراضي ويقسمونها ، ولقد امتلأت الاراضي بشارات الرايات الثلاث الحمراء ، ورأينا الآخرين يعملون في بناء أفران الحديد البدائية ، وغيرهم يعمل بحفر الآبار ، او بمتح الماء منها بالدلاء او الضخ باليد ، او يشغل آلات الديزل المنصوبة على بعض الآبار .

ورأينا الفتيات وهن بعمر الورود وقد ربطن على اكتافهن الحبال ، يسحبن المحاريث تمهيداً لنثر البذور .

وكان أكثر هؤلاء وأولئك يستقبلوننا كما لو كنا معهم على موعد ، وهم اناس غاية في الطيبة والبساطة ، يبتسمون لنا حين نحييهم بعدة كلمات صينية قد تعلمناها ولم نحسن نطقها قط ... وعدم اتقان لفظ الكلمة باللغة الصينية يورط الانسان ، اذ يؤدي الى تغيير كلي في معناها ، فالكلمة تعني « شكراً » او تعني « لعنة » او تعني ماء او سماء لمجرد تحريف بسيط في لفظها او في النطق بها نطقاً اجنبياً .

وقفت بنا السيارات عند ندوة الكوميون وهي بناء من طين يجتمع بها اهل الكوميون لسماع الوعظ والارشاد وتلقى اوامر الحزب ، وهى عبارة عن صالة

---

١ ـ فشلت هذه التجربة فشلاً ذريعاً فأبطلت في عام ١٩٥٩ .

ريفية كبيرة في بنائها وفي مقاعدها الخشبية ، يتصدرها مسرح عال مبني من الطين ، وقد كسيت جدرانها بالشعارات الثورية الماركسية ، وبأشعار ونثر ماوتسى تونغ التي تحثهم على العمل ، والى الغناء في العمل من اجل سعادتهم الابدية .. الى جانب شعارات الحزب الشيوعي التي تطالبهم باليقظة ، ومقاومة المستعمرين ، والقضاء على الخونة اذناب الاستعمار والرجعية ، وتثير فيهم أقصى غرائز الانسان الوحشية ، بكل ما يملك من حقد وكراهية ضد الامريكيين ـ العدو الأول والاخير لشعب الصين الشعبية .

وشعارات الحزب الشيوعي هذه تملأ بصورها الكاريكاتورية الصين كلها ، مدنها وقراها وريفها ، فلا يجد الزائر حائطاً قائماً إلا ونقشت عليه صورة رمزية بالدهان الملون ، ولا عموداً ولا شجرة إلا وعليها نصيحة أو صورة تهين « العم سام » وتمتهن كرامته ، وتحقره وتمثله جباناً رعديداً فاراً من الجندي الصيني البطل ، ومن شعب الصين البطل .

واتخذنا مقاعدنا على كراسي خشبية ، وجيء لنا بكؤوس الشاي الأصفر التقليدي الذي يشربه الصينيون بدلاً من الماء .

واستمعنا إلى محاضرات طويلة تناوب على إلقائها ثلاثة أشخاص فيهم امرأة ، وكان أحدهم رئيس مجلس إدارة الكوميون . وكانوا وهم يتحدثون إلينا ، يتطلعون إلى رئيس مرافقينا السيد « يونغ » العضو المنتدب من الحزب الذي يرافقنا ...

وبدأ رئيس مجلس إدارة الكوميون بكلمات الترحيب التقليدية : « برسل الشعب العراقي البطل الذي قصم ظهور المستعمرين والرجعيين » وأخذ بعدها يشرح مهمته قائلاً :

« بقرار من مجلس إدارة ثلاثة أقضية « مراكز » في هذه المنطقة ألفنا اتحاداً فيدرالياً جمع ستة عشر كوميوناً في هذا القضاء ، ولقد انتخب أفراد الاتحاد مجلسه الاداري الذي يمثل في ذات الوقت الادارة الحكومية في المنطقة . وهناك مجلس اتحاد هذه الكوميونات الذي يؤلف مجلس الشعب للمنطقة .

كان كوميون سوشيه يضم ٣٣٠،٠٠٠ نسمة ، وهو الآن يضم ٧٧٠،٠٠٠

نسمة ، منهم ١١٠،٠٠٠ عـامل ، والباقون فلاحون . وتحت إدارتنا ٨٣٠،٠٠٠ مو [1] (٢٢١،٣٣٢ دونماً عراقياً – أي ١٢٤،٥٠٠ فداناً مصرياً) .

ولما كانت منطقة هذا الكوميون معرضة للجفاف بسبب قلة الأمطار ، فان سكان الكوميون قد هبوا في الشتاء الماضي فعملوا عملاً إضافياً متواصلاً لمدة مائة يوم ، فأسسوا نظام خزن المياه الذي سترونه ، وقد بلغ عدد الخزانات التي أسسناها ٢٨٨ خزاناً إلى جانب ٢٤٦٨ بئراً ارتوازياً تم حفرها ، ونصبت عليهـا مضخات مـن صنعنا لمتح المياه وإرواء الزرع ، وبهذا الإنجاز الكبير استطاع سكان الكوميون ان يضمنوا لأنفسهم موسماً زراعياً حسناً على الرغم مـن الجفاف ، فتخلصوا من تحكم الطبيعة فيهم .. ذلك التحكم الذي أذاقهم مر العذاب في الماضي عندما كانوا يضطرون في سني الجفاف على أكل النخالة والسحالة والأعشاب – ان وجدت .

لقد قفز إنتاجنا وتضاعف . ثم زاد على ما قدر له في المنهاج المقرر . لقد كان معدل إنتاج المو الواحد ١٠٠ كيلو فقفز إلى ٢٥٠ كيلو ، ثم إلى ٥٠٠ كيلو في الموسم الذي تلاه ، وإنتاج المو في هذا الموسم بلغ ٩٠٠ كيلو – أي ان حـاصل موسم واحد يعادل حاصل ٥ سنين فيما مضى . والهدف المتوخى هو إيصال إنتاج المو إلى ١٢٥٠ كيلو (أي ان إنتاج الفدان المصري ٨٣٣٣ كيلو) .

وبعد ان تمت إنجازات الإصلاح الزراعي في الكوميون بحماسة عظيمة ، بـدأ الكوميونيون ينشئون صناعـاتهم ، فأسسوا كما شهدتم في طريق مجيئكم ٧٠٠٠ فرن صغير لإذابة الحديد الخام الذي يجلب من الجبل المقابل لأرضنا ، وان معدل الإنتاج اليومي للصلب والحديد قد بلغ ١٠٠٠ طن في اليوم الواحد ... وكهدية للشعب في عيده الوطني أنتجنا في أول أوكتوبر « تشرين اول » ٣٠٠٠ طـن ، ويعمل أهل الكوميون بجد لإكمال بناء معمل لصنع المـاكينات ، وهناك تصميم

---

١ – يستبان من الارقام ان ما يصيب الفلاحين من أرض هذا الكوميون هو ٧٦٠ متراً مربعاً فقط لكل شخص .

لإنشاء صناعات أخرى للأسمدة والبكتيريا ، ومعمل نسيج يحتوي على ٥٠،٠٠٠ مغزل . وأنتجنا الأسمدة الكيمائية بطريقة أولية .

وأنشأنا علاوة على ذلك كله مدارس لجميع أطفال الكوميون،وبدىء بتأسيس جامعة لتضم الكليات المقامة وهي : دار المعلمين ، الهندسة المدنيـــة ، الهندسة الكهربائية ، تربية الحيوانات والزراعة ، الطب ، الآداب والفنون ، الكيمياء ، الصناعة . فضلاً عن سبع كليات قائمة لرفع المستوى الفني الزراعي .

ان بيوت السكن متوفرة لدى سكان الكوميون ، وكذلك الملابس والغذاء وسائر الحاجيات الضرورية ، وتوزع على المواطنين جميعاً مجاناً .

ولرفع المستوى السياسي لأهل الكوميون ، وتقريبه من الشيوعية ، والعمل على أساس جماهيري ، ولتحرير النساء والاستفادة منهن في العمل والانتاج ، فلقد قبلنا بنظام المطابخ الجماعية ، والحمامات العامـة ، ودور حضانة الأطفال ، ودور السعادة « للعجزة » ودور الخياطة ، ومطاحن الحبوب ، وحوانيت عـــامة . . فحصل الكوميون بهذه الإنجازات الرائعة على ٥٠٫٠٠٠ يد عاملة من النساء .

وإلى جانب حاجات الانسان الضرورية التي أمناهـا للمواطنين ، تأسست في الكوميون ندوات وسينمات وأوبرات ، وكلها مجانية أيضاً .

وخصصت للمواطنين مصروفات نثرية حدها الأعلى في الشهر « ين ونصف ين » « ٢٥ قرشاً مصرياً » لشراء الكماليات كالسجاير !

وختم محدثنا كلامه قائلاً : « وسترون أن أهل الكوميون هنا سائرون إلى الرخاء والسعادة يوماً بعد يوم بثقة تامة » .

وأجاب رئيس مجلس إدارة الكوميون على بعض الأسئلة التي وجهت إليه ، في حين أن رئيس الوفد المرافق لنا – وهو أحد أقطاب الحزب الشيوعي تولى بنفسه الرد على بعض الأسئلة كما لو كان أحد المسؤولين الصينيين ، وهذه هي الأجوبة :

– هناك بعض الفروق الطفيفة في مستوى حياة الناس في الكوميون، فالعامل الماهر مثلاً يمنح علاوة جيب « مصروفات نثرية » لا تزيد على ٢٥٠ مليماً في الشهر الواحد لشراء بعض الكماليات كالسجاير،ان مواطن الكوميون مهما كان مركزه

وعمله فانه يعمل من أجل المجموع مقابل أكله وملبسه [1] .

– لا تفريق في نوع وكمية الطعام الذي يقدم لمواطني الكوميون ، وهناك نصيب محدد لكل فرد لا يتعداه .

– مواطن الكوميون هو الذي يختار نوع عمله في البداية ، وبمرور الأيام يقرر المجلس صلاحية كل فرد في العمل الذي يصلح له .

– لا يجوز لمواطن الكوميون ان يكون عاطلًا ، ولم يحدث ان امتنع أحد عن العمل بغير سبب .

– الجميع أحرار في ترك الكوميون إلى الجهة التي يريدون ، على ان يتركوا كل شيء وراءهم ، ويسقط حقهم في ثروة الكوميون العامة التي هي ملك للكوميون .

– تباع جميع الحاصلات والإنتاج إلى الحكومة ، وتتراوح ضريبة الحكومة من الإنتاج ما بين ٧ – ١٢ ٪ ، فكلما زاد الإنتاج انخفضت نسبة الضريبة ، ولكل كوميون ميزانيته الخاصة به .

– تصرف ايرادات الكوميون للكوميون ذاته ، وبعد أن تتم الإنجازات التي يجري تحقيقها الآن وفق المنهاج المعد لها ، فالإيرادات عندئذ ستصرف لرفع مستوى حياة مواطنيه .

ولم يجب أحد على أسئلة أخرى ، انصبت على مدى التوفيق بين حياة أناس يعملون بعقولهم ، وآخرين يعملون بعضلاتهم ، وحاجة أولئك إلى مستوى معاشي ، وجو ملائم ينسجم وأعمالهم الفكرية مثل الأطباء والمهندسين والفنانين قد لا يحتاج إليه الآخرون وهم يعملون بأجسامهم كالعمال والفلاحين الذين لا يفكرون إلا بضمان ملجأ يأوون إليه ليناموا وليستعيدوا قدرتهم على العمل الجسماني في اليوم التالي ، فضلًا عن ان الحياة الجافة القاسية تحول دون الإنتاج والإبداع . وان

---

١ ـ انخفضت كمية المواد الغذائية للمواطن الصيني بسبب الجفاف المتواصل الى حد بلغ ١٥٠٠ وحدة حرارية في اليوم .

الانسان المثالي « السوبرمان » الذي ينكر ذاته ، وينصهر في خدمة المجموع ، ويقضي على أنانيته وذاته لم يخلق بعد . وان مطالب الحياة في القرن العشرين قد تشعبت وتنوعت ، ولا يسهل على المدرك الموهوب ، ولا على المرأة من ناحية تكوينها الجنسي الاستغناء عن تلك المطالب أو بعضها على الأقل .

وسألتهم أيضاً : لقد قيل لنا في بكين انكم قد بدأتم بالكوميون منذ شهرين فقط « اوكتوبر » تشرين اول ١٩٥٨ ، أي أنكم ما زلتم في دور الاعداد والتنظيم والتهيؤ ... فكيف تسنت لكم هذه الأرقام الانتاجية في الكوميون واستخلصتم منها نجاح التجربة [١] ؟

ولقد اعتذر مضيفونا عن الإجابة على هذه الأسئلة بضيق الوقت ، وبحجة ان أمامنا منهاجاً حافلاً .

*

وقبل ان ننهي زيارتنا للكوميون زرنا المجموعة التي كنا فيها ، فتفرجنا على حمام الكوميون المشترك – ولم يستكمل بعد ، وشاهدنا قاعات المطالعة ، ومعرضاً صغيراً للانتاج الزراعي وضعت في أحد أركانه نباتات الذرة وطول النبت اكثر من مترين . وذهبنا إلى « دار السعادة » حيث رأينا نحو عشرين شيخاً وعجوزاً متقاعدين يعيشون فيها عيشة هادئة بسيطة ، وكانوا يجيبون على أسئلتنا أجوبة قد حفظوها عن ظهر قلب ، أو أن المترجم قد أعدها سلفاً، وكذلك الحال

---

١ ـ أثارت اسئلتي واعتراضاتي على صحة ارقام الانتاج الزراعي اهتماماً خاصاً ببكين ، مما حدا بوزارة الاصلاح الزراعي الى دعوتنا بصفة مستعجلة قبيل مغادرتنا الصين ، فوجه وكيل الوزارة المساعد حديثه الي معتذراً عن مبالغة موظفي الكوميون بأرقام الانتاج التي اعطيت لنا .. وقد صحح تلك الارقام وخفضها الى النصف تقريباً. وكان ردي هو اني اقدر جيداً طاقة انتاج الارض العظمى لخبرتي في هذا الموضوع ، ولكنني ارجو ان توجه خطابك لبعض زملائي من اعضاء الوفد العراقي الذين اعترضوا بشدة على مناقشاتي لأهل الكوميون ، فهم اكثر حماسة ودفاعاً عن القيصر من قيصر نفسه ... فضحك الوزير المساعد ، ولم يخجل ذلك الفريق من العراقيين !

في روضة الأطفال الذين كانوا يلعبون بإحدى الحدائق ، وشاهدنا مدرسة ومكتبة ريفية مهنية من الطين .

وشاهدنا عرضاً عسكرياً لرجال ونساء المقاومة الشعبية أو الحرس الوطني ، وهم يؤلفون سرية من الرجال وأخرى من النساء ، يحملون بنادق قديمة الصنع ، وهتفوا خلال تمريناتهم العسكرية لثورة ١٤ تموز الخالدة .

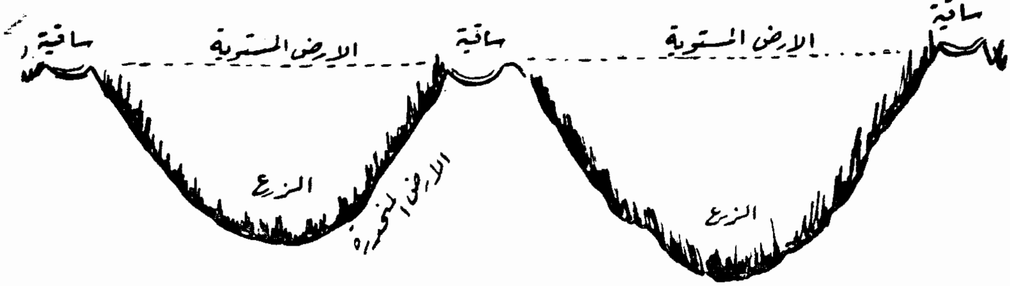
وبوصفي العسكري الوحيد في الوفد ، فلقد رددت التحية بمثلها، هاتفاً بتحرير جزر تايوان وماتسو وكيموي ، إذ لا بد من تبادل هاتين التحيتين لهم ولنا على حد سواء !

ثم زرنا طاحونة المجموعة وهي قديمة بالية نصف أوتوماتيكية، ثم شاهدنا بحيرة صناعية صغيرة لتربية السمك ، ومخزناً صغيراً للأقمشة القطنية .

ولفت نظرنا كثرة الزائرين الذين كانوا يتقاطرون على مركز مجموعة الكوميون،وهم اما أن يكونوا مثلنا ضيوفاً أجانب أو ضباطاً من مختلف صفوف الجيش، وقد وفدوا جماعات جماعات ، أو معلمين وطلبة جاؤوا لدرس وضع الكوميون .

ولم نشاهد بيوت السكن ولا المرافق العامة التي تحدثوا عنها لنؤمن بما آمنوا هم به بأن أهل الكوميون سائرون حقاً إلى الرخاء والسعادة يوماً بعد يوم بثقة تامة !

وقبل أن نغادر الكوميون ، انتقلنا إلى المزرعة النموذجية التابعة له ، فاطلعنا على الجهود التي تبذل لتطوير الزراعة وتحسين أساليبها ، فشاهدنا شجيرات القطن النموذجية، وإنتاج الخضار، وجيء برأس قرنبيط يزن أربعين كيلو غراماً وبرأس لهانة « كرمب » بلغ ارتفاعه مترين وقطره متراً ، وشاهدنا تجربة زرع القمح بالغرس العميق على أرض منحدرة متساوية الاضلاع تستصلح لكي تزرع ضعف مساحة الأرض المستوية ، مع تساوي مساحة قطعتي الأرض ، كما قيل لنا انهم قد استخدموا السماد الكثيف العميق الذي يمس جذور النباتات ، فأتى بنتائج مدهشة .



رسم مقطع : يبين تجربة زراعة الارض المنحدرة لغرض مضاعفة الانتاج

وكان المشرفون على المزرعة النموذجية للكوميون يذكرون لنا أرقام الإنتاج بلا حساب : ان « المو » — وهو الوحدة الزراعية عندهم ويساوي ٦٠٠ متر مربع ينتج ٣٦٦٥ كيلو غرام من الحنطة وهو رقم قياسي ضربته هذه المزرعة النموذجية ، كما وان إنتاج « المو » الواحد من القطن قد بلغ ٥٠٠ كيلو غرام ، ولقد قطفوا القطن عشر قطفات في الموسم ، وان حاصل المو من البطاطا بلغ ثلاثة أطنان .

وناقشت خبراء الزراعة في الكوميون عن الإنتاج ، وأبديت رأيي باستحالة الحصول على مثل هذه النتائج ، وعدم جدوى الزراعة على الأرض المنحدرة ، لأن الزرع في الأقسام العليا من الأرض لا يرتوي كاملاً ، وأشك أنه سيعطي النتيجة المرجوة منه ، فسكت الصينيون ، وثار بعض زملائي من الشيوعيين من أعضاء وفد الصداقة العراقي الشعبي ، مؤكدين صحة هذه الأرقام ، وصواب رأي الصينيين ، فالشيوعي مناضل شريف لا يكذب .

وكان ردي عليهم : ان الصينيين مغرمون بسياسة « القفزة » مؤمنون بها إيماناً مطلقاً ، ولذلك لا يرون بأساً من تطبيقها على أرقام الإنتاج أيضاً !

من وحي الكوميون

*

ورجعنا من زيارتنا لكوميون سوشيه إلى دار الضيافة متعبين ، وعدنا في ذات الليلة إلى بكين مستقلين القطار .. فانزويت بأحد أركان صالته الكبيرة الوثيرة ، مطلقاً لأفكاري العنان ، لأستعيد ذكريات هذه الزيارة ، وعدت إلى مفكرتي لأنقل منها ما دونت من خواطر في الليلة السابقة التي لم أنم فيها .

كان الجو حاراً مرطباً ، فتركت فراشي وفتحت نوافذ الغرفة متطلعاً إلى الطريق الذي كان يغمره الظلام إلا قليلاً ، فرأيت الناس يروحون ويغدون وقد استيقظوا قبل ان تستيقظ الطيور ... فالعربات تسير الهوينا سير سائقيها المسنين ، وراكبو الدراجات يسابقون الوقت ليصلوا إلى محلات عملهم ، والفتية ذكوراً وأناثاً يسيرون جماعات وهم يتضاحكون ، وما إن بلغت الساعة الخامسة حتى علت أصوات صافرات المعامل ، ودقت الأجراس ، وزاد نشاط الحركة فامتلأ الشارع بالغادين والرائحين ، وبدأت في الساعة السادسة أسراب البط في السماء متجهة نحو المحيط إلى الشرق ، وبدا الطريق واضحاً فرأيت عشرات العربات التي تجرها الدراجات الهوائية جراً ثقيلاً ، وعلا ضجيج وجلبة المعامل القريبة وقد انبعث منها الدخان الكثيف ، وزادت حركة اللوريات المحملة ، وسائقوها يسرفون في استعمال منبهاتها المزعجة بسبب ازدحام الناس .

ولقد كان لدي متسع من الوقت قبل ان يحل موعد جولتنا القادمة فألقيت بنفسي على الكرسي الكبير أستعيد ذكرياتي مذ وطئت قدمي أرض الصين ، وتذكرت بلادي ومواطني وأساليب الحياة التي نحياها هناك : حياة المترفين الذين يقضون أعمارهم بجمع المال الحلال والحرام ، ويسكنون قصوراً شامخة ويتمتعون بأوفر أسباب المعيشة ، ويسهرون الليل على موائد القمار أو يقضونه بمجون داعر . وحياة الكاسب والعامل والفلاح بقساوتها وجفافها وتفاهتها .

وانتقلت بفكري بعيداً الى ذكرياتي في أوروبا – وقد زرتها عدة مرات ،

حيث تحيا أكثرية الناس حياة كريمة مرفهة ، وفي مستوى عـال من المعيشة ، دون أن تخشى مخاوف المستقبل .

ثم قارنت بين حياتنا ، وحياة من يعيش في سويسرا وانكلترا والبلاد الاسكندنافية ، وبين أبناء شعب الصين ..

إن الناس جميعاً ينشدون هدفاً واحداً على وجه التحقيق .. إنهم يريدون للمجتمع الانساني ، أو على وجه التحديد لمجتمعاتهم ضمان حياة انسانية كريمة ، ضمان العيش والسكنى وتوفير الحضارة لمواطنيهم ، يريدون الكرامة الانسانية ، ويتوخون المزيد من المعرفة لاستغلالها في هذا السبيل أو ذاك ...

إنهم هناك في أوروبا قد قطعوا شوطاً بعيداً في تحقيق أهدافهم ، وإلى جانب ذلك أطلقوا لمواطنيهم حرية العمل ، واختيار ما يشاؤون من الحياة التي يريدون، وتركوا الناس يفكرون كما يريدون أن يفكروا..ويعبرون عن مشاعرهم الانسانية بالطريقة التي يرتضونها .

ورأيت شعب الصين ، ولقد كان متأخراً ، مستعبداً ، بينما كانت الخيرات تفيض بالأنهار فتدمر بدلاً من أن تسعد ، وكانت الثروات نهباً للغزاة ، وكان السلطان بأيدي من دُعوا أنهم وكلاء الآلهة على الارض فاستهانوا بحياة مئات الملايين من مواطنيهم وساموهم الهوان واستغلوهم أبشع استغلال .

ولما تبدلت الأوضاع ، كان لا بد من توجيه شعب الصين الوجهة التي تحقق له الحياة التي تحياها شعوب أخرى لم تعد بعيدة عنه ، فساروا سيرهم الذي اختطوه ، وعملوا في اثنتي عشرة سنة ما عملته شعوب أوروبا بنصف قرن .

نعم لقد وجه الشعب الصيني وجهة اعتصابية واحـدة ، فعمل بكل طاقته وقدرته على العمل وعلى التفكير لتحقيق إنجازات سريعة في مختلف مجالات الحياة ، فلم يعد إنسان يموت جوعاً ، أو يهدد بوباء كاسح أو لا يجد سقفاً يقيه قسوة الطبيعة، أو لا يجد ملبساً يحفظ له جسمه، او لا يتوفر له عمل ليديم به هذه الحياة.

ولم يعد شعب الصين يخشى غزواً خارجياً يسلب منه أرضه ، ومـا عليها من خيرات ، وان فعلت ذلك دولة حمقاء بسياسة خرقـاء فانها ستدمر وستضيع في

أرجاء عشرة ملايين كيلو متر مربع ، وستتلاشى قواتها بين السبعمائة مليون انسان كما حدث لليابانيين فيما مضى ...

أجل هذه هي الصين اليوم ، وهذا هو شعبها ... ولكن : هل تشعر هذه الملايين جميعاً بالسعادة التي يتوخاها أي انسان ؟ هل هي راضية الرضى العميق بما يرسم لها من معالم الحياة ؟ وأخيراً فهل سياسة القفزة في تطوير شعب الصين وتحويله الى آخر مراحل الشيوعية على نحو ما رأيت في سوشيه هي سياسة حكيمة — اذا كان قد أريد بها الجد ؟

لا شك في أن كل فرد من شعب الصين يفكر في اكثر النواحي التي افكر انا بها ، ويفكر بها غيري .. فالفكر الانساني قاسم مشترك أعظم بين أي مجموعة من البشر الذين هم على هذه الارض .

ففي منطق الجدل لو خيرت بين أن أعيش عيشتي التي أحياها في بلادي ،وبين المعيشة التي يحياها الصيني ، لفضلت العيش بظل النظام السائد في بلادي « لا باعتباري من أبناء الطبقة الوسطى الذين لديهم شيء من الثقافة » ولكن باعتباري مواطناً عراقياً — أيَّ مواطن على ما أعتقد .

والسبب بسيط : هو شعوري بأني قبل كل شيء انسان ولست آلة ، أفكر لا لاحترق بما أفكر به، بل لأساهم بهذا التفكير في بناء المجتمع الذي يضمن لي الحياة الانسانية الكريمة التي تميزني عن الآلة التي تدور ولا تدري لم تدور ، أو تدري ولكنها قد تكون غير راضية عنه أو غير قادرة على تغييره .

نعم ، قد أعمل في اليوم ثماني ساعات أو عشر كما أعمل مثلها في الصين ، على أني أفضل أن أعمل ما يلائمني ومن دون رقيب ، وأن أعمل دون ضجيج الطبول التي فرض أنها تشجعني على العمل ، ودون أن أسمع صوت مكبرات الصوت تدق بأعصابي ثماني ساعات بكلام قد لا يرتضيه ضميري أو تفكيري . ثم أذهب الى كوخي أو بيتي لأريح جسمي من عناء العمل ولأمتع نفسي بالهواية التي أختار فأسمع من الموسيقى ما يرتضيه ذوقي ، وأقرأ ما يميل إليه فكري ، وأشاهد ما يريح أعصابي وترتضيه نفسي .

ولكنني في الصين قد لا أرغب في مشاهدة الفلم الحماسي او العقائدي المفروض علي ، وقد لا أرغب المساهمة بظاهرة جماهيرية ، أو أقرأ ما يجب ألا تتخطى عيني غير ما يريده غـــيري ، أو إني أكره ذلك العمل الذي أوكل إلي به بدون إرادة مني .

وقد أفضل حبساً انفرادياً على إكراهي على سماع موسيقى وغناء لا يستسيغهما ذوقي ، أو يستسيغهما ذوقي ولكن ليس في ذلك الوقت الذي أريد أن أنام فيه أو أن أطلق لنفسي عنان تفكيرها أو همودها .

ومهما يكن من أمر هذا الاختيار أو ذلك الاجبار ، فـــاني أؤمن بقرارة ضميري أن في إمكان الناس جميعاً أن يحيوا الحياة التي يرتضونهـــا لانفسهم ، وفي المستوى اللائق ببني البشر دونما حاجة الى اغتصاب حق الآخرين وحريتهم ، أو سلب خيراتهم عن طريق الحروب المدمرة ، أو عن طريـــق الغزو السلمي ، أو من أجل أجيال قادمة لم تخلق – ذلك أن حق الجيل القائم في الحياة يجب ألا يكون أقل من حق جيل لم يخلق بعد .

قد يجانبني الصواب اذا ادعيت بأني سبرت غور الفرد الصيني لأحـــكم على مدى رضاه بما يرسم له من معالم الحياة ، ولكنه يبدو للعيان راضيــاً بضمان الدولة عيشه وسكنه وملبسه. ان المستوى المعاشي لأكثرية شعب الصين المطلقة منخفض جداً، والسعيد من أبناء الشعب من يضمن له ولعـــائلته القوت الذي يرد عنه غائلة الموت جوعاً ، هذا الى جانب قسوة الطبيعة من جراء الجفاف المتواصل أو سوء المحاصيل العامة ، بالاضافة الى الزيادة المتواصلة في عدد السكان بمعدل قرابــة عشرين مليون نسمة في السنة الواحدة ..

ولذلك فان فكرة الكوميون تجدمن عامة الناس من الاتكاليين من يؤازرها ويعمل على بقائها ، إلا أن أكثرية الناس لم تقتنع بها الاقتناع الكافي ، لا بل ولم تؤمن بجدية سياسة القفزة التي طفرت بها حكومــة الصين لتحويل شعبهـــا الى آخر مراحل الشيوعية على نحو ما رأيت في كوميون سوشيه .

والصين ما زالت تعمل جهدها لتوطيد أركان الاشتراكية في بلادها .. لا بل

وأمامها مرحلة ليست قصيرة يجب عليها أن تجتازها قبل ان تصفي البورجوازية وتقضي على معالمها الكثيرة في شتى أرجاء الصين الكبيرة .

إن فكرة خلق الكوميون قد جاءت بوحي ورغبة ماوتسي تونغ الشخصية ، وانه بوصفه القائد الرائد المبدع المحرر لشعب الصين قد فرض الفكرة على زملائه فأقرها الحزب ، وقد يكون الحزب قد أقرهـا على مضض منه ، شأن أسلوب الحكم في البلاد الاشتراكية الاخرى .

واذا صح هذا الرأي أو هذا الاستنتاج نتساءل : ما هي يا ترى العوامل الأساسية التي دفعت ماو الى هذه القفزة الخطيرة ولمّا يمض على اشتراكية بلاده المتأخرة « بالنسبة للاتحاد السوفييتي » اثنتا عشرة سنة ؟ إن ماو قد تشبع بدراسة الماركسية واللينينية – لا بل إنه أحد روادها في القرن العشرين ، ولقد قطع شوطاً بعيداً ببلاده في طريق الاشتراكية التي سار عليها ، ولقد أصابه الغرور من جراء الانجازات العظيمة التي حققها لبلاده ، فخلق منه الحزب الشيوعي الصيني « إلهاً صغيراً » للصين تعبده جماهير الشعب ، ويعبده على الأخص – الجيل الصاعد بوصفه رمز التحرر والبطولة ، فتبنّى فكرة تحقيق المجتمع الشيوعي المثل للكوميون وأصر عليها بدافع من الطموح الشخصي ليخلد اسمه في التاريخ كأول زعيم أمة يبلغ تعدادها خمس سكان الأرض ، قد حقق المجتمع الشيوعي في العالم ، متحدياً بذلك اشتراكية الاتحاد السوفييتي ، منتزعاً منه المبادأة لقيادة العالم الشيوعي المنتظر .

وقد استفز « ماو » بعمله هذا – لا زعماء الاتحاد السوفييتي وحزبهم فقط ، بل والسكان السوفييت أنفسهم الذين قطعوا شوطاً موفقاً في اشتراكيتهم التي نبتت فيها جرثومة بورجوازية ، تمتعت فيها الطبقة الحاكمة المثقفة ، والعمال المهرة ، وذوو المهن العالية ، وغيرهم من الطبقات – بامتيازات تتناسب ومواهبهم الانتاجية والعقلية ، ومزاياهم العلمية التي يتفوقون بها على السواد من مواطنيهم العاملين بعضلاتهم .

ورأيت في موسكو ان سائق التاكسي يأخذ ما معدله ستة عشر جنيهاً في

الشهر ليعيش بها عيشة غير هانئة ، ورأيت آخرين يتقاضون ما معدله خمسون جنيهاً شهرياً ، ولديهم شقق للسكن مقبولة ، وهنـاك الآلاف ، لا بل مئـات الالوف يتقاضون شهرياً ضعف هذه المخصصات ، وأضعافهـا ، ويسكنون شققاً فاخرة أو فيلات جميـلة ، ولديهم سيارات خـاصة ، ويتمتعون بالحيـاة بأعلى مستوياتهـا المقبولة المحترمة .

ولقد شق على هؤلاء التضحية بكل هذه الامتيازات ، فبدت معارضة الروس لفكرة الكوميون عنيفة ، وسمعت الكثيرين في موسكو ينتقدون خطوةماوتسي تونغ التي أسماها بعضهم بأنها خطوة جنونية ..

وذهب خروشوف الى بكين في ايلول «سبتمبر» ١٩٥٨ ليقنع الزعماء الصينيين بالتريث وعدم الاقدام على تأسيس الكوميونات ، وقيل إن فريقـاً كبـيراً من زعماء الصين الشعبيـة قد اقتنعوا برأي خروشوف ، وعلى رأس هؤلاء المـاريشال « بينغ تهوا » وهو الذي كان يشغـل منصب وزير الدفـاع ، وقاد المتطوعـين في الحرب الكورية ، والجنرال « هوانغ كه شنغ » ، و « تنغ شوهوي » الخبـير الزراعي القيادي في الحزب ، و « شانغ وين تيني » السفير السابق في موسكو .

وظهر الخـلاف في الرأي في اجتماع المكتب السياسي للحزب في « لوشان » الذي عقد في آب«أغسطس» سنـة ١٩٥٩ وكانت المشكلة هي : هل تتعاون القيادة الشيوعية الصينية مع الاتحاد السوفييتي أم لا؟ وهل يتضمن قبول النصيحة الروسية فيما يتعلق بالكوميون ؟

على أن ماوتسي تونغ، والمتعصبين وعلى رأسهم « ليوشاوشي » (الذي انتخب فيما بعد رئيساً للجمهورية خلفاً لماو) و « تنغ هسيو بنغ » السكرتير العام للحزب قد أصروا على آرائهم قائلين » :

« إما أن نمضي في الكوميونات بشدة ، وإما ألا نعترف علناً بأن التراجع عن هذا النظام يعتبر تغييراً في السياسة .

والفريق القليل من القادة الذين عـارضوا سياسة القفـزة العظمى وعلى رأسهم «بينغ» الذين كانوا يؤيدون التطور الاقتصادي والتنمية على غرار الاتحادالسوفييتي ،

والذين تساءلوا عن صحة سياسة الكوميون منذ البداية ، فلقد اتهموا بانحرافهم بوصفهم انتهازيين يمينيين ، وأقصوا عن الحياة العامة ، وأرسل « بينغ » الى مصح ناءٍ لغسل عقله من رواسب الرجعية العالقة به - لانه كان أشجع من زملائه فقدم بوصفه عضواً في مكتب الحزب مذكرة الى مجلس الشعب ، هاجم فيها بطريقة غير مباشرة السياسة التي يتبعها ماوتسي تونغ برمتها ، وركز هجومه على برنامج القفزة العظمى ، وخاصة فيما يتعلق بتأسيس الكوميون . وكان بينغ قد عرض مذكرته على خروشوف وأخذ موافقته عليها خلال اجتماعه به في تيرانا قبل أن يقدم مذكرته الى الشعب الصيني .

وتغلب رأي ماو وانصاره بفضل الدعاية المخططة بكل عناية من الحزب الشيوعي الصيني الذي يضم أكثر من ٢٥ مليون عضو . اذ ان ماو ظل محتفظاً بزعامته للحزب على الرغم من عدم تجديد انتخابه لرئاسة الجمهورية بعد أربعة أشهر من ذلك الحادث .

واني شخصياً قد تنبأت بعدم انتخاب ماو لرئاسة الجمهورية بسبب إصراره على الكوميون في مقال كتبته بعد عودتي من الصين مباشرة .

ولقد استغل ماو مركزه في الحزب ، وتاريخه المجيد في حرب التحرير ، فاستمر يعمل على نشر الكوميونات في جميع انحاء الصين دون ان يجرأ أحد من زعماء الصين الحاكمين على الوقوف بوجهه بعد ما حدث لبينغ .. وهذا هو شأن القادة الاعتصابيين في كل زمان ومكان يقدمون أجلّ الخدمات لأمتهم، ويسيرون بها الى المجد .. ثم يدفع بهم الطموح والغرور الى المزالق . ان غلطة سوقية « استراتيجية » واحدة تطوح بكل ما شيدوا وبنوا ، وعلى المجتمع ... على الأمة كلها ان تدفع ثمن تلك الغلطة ، أو الحمق الذي ارتكبه ذلك القائد المغرور !

الكوميون يستفز السوفييت

*

وما من شك في ان هناك أوجهاً عديدة مختلفة وغير مشابهة لكلتا الثورتين

الروسية والصينية ، فلا التاريخ ، ولا طبيعة واسلوب الكفاح ، ولا الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية ، ولا مستوى الثقافة تتشابه أو تستوي لدى كلا شعبي الاتحاد السوفييتي والصيني اللذين ينشدان هدفاً واحداً مشتركاً .

انه ليس من الطبيعي ان تبقى مظاهر النظام الديموقراطي الغربي .. ومظاهر الرأسمالية قائمة في الصين (على نحو ما جاء في فصول أخرى من هذا الكتاب) .. ثم تخطو الصين خطوتها النهائية بتحويل مجتمعها الاشتراكي فتحققها عن طريق (القفزة) التي اعتادتها في نهضتها .. ولا يثير هذا وذاك ثائرة القادة السوفييت أو نقدهم على الأقل .

إن الاتحادالسوفييتي الذي قطع بنجاح تام خلال أربعين‌سنة مرحلة الاشتراكية لم يفكر بعد في تطبيق نظام المجتمع الشيوعي في بلاده ، قبل عام ١٩٧٥ لأسباب لا بد وأن تكون جوهرية .

ولا أعتقد أن الزعماء السوفييت يرتضون لربيبتهم الصين خطوة كهذه الخطوة، خاصة وان المجتمع الاشتراكي يؤلف وحدة متماسكة لا في سياسته العامة وحسب، وإنما في أساليب تطبيق نظامه الواحد أيضاً [١] .

وأخيراً ، فان أمراً واحداً لم أجد له تفسيراً ألا وهو : لماذا تناسى ماوتسي تونغ وصيته التي وضعتها بإطار الى جانب عنوان هذا الفصل ، ويقول لشعبه في مطلعها : « لا تقاتل في معركة لست مستعداً لها ، ولا حتى في معركة لا تضمن نتيجتها .. »

ثم ، ما هي يا ترى النتائج التي ستترتب على فشل الكوميون — اذا ما قدر له أن يفشل ، ألم يدخل ماو في حسبانه هذا الاحتمال المتوقع ؟

---

١ ـ كتب هذا الفصل قبل تطور الاحداث التي انتهت اليوم بنزاع عنيف بين الصين والسوفييت على نحو ما ذكرت في فصل (السياسة الخارجية) .

تضاءل مفهوم الزحف

*

عندما حل موسم عام ١٩٥٩ كان الشعب الصيني يعاني أزمة حادة بسبب نقص المواد الغذائية ، مما اضطر الدولة الى التنازل عن الادعاءات الرسمية لاحصاءات عام ١٩٥٨ ، وصحب التنازل أيضاً تخفيض عام في احصاءات خطة عام ١٩٥٩ فخفضت الزيادة التي كان من المقرر تحقيقها في انتاج المواد الغذائية من ٤٠٪ الى ١٠٪ وفي القطن من ٥٠٪ الى ١٠٪ .

وأعلن شواين لاي رئيس الوزراء قائلاً : لقد تضاءل مفهوم «الزحف العظيم» في الوقت الحاضر ، فأصبح الزحف الى الامام ، وذكر ان الفيضان والجدب أصابا مساحات كبيرة من الدولة في ربيع وصيف عام ١٩٥٩ .

ومن أجل التغلب على الجوع ، وعلى التذمر أيضاً اعلن الحزب في عام ١٩٥٩ بارجاع ٥٪ من الاراضي الصالحة للزراعة والمخصصة للكوميونات الى الافراد المزارعين ليزرعوها كيفما شاءوا ، وأن يأكلوا من حاصلها ما يحتاجون اليه ، ويبيعوا من الباقي بأفضل سعر ممكن .

وبرزت بعد ذلك عدة أسواق حرة يقوم فيها التجار المشتغلون ببيع المواد الغذائية لمصلحتهم الخاصة .

وأعيد تنظيم الكوميونات الزراعية الكبيرة التي قامت على أساس التجميع الكبير بطريقة مخالفة لذلك تماماً ، فأصبحت الوحدة في هذه المزارع تشتمل على ٢٠ رجل وامرأة .

وشعر المسؤولون بأن مفخرة « القضاء على الآفات الاربع » وكانت احداها إبادة جميع أنواع الطيور الضارة بالانتاج ، إذ تأيد لديهم زيادة ديدان الارض الضارة بصورة كلفت الصين زيادة في الخسائر أحاقت بالمحاصيل ونقصانها أكبر من ما كان يتصور ان تسبب الطيور أكلة الديدان بها ، فضلاً عن إصابة الخضروات والفواكه التي أفسدتها الحشرات .

وسادت في الريف الصيني حالة ذهنية تختلف عن أيام « القفزة الكبرى» فالناس مكتئبون فاترو الهمة .

وقال كاتب سويسري: كانت الثورة الصينية منذ خمس سنوات شامخة، وتسير قدماً الى الامام ، أما في خريف ١٩٦١ فكانت معقدة خـــامدة .. ان مشكلة كفاية المواد الغذائية لاطعام سبعمائة مليون مشكلة هائلة ضخمة ، وهي لن تسمح للصين أن تتصنع لحد كبير . وأضاف هذا الكاتب قـائلًا : لقـد سمحوا فيما يتعلق بالكوميونات بالنكوص خطوة واحدة الى الوراء ، وقـد يأمرون غداً بالقيـام بخطوتين الى الامام . واليوم يسمحون برجوع المشاريـع الفردية ، وقـد يصفون غداً كل الاسواق .. فالحكم اليوم في الصين أقوى مما كان عليه في أي زمن مضى. ان انهيار اقتصاد البلاد نتيجة لفشل الخطط التي رسمها الحـزب الشيوعي الصيني لا يعني تمزيق وحدة الصين تحت حكمهم فسيطرة الحزب حقيقة واقعة ومؤثرة .

وكتب آخر نقلًا عن صحيفة صينية يقول : « ... ونتيجة للمعارضة الداخلية ورغبة الشيوعيين في إزالة جميـع الخلافات الايديولوجية القـائمة بين الصين والاتحـاد السوفييتي أخذت الصين تحد من آمالها، وتتبـع سياسة للتطور اكثر بطئاً، ففي كانون اول «ديسمبر» عام ١٩٥٨ كان الحزب قد اتخذ موقفاً رسمياً وهو أن تطوير الكوميونات يجب أن يفسر على أنه انتقال من الاشتراكية الى الشيوعية ، وليس كالاتجـــاه الفعلي للشيوعية ، وان التقدم من الملكية الجماعية الاشتراكية الى ملكيـة الشعب بأسره لا يعني بالضرورة الوصول الى عصر تسود فيه الشيوعيـة ، وبذلك أصبحت آراء الحزب الشيوعي الصيني فيما يتعلق بالاشتراكية والشيوعية هي بذاتهـــا تلك الآراء التي عبر عنها خروشوف في المؤتمر الاقتصادي الحـــادي والعشرين للحزب الشيوعي في كانون الثاني – شباط يناير – فبراير عام ١٩٥٩[١] .

---

١ ـ من كتاب: » Joseph S. Roucek « Contemporary Political Idiologies

والواقع ان الطبقة الصينية الحاكمة نفسها التي حاولت بكل الوسائل السير بالكوميون لكي يعم المجتمع الصيني كله ، قد استثنيت من مشاركة مواطنيها الكوميونيين حياتهم الجماعية المشتركة .

فالزي الموحد إن هو إلا مظهر خارجي أمام الناس ، فالوزير والقائد والحاكم يرتدون جميعاً أفخر أنواع الأقمشة الصوفية الانكليزية، في حين أن سواد الناس يرتدون قماشاً قطنياً لا يقيهم برد الشتاء القارص .

والطبقة الحاكمة تعيش في قصور الأباطرة والنبلاء والاقطاعيين البائدين ، أو يعيشون في بيوت مستقلة في الوقت الذي يعيش كل عشرة او اثني عشر عامل أو عاملة في غرفة واحدة كما شهدت ذلك بعيني .

والفرق في دخول الافراد بين، والامتيازات الترفيهية في شتى نواحي واضح الحياة الخاصة والعامة بارزة وظاهرة لكل ذي عينين .

ان هذه الحقيقة لا تقتصر على الصين الاشتراكية وحدها إنما رأيتها في كل بلد اشتراكي زرته أو أقمت فيه .

مشاريع الري والكهربة والمواصلات في التخطيط الزراعي

زيارة لخزان كوانتنغ

مشاريع الري والكهربة والمواصلات في التخطيط الزراعي

*

يقول ماوتسي تونغ : « حفظ مياه الأنهار الصينية هو خط الحيـــاة بالنسبة للزراعة في الصين » .

وكما ان بناء الاقتصاد الوطني لايمكن له أن يقوم في الصين دون بناء الاقتصاد الزراعي، فان خطط التنمية في القطاع الزراعي لا يكتب لها النجاح أو الاضطراد ما لم يسيطر على مياه الانهار ، وما لم تعالج مشاكل الجفاف بسبب قلة الامطار في المناطق الزراعية التي تعتمد على المطر .

وتاريخ الصين المكتوب يذكر أن ١٥٠٠ كارثة فيضان ومجاعة جماعية بسبب الجفاف والقحط قد حلت بشعب الصين ، فأبادت مئات الملايـــين من السكان ، وسببت للشعب كوارث ومحناً ظلت حديث المجتمع البشري عبر العصور ، وان معدل حدوث الفيضانات مرة واحدة في كل عشر سنوات .

ولفلاحي الصين مثل كئيب يقول : « مطر غزير وفيضان غمر شديـد . مطر قليل وإغراق صغير . لا مطر وجفاف . »

ولكي نصور معنى كوارث الفيضان والجفاف في الصين نذكر بعض الامثلة : منهـــا نهر « اليانغتسي» الذي يخترق قلب الصين من الغرب الى الشرق ، والذي يحمل الطمى من منابعه في التبت ومن هضاب « سيوشوان » وتعمل الرواسب على رفع مجراه وتسد مصبه .. فإن فيضاناً واحداً — من مئات فيضاناته — قد دمر في

سنة ١٩٣١ معظم مدينة « ووهان » الصناعية التي غمرتها المياه . وبقي مدة اربعة أشهر متران من المياه في الشوارع ، وشلت الصناعة، وبلغ عدد ضحايا هذا الفيضان ٨٠٠ ألف نسمة،منهم نصف مليون فقدوا مساكنهم.وفي سنة ١٩٥٤ كان الناس على ضفتي هذا النهر يرون السفن تسير فوق مستوى رؤوسهم، فجندت الحكومة ٧٠٠ ألف مواطن لمكافحة خطر فيضانه لمدة مائة يوم . وقد ساهمت الصين كلها في العمل ، فسيق مليون عربة نقل وحشدت جميع وسائل الانقاذ بما فيهم الاطباء لمكافحة الأوبئة التي انتشرت عقب الفيضان الذي غمر مساحات تزيد على مئة كيلومتر عرضاً ، وامتد مئات الكيلو مترات طولاً فأغرق مدينة « هانكاو » ودمر ٥١ مليون « مو » من الاراضي المزروعة ، ولم تنحسر مياه ذلك الفيضان الى مجاريها إلا بعد سنة ، بعد أن أباد الحرث والنسل ، والنهر الاصفر « نهر وانغ هو » الذي يحاذي اليانغتسي من الشمال، فإن طوله يبلغ ٤٨٤٥ كيلومتر، وكثافة ما يحويه من الطمى أكثر منه في أي نهر في العالم ، ويقول المثل الصيني عنه :

« لو انك انغمرت مرة واحدة بمياهه فلن تستطيع أن تزيل الطين اللاحق بجسمك أبداً » .

ويقولون : وبالطمى الذي يحمله في عام يمكن بناء طريق عرضه عشرة أقدام يطوف مرتين وثلث المرة حول الارض عند خط الاستواء .

وبتراكم هذه الرواسب في المجرى الأدنى للنهر ، فإن مجراه تغير ستاً وعشرين مرة لمسافة تتراوح بين ٣٠٠ و ٤٠٠ كيلومتر ، والعجيب في أمر هذا النهر أنه مثلما سبب ١٥٠٠ كارثة فيضان في تاريخه الطويل ، فإنه سبب مئات المجاعات لسكان واديه بسبب جفافه حين لا تسقط الامطار في بعض السنين في أعاليه، حيث تستطيع السيارة عبور واديه والسير في مجراه .

أما في شمال الصين فإن الأمطار كثيراً ما أغرقت المدن ، وعطلت المصانع التي تتركز معظمها في هذه المنطقة فضلاً عن تدميرها ملايين الأفدنة المزروعة .. وكثيراً ما احتبس المطر الذي تعتمد الأقاليم الوسطى في زراعتها عليه لمدة مائتي يوم على التوالي فقضى على الزراعة فيها .

ولا يكاد المرء يصدق وهو يستمع الى الأرقام التي تصور حقيقة المجاعات والمحن التي تصيب هـذا الشعب الطيب مرة في كل بضع سنوات . وعلى سبيل المثـال .. ففي عام ١٩٥٤ قضت الفيضـانات وكوارث الطبيعـة على ٦٠ مليون هكتار من الاراضي الزراعيـــة – « ١٥٠ مليون فـدان مصري » أي على نصف الأراضي المزروعة في الصين ، وبتعبير آخر فانها قضت على مـا يقابل زراعة العراق بـأجمعه لعشرين سنة . وكان لا بد للدولة في الصين من إطعام ٦٠ مليون نسمة لفصل كامل من فصول السنة الزراعية ، فاضطرت الحكومة إلى وضع عشرة ملايـين طن من الحبوب كي تسد جزءاً من النقص في المواد الغذائية للشعب ، وكلفتها هذه العملية الباهظة ٣٠٠ مليون باون (جنيه) استرليني – بالعملات الصعبة .. بالاضافـة إلى مئات وألوف الملايين من اليانات الصينية لأعمال الري ... والمكافحة ... وإعادة بناء ما خربته الفيضانات من المساكن والمصانع والجسور وخطوط المواصلات .

إن هذه الصور العابرة ترشدنا في الواقع الى إدراك المعاني لمسؤوليات الحاكمين في الصين .. وإلى تقدير إنجازاتهم الرائعة تحت ضغط هذه الظروف التي تتجـــاوز مقدور البشر ... لا بل وتكشف الدواعي والاسباب التي حملت الشعب الصيني – أو غالبيته على تقبل أنظمة حياته الجديدة التي تتعارض ونظرته الى الحياة، فضلاً عن تمزيقها لخصائصه التي خلفها له تراثه العريق وتاريخه المغلق .

لقد أنجزت الحكومة في السنوات التسع السابقـة لتعميم الكوميونات (عـام ١٩٥٨) إنشاء ٧١٧ مشروعاً بين ١٠ ملايين مـتر مكعب و١٠٠ مليون مـــتر مكعب. وقد تم إنشاء١٠٧٨ خزاناً في عام واحد بعد تعميم نظام الكوميونات في بلاد الصين الشعبية، وقد لعبت كل هذه المشاريـع دوراً هاماً في مكافحة كوارث الطبيعة في سنتي ١٩٥٩ و١٩٦٠ ، وأمكن بفضلها تخفيف حـدة هذه الكوارث ، فأنقذت زراعة نحو ٢٦ مليون هكتار .

وقد تمت السيطرة على نهر « هواي » في شمال بكين ، فبنيت منذ عام ١٩٥٠ خمس خزانات وأنشئت سبع عشرة بحيرة صناعية لحجز المياه ، وحفر أكثر من ٢٥٠٠ ميل من القنوات – وتقوم قناة كبيرة بري الوادي وتصريف الميـــاه إلى

البحر ، ويعيش اليوم عشرة ملايين من فلاحي الوادي بأمان من كوارث الفيضان

وهناك مشاريع لترويض النهر الاصفر ، اعتمد مشروع السنوات الخمس اللاحق والحاضر مبالغ طائلة لاستغلال وتنظيم مياهه لأغراض متعددة كإقامة ٤٦ سداً مدرجة من أول النهر إلى آخره ، فتزرع أراضي الغرين الجافة الجرداء بغابات ومراع لحجز الطمى ، وتستخدم مياه المجرى الأعلى في إنتاج الطاقة الكهربائية ، وتحفر قنوات توزع مياه المجرى الاوسط عبر السهل كله ، وينظم المجرى الاصلي طبقاً لحاجات الملاحة .

وقدر الخبراء أنه بحلول عام ١٩٦٧ سيتم بناء القناطر لمنع الفيضان ، وستشيد محطتان لتوليد الكهرباء لامداد عدد من المدن والاقاليم بالطاقة الكهربائية ، وتزداد مساحة الارض التي يمكن ريها إلى أربعة أمثالها ، وستتمكن البواخر الكبيرة من المرور في وادي النهر لمسافة ١١٠٠ ميل .

والغريب أن الخبراء الأمريكيين في عهد الكومنتانغ ، الذين نصحوا بتعميق قاع المجرى الأدنى للنهر الأصفر كانوا قد أعلنوا بأنه لا بد من مائة عام من العمل قبل إنجاز تعميق قاع المجرى الاوسط ، في حين أن الخبراء السوفييت قرروا أن بالامكان تخفيض هذه المدة الى بضع عشرة سنة ، وقد عقدت حكومة الصين العزم على تنفيذ المخططات الروسية .

أما بالنسبة لنهر « اليانغتسي » الذي يدور تاريخ الصين وحضارتها وتقلباتها السياسية حول واديه الطويل العريض .. فإن حكومة الشعب قد أسست دائرة خاصة فيمدينة « ووهان » لوضع الخطط الأساسية لمشاريع ريه وكهربته المائية.. وفي زيارتنا للمدينة شرح لنا رئيس مهندسي الدائرة ... وهو من الشباب المثقف بثقافة غربية وأمريكية ، الخطط الموضوعة فقال :

«إن نهر اليانغتسي هو أكبر أنهار الصين جميعاً ، فطوله ٥٧٠٠ كيلومتر ، وتصب فيه سبعمائة رافد ويقطن حول حوضه ٢٣٠ مليون نسمة - أي أكثر من ثلث سكان الصين ، وتستغل من أراضيه ١١٠ مليون دونم عراقي - أي ما يعادل ربع الاراضي الزراعية في الصين كلها ، وتحيط بنهر اليانغتسي ٣٠٠ الف كيلو متر

مربع من الغابات ، ويستخرج منه ٦٦٪ من جميع مصائد الاسماك في الصين كلها.

وإلى جانب أهمية اليانغتسي هذه فإن فيضاناته المتتالية سببت الكوارث لشعب الصين ، ولا زالت هذه الفيضانات إحدى المشاكل المهمة في الصين .

وفضلاً عن ذلك فإن كثيراً من أراضي حوض هذا النهر الزراعية معرضة الى الجفاف ، ذلك لان الأمطار تقع في غير أوقات الموسم الزراعي ... ولهذه الأسباب فالجمهورية قد كافحت لانقاذ مصدر ثروة شعبها الزراعية .. وعملت وتعمل على إنماء هذه الثروة إلى جانب مشاريع جبارة لاستخراج الكهربة المائية .

ولدى الصين حالياً مشاريع لانشاء ٦٢ سداً ، إلى جانب المشاريع الصغيرة التي أنجزت لخزن المياه . وتقدر القوة الكهربائية التي ستنتجها هذه السدود بـ ٥٠ مليون كيلو واط .

وإن أعظم هذه السدود ، سد يخزن ٤٠ بليون متر مكعب من الماء ويولد ٢٠ مليون كيلوواط من الكهرباء ، مع العلم بأن أعظم سد قد شيد في العالم حتى الآن هو سد « كيبوبشيف » الروسي الذي ينتج ٢،١٠٠،٠٠٠ كيلو واط ، ويليه سد « بولدر » الامريكي الذي ينتج ١،٨٠٠،٠٠٠ كيلو واط .

ومتى تحقق هذا المشروع فان القوى الكهربائية ستصل لمسافة تزيد على ١٠٠٠ كيلو متر من كل جانب .

وقد أعد مشروع لتطهير نهر اليانغتسي ليساعد على سير البواخر البحرية من عابرات المحيط والتي تبلغ حمولتها عشرة آلاف طن لمسافة ٢٨٠٠ كيلومتر من مصبه في البحر ، أما الآن فتصل البواخر ذات حمولة ٣٠٠٠ طن لمسافة ٢٤٠٠ كيلومتراً ، وتصل البواخر حمولة ٨٠٠٠ طن من شنغهاي الى « ووهان » ، وسيساعد هذا المشروع الاقتصاد الصيني مساعدة ذات قيمة عظمى .

كما أن هناك مشروعاً لفتح قناة مائية من أقصى جنوب الصين حتى بكين في الشمال ، ويبلغ طول هذه القناة ٣٧٦٠ كيلومتراً ، فتتصل المواصلات المائية في نهر « اللؤلؤ » في الجنوب بنهر « اليانغتسي » بالوسط ، فالنهر الاصفر في الشمال حتى بكين . وفضلاً عن فوائد هذا المشروع في النقل النهري فإنه سيحيي أراضي

زراعية شاسعة ، ولقد تحقق جزء منه بتطهير القناة القديمة التي حفرها الاقدمون ، والعمل جار بنشاط لا كالها .

والعمل يجري الآن لانشاء سد على نهر « هان » الموازي لليانغتسي الذي يلتقي به في مدينة ووهان ، وسيحصل على أراض زراعية جديدة تقدر بـ ٣ ملايين دونم عراقي .

ولأجل إحياء أرض زراعية جديدة تقدر بنحو ٤٠ مليون دونم عراقي ، فان هناك خططاً تدرس لايصال منطقة بكين بنهر « هان » ونهر اليانغتسي بقنوات متعددة » – انتهى .

لقد أنجزت بالفعل – خلال السنوات الثلاث المنصرمة سبعة مشاريع ري رئيسية وثانوية منها إحدى مراحل القناة الكبرى، ومشروع كبيرلتوليد الكهرباء، وإحياء مناطق ري زراعية بكر في الشمال .

وكانت المختبرات التابعة لدائرة الري والتخطيط التي زرناها في مدينة ووهان في غاية الروعة والاتقان ، فهي تشغل خمسة أبنية كبيرة ، نصبت فيها مضخات ماء ضخمة ، وتمتد منها عشرات الانابيب ، وخططت على أرض هذه الأبنية مشاريع مصغرة لمختلف السدود المائية والكهربائية المنوى تحقيقها ، وركبت على تلك السدود المصغرة ، وعلى المجاري مختلف الآلات التي تسجل سرعة المياه وكمياتها وقوتها ، ونسبة الطمى فيها ، وتأثيرها على الارض وعلى السدود ذاتها . ورأينا بناء كاملًا استخدمت جميع ساحته الواسعة لتصوير أحد مشاريع الري الكبرى.. فالماء يندفع من المضخات بقوة وبنسبة معينة ، فيسير في مناطق جبلية ، ثم يسلك وادياً ليدخل في بحيرة كبيرة ، ثم يتدفق الماء من البحيرة الى قناة شيد عليها السد بفتحاته .. وقد ركبت التوربينات التي تستخرج منها القوة الكهربائية قرب ذلك السد ، وشاهدنا مختلف المقاييس تسجل أرقاماً تبين مختلف التأثيرات التي على هداها يضع المهندسون الصينيون خططهم التفصيلية لانجاز مشاريع الري والكهربة .

وتذكرت هناك في الصين مشكلة « النكارات [1] » في الفرات الأوسط في

---

١ ـ أي الحفر وتآكل الارض من جراء سرعة تدفق المياه .

العراق وكيف انها أتلفت كثيراً من الاراضي الزراعية دون أن يوقفها عند حدها المسؤولون العراقيون وكأنها مستعصية الحل .

وفي قطاع المواصلات البرية شيد طريقان طولها ٤٢٠٠ كيلومتر يربطان الصين بالتبت ، وأنجز فرع جديد للخط الحديدي الذي يعبر سيبريا وهو يجتاز صحراء « غوبي » ويقلل من طول الرحلة بين بكين وموسكو بمقدار ٤٨ ساعة ، وهناك خط حديدي جديد يربط « سشوان » ببقية الصين .. إلى جانب عشرة آلاف كيلو متر أخرى من الطرق الحديدية الجديدة ، وخطوط أخرى في مرحلة البناء .

ولقد شاهدنا الجسر الضخم الحديث الذي يربط للمرة الاولى بين شاطىء « اليانغتسي» ويسهل حركة النقل بين شمالي الصين وجنوبها ... وهو غاية في الروعة الهندسية .

زيارة لخزان كوانتنغ

*

من الاعمال الانشائية الكبرى التي يفتخر بإنجازها الصينيون، خزان كوانتنغ الذي يتحكم في نهر هواي ذي الفيضانات التي كان يخشى خطرها إلى عهد قريب .

ويعتبر بناء هذا الخزان رمزاً لوحدة نضال شعب الصين على اختلاف مراكز أبنائه ، إذ ان الحكومة طلبت من الشعب ان يسهم في بناء هذا السد بكل طاقاته لينجزه بأسرع وقت مستطاع . فلبى نداءها مليونان من الشباب ، بينهم عشرة آلاف جامعي .

وكان زعماء وقادة الصين في طليعة العاملين فيه ، فكانوا يحفرون التراب وينقلونه ، ويبنون كأي عامل آخر من العمال أو الفلاحين أو الطلاب .

ولذلك فالصينيون حريصون على أن يرى الأجانب الذين يزورون الصين ، هذا الخزان الضخم الذي يبعد موقعه عن بكين بنحو ١٣٠ كيلومتراً ويربطه بالعاصمة خط حديدي حديث يخترق عدة أنفاق ، وطريق حديث يخترق سلاسل الجبال .

ومشروع السد يتألف مـــن ثلاثة أقسام : قناة في اليمـين وهي المجرى الأصلي للنهر ثم السد في الوسط ، فقناة الأمان لامتصاص المياه ودفعها في مجرى النهر من الطرف الأيسر .

وطول القناة ٥٠٠ متراً ، وقطرها ٨ أمتار ، ولتخفيف ضغط المياه ، أقيمت عقبتان عند فتحة القناة وفيها ثمانية مجـار للنهر ، وثمانية أبواب لتصريف الميـــاه والمراقبة . والمياه في هذه المجاري ترتفع بنحو ٤١ متراً . والى جـانب القناة شيد مدرج لنزول العمال إلى أسفل القاعدة للمراقبة ولاصلاح ما قد تخربه المياه. وبذلك يمكن التحكم في المياه الاضافية في موسم الفيضان ، وتحويل مجرى النهر بواسطـــة السدود إلى ناحية قناة الأمان .

ويبلغ طول السد ٢٩٠ مـتراً وارتفاعه ٤٥ متراً ، وعرضه على السطح عشرة أمتار . وينقسم إلى ثلاثة أقسام : الأول يتلقى الصدمـة الأولى ، وصنع بشكل يمكنه من امتصاص بعض الرشوحات القليلة ليكون الضغط على القسم الثاني مرناً والقسم الثاني وهو الاساسي من مجموع السد فمشيد في الوسط ، وهو لا يرشح الماء مطلقاً . أما القسم الثالث المشيد في الجهة المقابلة لمجرى النهر فلا ضغط عليه .

ويبلغ طول قناة الأمان ٤٣٠ متراً وعرضها عشرة أمتار وارتفاعها يتراوح بين ٤٠ و ٥١ متراً .

وأقيمت على النهر آلات مشيدة على جسر اصطناعي لوزن ضغط المياه . ويبلغ طول السد في القاعدة ٢٩٠ مـتراً ، ثم يتسع ويأخذ شكل حـوض يستوعب من المياه ٢٢٧٠ مليون متر مكعب من الماء .

الاقتصاد الوطني ومراحل تطوره في الصين

- قواعد بناء المجتمع الاشتراكي
- الوضع الاقتصادي المتخلف الذي كانت عليه الصين
- البناء الاقتصادي الجديد
- أجهزة التخطيط وأهدافها
- الميزانية والمعونة السوفييتية
- تقدم الصين الصناعي بالأرقام والوصف

قواعد بناء المجتمع الاشتراكي

*

قلنا في فصل سابق : « كان هدف حكومة الصين الشعبية منذ قيامها – العمل على بنـــاء مجتمع اشتراكي كامل ، تكون فيه كل وسائل الانتاج والتوزيـــع بيد الدولة » .

وفي ظل « الديموقراطية الجديدة » تكون المشاريع التي تديرها الدولة تحت قيادة الجماهير الفلاحية والبروليتاريا العـــمالية – القوة الرئيسية في الاقتصـــاد ، وستكون هـــذه المشاريع بمثابة رأس الحربة في صبغ الاقتصاد بأكمله تدريجياً بالصبغة الاشتراكية وتطبيق سياسته :

١) السيطرة على رأس المال .

٢) جعل الملكية الزراعية متساوية .

ولقد نصت المادة ٢٦ من البرنامج المشترك – وكان بمثـــابة الدستور المؤقت للصين ، والذي أقره المؤتمـــر الاستشاري للشعب الصيني في عام ١٩٤٩ على بعض نظريات « الديموقراطية الجديدة » لاقتصاد مختلط يتفرع على خمسة قطاعات، وجاء في المقدمة ما يلي :

« تنسق الدولة ، وينظم الاقتصاد الذي تملكه الدولة ، والاقتصاد التعـاوني ، والاقتصاد الخاص بالفلاحين ، وأصحـــاب الحرف اليدوية ، والاقتصاد الرأسمالي الخاص ، واقتصاد الدولة الرأسمالي ، وإنتاج المواد الخـــام ، والأسواق والعمال

والمعدات الفنية ، وسياسات المالية العامة والتجارة ، لكي تلعب كل مكونات الاقتصاد دورها ، وتؤثر في توزيع العمل والتعاون في ظل الاقتصاد الذي تملكه الدولة لكي تشجع على تنمية الاقتصاد الاشتراكي بأكمله » .

وجاء في الدستور الدائم الذي أقره المجلس الوطني الاول لنواب الشعب في عام ١٩٥٤ ما يلي :

« إن المرحلة التي تمتد من إنشاء الجمهورية الشعبية الصينية إلى أن يتم بناء المجتمع الاشتراكي هي مرحلة انتقالية ، والمهمات العامة الموضوعة أمام الدولة في المرحلة الانتقالية هي تحقيق تصنيع البلاد الاشتراكي بصورة تدريجية ، وإنجاز التحويلات الاشتراكية في الزراعة والصناعة اليدوية وفي الصناعة الرأسمالية والتجارة الرأسمالية بصورة تدريجية .. » — المقدمة .

« بالاعتماد على هيئات الدولة والقوى الاجتماعية وعن طريق التصنيع الاشتراكي والتحويلات الاشتراكية تضمن الجمهورية الشعبية الصينية القضاء التدريجي على نظام الاستثمار ، وتؤمن بناء المجتمع الاشتراكي » — مادة ٤ .

« اقتصاد الدولة هو اقتصاد اشتراكي قائم على ملكية كل الشعب ، وهو القوة القيادية في الاقتصاد الوطني والأساس المادي لتحقيق الدولة التحولات الاشتراكية. إن الدولة تضمن الأسبقية لتطوير اقتصاد الدولة » -- مادة ٦ .

« الاقتصاد التعاوني هو اقتصاد اشتراكي قائم على الملكية الجماعية للجماهير الشغيلة ، أو اقتصاد شبه اشتراكي قائم على الملكية الجماعية الجزئية لجماهير الشغيلة .

إن الملكية الجماعية الجزئية لجماهير الشغيلة هي شكل انتقالي لتنظيم الفلاحين الفرديين وأصحاب الصناعات اليدوية الفرديين وسائر الشغيلة الفرديين وقيادتهم إلى الملكية الجماعية للجماهير الشغيلة .

تحمي الدولة أملاك التعاونيات وتشجع وتوجه تطور الاقتصادالتعاوني وتسدي إليه المساعدة ، وتتخذ تطوير التعاون في الانتاج طريقاً رئيسياً لتحويل الزراعة الفردية والصناعة اليدوية الفردية » — مادة ٧ .

« تحمي الدولة ، وفقاً للقانون ، حق أصحاب الصناعات اليدوية وسائر الشغيلة

الفردية غير الزراعين في امتلاك وسائلهم الانتاجية ... » — مادة ٩ .

« تحمي الدولة وفقاً للقانون ، حق الرأسمالية في امتلاك وسائلهم الانتاجية وسائر الرساميل » .

تنهج الدولة سياسة استفادة وحصر وتحويل إزاء الصناعة الرأسمالية والتجارة الرأسمالية فبواسطة إشراف هيئات الدولة الادارية وقيادة اقتصاد الدولة ورقابة الجماهير العمالية تستفيد الدولة من دور الصناعة والتجارة الرأسمالية الايجابي الذي هو مفيد للرخاء الوطني ورفاهية الشعب ، وتحصر دورها السلبي الذي يلحق الضرر بالرخاء الوطني برفاهية الشعب ، وتشجعها وتوجهها لتتحولا إلى اقتصاد رأسمالية الدولة الذي يرتدي أشكالاً شتى، كي تحل ملكية كل الشعب محل ملكية الرأسماليين بصورة تدريجية .

تمنع الدولة جميع أعمال الرأسماليين غير المشروعة التي تلحق الضرر بالمصالح العامة وتخل بنظام اقتصاد المجتمع وتفسد مشاريع الدولة الاقتصادية» — مادة١٠

« تحمي الدولة حق المواطنين في امتلاك دخلهم المشروع والمدخرات والمساكن وغيرها من وسائل المعيشة » — مادة ١١ .

« تحمي الدولة ، وفقاً للقانون ، حق المواطنين في إرث الأملاك الخاصة » — مادة ١٢ .

الوضع الاقتصادي المتخلف الذي كانت عليه الصين

*

إن الصين في الواقع تملك قدراً كافياً من الموارد الطبيعية تسمح بقيام حركة تنمية صناعية هامة تساند الزراعة — التي تعادل زيادتها السنوية في محصول الحبوب زيادة السكان في الصين في كل عام .

وتقول الحكومة : إن الصين بها من الموارد ما يمكنها من ان تكون دولة صناعية كبرى ، فان ما تملكه من الفحم ما لا يملكه أي بلد آسيوي آخر ، وهو

اقل فقط مما تملكه روسيا وامريكا ، وتقدر مواردها من الحديدالخام بـ ١٢،٠٠٠ مليون طن ، الى جانب القصدير والرصاص والنحاس والتونكستين والانتيمون الموجودة جميعاً بكميات كبيرة . أما موارد البترول فليست كبيرة .

وكان على الصين قبل ان تنهض بالاقتصاد الوطني وتطوره أن تخرج من وضع التخلف الاقتصادي الذي سببته ظروفها التاريخية بوصفها دولة إقطاعية عريقة ، شبه مستعمرة ، دمرت الحروب والثورات الداخلية منذ عام ١٨٤٠ حتى عام ١٩٤٩ وسائل إنتاجها ومقومات اقتصادها. فمنذ حرب الافيون والدول الغربية كانجلترا وألمانيا وفرنسا وايطاليا وأمريكا.. ثم اليابان تسيطر على الاقتصاد الصيني وتشرف عليه وأصبح الميزان التجاري في غير صالح الصين على الدوام ، وكانت البنوك الاجنبية هي التي تصدر أوراق العملة الصينية بغير غطاء ، وتحمي المستوردات وتخفض الرسوم عليها .

وبعد أن حكم الكومنتانغ البلاد ، فإن الصناعة التي أنشئت كانت لمصلحة الرجعية .. أو لمصلحة المستعمرين اليابانيين الذين أنشأوا صناعات عديدة في الشمال الشرقي من البلاد في منشوريا ، وكان من البدهي للمستغلين الاستعماريين ان يحولوا دون تنمية صناعة ثقيلة في الصين فاستثمروا أموالهم بإنشاء صناعات خفيفة يستخدمون بها الأيدي الصينية العاملة الرخيصة في الأراضي التي احتلوها أو كانوا يشرفون عليها ، وينتفعون كذلك بتحويل بعض المواد الأولية التي تمدهم بها أرض الصين كالحرير والقطن فأسسوا في شنغهاي عدداً من مصانع النسيج التي يستهلكها الشعب بوفرة ، فضلاً عن الصناعات الاستهلاكية الأخرى .

وحطم هذا التدخل الاجنبي الصناعة اليدوية التي اشتهرت بها الصين منذ أقدم العصور ... وصارت نهضة رأس المال الوطني تتعثر بسبب المعاهدات غير المتكافئة والامتيازات الاجنبية، وانعدام الحماية الجمركية التي فرضتها عليهم الدول الاجنبية المستعمرة . فضلاً عن ان السكك الحديدية ووسائل النقل البحرية والمائية كانت تدار بتمويل أجنبي ، وبإشراف أجنبي . وفي خلال حكم الكومنتانغ كانت السياسة الاقتصادية ترتكز على الحفاظ على الطابع الزراعي للبلاد ، وتقاوم النمو

الصناعي ، وتحول دون تطويره اذ لم يكن لمصلحة البيروقراطية السياسية الخاصة، وحتى الزراعة فإنها لم تكن لتكفي حاجة السكان ، فتستورد نسبة كبـــيرة من المواد الغذائية من خارج البلاد .

ولم يكن للعمال الصينيين الذين بلغ عددهم في نهاية الحرب العالمية الاولى مليوني عامل حول ولا قوة إزاء المستغلين الاجانب الذين يحتمون بالامتيازات ، وكانت وفرة الأيدي العاملة في الصـــين تضمن لاصحاب العمل احتياطياً لا ينضب من الرجال بأبخس الأجور ، ولم يكونوا ليعترفوا بأي حق للمستخدمين ، فالاضرابات ممنوعة ، ولا يحق للعمال الانتظام في الجمعيات دون تصريح خاص ، ووصف أحد قادة الحركة السياسية الصينية وضع العمال قائلاً :

« لعل شر ظروف العمل في الدنيا هي التي توجد في الصين » .

على أن العمال الصينيين لم يستسلموا بالمرة فألفوا بعض الجمعيات السرية ، وقاموا بشنغهاي بعدة اضرابات أسفرت عن نتائج ايجابية، ففي سنة ١٩٢٩ ألغيت القوانين التي تحول دون قيام الاتحادات العمالية بالاضراب .

وبعد تأسيس الحزب الشيوعي في شنغهاي في عام ١٩٢١ ألفت البورجوازيـة الممثلة في الكومنتانغ ، والطبقة العمالية الجبهة الوطنية ، فنمت النقابات وعقدت في كانتون مؤتمرات لاتحـــاد العمال واصطدمت بأرباب العمل أكـــثر من مرة اصطدامـات دموية ، وأعلنت الاضرابات العامة في شنغهاي عـدة مرات ، ولقد استجاب الرأي العام الصيني وفي مقدمته الطلاب الى الحركة العمالية ، فعطف عليها، ووقف الى جانبها مما دعى البورجوازية الصينية الكبـــيرة الى التخوف من تلك الحركة التي تمثلها الطبقة العمالية ، ورأت ان الرأسمالية الاجنبية حليف أقل خطورة بالنسبة لها ، ففضلت مهادنته ، وعملت على إنشاء تكتلات تجارية كبيرة لاحتكار الصناعة الصينيـة بالاتفاق مع الشركات الاجنبية ، فظهـر التكتـل الذي عرف بـ« الأسرات الأربـع » (شانك– سونك – كونك – شين) التي حملت شان كاي شك على تمزيق « الجبهة الوطنية » ومحاربة الشيوعين بعنف .

وفي الفترة التي غزا فيهـا اليابانيون الصين – أي مـــا بين ١٩٣٧ – ١٩٤٥

وأسسوا في منشوريا حكومة موالية لهم ، عمدوا الى تدمير الصناعة في شنغهاي فنقلوا منها معظم المصانع ، وتعطل من جراء ذلك ٨٠٠ ألف عامل صيني ، ولجأ مليونان من الصينيين الى مناطق الامتيازات الأجنبية في المدينة ومات كثير منهم بسبب الجوع والامراض السارية . وأصبحت مدينة شنغهاي « مقبرة الصناعة الصينية » في حين ان اليابانيين ركزوا الصناعة التي يمتلكونها في شمال شرقي الصين في منشوريا التي يشرفون على حكومتها . فاتخذوا من مكدن عاصمة منشوريا — واسمها اليوم « سنيك يانغ » قاعدة رئيسية لادارة المناطق الشمالية ، وهي تتوسط الأماكن الغنية بالمعادن ، وأنشأوا فيها صناعات ثقيلة ، وعندما اضطر اليابانيون على التخلي عنها بعد الحرب العالمية الثانية دمروا صناعاتها تدميراً كاملاً ، وكان شعارهم : يمكنكم الآن — أيها الصينيون أن تعودوا لزراعة الخضروات .

وبعد استسلام اليابان في عام ١٩٤٥ واستقرار حكم شان كاي شك وافق الغربيون على إلغاء امتيازاتهم ، فأعيد تنظيم الصناعة الوطنية التي كانت جميعها على السواحل وخاصة في مدينة شنغهاي التي كانت تتركز فيها ٢٩٪ من مصانع المنتجات الاستهلاكية و٣٨٪ من رأس المال الصيني المستثمر .

البناء الاقتصادي الجديد

*

بعد استيلاء الشيوعيين على الحكم في عام ١٩٤٩ كان على الحكومة ان تتخذ إجراءات حاسمة لإعادة بناء الاقتصاد الوطني الى ما كان عليه قبل أن يدمره المستعمرون اليابانيون ، وتدمره جيوش الكومنتانغ في فترة حكم شان كاي شك الاخيرة قبل انسحابه من البر الصيني . وقدر لهذه المهمة ثلاث سنوات تنتهي في عام ١٩٥٢ .

ولما لم تترك حكومة الكومنتانغ في البلاد ثروة نقدية — إذ أخذتها معها الى تايوان ، فلقد أبدلت الجمهورية الشعبية العملة الورقية القديمة بعملة « اليِن » الجديدة

بسعر الين الواحد ٣٠ مليون ين كومنتانغي[١] .

وفي خلال هذه الفترة تم تحرير رأس المال الوطني من البنوك والصناعات الاجنبية ، فاتخذت سياسة القتل البطيء المسالم إزاء الرساميل الاجنبية، فلم يصادر منها إلا الرساميل اليابانية باعتبارها غنائم حرب ، وما ان حل عام ١٩٥٢ حتى قضي على رأس المال الاجنبي ولم يبق له أثر غير بنك فرنسي ، وآخر بلجيكي صفيا أعمالها في عام ١٩٥٨ .

ولقد كانت هناك طبقتان من البورجوازية : الاولى وهي البورجوازية الامبراطورية وكانت متواطئة مع الاستعمار ، ومع الارستقراطيين من الحكوميين فصادرت الحكومة جميع المؤسسات والأملاك الزراعية والعقارية التي كانت تمتلكها هاتان الفئتان ، فأصبحت ملكاً للدولة الاشتراكية الجديدة، ومنها شركات الصلب والسكك الحديدية والبواخر ومصانع النسيج والأغذية وما اليها.

أما الطبقة الثانية وهي البورجوازية الوطنية فكانت تعاني مزاحمة الكومنتانغ قبل التحرير وكان أفرادها مضطهدين ، ولقد ألفت مع العمال جبهة متحدة في حرب التحرير ، وساعدت الثورة وأمدتها بالمال ، فاتخذت معها سياسة الاصلاح السلمي ، ومعناه هو جعل ثروة البورجوازية الوطنية تتقبل الاشتراكية والاصلاح الاشتراكي بفترة طويلة نسبياً وبصورة تدريجية ، فتراعى من الناحية الاقتصادية ، وتثقف من الناحية السياسية والفكرية حتى تتمكن من السير بها نحو الاشتراكية بخطوات وئيدة . فضلاً عن ان الاقتصاد الوطني كان في خلال هذه الفترة متأخراً وبحاجة ماسة الى خبرة البورجوازية الوطنية وفعاليتها، فلم تتخذ إزاء رساميلها سياسة المصادرة ، إنما اتخذت سياسة مشددة بعدم فسح المجال لها بكسب غير مشروع ، او بربح غير معقول .

ومع ان حكم الديمقراطية الشعبية في الصين هو بقيادة الطبقة العاملة لتحقيق المجتمع الاشتراكي ، وعلاقات الانتاج بالرأسمالية تتناقض وهذا الحكم . فان

---

١ ـ السعر الرسمي للين اليوم هو ٦٫٦٦ ين يساوي جنيه استرليني . والين يقسم الى ١٠٠ سنت وهو يساوي ١٥٠ فلساً عراقياً او ١٥ قرشاً مصرياً .

مقتضيات فترة الانتقال كانت تتطلب اتخاذ سياسة الاصلاح السلمي إزاء الرأسمالية على ضوء العلاقات التاريخية بين العمال والبورجوازية .

على ان تطوير قدرة الانتاج كانت تتطلب إصلاح الرأسمالية عن طريق الاشتراكية ، والقضاء على طبقة ليس معناه القضاء على أفراد تلك الطبقة ، وإنما تستخدم وتصلح وتثقف هؤلاء الى أن تزول البورجوازية الوطنية ، ويصبح أفرادها عمالاً في الدولة[1] .

ففي قطاع الصناعة الرأسمالية اتخذت في أول الأمر سياسة النصح والتوصيات في الانتاج الذي يلائم سياسة الدولة العامة وحاجات شعبها . ثم أخذت الدولة بعد ان سيطرت على التجارة الداخلية والخارجية ، تعطي المواد الخام لأرباب الصناعة وتأخذ إنتاجهم مقابل ربح معقول . وفائدة هاتين الطريقتين تخضع الانتاج لإشراف الدولة في حدود برامجها المقررة ، ثم تستطيع السيطرة على البضائع فتعرضها في الاسواق حسب برامجها العامة .

كما وأن تحديد الارباح قد حد من الاستغلال ، وفرض أسعاراً ثابتة للانتاج .

وتم إصلاح التجار الرأسماليين عن طريق شرائهم للبضائع نقداً ، وبيعها للمستهلكين بأسعار الجملة والمفرد التي تقررها الدولة .

وما إن حل عام ١٩٥٥ إلا وكان ٧٠٪ من الصناعة والتجارة الرأسمالية الوطنية قد اندمج في هذا التخطيط . ويشير الجدول التالي الى هذا التحول السريع .

---

١ ـ من محاضرة ألقاها علينا وكيل وزارة الاقتصاد في بكين .

قيمة المبيعات للبضائع العامـــة والخاصة

(بملايـــين الينـــات)

	التـــــــــاريخ						نسبة المجمـــــــــوع					
	١٩٥٠	١٩٥٢	١٩٥٣	١٩٥٤	١٩٥٥	١٩٥٦	١٩٥٠	١٩٥٢	١٩٥٣	١٩٥٤	١٩٥٥	١٩٥٦
المجمـــوع	١٦ر٧٩٤	٢٧ر٦٦٥	٣٥ر٠٤١	٣٨ر٩٦٢	٤٠ر٠٠٢	٠٠	٪١٠٠	٪١٠٠	٪١٠٠	٪١٠٠	٪١٠٠	٪١٠٠
اقتصاد الدولة	١ر٣٣١	٤ر٣٨٢	٥ر٩٤١	٧ر٦١١	١٠ر٧٨٥	٠٠	٧ر٩	١٥ر٨	١٧ر٠	١٩ر٥	٢٧ر٠	٦٨ر٠
الاقتصاد التعاونى	٨١٩	٥ر٠٥١	٨ر٥١٩	١٤ر٩٠١	١٢ر٢١١	٠٠	٤ر٩	١٨ر٣	٢٤ر٣	٣٨ر٣	٣٠ر٥	١٢ر٠
اقتصاد راسمالية الدولـة	٣١	٧٧	١٥٢	١ر٨٢٧	٥ر٠٦٥	٠٠	٠ر٢	٠ر٣	٠ر٤	٤ر٧	١٢ر٧	١٧ر٠
الاقتصاد الخاص بما فيه تجارة الفلاح	١٤ر٦١٣	١٨ر١٥٣	٢٠ر٤٢٩	١٤ر٦٢٣	١١ر٩٤١	٠٠	٨٧ر٠	٦٥ر٦	٥٨ر٣	٣٧ر٥	٢٩ر٨	٣ر٠

وفي عام ١٩٥٦ اتخذت الدولة طريقــة أخرى وهي الادارة المشتركة للمصانع والمتاجر عن طريق موظفين منتدبين من الحكومة يوجهون الانتاج في المصانع ، ويديرون الأعمال في المتاجر دون ان يحرم الرأسماليون من إدارتها . وبهذا انتقلت رأسمالية الدولة من الدرجة السفلى الى الدرجة العليا (كما سموها) .

وهذه الادارة المشتركة لم تبدأ في الواقع في عام ١٩٥٦ وإنما بدأت منذ قيـام الدولة عـام ١٩٤٩ حيث كانت هناك صناعات وتجـــارة كبيرة بين رأسماليـــة البورجوازية البيروقراطية، ورأسمالية البورجوازية الوطنية ، فصودرت الاولى، وأبقي على الثانية فأصبحت مشتركة منذ ذلك الحين .

والأرباح في مصانع ومتاجر الادارة المشتركة تقسم على الوجه الآتي :

٢٥٪ تدفع ضريبة للدولة .

٢٥٪ احتياطي للمؤسسة .

٢٥٪ يستخدم لحاجات ورفاهية العمال .

٢٥٪ للمساهمين .

ومنذ عام ١٩٥٦ – عندما رأت الدولة أن أرباح المساهمين عالية ، غيرت نظام توزيـع الارباح فأعطت للمساهمين ربحاً ثابتاً لا يزيد عن ٥٪ من رأس المال بصرف النظر عن ربح المؤسسة،وبصرف النظر عن نسبة الاسهم بين الحكومة والرأسمالي. وفي عام ١٩٦٢ رأت الحكومة أن البورجوازية الوطنية قد وصلت الى درجة من الوعي الاشتراكي ، أصبحت فيه عقولها نظيفة من رواسب الماضي وتراثـه ، فـلم تعد تقبل برأسمالها القديم فتنازلت عنه للشعب ! ومنذ عام ١٩٥٨ والرأسماليون يتبرعون بأموالهم للمشاريـع العامة ، وفي أعمال البر والخير لانهم لا يعرفون كيف يتصرفون بأموالهم إلا عن هذا الطريق .

والرأسماليون – كما قال لنا الموظفون في بكـــين يساهمون اليوم بجهـودهم وكفاءتهم في خدمة الدولة لانهم أدركوا بأن المستقبل للاشتراكية لا للرأسمالية وهم يتفهمون قول مـــاوتسي تونغ لهم : « يجب أن تقرروا مصيركم بـأيديكم ،

فالرأسمالية لا يمكن أن تستمر ، لان نظامها يعني الابقاء على استغلال الأقلية لجهود الأكثرية مما يعرض الانتاج الى الخطر . »

ثم ان الادارة المشتركة قد أصبحت في صالح الرأسماليين لأنها قللت من النزاع بينهم وبين العمال ، ولأنها قد حسنت أخلاق الرأسماليين وغيرت عاداتهم القديمة فلم يعودوا يلتفتون الى الماضي ولا الى المصالح الشخصية .

أجهزة التخطيط وأهدافها

*

كان هدف الزعماء الصينيين خلق صناعة حديثة قوية تصبح الصين بمقتضاها دولة عظمى وأعلن شواين لاي في أيلول « سبتمبر » ١٩٥٤ : « ان الأهداف الجوهرية للثورة الصينية هي : تحرير قوى البلاد الانتاجية من الضغط الذي يفرضه الاستعمار والاقطاع والرأسمالية البيروقراطية ، وتحريرها من ربقة الرأسمالية وقيود الانتاج المحدودة ، وبذلك ينمو الاقتصاد الوطني بطريقة منظمة سريعة في طريق الاشتراكية ، ويتسنى الارتقاء بالحياة المادية والحضارية للشعب . ويتم تدعيم استقلال البلاد وأمنها ، غير ان الاقتصاد الصناعي الجديد سيكون بدوره ملكاً للمجتمع . »

والخط العام الذي رسمته الدولة عام١٩٥٢ يكفل استكمال التحول الاشتراكي وتأميم الاقتصاد برمته بما في ذلك الزراعة، وذلك خلال مشروعات السنوات الخمس الثلاث المتعاقبة .

لقد ظهر قبل ذلك – أي في عام ١٩٥٠ شكل بدائي من أشكال التخطيط متبعاً الأسلوب الذي سار عليه الاتحاد السوفييتي قبل دخول التخطيط الصناعي الواسع النطاق ويقضي هذا التخطيط بتحديد أهداف سنوية للانتاج معتمدة على

التخمين ، وهذا الانتاج يشمل السلع الأساسية .

وفي خريف ١٩٥٢ أعلن عن مشروع السنوات الخمس الأولى [1] الذي وزعت بموجبه الاستثمارات على النحو المذكور في الجدول أدناه .

توزيع الاستثمار في مشروع السنوات الخمس الأول

	بآلاف الملايين من اليينات	النسبة المئوية بالنسبة للمجموع
لوزارات الصناعة	٨٥ — ٢٤	٥٨ر٢
للزراعة وإنشاء الغابات وخزن المياه	٢٦ — ٣	٧ر٦
للمواصلات والبريد والمواصلات السلكية	٢١ — ٨	١٩ر٢
للتجارة واعمال البنوك	٢٨ — ١	٣ر٠
للثقافة والتربية ، والصحة العامة	٨ — ٣	٧ر٢
تطوير المرافق البلدية العامة	٦٠ — ١	٣ر٧
الأشياء الأخرى	٤٦ — ٠	١ر١

١ — راجع الجدول رقم ١ في نهاية هذا الفصل .

ولقد كان رأس مال الاستثمارات لمختلف القطاعات للاقتصاد الصيني ما بين عام ١٩٥٢ – ١٩٥٥ على النحو التالي :

(بملايين اليِنات)

	صافي الارقام				النسبة المئوية لكل قطاع			
	١٩٥٢	١٩٥٣	١٩٥٤	١٩٥٥	١٩٥٢	١٩٥٣	١٩٥٤	١٩٥٥
مجموع الاستثمارات لكل من :	٣ر٧١١	٦ر٥٠٦	٧ر٤٩٨	٨ر٢١٢	٪١٠٠	٪١٠٠	٪١٠٠	٪١٠٠
الصناعة	١ر٥٤٩	٢ر٧٥٦	٣ر٦٧٤	٤ر٢٠٤	٤١ر٧	٤٢ر٤	٤٨ر٥	٥١ر٢
البناء	٩٢	٣٤٥	٣٥٥	٢٩٠	٢ر٥	٥ر٣	٤ر٧	٣ر٥
الزراعة	١٨٦	٢٧٦	١٤٤	١٩٩	٪٥	٤ر٢	١ر٩	٢ر٤
خزن المياه	٣٣١	٣٧٦	٢١٩	٤٠٢	٨ر٩	٥ر٨	١ر٩	٤ر٩
السكك الحديديه	٥٠٢	٦٤٢	٩١٧	١٢٠٢	١٣ر٥	٩ر٩	١٢ر٢	١٤ر٦
المواصلات	٢٢٩	٣٥٤	٤٤٥	٤٥٢	٦ر٢	٥ر٤	٥ر٩	٥ر٥
الثقافة والتربية والصحة	٣٢٠	٧٦٧	٧٧١	٦٨٩	٨ر٦	١١ر٨	١٠ر٣	٨ر٤
انشاء المدن	١٧١	٢٥٠	٢٣٢	٢١٨	٤ر٦	٣ر٨	٣ر١	٢ر٧
القطاعات الاخرى	٣٣١	٧٤٠	٧٨١	٥٥٦	٩ر٠	٩ر٤	١٠ر٥	٦ر٨

ملاحظات

*

١ – بلغت الاستثمارات التي تم تحقيقها في عام ١٩٥٥ فعلاً ٨٦٣٠ مليون ين . وتشمل ارقام الجدول الفقرات التي يمكن مقارنتها في السنوات السابقة فقط .

٢ – القيمة المذكورة في الجدول تعتمد على تقدير الاسعار للسنوات المماثلة (أي تلك التي لها علاقة بها) وبالنسبة لبلاد الصين فقط نتيجة لتخفيض تكاليف البناء ، وتسعير المواد المختلفة .

٣ – الأرقام المذكورة في أعلاه لا تمثل تماماً معدل الزيادة للشغل الحقيقي الذي قد أنجز فعلاً .

وتم إنشاء لجنة التخطيط التابعة للدولة ، وتألفت أجهزة التخطيط في كافة الوزارات الاقتصادية وجميع الأجهزة الحكومية . وكانت الوزارات الاقتصادية كثيرة العدد كوزارة الزراعة والاقتصاد والمواصلات ، والمالية ، والتشجير ، وصناعة الوقود ، والصناعات الثقيلة ، والصناعات الخفيفة ، ووزارة السكك الحديدية ، والمواصلات اللاسلكية ، ووزارة النسيج ، ووزارة المياه .

ثم أضيفت اليها ست وزارات أخرى وهي : وزارتان للآلات ، ووزارة لأعمال التعمير ، ووزارة للجيولوجيا ، ووزارة للغذاء ، ووزارة للتجارة الخارجية .

وبعد التصديق على الدستور تحولت لجنة التخطيط الى هيئة تخطيط يساعدها مكتب الاحصاءات الحكومي . وأنشئت الى جانبها « هيئة الانشاء الوطنية » للاشراف على المنشآت الرأسمالية التي تقتضيها الخطة .

وكانت هناك وزارة تسمى « وزارة الاشراف » لمراقبة سير العمل لتنفيذ الخطة ، وتختبر دقة التقارير الخاصة بالانتاج ، كما تختبر طبيعة المنتجات ، وتراجع الأرقام ..

وفي عام ١٩٥٦ انتقلت وظائف التخطيط القصيرة المدى من هيئة التخطيط الى الهيئة الاقتصادية الوطنية لكي تتفرغ هيئة التخطيط الى التنمية الاقتصادية

الطويلة المدى ..

وأنشىء مكتب إمدادات عامة وذلك للتنسيق بين مواد البناء والمنتجات الخام. ثم تألفت هيئة « تكنولوجية » على غرار لجنة التكنولوجيا المؤلفة في الاتحاد السوفييتي وتركزت مهامها في تطبيق الوسائل الجديدة والعمل على نشرها، ووضع خطط التطوير للمستقبل.

ان الخطوط العريضة للتخطيط الاقتصادي في الصين اتبعت النظام المعمول به في الاتحاد السوفييتي مما اضطر الصينيين فيما بعد - على ضوء مشاكلهم التي تختلف عن مشاكل الاتحاد السوفييتي الى تعديل الاساليب السوفييتية من عدة نواح لكي تتمشى مع الأوضاع في الصين.

ان الاتحاد السوفييتي، وبلاد أوربا الشرقية قد طبقت نظام التأميم قبل البدء في مشروعات السنوات الخمس بوقت طويل - مع بعض الاستثناءات الطفيفة. أما في الصين (مع استثناء قطاعات من الصناعات الثقيلة، ونظام التوزيع) فان الاقتصاد كان في يد الافراد عندما بدأ مشروع السنوات الخمس الاول عام ١٩٥٣ فكان ثلث انتاج الصناعات الحديثة، وحوالي ثلثي العائد من التجارة، والانتاج الزراعي برمته بيد الافراد.

ولهذا كان مشروع السنوات الخمس الاول يرمي الى اتخاذ اجراءات غير مباشرة كالتحكم في المواد الخام، والأوامر الحكومية والسياسة الضريبية، وتحديد الاسعار لكي تدخل الصناعة الخاصة تدريجياً، في دائرة نفوذ جهاز التخطيط المركزي، ومن ثم أصبح الطريق ممهداً أمام التغيير الشامل لنظام الملكية في آخر الأمر.

وكانت أهداف المشروع الأول للسنوات الخمس ترمي الى :

١) تطوير السلع الرأسمالية بطريقة تكفل النمو السريع للصناعات الثقيلة.

٢) يجب أن يربو معدل النمو في صناعات السلع الرأسمالية على معدل النمو في صناعات السلع الاستهلاكية.

٣) يجب أن تهدف التنمية الزراعية الى ضمان وجود إمدادات مناسبة من

الحبوب والمواد الخام للصناعة ، والى مضاعفة الفائض الزراعي الذي يساعد على تمويل التصنيع .

٤) أن يكون معدل النمو في قدرة العمال على الانتاج أعظم من الزيادة في الاجور وذلك لضمان تجميع رأس المال .

٥) يجب أن تؤسس المراكز الصناعية الجديدة بالقرب من موارد المواد الخام.

الميزانية والمعونة السوفييتية

*

وفي خلال تنفيذ مشروع السنوات الخمس الأول كانت نسبة الميزانية الصينية حوالي ٣٠٪ من إجمال الدخل القومي .

وخصص نصف الميزانية للتنمية الاقتصادية ، ويذهب ٨٠٪ منها الى استثمار رأس المال .

كان دخل الصين في عام ١٩٥٦ نحو ٣٠ مليار « ين » أي ما يعادل ٤٥٠٠ مليون جنيه استرليني . وكانت تلك الايرادات موزعة على النحو التالي :

ضرائب ورسوم	٤٩،١٣ بالمائة
أرباح مشروعات الدولة	٣٩،٦٣ «
تأمينات وأرصدة	١١،٢٤ «

ويستبان من هذه النسب أن الضرائب تؤلف المورد الرئيسي للدولة ، وبما أن الفلاحين هم الغالبية العظمى من السكان ، فانهم هم الذين يغذون بصورة أساسية الخزينة القومية .

أما المصروفات فقد خصصت نسبة كبيرة منها لبناء الاقتصاد الضروري لرخاء

البلاد ولاكتفائها الذاتي ، وغالباً ما توزع وفقاً لهذه النسب :

التعليم	١٢،٩٥ بالمائة
الادارة	٧،٥٤ «
الدفاع	٢٤،١٩ «
البناء الاقتصادي	٥٠،٥٤ «
خدمات عامة	٤،١٨ «

وفي مشروع السنوات الخمس الثاني الذي اتسم بطابع القفزة العظمى ، ركزت الحكومة معظم جهودها على بناء قاعدة صناعية تنافس أعظم قوة صناعية في اوروبا ، فخصص للتنمية الاقتصادية ٦٥٪ من موازنة الدولة السنوية على الرغم من أن الموقف الزراعي كان يقضي تخصيص نسبة أكثر للتنمية الزراعية . ولقد أصر الحزب الشيوعي الصيني على أن أي تغيير يجري على حساب الصناعات الثقيلة ، ويتعارض مع الهدف الأساسي الموضوع للتنمية الاقتصادية .. فانه يعني معارضته الأفكار الايدولوجية للحزب .

وعلى سبيل المثال نورد ميزانية الدولة لاحدى السنوات الاولى لمشروع السنوات الخمس الثاني الذي يبين إيرادات ومصروفات الدولة :

مختصر مشروع الميزانية العامة للصين الشعبية لسنة ١٩٥٧

(بآلاف البنـــات)

الايراد		المصروف	
الضرائب	١٤٫٥٧٠٫٢٠٩	للبناء الاقتصادي [١]	١٣٫٦٨٣٫٠٥١
مشاريع الدولة	١٣٫٦٦٨٫٩٦٩	الخدمات الاجتماعية والثقافة والتربية	٤٫٨٣٥٫٢١٦
الديون	٦٢٣٫٣٢٠	الدفاع	٥٫٥٢٣٫٣٢٠
المصادر الاخرى	٤٣٠٫٤٣٦	الشؤون الادارية	٢٫٤٤٥٫٣١٤
		دفع الديون	٨٢٩٫٠٤٤
		مساعدات للدول الاجنبية	٥٠٧٫٩٨٠
		مصروفات اخرى	٢٧٥٫٣٤٤
		تغطيـــة تحويلات الاعتمادات	٦٠٠٫٠٠٠
		خدمات عامة	٥٩٣٫٧٥٥
المجموع	٢٩٫٢٩٢٫٩٣٤	المجموع	٢٩٫٢٩٢٫٩٣٤

١ — وزع مبلغ ١٣٫٦٨٣٫٠٥١٫٠٠٠ يناً للبناء الاقتصادي على الوجه التالي:

٨٫١٢١٫٢٥٦٫٠٠٠ يناً للتصنيع
٢٫٠٤٤٫٣٩٦٫٠٠٠ يناً للزراعة
٢٫٢١٦٫٤٤٢٫٠٠٠ يناً للمواصلات
٢٥٦٫٩٢٢٫٠٠٠ يناً للتجارة

هذا ، ولقد لعبت المعونة السوفييتية دوراً كبيراً في التنمية الاقتصادية للصين في أعوامها الاولى ، لا بل كانت من العوامل المهمة جداً في إنجاح مشروع السنوات الخمس الاول . ومع ان هذه المعونة لم تتخذ طابع منحة مقدمة كهدية من السوفييت ، وإنما أخذت بقروض طويلة الأمد وبفوائد ضئيلة جداً ، إلا أنها كانت – الى جانب ذلك الجيش الكبير من الخبراء والفنيين والمستشارين الروس بمثابة الأساس الذي بنيت عليه قاعدة الصناعة الصينية الحديثة التي طورت حياة شعب الصين ، وجعلته يتطلع الى تحقيق الاكتفاء الذاتي ليحيى الحياة السعيدة التي ينشدها .

وأولى المعونة السوفييتية للصين قد تمت بموجب الاتفاق الاقتصادي الملحق بمعاهدة التحالف التي وقع عليها في عام ١٩٥٠ ، ونص الاتفاق على إعطاء قرض للصين بمبلغ ٣٠٠ مليون دولار أمريكي بفائدة قدرها ١٪ ويتمثل هذا القرض بشراء معدات ومواد سوفييتية خلال فترة أمدها خمس سنوات ، وقبل انتهاء فترة التصرف بهذا القرض طلب الصينيون مساعدة أكبر لمشروع السنوات الخمس الاول الذي وضعوه بتخطيط مشترك بينهم وبين السوفييت ، فلبى السوفييت طلب الصينيين وزادوا في مساعداتهم ابتداء من عام ١٩٥٣ وساهموا مساهمة فعالة في إقامة المشاريع الرئيسية ، وأرسلوا الى الصين عدداً كبيراً من الخبراء والمهندسين والفنيين قدروا ما بين ١٥٠٠٠و٢٠٠٠٠خبير فاستفادت الصين من هذه المساعدة ومن الخبراء أعظم فائدة . وأعلن « لي خوشين » كبير مخططي الصين في تقريره الذي قدمه في سنة ١٩٥٣ بصدد هذه المعونة السوفيتية ما يلي :

« تمتد المساعدة الفنية والمادية المقدمة من الاتحاد السوفييتي في مجموعها على بناء أو إصلاح ١٤١ وحدة صناعية عظيمة الشأن في التعدين والهندسة المائية ، واستغلال المناجم ، وبناء السيارات والجرارات ، ومعامل تكرير البترول ، والصناعات الكيماوية ، والقوى الكهربائية ... الخ » .

والواقع أن الروس أسسوا في خلال تلك الفترة ٩١ وحدة صناعية جديدة في حين أنهم ساعدوا على إعادة بناء أو إصلاح بقية الوحدات. فكانت هذه الانجازات

بمثابة مفتاح بنـــاء للمشاريـع الأصلية للاقتصاد الصيني الذي تحقق فيما بعـد ، إذ مكنت للصينيين في إنتـاج وسائل النقل من سيـارات وماكنـــات القاطرات والجرارات والطائرات بمصادر صينية خالصة .

وفي عام ١٩٥٤ قدم الاتحاد السوفييتي للصين قرضاً جديداً بمبلغ ٢٥٠ مليون روبل (٤٥ مليون جنيه استرليني بالسعر الرسمي) الى جـانب مبلغ ٤٠٠ مليون روبل لتغطية نفقات وأثمان بقية الـ ١٤١ وحدة صناعية المتفق على إنشائهـا سابقـاً وللمساعدة على بناء ١٥ وحدة صناعية جديدة .

وأعلن أن الماكينات والتجهيزات المخصصة لتلك المشاريـع الـتي بلغ عددهـا ١٥٦ مشروعاً الى جانب ٢١ مشروع بناء جديد قد غطيت جميعاً باتفاقيات بلغت قيمتها ٥٦٠٠ مليون روبل أي حوالي ٤٠٠ مليون جنيه استرليني .

وفي عام ١٩٥٦ أعلن اتفاق جديد لمساعدة علميـة وتكنيكية روسيـة للصين لغرض المساعدة والارشاد في وضع التصاميم العامة لمشروع السنوات الخمس الثاني . ومن أجل التوسع في الصناعة الثقيلة ، وفي بناء الخطوط الحديدية ، ومزيـد من الافران ، والتوسع في استخراج المعـادن من الارض . والبحث العلمي والفني في صناعة الطائرات .

كما وان الصين قد أرسلت عدداً كبيراً من رجالها الى الاتحاد السوفييتي للتعليم والتدريب على استخراج المعادن والجيولوجيا ، والبترول ، وعلى الصناعـة الثقيلة .

كما وعقدت اتفاقية أخرى في ذات العام (١٩٥٦) تعهد فيها الاتحاد السوفييتي بتقديم المساعدة للصين لبناء ٥٥ وحدة صناعية جديدة بالاضافـة الى تكملة مـا لم ينشأ من الـ ١٥٦ وحدة السابقة ، والوحدات الصناعية الجديدة تشتمل على صناعات كيماوية وبلاستيكية والوقود السائل والقوى الكهربائية ... الخ .

وبدأ العمل بإنشاء هذه المصانع في عام ١٩٥٨ ضمن برنامج مشروع السنوات الخمس الثاني . وقدرت مجموع تكاليف المساعدات الاخيرة بـ ٢٥٠٠ مليون روبل (٢٣٠ مليون جنيه استرليني) .

وتقرر أن تسدد الصين هذه القروض السوفييتية بمحاصيل صينية متنوعة بدفعات

تجارية مما أدى الى توسع التجارة الصينية ـ السوفييتية زيادة كبيرة .

وتعهدت روسيا كذلك بالمساعدة في بناء خط سكة حديد سينكيانغ الذي يبدأ من « لانشو » الى « اكتوجيا » في تركستان السوفييتية .

وفي عام ١٩٥٨ عقدت اتفاقية مساعدة فنية جديدة لبناء أو توسيع ٤٧ مشروعاً صينياً آخر .

وتتميز اتفاقيات المساعدات الجديدة التي عقدت في عام ١٩٥٦ وما بعده باعتماد الصينيين على أنفسهم في البناء الاقتصادي ، فالتخطيط والاشراف على البناء وإدارة المصانع كلها صيني خالص . ودور السوفييت لا يتعدى إرسال المواد والأجهزة التي يحتاجها الصينيون .

وكان آخر اتفاق مساعدة قدمه الاتحاد السوفييتي للصين هو اتفاق عام ١٩٥٩ الذي نص على مساعدة قدرها ٥٠٠٠ مليون روبل (أي ٤٤٦ مليون جنيه استرليني) تكتمل في ثماني سنوات .

وبما أن التصنيع في الصين قد قام منذ بدايته على المساعدات الروسية وحدها فان الصينيين لم يكن لهم خيار سوى أن يقتبسوا الأساليب الروسية في التخطيط والعمل وفي الدراسات العلمية ايضاً ، لدرجة ان جامعاتهم ومعاهدهم الفنية تسير على النمط الروسي مما دعاهم الى نشر تعلم اللغة الروسية في الجامعات واقتباس كتب التعليم الروسية .

كما وان الاقتصاد الصيني قد ارتبط بالاتحاد السوفييتي ارتباطاً وثيقاً من الصعوبة فصم عراه . فمن آثاره تأسيس شركات تجارية روسية ـ صينية مشتركة تقوم باستغلال بعض قطاعات الاقتصاد الصيني ـ تلك التي وجد السوفيات منافع ومصالح خاصة لهم فيها .

ومنذ أن ظهرت في الأفق الدولي رائحة الخلاف الخفي بين سياسة كل من الدولتين ، واحتدم بصورة خاصة في المفهوم العقائدي لكل من الاتحاد السوفييتي والصين ، ثم انكشف في نظرة كل منهما نظرة تختلف عن الأخرى في القضايا الدولية ـ وتلك التي تخص كيان الصين ذاتها بخلافها مع جاراتها على تخطيط الحدود .

تقول منــــذ ذلك الوقت (أي قبل أكثر من عامين) والصينيون يعدون العدة للاعتماد على أنفسهم في بنائهم الاقتصادي ، لا بـل أعلنوا أن بإمكانهـم أن يحققوا برامج السنوات الخمس الثاني والثالث دون مساعدة خارجيـة . وأنهم بنوا مصانع بأنفسهم ، لم يكـن باستطاعتهم فيما مضى ، أن يبنوها دون مساعدة خارجية . وأعلنوا أنهم في نهـاية عام ١٩٦٢ سيكونون قادرين على بناء ٧٠٪ من المصانع والمنشآت الكبرى بمصانعهم الخاصة التي يديرونها بأنفسهم .

وفي مصانع السيارات والصلب في « شانغ شونغ » أعلن المشرفون على إدارتها بفخر واعتزاز الاستغناء عن الخبراء الروس ، وان (السيارات التي شاهدناها) صينية خالصة تصميماً وصنعاً .

وأعلن وزير مالية الصين في مجلس الشعب قائلاً : « إن المساعدة الروسية لبلادنا منذ تأسيس الجمهورية في عام ١٩٤٩ وحتى عام ١٩٥٧ لم تزد على ٥٢٩٤ مليون ين (٧٥٠ مليون جنيه استرليني) وهو مبلغ ضئيل بالنسبة لما حققته الصين بنفسها ، ولأن الصين نفسها لم تستلم مساعدة ما من أية دولة أخرى .

ثم انه لو قورنت المساعدة الروسية للصين بالمساعدات التي تلقتها الهند وقدرها ١١٠٠ مليون جنيه استرليني « خلال مشروعي السنوات الخمس » مع ان سكان الهند يبلغون ٧٥٪ من سكان الصـــين ، وانهم في بدايتهم كانوا أكثر تقدماً من الصين لعرف العالم مدى اعتماد الصين على نفسها في بنائها الاقتصادي ، وفي مدى الشوط الذي قطعته في التطوير الصناعي ..

وكان من آثار هذا الخلاف ان سارع الروس في صيف سنة ١٩٦٠ إلى سحب جميـع خبرائهم من الصين جملة واحدة ، ولم يفسر هذا الموقف إلا تفسيراً واحداً هو الضغط على الصين لكي تغير من موقفها الذي اتخذته والذي أدى إلى توسيع شقة الخلاف بين الفريقين اللذين يقودان المعسكر الاشتراكي .

ومع ان الصين تتظاهر اليوم بأنها قادرة على تنفيذ براجها الصناعية بنفسهـا ، ووفق أساليبها الخاصة بها ، إلا ان قادتها يدركون جيداً المدى الذي صارت فيه روسيا تتحكم في تنمية صناعتها واقتصادها .. ويدركون جيداً ان لا أمل لهم في

المستقبل القريب على الأقل في أية مساعدة خارجية قد تأتيهم من أمريكا وحليفاتها لتحل محل المساعدة الروسية الحيوية ... وأخيراً فهم يعلمون كذلك بأن رأسمالهم الوطني ، ودخلهم القومي لا يحققان وحدهما تنفيذ براجهم التي يطمحون إلى الوصول إليها دون مساعدة خارجية ، وهذه المساعدة لن تأتي إلا من الاتحاد السوفييتي ، ولذلك فان رئيس وزراء الصين « شوان لاي » حاول تضييق شقة الخلاف بين بلاده وبين الاتحاد السوفييتي ، غير ان الأحداث المتلاحقة قد خيبت امله !

تقدم الصين الصناعي بالارقام والوصف

*

على الرغم من ضخامة المساعدات السوفييتية وأهميتها في بناء الاقتصاد الصناعي للصين .. إلا انها لم تكن في حقيقة الأمر إلا عاملاً مساعداً للانجازات الجبارة التي حققتها الصين بنفسها ، ولم يكن تأخرها في صناعتها إلا نتيجة لظروفها التاريخية التي أشرنا إليها في أكثر من فصل من فصول هذا الكتاب .

ويدرك الصينيون اليوم أن بلادهم لن تحقق لذاتها الاكتفاء الذاتي ما لم يرتفع مستوى صناعتها ارتفاعاً كافياً ، وان اقتصادهم – على الرغم من كون بلدهم زراعياً – يهيمن عليه بأجمعه أمر واحد وهو التصنيع .

ولعلي بنشر الجداول التي تشير بالأرقام والاحصائيات المستقاة من مصادر دولية ، ومحايدة ، وصينية بنهاية هذا الفصل .. أوفق في اعطاء صورة قريبة من الواقع للتطور الذي حدث في الصين الجديدة .

فالجدول الأول يشير إلى أهداف مشروعي السنوات الخمس الأول والثاني للانتاج الصناعي الرئيسي ، إلى جانب أرقام ذروة الانتاج الذي وصل إليه في عهد الكومنتانغ .

والجدول الثاني بمثابة عرض لتقدم الانتاج في الصناعات الرئيسية إلى جانب

ذروة الانتاج في عهد الكومنتانغ .

وبمقارنة هذا الجدول بالجدول الذي سبقه نستبين انهم قطعوا فعلاً شوطاً كبيرا في قفزتهم .

أما الجدول الثالث فلقد ذكرنا فيه قيمة الانتاج الصناعي العام في الصين ونصيب كل قطاع من القطاعات الأربعة (القطاع الحكومي ، والقطاع التعاوني ، والقطاع الحكومي الخاص المشترك ، والقطاع الخاص) لنكون فكرة عامة معززة بالأرقام عن التطور الاشتراكي في الصين .

أما الجدولان الرابع والخامس فيشيران إلى مقارنة الانتاج الصناعي الصيني بالبلاد الممكن مقارنتها بهـا كالولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي وبريطانيا والهند .

ولقد خصص لنا الصينيون وقتاً كافياً لنأخذ فكرة واضحة المعالم عن صناعتهم ، فزرنا لهذا الغرض المناطق الصناعية حول بكين وبينان ، كما زرنا أواسط الصين وشرقها كـ « ووهان » ونانكين وشنغهاي وهانشاو . ثم زرنا شمال شرقي الصين التي تتركز فيها الصناعات الثقيلة مثل شانغ شون عاصمة اقليم كيرين ويطلق عليها الصينيون اسم « مدينة الريح الشرقية » ومدينة « سنغ يانغ » التي كان يسميهـا اليابانيون « مكدن » وهي عاصمة امبراطورية منشوريا .

وبالوصف الشامل لمشاهداتي هذه يستطيع القارىء العربي إدراك التقدم العظيم الذي أحرزته الصين في مضمار الصناعة ، مما لم يسبق له مثيل في آسيا . وتكفي الاشارة إلى ان الصين اليوم هي المنتجة الثانية للفحم في العالم ، وانتاجها في الأدوات الآلية يفوق انتاج بريطانيا والمانيا ، وفي الحديد والفولاذ تتقدم بخطى ثابتة لتأتي بالمرتبة الثالثة بعد الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ، وبالنسبة للمنسوجـات القطنية ، فهي الآن تسبق الولايات المتحدة ، وانتاج مدينة شنغهاي من النسيج وحده يفوق انتاج بريطانيا . والصين اليوم قادرة على صناعة احتياجاتها مـن قاطرات الديزل ، والطائرات العسكرية النفاثة ، والدبابات والسفن ، والمعدات الالكترونية أيضاً .

الجدول الاول : اهداف مشروعي السنوات الخمس الاول والثاني للانتاج الصناعي الرئيسي

(مليون طن)

الانتاج	الانتاج الاعلى قبل الحكم الشيوعي	عام ١٩٥٢	الهدف المقرر في عام ١٩٥٧	عام ١٩٥٧	الخطة العامة لعام ١٩٦٢
الفحم	٦١ر٩	٦٣ر٥	١١٣ر٠	١٢٤	١٩٠ لغاية ٢١٠
الحديد الخام	١ر٨	١ر٩	٤ر٧	٥ر٨٦	?
الفولاذ الصلب	٠ر٩	١ر٣	٤ر١	٥ر٢٤	١٠ر٥ لغاية ١٢
القوة الكهربائية ببلايين الكيلوواط	٥ر٩٦	٧ر٢٦	١٥ر٩	١٩ر٠١	٤٠ لغاية ٤٣
النفط الخام	٠ر٣٢	٠ر٤٤	٢ر٠	١ر٤٢	من ٥ الى ٦
مصانع الآلات (بالآلاف)	٥ر٠٠	١٣ر٧	١٣ر٠	?	من ٦٠ الى ٦٥
الاسمنت	٢ر٣	٢ر٨	٦ر٠	٦ر٧٥	من ١٢ر٥ الى ١٤ر٥
غزل القطن ببلايين البالات	٢ر٤	٢ر٦	٥ر٠	٤ر٦٥	من ٨ الى ٩
الاسمدة الكيمياوية	٠ر٢٢٧	٠ر١٩٤	٠ر٥٧	٠ر٧٤	من ٣ر٠ الى ٣ر٢

الجدول الثاني : عرض لتقدم الانتاج للصناعات الرئيسية في الصين

المادة	الوحدة القياسية الحسابية	ذروة الانتاج في عهد الكومنتانغ: التاريخ	ذروة الانتاج في عهد الكومنتانغ: الانتاج	١٩٤٩	١٩٥٢	١٩٥٣	١٩٥٤	١٩٥٥	١٩٥٦	١٩٥٧	١٩٥٨	١٩٥٩
الفحم	آلاف الاطنان	١٩٤٢	٦١ر٨٧٥	٣٠ر٩٨٤	٦٣ر٥٢٨	٦٦ر٥٧٢	٧٩ر٩٢٨	٩٣ر٠٦٤	١٠٥ر٩٢٢	١٢٤ر١٨٠	٢٧٠ر٠٠٠	٣٤٧ر٨٠٠
القوى المحركة	مليون كيلوواط	١٩٤١	٥ر٩٥٥	٤ر٣٠٨	٧ر٢٦١	٩ر١٩٥	١١ر٠٠١	١٢ر٢٧٨	١٦ر٥٩٠	١٩ر٠١٠	٢٧ر٥٠٠	٤١ر٥٠٠
النفط الخام	آلاف الاطنان	١٩٤٣	٣٢٠	١٢٢	٤٣٦	٦٢٢	٧٨٩	٩٦٦	١ر١٦٣	١ر٤٢٠	٢ر٢٣٠	٣ر٧٠٠
الحديد الخام	"	١٩٤٣	١ر٨٠١	٢٤٦	١ر٩٠٠	٢ر١٧٥	٢ر٩٦٢	٣ر٦٣٠	٤ر٧٧٧	٥ر٨٦٠	؟	؟
الفولاذ	"	١٩٤٣	٩٢٣	١٥٨	١ر٣٤٩	١ر٧٧٤	٢ر٢٢٥	٢ر٨٥٣	٤ر٤٦٥	٥ر٢٤٠	٨٠٠٠	١٣ر٣٥٠
سلفا الالومونيا للاسمدة الكيماوية	"	١٩٤١	٢٢٧	٢٧	١٨١	٢٢٦	٢٩٨	٣٢٤	؟	٧٤٠	؟	؟
الاسمنت	"	١٩٤٢	٢ر٢٩٣	٦٦١	٢ر٨٦١	٣ر٨٧٧	٤ر٦٠٠	٤ر٥٠٢	٦ر٣٩٣	٦ر٦٩٠	؟	١٢ر٢٧٠
آلات قطع المعادن	عدد وحداتها	١٩٤١	٥ر٢٩٠	١ر٥٨٢	١٣ر٧٣٤	٢٠ر٥٠٢	١٥ر٩٠١	١٣ر٧٠٨	٢٦ر٠٠٠	٢٩ر١٠٠	٩٠ر٠٠٠	٧٠ر٠٠٠
المكائن	بالاطنان	١٩٤١	؟	؟	١٦ر٢٨٩	٢٤ر٠٣٩	٢٣ر٥٣٠	؟	؟	؟	؟	؟
غزل القطن	آلاف البالات	١٩٣٣	٢ر٤٤٧	١ر١٠٣	٣ر٦١٨	٤ر١٠٤	٤ر٥٩٨	٣ر٩٦٨	٥ر٢٤٦	٤ر٦٥٠	٦ر٦٦٠	؟
الاقمشة القطنية	ألف مليون متر	١٩٣٦	٤٥ر٠٠٨	٣٠ر١٧٨	٨٩ر٢٧٣	٨٧ر٧٩٤	١٢٢ر٤٢١	١٠٣ر٢٢٠	٤ ٦٠٠	٥ر٠٥٠	٦ر٤٠٤	٧ر٥٠٠
اطارات السيارات	عددها	١٩٤٣	٧٥ر٠٠٠	٢٦ر٠٢٠	٤١٧ر٨٦٤	٤٨٨ر٠٦١	٧٠١ر٢٥٩	٥٩٣ر٢٤١	؟	؟	؟	؟
الورق	الاف الاطنان	١٩٤٢	١٦٥	١٠٨	٣٧٢	٤٢٧	٥٥٦	٥٨٩	٧٤٦	٩٠٦	؟	١٧٠٠
السكر	"	—	—	—	٢٤٩	٢٩٨	٣٤٧	٤١٠	٥١٨	٥٥٨	؟	؟
السكاير	آلاف الصناديق	١٩٤٧	٢ر٣٦٣	١ر٦٠٠	٢ر٦٥٠	٣ر٥٥٢	٣ر٧٢٨	٣ر٠٦٧	٣ر٩٠٧	٤ر٣١٧	؟	؟

ملحوظة: لا يشمل هذا الانتاج الصناعات اليدوية والحرفية الفردية .

الجدول الثالث : قيمة الانتاج الصناعي في الصين مقدر بملايين الينات بسعره الرسمي المثبت في عام ١٩٥٢

تفاصيل	١٩٤٩	١٩٥٢	١٩٥٣	١٩٥٤	١٩٥٥	١٩٥٦	١٩٥٧
مجموع الانتاج الكلي الذي يشتمل :	١٠ر٧٨١	٢٧ر٠١٤	٣٥ر٥٧٧	٤٥ر٥١٣	٤٤ر٨٤٨	٥٨ر٦٢٠	٦٢ر٧١٠
بضائع رئيسية	٣ر١٠٠	١٠ر٧٣٠	١٤ر٦٧٠	١٧ر٥٧٨	٢٠ر٥٧٨	٢٩ر١٠٠	?
بضائع استهلاكية	٧ر٦٨١	١٦ر٢٨٤	٢٠ر٩٠٧	٢٣ر٩٣٥	٢٤ر١٧٠	٢٩ر٥٢٠	?
مصانع الماكينات التي تشتمل على ما يلي :	١٨٨	١ر٤٠١	٢ر٢٥٧	٢ر٦٤٥	٣ر٠٣٠	?	?
القطاع الحكومي	٣ر٦٨٣	١٤ر٢٥٨	١٩ر٢٣٩	٢٤ر٤٨٨	٢٨ر١٤٢	٣١ر٩٥٠	?
القطاع التعاوني	٥٠	٨٦٣	١ر٢١٦	١ر٥٩٨	٢ر١٥٢	١٠ر٠٣٠	?
القطاع الحكومي الخاص المشترك	٢٢٠	١ر٣٦٧	٢ر٠١٣	٥ر٠٨٦	٧ر١٨٨	١٥ر٨٨٠	?
القطاع الخاص	٦ر٨٢٨	١٠ر٥٢٦	١٣ر١٠٩	١٠ر٣٤١	٨ر٢٦٦	٨٦٠	?

ملحوظة : لا تشمل هذه الارقام انتاج التعاونيات الخاصة او الاعمال الفردية .

الجدول الرابع : عرض بين الانتاج الصناعي في الصين وسائر البلاد الممكن مقارنتها بها (بملايين الاطنان)

الانتاج	الصين عام ١٩٥٨	الصين عام ١٩٦٢ الخطة العامة	الهند عام ١٩٥٨	المملكة المتحدة (بريطانيا) عام ١٩٥٨	الاتحاد السوفييتي عام ١٩٥٨	الولايات المتحدة الامريكية عام ١٩٥٨
الفحم	٢٧٠[١]	١٩٠ الى ٢٠٠	٤٦٫٠	٢١٩	٣٦٠	٣٨٩
تراب الحديد	. .	. .	٥٫٨	١٤٫٨	٨٨٫٨	١٠٧٫٩
الفولاذ الصلب	١١	١٠٫٥—١٢	١٫٧	٢٠٫٠	٥٥٫٠	١٠٢٫٠
القوة الكهربائية بملايين الكيلو واط	٢٧٫٥	٤٠—٤٣	١٢٫٠	٩٨٫٠	٢٣٤٫٠	٧٢٠٫٠
النفط (البترول)	٢٫٢	٥ —٦	—	—	١١٣٫٠	٣٥٤٫٠

١ — يشمل الفحم الناعم المختلط ويطلق عليه اسم « ليكنايت » .

الجدول الخامس :

اهداف الهنود والصينيين في الانتـــاج

(بملايين الاطنان)

المــادة	خطة الهند في عامي ١٩٦٠—١٩٦١	خطة الصين (المتوقعة) لعام ١٩٦٢
الحبوب الغذائية	٧٥ر٠	٢٤٥
الفحم	٦٠ر٠	١٩٠—٢١٠
الفولاذ الصلب	٤ر٣	١٠ر٥—١٢
القوى الكهربائية ببلايين الكيلو واط	٢٢ر٠	٤٠—٤٣
النفط	٠ ٠	٥ —٦

جولة في المدن الصناعية في شمال شرق الصين

- مدينة الريح الشرقية « شانغ شون »
- جامعة كيرين ـ دمج التعليم بالعمل والانتاج
- معامل الصناعة الثقيلة في شينيانغ « مكدن »

مدينة الريح الشرقية « شانغ شون »

✲

لكي يتعرف المـرء على حقيقة القفزة العظمى لنهضة الصين الصناعية ، ويرى وجهها الجديد ويحكم على مستقبل شعبها ... عليه أن يطلع أولاً على صناعاتهـا في منشوريا ، وعليه ثانياً ان يزور مدينة « شنغهاي » قبل ان يفعل أي شيء آخر في هذه البلاد .

> **... يمكنكم الان ايها الصينيون ان تعودوا لزراعة الخضروات ...**
> قول ياباني

وهذا ما فعلناه ، فركبنا القطار متجهين إلى أقصى شمال شرقي الصين ، وعلى بعد ألف كيلومتر من العـاصمة بكين ـ وقد قطعناها بثماني عشرة ساعة، وصلنا مدينة « شانغ شون » عاصمة اقليم كيرين ـ مـــدينة الريـح الشرقية كما يطلقه على اسمها الصينيون الذين استعاروا من زعيمهم « ماوتسي تونغ » كلمته المجلجلة : « ستتغلب الريـح الشرقية على الريـح الغربية » .

ولقد أتاحت لنا الرحلة تكوين فكرة عامة عن سهل منشوريا الشاسع الذي تكتنفه التلال، والمجاور لكوريا وللاتحاد السوفييتي من الشمال، فأرض هذا السهل تتميز بكساء من غرين أسود يواتي بوجه خاص زراعة الحبوب ، فضلاً عن تنظيم باهر للري . وينتج هذا السهل كميات هائلة من فول الصويا ، كما انه يعتبر مـــن

المناطق الرئيسية في الصين لإنتاج نبات الكتان الذي يستعمل بصورة رئيسية كمادة خام في صناعة النسيج ، فضلاً عن إنتاج الشوفان الذي يسميه العراقيون « الدوسر » ، وكذلك القطن .

أما الجنوب الشرقي من مقاطعة كيرين ، فمنطقة جبلية مغطاة بغابات كثيفة بكر ، اشتهرت بأخشابها ، وبفراء حيواناتها ، وخاصة فرو السمور الثمين .

وتعد منشوريا من أغنى بلاد الصين ، إذ تضم في باطنها كثيراً من المعادن كالحديد والفحم ، وهما العنصران الأساسيان لتكوين الصناعة الثقيلة ، ولذلك فلقد كانت منشوريا مطمحاً لأكثر من دولة واحدة .. فتنازعت على السيطرة عليها كل من روسيا القيصرية واليابان في عام ١٩٠٥ في فترة كانت فيه الامبراطورية الصينية تلفظ أنفاسها الأخيرة .

وبانتصار اليابان على روسيا القيصرية اعترفت الأخيرة بنفوذ المصالح اليابانية في جنوب البلاد ، بينما احتفظت روسيا بنفوذها في الشمال على امتداد الخط الحديدي الممتد من روسيا عبر سيبيريا إلى أقصى الشرق .

وفي بداية الحرب العالمية الأولى انتهزت اليابان فرصة اشتغال الدول الأوروبية الاستعمارية التي تقاتل بعضها البعض ، فأعلنت الحرب على المانيا ، لتبرر انقضاضها على اقليم « شياوشو » وهو الاقليم الذي كانت المانيا قد استأجرته من الصين في بداية القرن العشرين ...

وفي فترة الأزمة الاقتصادية العالمية التي كادت تقضي على الاقتصاد الأوروبي والأمريكي عام ١٩٣١ زحفت اليابان على منشوريا وطردت الجيش الصيني من مكدن « شينيانغ » واحتلت جميع منشوريا ، وأقامت «بويي » امبراطور الصين السابق رئيساً لجمهورية منشوكو التي أنشأتها في ربوعها، ثم نصبته بعدئذ امبراطوراً عليها . ثم عقدت مع الدولة الجديدة حلفاً سياسياً ، ثم تغلغلت فيها اقتصادياً ، وسيطرت عليها عسكرياً ، وجعلت لنفسها مركزاً ممتازاً يمكنها من استغلال موارد منشوريا الطبيعية ، واستخدام سكانها ، وفتح أسواقها للتجارة اليابانية.

واقامت اليابان في منشوريا نظاماً اقتصادياً يتسم بالطابع الاستعماري فاستغلت

خيرات البلاد ومناجمها ، وأقامت فيهـا صناعة واسعة تشغل بها الأيدي الصينيـة بأرخص الأجور .

وبعد استسلام اليابان في الحرب العالميـــة الثانية ، احتل الروس منشوريا ثم اعترفوا بالحكومة الشعبية التي أسسها الشيوعيون هناك .

وبكون منشوريا مركزاً صناعياً ، كانت في طليعة البلاد الصينية التي سارت نحو الاشتراكية ، فأصبحت المصانع والوحدات الصينية المجمعة التي استولى عليهـا الشيوعيون الصينيون من اليابان المنهزمة تابعة للدولة ، ومـــن منشوريا انطلقت الحركة الشيوعية إلى الصين كلها ، كما أن الدور الذي أدته في الاقتصاد الصيني كان دوراً رئيسياً على الرغم من التخريب الشامل الذي أحدثه اليابانيون في صناعتهـا خلال فترة انسحابهم من منشوريا بعد استسلامهم للأمريكان عام ١٩٤٥ .

لقد بذلت جمهورية الصين الشعبية جهوداً عظيمة لإعادة بناء صناعة الصلب في هذه المنطقة ، باعتبار هذه الصناعة هي الأساس الذي تبني عليه صرح اقتصادهـا الصناعي ، فأعادت بناء ما دمره اليابانيون ، حالما تسلمت إدارة هذه المنطقة مـن السوفييت .

ولقد أخـذ الاتحاد السوفييتي على عاتقه مساعدة الصينيين في إعـــادة تنظيم الانتاج ، فأرسل المعدات والخبراء إلى منشوريا ، وبعد عامين من قيام جمهوريـة الصين الشعبية افتتحت في مدينة « آنشان » ثلاثة مصانع كبيرة : مصنع لإنتاج ألواح الصلب ، ومصنع آلي لإنتاج الأنابيب بلا لحام ، والأفران الآلية العالميـة المعروفة برقم ٧ .

وأعيد بناء « فوشون » الواقعة على بعد ٦٠ كيلومتر من « شينيانغ »، حيث أسست فيها معامل لتكرير البترول ، وأنواع شتى من المصانع . وأعيـد استثمار مناجم الفحم التي اشتهرت فيها هذه المدينة ، والتي سبق للصينيين ان اكتشفوهـا في القرن الثاني عشر للميلاد قبل غيرهم من الأمم بعدة قرون .

وكان اليابانيون يستغلون مناجم فحم فوشون بمقياس واسع فكانوا يستخرجون منها حوالي ٣٥ مليون طن في العام الواحد ..

وأحدثوا فيها عند انسحابهم تخريباً كبيراً ، غير أن الصينيين أصلحوا ما خربه اليابانيون فارتفع انتاجهم من الفحم إلى ان بلغ ١٢٤ مليون طن في عـام ١٩٥٧ وقدروا في خطتهم العامة إيصاله إلى مـا بين ١٩٠ و ٢١٠ مليون طن في أواخر عام ١٩٦٢ (تراجع الجداول الملحقة في الفصل ١٥) .

ويستخدم الصينيون الفحم كله في حاجات الصناعة الثقيلة ، ويخصص جـــزء ضئيل جداً كوقود لعمال الاقليم .

*

وتفخر مقاطعة كيرين بما فيها مـــن صناعات المحركات والماكينات والورق والقنب والسكر ، تلك الصناعات التي تنمو بسرعـة عظيمة حيث تتوفر القوى الكهربائية المائية إلى جانب المواد الخام . وان من أهم الموادة مادة « كاربيد الكالسيوم » وهو عنصر مهم في صناعة أكثر من ألفي منتوج كيماوي من ضمنها الألياف الاصطناعية والبلاستيك والمطاط الاصطناعي .

وقد وضع إنشاء مصنع كاربيد الكالسيوم الحجر الأساسي لتطوير مركبات الصناعة الكيماوية العضوية في الصين ، فأقيمت مصانع لتحضير الأسمدة والصباغات فباشرت الانتاج في عام ١٩٥٧ .

وقد بذلت حكومة الصين جهوداً كبيرة في انتاج معدات جديدة للزراعة في هذه المنطقة بغية تطوير الانتاج الزراعي ، فأنشأت في كيرين مصنعـــاً للآلات الزراعية . كما ان عمليات الانتاج في مناطق كيرين الجبلية تجري منذ عام ١٩٥٦ بواسطة الآلات بدلاً من ضياع جهود الانسان .

ولعل أكثر ما تفخر به هذه المقاطعة هو مصنع رقم (١) للسيارات وهـو الأول من نوعه في الصين ، وقد شيد في مدينة شانغ شون ذاتها .

يبلغ سكان شانغ شون أكثر من مليون نسمة، وهي مدينة عصرية، لا تختلف في مظهرها عن أية مدينة أوروبية كبرى – ان لم تتفوق عليهـــا بجمالها وسعة شوارعها وحداثة أبنيتها وعماراتها الضخمة ... وهي كسائر مدن الصين الأخرى ليس فيها معارض ومخازن تجارية تلفت النظر ، ذلك لأن النظام الاشتراكي قد

حد من استهلاك الكماليات كثيراً ، فضلاً عن ان العمال والفلاحين الذين يؤلفون غالبية السكان في كل مكان في الصين يشترون ما يحتاجونه من مواد ضرورية من المخازن الجماعية الموجودة دائماً في مراكز أعمالهم .

لقد كنا أول من زار مصنع رقم (١) للسيارات من العراقيين ، ان لم نكن أول فريق من العرب ، تطأ قدمه أرض هذه البلاد . وكان في استقبالنا حشد كبير من العمال قد اصطفوا على جانبي الطريق المؤدي إلى مجموعة المصنع ، يضربون الطبول ، ويعزفون بموسيقاهم الوطنية تكريماً لنا ... ويصفقون لنا بحماسة ، ويهتفون بحياة العراق ، وكان بعضهم لا يتمالك نفسه فيخترق الصفوف لمصافحتنا ، ويعبرون عن تحيتهم بابتسامات لا تفارق وجوههم الطيبة .

والصينيون يفتخرون بأن معملهم هذا ، هو أول معمل للسيارات أقيم في الصين كلها ، ولقد شيد على أرض تبلغ مساحتها ٨٠٠ ألف متر مربع. ولقد وضع الحجر الأساسي لبناء المصنع في عام ١٩٥٣ وبدأ انتاجه في عام ١٩٥٦ بمعاونة ومساعدة الاتحاد السوفييتي إذ لم تكن للصينيين خبرة سابقة في هذه الصناعة، فعمل ٥٠٠ مهندس وخبير سوفييتي على بنائه وتأسيسه إلى جانب ١٠٠ خبير سوفييتي في الانتاج .

وقال لنا الصينيون : ان خطط بناء المصنع وضعت على أحسن وجه، وأحدث تصميم ، وجهز بأحدث ماكينات الانتاج ، وان الخبراء الروس قد انسحبوا جميعاً من المصنع بعد السنة الأولى من انتاجه ، فاستلمه المهندسون والخبراء الصينيون في عام ١٩٥٧ وتديره الآن أيد صينية خالصة بكفاءة تامة .

لقد أقيمت ورش المصنع على نصف مساحة الأرض وأقيمت على النصف الآخر مساكن العمال وأبنية الخدمات العامة .

وان قابلية انتاج المصنع تصل إلى ٣٠ ألف لوري حمولة ٤ أطنان في العام الواحد . وانهم انتجوا في عام ١٩٥٧ نحو ٧٠٠٠ لوري ، وارتفع العدد فوصل في عام ١٩٥٨ إلى ١٩٠٠٠ لوري إلى جانب ستة آلاف مضخة ماء انتجها المصنع . وانهم يتوقعون انتاج ١٥٠ ألف لوري في كل عام من أعوام القفزة الكبرى،

عندما يتلافون النقص في انتاج الفولاذ .

وإلى جانب صناعة اللوريات فان المصنع قد أنتج أول سيارة ركوب صغيرة في مايو « ايار » ١٩٥٧ وسميت باسم الريح الشرقية ، كما انتج في سنة ١٩٥٨ أول سيارة ركوب ضخمة كبيرة وسميت باسم « العلم الأحمر » ولقد شاهدنا السيارة الأولى من سيارات العلم الأحمر التي انتجها المصنع ، وهي تشبه كثيراً سيارة « كرايسلر » الأمريكية .

ان جميع المواد الاحتياطية للسيارات واللوريات تصنع في المعمل . أما الاطارات وكرات البلي « بول برن » والمواد الكهربائية التي تحتاجها السيارات فتصنع في معامل أخرى قريبة وترسل جاهزة لهذا المعمل . وتبلغ كلفة اللوري الواحد حوالى ١٢،٠٠٠ يناً في حين ان كلفته في بداية الانتاج كانت تزيد على ٢٠،٠٠٠ يناً .

والمصنع بحد ذاته مدينة كاملة . يبلغ تعداد عماله عشرين ألف عامل . ويبلغ السكان حوالى ستين ألف نسمة ، ونسبة العاملات في المصنع يتجاوز ١٨ ٪ من مجموع العمال . ونسبة العمال الشبان الذين تقل أعمارهم عن ٢٥ سنة تصل إلى ٨٠ ٪ من المجموع .

ويقطن العمال وأسرهم في بنايات ضخمة حديثة تتوفر فيها جميع أسباب الراحة إلى جانب الحدائق والنوادي والملاعب ودور السينما والحوانيت والمدارس ودور الحضانة وروضات الأطفال .

ولعلي لا أبالغ إذا قلت بأن أعظم ما شهدت في الصين هو دور حضانة الأطفال ، وروضات الأطفال في هذا المصنع فلقد شهدت أطفالاً في جمال الورد ، سعداء، مكتنزين لحماً ، يرتدون ملابس أوروبية نظيفة جداً ، يرقصون وينشدون على لحن البيانو الذي تعزفه مربيتهم . ينامون على سرر غاية في الروعة والجمال والنظافة والراحة .

ولقد استقبلنا الأطفال بصيحات فرحهم ومرحهم وطلبوا منا أن نحملهم ففعلنا.

ثم زرنا بيوت العمال ويختلف عدد غرف كل شقة منها بالنسبة لكبر أو صغر

العائلة . فالزوجان اللذان لديهما طفلان يقطنون جميعاً في شقة مؤلفة من غرفتي نوم ومطبخ وحمام ومرحاض . ولا تحتوي الغرف إلا على سرر النوم ومنضدة وكرسي واحد ، والمطبخ مزود بالماء الحار والبارد وبغاز الطبخ والكهرباء .

تتراوح رواتب المهندسين والعمال الشهرية في هذا المصنع ما بين ١٠٥ يناً و ٥ر٣٣ يناً (ما بين ١٦ جنيه و ٥ جنيه) . وقد يتصور القارىء بان الرواتب قليلة تافهة ، والواقع انها ليست كذلك في الصين ما دامت لها القوة الشرائية الكافية .

وسألت العامل « شانغ » عن مرتبه الشهري ، فقال : انه يتقاضى ٤٠ يناً وان ١٥ يناً تكفيه لإعالة نفسه ، ويرسل الـ ٢٥ يناً المتبقية لعائلته المعوزة التي تقطن الريف .

ويشتري العامل صحن الرز من المطبخ العام بستة سنتات (٩ مليمات مصرية) أما صحن الطعام الكامل « ديش » فيباع بعشرين سنتاً (٣٠ مليماً) .

وتتكفل دور الحضانة في هذا المصنع بتربية واعالة أطفال العمال مقابل ٤ ينات عن كل طفل في الشهر الواحد (٦٠ قرشاً مصرياً أي ٦٠٠ فلساً عراقياً) .

وزرنا مسكن أحد العمال المتزوجين وعنده طفلان ، ينامون جميعاً في غرفة واحدة ، ويدفع مقابل السكن بما فيه الماء والكهرباء حوالى ٥ر٣ يناً وتصرف العائلة على قوتها الشهري ٣٠ يناً .

وبعد ان أنهينا زيارتنا لمصنع السيارات رقم (١) طلب إلي ان أكتب كلمة في دفتر الزيارات فكتبت باللغة العربية : لقد عرفت الصين أسرار مغاليق الغرب ففتحتها ...

جامعة كيرين[1] ـ دمج التعليم بالعمل والانتاج

*

تقع جامعة كيرين في إحدى ضواحي مدينة شانغ شون . فاستقبلنا عند مدخلها عميد الجامعة وبعض أساتذتها ، وكعادة أهل الصين التقليدية ذهبنا لقاعة الاجتماع حيث شربنا الشاي الأصفر ، واستمعنا إلى خطبة العميد الترحيبية ـ السياسية الجامعة ، الايضاحية ، فقال :

تأسست هذه الجامعة في عام ١٩٤٦ في هاربين ـ شمال الصين ، قرب حدود سيبيريا ، لغرض تزويد الدولة بالموظفين وسد نقص الكادر .

وبعد التحرير في سنة ١٩٥٠ سميت باسم : جامعة الشعب وكانت تحتوي على اربع كليات : السياسة والقانون والمالية والاقتصاد .

وفي عام ١٩٥٢ تكاملت الجامعة بعد ان تأسست كلية العلوم الطبيعية . ولقد فكت ارتباطها بالحكومة المركزية والتحقت بحكومة الاقليم « كيرين » وسميت باسم الاقليم .

كان عدد الطلبة في سنة ١٩٥٢ : ١١٠٠ تلميذ ، ١٥٠ أستاذ ومساعد استاذ . وقسمت إلى تسعة أقسام : العلوم الطبيعية وتتألف من : الرياضيات والطبيعيات وعلم الحياة والكيمياء .

أما الأقسام الخمسة الأخرى فهي : قسم الفلسفة ، الأدب الصيني ، التاريخ ، الاقتصاد والقانون .

وفي عام ١٩٥٨ بلغ عدد طلبة الجامعة ٣٥٠٠، أما الأساتذة فعددهم ٥٠٠، منهم ٥٠ بروفسوراً و ١٥٠ محاضراً و ٣٠٠ استاذاً مساعداً .

ولقد سرت عدوى « سياسة القفزة » على الجامعة ، فانتهزت فرصة العطلة الصيفية ورسمت سياسة اصلاح التعليم الجديدة ، وأصدرت تعليماتها لتطوير التعليم

---

١ ـ لا يوجد في حروف اللغة الصينية حرف « الراء » وينطقونه بـ « اللام » فيتلفظوا كيرين بـ « كيلين » والعراق بـ « الاك » .

لتحقيق طريقة « جي جين » أي دمج التعليم بالعمل والانتاج .

ولقد أوضح العميد هذه السياسة قائلًا : انها تحتوي على مبـــدأ أولي في الماركسية لمحو الفوارق بين المثقفين والعمال ، وبين ابن المدينة وابن القريـــة . وأضاف قائلًا :

لقد نجحنا في هذه التجربة خلال الأسابيع الستة المنصرمة نجاحاً كبيراً ... واننا الآن ساعون لتحقيق حملة جديدة باحداث قفزة أخرى في البحث العلمي ، وسنعمل منذ الآن على انتاج ألف آلة علمية خلال الشهور الثلاثة القادمة لنقدمها هدية إلى شعب الجمهورية في رأس السنة الجديدة .

اما انجازات الشهور الثلاثة الأولى من تطبيق مبدأ دمج التعليم بالعمل والانتاج فلقد تحدث عنها العميد باسهاب فقال : ان هدفنا هو بناء ثلاثين معملًا لصناعـــة المعادن وصناعة الصلب للمشاركة مع الحكومة المركزية في التفوق على بريطانيا في صناعة الصلب . وترون الآن ثلاثمائة تلميذ يبنون أحد معامـل الصلب ولم يشترك معهم إلا أفراد معدودون من العمال المهنيين لغرض توجيه الطلاب الذين اتبعـوا تصميماً جديداً في البناء مستخدمين البناء الصيني القديم . وان ما ترونه الآن من انتاج الصلب ان هو إلا طريقة أولية ، على اننا سنستخدم خلال الشهرين القادمين ١١ فرناً حديثاً ستة منها للصلب وخمسة للحديد . وسيبلغ انتاجنا بعد شهرين فقط منذ الآن ٣٠٠٠ طن من الصلب وسيرتفع انتاج الصلب في السنة القادمـــة إلى ٣٠،٠٠٠ طن .

وإلى جانب قسم الحديد والصلب فلدينا أربعة أقسام أخرى هي :

١ — معمل لصنع المضخات والجنزيرات وترون نماذج انتاجها .

٢ — معمل كيمياوي .

٣ — معمل ادوات منع الحرارة .

٤ — معمل لصنع الآلات للعلوم الحديثة التي تستعملها المختبرات .

وقال العميد :

ان معظم الطلاب يعملون نصف وقتهم ويدرسون في النصف الآخر . وحتى

الأقلية منهم فانها تعمل ثلاثة أشهر في السنة وهي وقت العطلة ؟ إذ أن مصلحة شعب الصين تقتضي تجنيد المواطنين في عمل متواصل .

ولقد أجاب العميد على سؤال : مـا إذا كان العمل يؤثر على المستوى العلمي للطلاب : لقد أهملنا تدريس بعض الدروس ، واقتصرنا العطلة الصيفيـة على شهر واحد .

وأجاب على سؤال فيا يختص بالشؤون المالية لمثل هذه المشاريع قائلًا : لقد أعطتنا المجالس البلديـة المواد الأولية ، وأعطيناها الانتاج . ثم اقترضنا فسددنا القروض .

أما نصيب التلميذ من العمل فلقد أوضحه العميد بقوله : تطبيقاً للنظريـــة الاشتراكية فاننا نقدم لكل شخص حاجته من الملبس والمأكل مجاناً . اما التلميذ الحائز على الشهادة العلمية ويسمى « عالم » فنعطيه مخصصات شهرية قدرها ١٣٫٨٠ يناً « جنيهين » بالاضافة إلى دراسته المجانية .

وقال بصدد الانتاج العلمي : ان ١٦٠٠ تلميذ واستاذ قد أنتجوا ١٨٨ مؤلفاً و ١٥٧ كتيباً وبلـــغ مجموع كلمات الانتاج ٢٣ مليون كلمة . ولقد طبعت جميع هذه الكتب على أيدي التلاميذ وترونها الآن على الرف الموضوع في هـذه القاعة .

وتطبـع الجامعة جريدتين : واحدة للعلوم الطبيعية والأخرى للعلوم السياسية والفلسفة .

وفضلًا عن ذلك فطلاب الجـامعة قد ساهموا في النشاط السياسي وساعدوا في تنظيم مظاهرات « المليون انسان » الذين تظاهروا يوم ١٦ تموز ١٩٥٨ لمدة اثنتي عشرة ساعة متواصلة تأييداً لثورة العراق الجبارة التي حطمت قواعد الاستعمار في بلادكم وأبادت الملكية والاقطاع والرجعيين الفاسدين .

وختم العميد حديثه قائلًا : لقد بدأنا بتطبيق مبدأ « جي – جـين » بإنشاء معمل بدائي لصهر الحديد فاستقرض التلاميذ ٣٠٠ يناً من المجلس البلدي لإنشائه ولقد سدد التلاميذ القرض ولديهم الآن ألف ين (حوالى ١٥٠ جنيهاً) .

ولقد شهدنا الطلاب الجامعيين وبعض أساتذتهم « البروفيسورية » بملابس العمال وقد وضعوا الكمامات على وجوههم في وسط الدخان وقريباً من لهب الحديد المصهور الذي استحال إلى ماكينات للانتاج ...

كما شاهدنا اخوانهم يبنون مصنعاً ضخماً يبلغ طوله عشرات الأمتار وكذلك عرضه ، ويزيد ارتفاعه عن ١٠ أمتار .. يعملون وقد أخذت الشمس في المغيب .

وطفنا في مباني الجامعة ، وشهدنا مختبراتها العلمية الحديثة التي لا نظير لها إلا في الجامعات الأوروبية والأمريكية .

معامل الصناعة في شينيانغ « مكدن »

*

لقد اتخذ اليابانيون من مكدن – التي لا يرتضي الصينيون تسميتها إلا باسم « شينيانغ » قاعدة رئيسية لإدارة المناطق الشمالية من الصين خلال فترة احتلالهم لأقسام كبيرة من الصين .

والمدينة كبيرة يتجاوز سكانها المليونين ، وهي عامرة جداً وتتوسط مناطق غنية بالمعادن . ولقد أنشأ اليابانيون بعض الصناعات فيها .

وعندما اضطروا إلى اخلائها بعد حرب التحرير دمروا جميع معاملها تدميرا كاملاً ، وقالوا للصينيين : يمكنكم الآن ان تعودوا لزراعة الخضروات .

ولقد عادوا فعلاً لزراعة الأرض واستثمروها أعظم استثمار ، ولكنهم إلى جانب ذلك لم يعيدوا تصليح المعامل الصغيرة أو الورش فحسب ، بل أسسوا على أنقاضها أضخم معامل الصناعة الثقيلة التي يمكن لبلد صناعي متقدم ان ينشئها .

ان شينيانغ هي مركز سكة حديد القسم الجنوبي من الشمال الشرقي الصناعي في منشوريا ، وهي بؤرة التجمع لحوالى ١٢ مدينة رئيسية ، وتتميز هذه المنطقة بتشكيلة كبيرة من المصانع يتفاوت تقدمها التكنيكي تفاوتاً كبيراً ... فإلى جانب المصانع الآلية الحديثة هناك وحدات صناعية في حالة انتقالية طريفة

حيث تتراكب الطرائق اليدوية القديمة مع الانتاج التكنيكي الحديث ، ويقول الصينيون بصدد هذه المفارقات انهم « يمشون بكلا الساقين » .

لقد زرنا في شينيانغ معملين للصناعة الثقيلة أولهما معمل صنع الأفران والكرات « بول برن » والمكابس . وآلات تفتيت المعادن .

والثاني يصنع مختلف آلات الانتاج كماكينات التورنات (الورش) كما زرنا مصنعاً للأحذية واطارات السيارات .

ولقد شيد المعمل الأول على أنقاض ورشة مدمرة تدميراً تاماً ، استخدمها خيالة جيش الكومنتانغ كاصطبل قبل ان يحررها جيش التحرير الشعبي منها .

ومنذ سنة ١٩٥٢ حتى سنة ١٩٥٧ تطور المصنع وتوسع انتاجه بشكل عجيب وزاد الانتاج خلال تلك الفترة خمسة أضعاف ، ويشغل الآن مساحة من الأرض تزيد على ٧٠٠ ألف متر مربع .

ويشتغل في المعمل اليوم ١٠٥٠٠ عامل وموظف ، واتخذ المعمل سياسة اشتراك العمال في وضع سياسة الانتاج ، ومناقشة خطط التوسع ، وفي تطوير وسائل الانتاج ، وادخال تحسينات جمة على المصانع . ولقد اتت هذه السياسة بنتائج باهرة .

وتلبية لأوامر الحزب القاضية بزيادة انتاج الصلب لأقصى حد ممكن استطاع العمال بحماستهم العظمية ومساهمة منهم لتحقيق سياسة القفزة أن ينشئوا مصنعاً لصنع الفولاذ في شهر واحد بينما كان مثل هذا المصنع يصنع في ستة أشهر ، ويعتقد مدير المعمل بأن عماله قد ضربوا رقماً قياسياً في هذا ، كما انه يفتخر بأن عماله أنتجوا في ثمانية شهور ما كانوا ينتجون لسنة واحدة ، وانهم صنعوا ستة أفران اضافية على المنهاج المقرر ملبين بذلك طلب الحزب .

ولقد اتخذ العمال في الآونة الأخيرة سياسة : العمل والبناء في وقت واحد .. ولقد شاهدناهم فعلاً يعملون وينتجون في ذات الوقت الذي كانوا يقيمون أفراناً هائلة ، وماكينات ضخمة في ورشة جديدة يبنون جدرانها وسقوفها أيضاً .

ان معدل أجور العمال هو ٦٥ يناً ، وتقرر الأجور بالنسبة للانتاج ، والعمال

يعملون حتى في أيام الآحاد (أي يام العطلة الرسمية) ولقد اتخذ العمال كافة الوسائل لرفع مستواهم السياسي والفني ، وقضوا على الأمية فيما بينهم نهائياً ... ولقد أفادت سياسة اعلانات التشجيع لزيادة الانتاج كما أفادت الصور والكاريكاتور التي يرسمها العمال ويلصقونها في الأماكن البارزة من المعمل .

مصنع آلات الانتاج

*

وانتقلنا إلى المصنع الثاني الذي كان في الأصل ورشة صغيرة وهو الآن من المصانع الصناعية الثقيلة يضم ٦٠٠٠ عامل وموظف . وفي بداية عام ١٩٥٨ كان انتاجه الشهري يتراوح بين ٣٠٠ و ٤٠٠ تورنة غير ان اشراك العمال مع الادارة في وضع سياسة تطوير المصنع وتحسين انتاجه ، وإدخال وسائل مبتكرة للانتاج وتحقيقاً لسياسة القفزة، فان الانتاج الشهري قد ارتفع فبلغ في شهر ١٠٠٠ تورنة.. ويقول مدير هذا المعمل اننا نعمل بنصيحة الرئيس « ماو » الذي يقول :

أوضحوا « الغاية » للجماهير ودعوها تختار الطريق .

ولقد أنهينا زيارتنا لمصانع الصناعة الثقيلة بتجوالنا في أحياء مدينة العمال المقامة حديثاً فشاهدنا ٢٥٠ مجموعة « بلوكات » يقطنها ٥٠٠٠٠ عامل ، وفي المجموعات هذه حدائق وناد . وجميع الخدمات الاجتماعية والبنايات مؤلفة من ثلاثة طوابق تخترقها شوارع مبلطة نظيفة .

مصنع المطاط

*

ثم انتقلنا إلى مصنع المطاط ، وانتاجه الأساسي هو : أحذية المطاط ، ويعمل في هذا المصنع ١٥٠٠ عامل إلى جانب ٣٠٠ اداري وخبير .

والمصنع يشتغل ليلاً ونهاراً بثلاث وجبات ، وينتج يومياً ٢١٠٠٠ زوج من الأحذية .

وبعد قرار الحزب للقفزة ، أخذ المعمل ينتج يومياً ١٠ اطارات لسيارات الريح الشرقية بطرق بدائية إلى جانب ٤٠ نوعاً آخر من المواد المطاطية كالأنابيب ، والأرضيات ، والمواد الأخرى التي تستعمل عادة في السيارات .

ولقد لاحظنا في هذا المعمل ان الادارة قد أخذت على عاتقها توسيع الخدمات العامة لعمالها ، فأسست حوانيت لبيع الحاجيات الضرورية بأسعار مخفضة .

ان زيارتنا لمعامل الصناعة الثقيلة في شينيانغ وغيرها من المراكز الصناعية الرئيسية في منشوريا أعطتنا فكرة صحيحة لا عن التقدم الصناعي الذي حصلت عليه الصين وحسب .. وإنما عن واقعية المستقبل الذي اعتزم شعب الصين تحقيقه .

فلقد تخطت الصين مرحلة من مراحل التطور ، فتركت الماضي ليدون كقصص من أحداث التاريخ ، لا بل اعتبرت حاضرها مرحلة موقتة عليها ان تجتازها بثبات إلى مستقبل مرسوم هو بلا شك أفضل من الحاضر ، وبداية تحمل في طياتها امكانيات تنمية ضخمة لا على انها آمال ، وإنما على انها واقع ملموس لا شك في تحقيقه .

ومن هذا التصميم والعزم ، يفتخر الصينيون حين يطلعون ضيفهم على مصانعهم الحديثة المجهزة بأحدث الوسائل والآلات ، والتي يجري العمل فيها بطريقة آلية لا تمسها يد عامل ، وبإشراف عدد قليل من العمال والمهندسين ..

ويفتخر الصينيون كذلك بمصانعهم البدائية التي تنتج بآلات خشبية تحركها الأيدي العاملة ، وهم إذ يجمعون بين النقيض لغرض زيادة الانتاج ، موقنون بأن حاضرهم سرعان ما يختفي بين طيات الماضي ، وواقع المستقبل الذي رسمت معالمه وحددت أهدافه .

ولذلك فانهم لا يرون في عدم تجانس الأساليب الفنية في صناعتهم ما يدعو إلى الشك في تقدمهم .. أو يضعف أملهم في بناء صين صناعية تليق بهم كأمة حضارية عظيمة .

ففي مصانع الأدوات الآلية في شينيانغ ، وأفران انشان العالية يرى الزائر أحدث الآلات التي تصنع الصلب تحت إشراف عدد قليل من العمال ، حيث يكاد يكون الانتاج كله آلياً ، فينصب المعدن المنصهر من دلو بحركة آلية ، كما ان حركة القوالب التي تتكون فيها القطع ، حركة آلية أيضاً .

وترى العمال وهم يتحكمون بعصي من الصلب في مجرى الحمم الذي ينطلق من الأفران ، ويسير ثم يتصلب وهو يغلي في الأحواض العظيمة ...

ويقف المرء مشدوهاً وسط المصنع (وهو واحد من عشرة تؤلف مجموعة المصنع كله) ، ويبلغ طوله ٥٠٠ متراً ، وعرضه ١٦٠ متراً . وقد بنيت الأفران النفاخة التي يبلغ عرض كل واحد منها ٤٠ متراً على احد جوانبه بارتفاع ٦٠ متراً ، وهي تقذف بحممها الجهنمية ، لتخرج الصلب كالماء الذي يستحيل بسرعة إلى قضبان لسكة الحديد ، أو إلى ألواح فولاذية أخرى ، تحركها الزحافات والرافعات الميكانيكية إلى حيث تقف شاحنات القطار التي تنقلها إلى الخارج .

وان ما رأيناه ليس سوى مصنع من ٦٠ مجموعة أخرى بنيت في شتى أرجاء الصين ، قدم الاتحاد السوفييتي ٢٠ مجموعة منها .

وإلى جانب هذه المشاهد المثيرة ، تجد الطالب الجامعي وهو يرتدي زي العمال ينقل بالسلال مادة الحديد الخام ليلقيها بالفرن البدائي الذي يصهرها ويطهرها ، ثم يحمل الصلب المنصهر في وعائه الفولاذي إلى القوالب الأرضية ليخرج منها آلة ، سرعان ما تنقل إلى جهة أخرى لتنتج هي بدورها شيئاً جديداً ..

ثم ترى هذا الطالب ، أو ذاك العامل وهم جميعاً يحملون الطين والطوب في السلال ليشيدوا بطرق بدائية بناء لمصنع جديد .

انهم يعملون جميعاً لمستقبل مفتوح لا حدود له ، يعرفون ماذا يريدون وكيف يعملون . وعمالهم مهرة ممتازون يحبون آلاتهم ، ويعبدونها ، وعدد كبير منهم تخطر لهم أفكار موفقة يطبقونها في تحسين أدوات انتاجهم .

عودة إلى بكين

- المعرض الصناعي
- في مصنع نسيج بكين رقم ٢

المعرض الصناعي

*

لم يكن في استطاعتنا زيارة جميع المنطقة الصناعية في منشوريا، وإلا لاستغرقت إقامتنا في الصين أسابيع اضافية جديدة على الأسابيع العشرة التي قضيناها هناك..

ان مدير مصنع شركة الصلب في انشان (ولم أفهم سر تسميتها بشركة) محق كل الحق باشارته إلى تلك المنطقة قائلًا : لدينا ٤٠ منجماً ومصنعاً ووحدات تحويل .. والجميع يتبعون أسلوباً واحداً ، وهو الانتاج .. ان شعبنا – وعلى الأخص فلاحينا – لم يكونوا محتكين بالآلات كالأوروبيين والأمريكان ، ولقد كانت عقولهم «لاميكانيكية»، وكثير منهم كانوا يخافون العمليات التكنولوجية.. ولكنهم يستطيعون الآن صناعة أدواتهم .. وكأنهم في اعتيادهم على الميكانيك أصبحوا كالبط الذي اعتاد على الماء .

وبهذه الكلمات الموجزة يستطيع القارىء العربي ان يكون لديه فكرة عميقة عن تقدم الصين الصناعي دون ان يضطر إلى تكرار زيارات مشابهة لبعضها في المصانع .

ان المعرض الصناعي الكبير الذي أقامه الصينيون ، وافتتحوه في موسم أعياد تشرين اول « اوكتوبر » يتيح للأجنبي أخذ فكرة ملموسة عن تقدم الصين الصناعي في شتى مجالاته ، والحقيقة هي ان الصينيين لم يقيموا معرضهم هذا بدافع تجاري كما تفعل الدول الأخرى المنتجة ، لإغراء الناس على الشراء ، أو إغراء

المستوردين الأجانب إلى التعاقد على شراء تلك المنتجات لتسويقها إلى بلادهم ...

إنما أقاموه ليشهد مواطنوهم نهضة بلادهم وتقدمها في شتى المجـــالات ، ولكي يضعوا أمام أعين ضيوفهم الأجانب الذين يتقاطرون على الصين من مختلف أرجاء الدنيا بمناسبة أعياد تشرين اول « اوكتوبر » من كل عام ما استطاعوا إنتاجـه وتحقيقه في مختلف قطاعات الحياة العامة .

ففي القسم الخاص بالانتاج الزراعي يرى الزائر كل ما تنتجه الصين ، ويرى نماذج لا على مستويات الانتاج في الحقول التجريبية إلى جانب الآلات والأدوات الحديثة والأسمدة التي تستخدم في الانتاج الزراعي ، فضلاً عن الصور والايضاحات والأرقام التي تعطي فكرة إجمالية للانتاج ، ولحياة الفلاحين ، وجهدهم في التطوير الزراعي لزيادة الانتاج ولرفع مستوى حياة الفلاح .

ويحتوي القسم الخاص بالصناعات الخفيفة، الانتاج المتنوع الذي يكفل لمواطني الصين اكتفاءاً ذاتياً يكاد يكون جميعه من صنع الصينيين أنفسهم وبالمواد الخـــام المتوفرة في بلادهم ...

ولا يكاد المرء حين يرى القسم الخاص بالصناعات الثقيلة يصدق عينيه ، وهـو يرى القاطرات والطائرات والسيارات والمحركات الضخمة ، والآلات الفنيـــة المتنوعة والمعدات الالكترونية .

وهي كلها من صنع صيني، تعملها ماكينات صينية وأيد عاملة صينية وبتصميم واشراف مهندسين وعلماء صينيين يستمدون مشورتهم العلمية في بعضها من حلفائهم الروس الذين بدأوا يتناقصون يوماً بعد يوم .

زيارة مصنع نسيج بكين رقم ٢

*

للصينيين مراسيم خاصة في استقبال الزائرين الأجانب ، تكاد تكون متشابهة في كل مصنع زرناه ، فلقد استقبلتنا عند مدخل المصنع سيدة في منتصف العمر ،

قدمت لنا نفسها بأنها المديرة العامة للمصنع ، وقادتنا في التو إلى قاعة الاستقبال الكبيرة التي تزين جدرانها عادة بشرائط حمراء تحمل كتابات مذهبة – هي بمثابة شهادات تقدمها الحكومة للمصنع دليلاً على تقدمه في الانتاج . وتتوسط القاعة منضدة كبيرة مكسوة بغطاء أحمر عليها كثير من علب السجاير الصينية، وأقداح على عددنا كان الساقي يملؤها بالشاي الأخضر المرة تلو المرة .

وما ان اتخذنا مقاعدنا حول المائدة حتى بدأت مديرة المصنع تلقي كلمة الترحيب الحارة بوفد الصداقة الشعبي العراقي محطم الاستعمار .

وبعدها شرحت لنا تاريخ تأسيس المصنع ، وانتاجه ، وحياة عماله .. وسياسة المصنع القادمة التي تهدف إلى تحقيق مبدأ القفزة في الانتاج .

وقالت لنا المديرة : لقد تأسس المصنع عام ١٩٥٤ ، وجميع آلاته التي سترونها من صنع الصين ، وأجريت التجربة الأولى لإنتاجه في عام ١٩٥٥ . وكان انتاجه اليومي ٢٤٠ ألف متر مربع لخمسة أنواع من النسيج القطني ... ثم ارتفع هذا الانتاج حتى بلغ في عام ١٩٥٨ (٧٢) مليون متر مربع .

والمعمل يصنع الغزول بنفسه ، ويبلغ عدد عماله وكادره ٥٥٠٠ عامل ٨٠٪ منهم من النساء ، وتتراوح أعمارهن ما بين السابعة عشرة والثانية والعشرين .

وتلبية لأوامر الحزب الشيوعي لتحقيق القفزة فان سرعة العمل فيه قد ازدادت من ١١٠٠٠ دورة في الدقيقة الواحدة إلى ١٦٠٠٠ دورة .

والعمال يشتغلون بثلاث وجبات (ورديات) ، أي ان المعمل يشتغل ليل نهار دون ما توقف . ان الحد الأدنى لأجور العمال هو ٤٠ يناً شهرياً . والحد الأعلى للأجور هو ٢٥٠ يناً .

وبعد انتهاء المديرة من محاضرتها طفنا في أنحاء المعمل الذي لا يختلف في شيء عن أحدث معمل نسيج في العالم ، ورأينا جدران المعمل مغطاة بمئات الشعارات الحزبية ، منها ما يخص العمال الذين سجلوا أرقاماً قياسية في الانتاج ، ومنها كلمات ترحيب بالوفد العراقي ، وإشادة بثورة العراق الجبارة ، ومنها كلمات وأشعار لماوتسي تونغ .

وبعد انتهاء زيارتنا من المعمل انتقلنا إلى الناحيـــة الأخرى المقابلة للمعمل ، حيث أقيمت ٣٢ عمارة سكن ، تتألف كل عمارة من ثلاثة طوابق لسكن العمال، وشغلت الدور الأرضيـــة للمطابخ والمطاعم ، ودور للحضانة وروضة ومدرسة ابتدائية ، وناد ، ودار للسينما ، ومستوصف للعلاج السريـع .

ولاحظنا ان سكن العاملات الفتيات ، وجلهن نزحن من الريف ، كان مزدحماً جداً ، فالغرفة الواحدة التي تبلغ مساحتها ٦ × ٤ متراً وضعت فيهـــا أربعة اسرة . كل سرير مؤلف من ثلاثة طوابـــق ، فيكون مجموع سكن تلك الغرفة ١٢ فتاة ، وبما أن العمل يجري بثلاث وجبات ، تستغرق كل وجبة ثـماني ساعات ، فان ثلثهن يكون مشغولاً في العمل دائماً .

اما المتزوجون من العمال فيعطون شققاً صغيرة تتناسب وعدد أفراد أسرهم .

ان العلاج في المستوصفات مجاني–وكذلك التعليم،على ان الاسرة العاملة تدفع نصف تكاليف ثمن العلاج – وتعطى النساء عند الوضع اجازة أمدها٥٦يوماً بأجور كاملة . اما سائر العمال فعطلتهم السنوية هي ثلاثة أيام فقط ، يستثنى من ذلـك العمال المتفوقون في الانتاج إذ يمنحون عطلاً سياحية صيفية إضافية .

وفي المعمل مدرسة فنية خاصة يدرس فيها ٩٠ ٪ من عماله ، لزيادة معرفتهم في عملهم . كما توجد كلية للعلوم السياسية يشرف عليها الحزب حيث تعقد فيها حلقات للمناقشة والدرس في الماركسية وفي السياسة العامة .

أما الأجور فعلى ضآلتها بالنسبة للأجور في بلادنا ، فان قوتها الشرائية بالنسبة لتكاليف الحياة المعاشية تضمن للعامل حياة أفضل بكثير من حياته المـاضية على نحو ما أوردت من أمثلة في الفصل ٧ من الكتاب .

فاحدى العاملات لمصنع النسيج هذا ، وهي عاملة ماهرة ، تتقاضى ٦٠ ينـاً شهرياً تنفق على غذائها ١٤ يناً في الشهر ، وتدفع نصف ين في الشهر لسكنها مع زميلاتها .. وهي مقتصدة ، وقد استطاعت ان توفر ٩٠ يناً في أربعة أعوام مـن العمل المتواصل .

ولقد جرى بيني وبين تلك العاملة مناقشة طريفة عن طريق المترجم فقلت لها:

لم ادخرت هذا المبلغ وأنت كما رأيت في الغرفة التي تقطنينها بحاجة إلى أشيـــاء كثيرة ، كرداء تلبسينه في يوم راحتك ، أو ساعة يد ، أو معطف ، أو أدوات زينة بوصفك امرأة أو راديو ؟

فأجابتني : انني لست بحاجة إلى كل ما ذكرت إطلاقاً ... فأنا أعمل وآكل وأنام وأذهب إلى السينما مرة في الأسبوع ، وقد أرقص مرة في الأسبوع أيضاً وأقرأ كثيراً وأدرس كثيراً بالمجان ، واستمع إلى الراديو عن طريق مكبرات الصوت التي تراها في كل زاوية من زوايا المعمل ودور السكن ومحلات النزهة ... فأنا كما تراني سعيدة ، بل سعيدة جداً بالنسبة لحياتي الماضية حين كنت في الريف .

فقلت لها : أوليس لك خطيب أو رفيق أحببته ؟

فأجابتني بضحكة عريضة ، وقد احمر وجهها خجلًا ، وبشجاعة : كلا .

فقلت لها : لم إذن تدخرين النقود ؟

فأجابت بعد تفكير قصير : ادخرها لأساهم في البناء الاشتراكي لجمهورية الصين الشعبية ، ولأساهم به في مساعدة الشعوب المنـــاضلة في سبيل حريتها كالشعوب العربية مثلًا حيث ساهمت في اعداد المظاهرات الجماعية يوم نجاح ثورتكم .

فقلت لها : أرجو أن لا تعتبريني ضيفاً أجنبياً وعربياً على الأخص فتجامليني مثل هذه المجاملة الكريمة .. اني أتوخى الحقيقة فيما سألت .

فأجابتني ، وقد احمر وجهها مرة أخرى ، وبدا عليهـا غيظ مكتوم قائلة : انني أيها الرفيق صادقة في اجابتي ... وعندئذ لم أتمالك نفسي ، فصافحتها بحرارة معتذراً عما بدا مني . فضحكت وصفقت لي ، واشتركت رفيقاتها بتحيتي .

لقد خرجت من الغرفة الصغيرة التي تقطنها اثنتا عشرة فتاة ، وأنا أقول في نفسي :

— ماذا سيفعل مثل هذا الشعب الذي يبلغ تعداده ٧٠٠ مليون نسمة بعـــد عشرين عاماً يا ترى ؟ وماذا سيكون عليه هذا الشعب بعد هـذه المدة القصيرة في عمر الزمن ؟

جولة في مدن الصين الوسطى والشرقية

- نانكين : عاصمة شان كاي شك ، ومقبرة الضحايا الشيوعيين ، ومستقر صن يات صن الأخـــير
- شنغهاي الأمس ... وشنغهاي اليوم
- في فردوس الصين هانشو
- ووهان

نانكين : عاصمة شان كاي شك ومقبرة الضحايا الشيوعيين ومستقر صن يات صن الاخير

*

تقع مدينة نانكين في القسم الشرقي من أواسط الصين وإلى الشمال الغربي من مدينة شنغهاي قريباً من ساحل الصين الشرقي . وهي على نهر اليانغتسي العظيم بعيداً عن مصبه بنحو مائتي كيلومتر. زرناها خلال رحلتنا لأواسط الصين وشرقها.

ونانكين مدينة قديمة بنيت سنة ٤٧٢ قبل الميلاد وفي عهد ملوك سلالة مين ، حيث كانت عاصمة لهم . ونانكين ميناء كبير كشنغهاي ، تصل إليها عابرات المحيط القادمة من بحر الصين والتي تدخل نهر اليانغتسي لمسافات طويلة .

ولقد اتخذ شان كاي شك نانكين عاصمة لحكمه بعد ان خلف صن يات صن في رئاسة حكومة الكومنتانغ في عام ١٩٢٦ ، بدلاً من بكين التي كانت تخضع لحكام الأقاليم خلال فترة سيطرة جنرالات الصين على البلاد في ذلك الوقت .

ولقد ازدهرت مدينة نانكين وتوسعت في فترة حكم الكومنتانغ بوصفها العاصمة . وتعداد سكانها يبلغ نحو مليون ونصف مليون نسمة منهم أقليتان كبيرتان : المانشو وعددهم مائة ألف ، والمسلمون وعددهم نحو أربعين ألفاً . وفيها عدد من الجامعات منها جامعة خاصة بالبنات . ولقد نظمت جامعتها على أساس التخصص ، وفيها معهد الفولاذ .

ويحيط بالمدينة سور ضخم يبلغ طوله ٣٣ كيلومتراً ، وارتفاعه ١٠ أمتار

ويتراوح عرضه ما بين ٧ و ١٠ أمتار وفيه ١٣ باباً قائمة في السور إلى جانب منافذ كثيرة .

ولقد أسست الحكومة على الضفة الثانيــة من النهر الذي يمر بالمدينة مصنعــاً ضخماً للسماد الكيماوي ومصنعاً آخر للمصابيـح الكهربائية ـ أي اللمبات .

وتمتاز نانكين اليوم عن بقية مدن الصين ، بان صارت محجــاً للشعب الصيني يزور الناس فيها نصب الشهداء ، ومقبرة أبي الصين صن يات صن .

ولقد زرنا النصب التذكارية الضخمة الرائعة المثيرة لذكرى الشهداء والجنود والطلاب والأساتذة والفلاحين والعمال وسائر طبقات الشعب التي ضحت بحياتهــا لتحرير الصين ، ويقع النصب في احدى ضواحي المدينة على جبل يسمى جبـــل الزهور،حيث كان جند شان كاي شك يقتلون خصومهم السياسيين في واد عميق في تلك الضاحية،وقيل لنا ان مجموع من قتل من الأساتذة والطلاب والعمال والفلاحين وغيرهم ١٥٠ ألف قتيل، أتي بهم من مختلف مدن الصين في عهـــد الكومنتانغ ، وكانوا يحاكمون محاكمات صورية قبل اعدامهم في الوادي .

وكانت آخر قافلة من الضحايا ما حدث في نيسان « ابريل » عام ١٩٤٩عندما تجمع ممثلو طلاب الصين في العاصمة نانكين وأجمعوا على وجوب انهاء الحرب الأهلية وتشكيل حكومة ديمقراطية ، وإبعاد شان كاي شك عن الحكم ، فقابلهم جنـد حكومة الكومنتانغ باستخدام الأسلحة النارية فقتل منهم خلق كثير قبل ان ينسحب « كاي » من نانكين يوم ٢٩ نيسان « ابريل » عام ١٩٤٩ الذي وصلت فيه القوات الشيوعية واضطرت شان كاي شك على الانسحاب إلى الجنوب .

ولقد تحولت هذه الضاحية إلى متنزه عظيم غاية في الجمـــال والروعة ، واختير اعلى تلول تلك الضاحية فشيد على قمته النصب الضخم الذي كتبت عليه تحية من الرئيس ماوتسي تونغ .

وأحيط النصب التذكاري بلوحات بارزة تمثل صور الضحايا وجلاديهم.والنصب يتوسط قاعـــدة كبيرة من الحجر ، يصل الزائر إليها بعـد ان يصعد عشرات الدرجات وتتخلل تلك المدارج طرق مبلطة أحسن تبليط ، وزرعت على جانبهـا

أشجار السرو والصنوبر والورود وأحيطت بالأقواس .

ولقد شيد طريق معبد ومشجر يصل النصب بالمدينة .. وعندما وضعنا اكليلا من الزهور على النصب التذكاري رأينا كثيراً من المواطنين الصينيين يحجون إليه ، ويقفون منكسين رؤوسهم إجلالاً لذكرى الأبطال الذين ماتوا ليحيا وطنهم حياة أبدية.. ورأينا غيرهم على المصاطب الحجرية المتناثرة يأكلون ويقرأون وسط ذلك المتنزه الجميل .

وقبل مغادرتنا النصب التذكاري قدم أحد مندوبي البلدية لكل منا إناء زجاجياً صغيراً مليئاً بتربة وحصى وادي الشهداء فتقبلناه منه شاكرين .

قبر صن يات صن ...

*

وفي ضاحية أخرى من مدينة نانكين يرقد محرر الصين الأول صن يات صن الذي تزعم ثورة عام ١٩١١ التي انتهت بخلع اسرة « المانشو » وإعلان الجمهورية وانتخابه رئيساً لها ، واستمر حتى وفاته عام ١٩٢٥ يناضل من أجل توحيد الصين والقضاء على حكم الجنرالات ورجال الاقطاع وعلى تصفية النفوذ الاستعماري وامتيازاته في بلاده .

وفي عام ١٩٢٩ نقلت رفات الزعيم الصيني إلى مرقده الأخير في نانكين ، وفي سنة ١٩٣٥ صنع التمثال القائم الآن على قبره .

ولقد شيد القبر على قمة جبل يبلغ ارتفاعه سبعمائة متر ، وقطعنا الطريق الموصل إلى القبر وطوله عشرة كيلومترات بالسيارات ، مخترقين غابة صنوبر رائعة ، وغرست على جانبي الطريق أشجار عالية تتلاقى فوق منتصف الطريق المرصوف ، فكانت السيارات تسير بنا تحت خميلة جميلة من الأشجار مما لم أشهد مثلها في حياتي ..

ووقفنا عند قوس ضخم مزين ومنقوش ، ومنه سرنا في طريق طوله نحو

كيلومتر واحد ، غرست الاشجار على جانبيه ، ووضعت بينها تماثيل الاسود . والطريق يرتفع بنا تدريجياً ، ثم بدأنا نصعد عشرات الدرجات بين الحين والحين ، وقبل ان نصل إلى النصب التذكاري لصن يات صن صعدنا ٣٩٨ درجة.. ويتوسط النصب تمثال صن وكلمة لماو .

ثم استمررنا بالصعود حتى قمة الجبل الذي شيد عليه الضريح الضخم ، فوضعنا عليه اكليلاً من الزهور باسم وفد الصداقة الشعبي العراقي .

وفي وسط الضريح حفرة كبيرة مشيدة مـن المرمر الناصع ، بني القبر في وسطها حيث وضع الجثمان بصندوق من الزجاج، ووضع على القبر تمثال صن بحجمه الطبيعي وبملابسه التي كان يرتديها ، وبصورة وجهه الحقيقي بعد ان مات والتمثال مسجى على القبر .

تخليد الابطال في الصين

*

شاهدنا أثناء تجوالنا في أنحاء الصين كثيراً من المتاحف، والنصب التذكارية والتماثيل والمؤسسات العامة التي ترمز جميعها إلى احياء ذكرى الأبطال الشهداء الذين ساهموا بأرواحهم من أجل تحرير وطنهم .

وعمل الصينيين هذا ، يدل على انهم قد سبروا غور النفس البشرية الـتي تطمح دائماً إلى الخلود الأبدي ، وإلى إرضاء الذات بشكل من الأشكال جزاء وفاقاً لما أقدمت عليه من تضحية في سبيل الأمـة والوطن ، فتكريم الأحيـاء والأموات جزاء وفاقاً لمـا قاموا به من خدمات مشرفة للمجموع ، يدفع بالآخرين إلى التضحية ، وإلى المحاولة لتحقيق إنجازات مماثلة ليخلدوا هم بدورهم ...

ثم يدفع بالجماهير .. وبالنشء الجديد إلى الحماسة في إداء الواجب .

ولقد قدرت الصين الجـديدة ذلك كله ، فأقامت تماثيـل ونصباً تذكارية في جميـع مدن الصين ، منها لأبطال فرادى ، وللشهداء المجهولين مجتمعين .

فلا تخلو دار أو ندوة أو مؤسسة أو شارع أو ساحة أو متنزه أو غـابة أو مزرعة من صور لبطل الصين الجبار ماوتسي تونغ ، وتماثيل مقامة له ، ولا من لوحـات بارزة تمثل رفاقه ، شواين لاي ، وشوته ، وليو شاوشي ، وشين يي ، وغيرهم وهم في مختلف مراحل كفاحهم المرير ضد المستعمرين . ونضالهم البطولي في حربهم للجيوش اليابانية التي غزت بلادهم ، وصراعهم المميت للقضاء على حـكم الكومنتانغ الرجعي المتفسخ

وخلدوا كذلك ذكرى الشهداء الذين ضحوا بحياتهم لتحرير وسعـادة وطنهم بنصب ضخمة رائعة مثيرة تدعو إلى العجب والاعجاب بجمالها وروعتها وبما صرف على اقامتها من مبالغ طائلة وجهود ضخمة .

ولا تخلو مدينة من متحف يضم إلى جـانب حضارة الصين القديمة صوراً ناطقة لكفاح الشعب الصيني خلال المائة سنة المنصرمة .

وعلى سبيل الحصر لا العد،أذكر وصفاً مقتضباً لمتحف في مدينة شنغهاي كنا قد زرناه وهو مؤلـف من خمسة طوابق ، خصصت أربعة منهـا لآثار الصين في تاريخها الحضاري الطويل ، وخصص الدور الخامس الأرضي لذكرى الثورة، ففي هذه القاعة ترى مختلف اللوحات المجسمة ومختلف الصور الرمزية ، ومختلف الصور الفوتوغرافية لكفاح الشعب وقادته ، ومئات من البيانات التي كانت تصدرهـا قيادة الثورة ، وبيانات المعادين لها .. وملابس وأسلحة وتجهيزات القادة والجند ، ونماذج من المواد الطبية والاسعافية التي كانوا يستعملونها ، ونـماذج من غذائهم المؤلف من حب الصويا أو أنواع عديدة من الحشائش ، ونماذج حقيقية لمساكنهم ومعسكراتهم وأثاثهم الخشبي البسيط .

فكنا ونحن أجانب،نقف إجلالاً واحتراماً لمثل هذا الشعب الذي كان يقاتـل ببندقية القرن الثامن عشر وبمسدسه ، وبالسيوف والخناجر والسكاكين والرماح ، لا، بل وبالفؤوس أيضاً . ويلبس لباساً ممزقاً لا يقي قرّ برد ، ويعيش على حبات من الرز أو القمح أو فول الصويا .

والزائر حين يرى حـذاء « ماو » الممزق ، وسترة شواين لاي وغطاء رأسه

الذي تمزق بطلقة عدو ، وطعام شوته البسيط .. تغمره رعشة وقشعريرة من شدة التأثر والاحترام العميق ..

ورأينا في هذا المتحف « المسيرة الكبرى » التي ستبقى ذكراها مخلدة خلود التاريخ .

وفي مدينة شنغهاي زرنا داراً جميلة رائعة في وسط المدينة ، قد شيدتها الجاليات الصينية التي تقطن في الخارج ، وأهدتها إلى صن يات صن اعترافاً منها بخدماته الجلى لوطنه .. وقطنها صن زمناً ، ثم اضطر إلى رهنها لدى أحد المرابين لكي يصرف ما قبض من النقد على الحركة الوطنية ... وهي الآن متحف لمخلفات صن يات صن ، جمعت فيه ملابسه ومكتبته وأمتعته وما كان يستعمله من أثاث في حياته .

هذه صور خاطفة لتخليد الأبطال في الصين ، ما أحوجنا إلى ان نحذو حذو الصينيين في تخليد أمجادنا التاريخية ، وإبراز معالم بطولات مواطنينا في التضحية والفداء خلال نضالنا الدامي الطويل الذي اقتطفنا بعض ثماره؟

وإذا استثنينا مصر التي قطعت شوطاً في هذا المضمار ... فالأقطار العربية الأخرى كسوريا والعراق ما زالت متخلفة في هذا الميدان .

فالعراقيون لم يخلدوا بعد أمجاد ثورة عام ١٩٢٠ التي ضحى فيها عشرات الألوف من مواطنينا بدمائهم من أجل حرية واستقلال العراق ، ولم يشيروا إلى الأمجاد والبطولات الرائعة التي قام بها بعض مواطنينا بإبادة قوات الانكليز المحتلة في « الرارنجية » وغيرها .

ولم تخلد بعد ، ذكريات ثورتنا المجيدة في عام ١٩٤١ حيث شنق المستعمرون والخونة من أتباعهم قادة الثورة في أبي غريب .. وعلق عبد الاله ونوري السعيد جثة الشهيد البطل صلاح الدين الصباغ أمام باب وزارة الدفاع يوماً كاملًا ليشفيا بهذا العمل الدنيء غليلهما من شعب العراق الثائر .. ولينفذ عبد الاله رغبة عشيقته العارمة ، ووعده إياها بشنق صلاح الدين أمام باب وزارة الدفاع !

ولم نؤسس متاحف في مختلف مدن العراق لتعريف المواطنين بثورات آبائهم

ضد المحتلين الاتراك ، والانكليز ، ولم نعط مواطنينا صورة حقيقية للانتفاضات والوثبات الشعبية التي انتهت بثورة ١٤ تموز عام ١٩٥٨ ...

وكذلك الحال في سوريا التي نبتت فيها بذرة القومية العربية في أوائل القرن العشرين ثم نمت وترعرعت في ربوعها بدماء أولئك الذين شنقهم القائد التركي جمال السفاح ، وبدماء الثائرين على الحكم الفرنسي الظالم الذين لم ترهبهم همجية ووحشية الجيش الفرنسي الذي دمر دمشق بمدفعيته ، وكدس جثث أبطال الثورة في ساحة المرجة .

معمل السيارات في نانكين

*

زرنا خلال اقامتنا في نانكين معملاً صغيراً لإنتاج السيارات ، وهذا المعمل يعطي فكرة مجسمة للجهد الجبار الذي يبذله شعب الصين في البناء الصناعي ، وفي تذليله لكل أنواع المصاعب التي تعترض سبيله .

لقد كان هذا المعمل في الأصل ورشة لتصليح السيارات، يملكها أحد الصينيين فاستولت الحكومة في عام ١٩٤٩ على الورشة التي كان يعمل بها مائة عامل وموظف وأناطت ادارتها بإحدى المواطنات . وتقرر تطوير الورشة إلى معمل لإنتاج السيارات .

وحدثتنا مديرة المعمل قائلة : ترون اليوم بعد مرور تسع سنوات على تسلم الشعب لتلك الورشة الصغيرة ماذا حدث ؟

لقد وسعنا الورشة إلى أربعة اضعافها ، وزاد عمالها حتى بلغوا اليوم ٤٠٠٠ عامل وعاملة ، وجربنا في عام ١٩٥٤ ان ننتج أول ماكينة « موتور » لسيارة الريح الشرقية ، وهي السيارة الصغيرة الحجم التي تنتجها معاملنا في الشمال فانتجناها .. وبلغ انتاجنا بعد عام واحد ٣٠٠ ماكينة . ثم خطونا خطوة أخرى

فانتجنا هيا كل السيارة ، وبلغ انتاجنا في العام الواحد ١٤٠٠ سيارة .

وكانت أمامنا عقبات جمة، فالمواد الخام تنقصنا، وماكينات المصنع محدودة، وليس لدينا رأس مال يتناسب ومجهودنا .. وآمالنا في التوسع في الانتاج .. على اننا إلى جانب هذه النواقص المثبطة نمتلك ما هو أهم بكثير: فلدينا الايمان والعزم اللذان يتملكان أرواح شبابنا الذين يذللون جميع المصاعب لتحقيق الاشتراكية .

وبهذه الروح لم ندخر وسعاً في اللجوء إلى كل ما يخطر على بالنا للافادة منه في البناء والتوسع . لقد وضعنا الخطط الكفيلة بانتاج ١٠٠٠٠ سيارة و٢٠٠٠ ماكينة سيارة في العام القادم .

أما آخر هدف لنا فهو التوسع في الانتاج ليبلغ ٥٠٫٠٠٠ سيارة ثم ١٠٠٫٠٠٠ سيارة في مشروع السنوات الخمس الثالث .

وأنهت مديرة المعمل حديثها لي قائلة : تفضل واختر احدى السيارات التي انتجناها وجربها . وأجبتها إلى طلبها ، وسقت السيارة في فناء المعمل الكبير.

لم تكن السيارة جميلة ، ولا مريحة ، وينقصها كثير من الكماليات التي نجدها في السيارات الأمريكية والأوروبية .. على انها على وجه التأكيد سيارة تسير ، وتستخدم في الأغراض التي من أجلها وجدت السيارة .

*

وزرنا معملاً آخر للنجارة قريباً من معمل السيارات . وتأسس هذا المعمل من تجميع ستة وعشرين معمل صغير للنجارة كانت تعود ملكيتها للأفراد فاستولت عليها الحكومة وأعادت تنظيمها لتكون معملاً رئيسياً واحداً يعمل فيه اليوم ١٢٥٠ عاملاً وعاملة .

وما عدا ست ورشات رئيسية فيه ، قام العمال بصنع عشرات الورش الخشبية بدلاً من الورش الفولاذية لتحل محلها نظراً للنقص الذي يشكون منه في الفولاذ .

ومع انهم يعترفون بان انتاج الورش والمعامل الخشبية تعوزه الجودة والاتقان إلا انهم لا يهتمون بالكماليات بهذه المرحلة التي يجتازونها . ان هدفهم هو كثرة الانتاج لتلبية حاجة الشعب من الأثاث ومن الراديوات وغيرهما من الأدوات

المنزلية .

وهم يفتخرون بانهم قد استطاعوا انتاج ١٫٨٠٠٫٠٠٠ صندوق للراديو في عام واحــد . وما دام جهاز الراديو يلتقط الاذاعة ويستمع منـه المواطن الموسيقى والتوجيه، يكون قد حقق غرضه المطلوب، فضلاً عن ان أمامهم شوطاً بعيداً قبل ان يعتنوا بالزخرفة وبالكماليات التي لا تعني في نظرهم شيئاً .

شنغهاي الامس وشنغهاي اليوم

*

– ماذا سأجد في شنغهاي يا ترى ؟

– لقد شاهدت عشرات الأفلام السينمائية، وقرأت الكثير عن شنغهاي: مدينة الجرائم ، فردوس المغــامرين والمهربين ، بؤرة اللهو والدعارة، والمراهنات ، ينبوع الجرائم .. مدينة التجارة الدولية ، وعاصمة الاستغلال المـالي الاستعماري ، وقاعدة الرأسمالية الصينية .

يمنع دخول الكلاب .. والصينيين ..
لكننا لا نمنع دخول الانكليز ...

(لافتة معلقة على متنزه المدينة)

شنغهاي المدينة التي يقطنها ثمانية ملايين انسان .. فيها سبعة عشر ألف مصنع، وكفى ان يرى زائرها عمارة « العالم الكبير » وعمارة « جسر الملائكة التسعة » ، هذا العالم الذي جمع بين كازينوات القمار في مونت كارلو، والفولي بيرجير والليدو في باريس .. وشارع ريبابان في هامبورغ .. بالاضافة إلى كل ما في المدنية الغربية من رذائل سميت بوسائل اللهو والترفيه عن النفس .

أجل ! هل سأرى ذلك الذي تحدث عنه الناس في كل مكان في الدنيــا ... في شنغهاي ؟

ودخلنا شنغهاي .. واستقبلتنا الفتيات بطاقات الزهور ، ورحب بنا عمــدة

المدينة وحاكمها ... وحللنا بأعظم فندق من ثلاثة فنادق خصصتها الحكومة لضيوفها الأجانب ..

وذهبنا لتونا إلى برج المدينة - أو على الأصح إلى سقف « روف » أعلى بناية فيها لنلقي نظرة شاملة على شنغهاي .

يا لها من مدينة عظيمة جبارة ، يقطنها من السكان قدر سكان العراق جميعهم مضافاً إليهم مليون ونصف مليون آخرين .. ويقطنها بتعبير آخر أناس يزيدون على جميع سكان لبنان وسوريا والاردن وفلسطين - بما فيهم الدخلاء على فلسطين من اليهود .

وتشغل المدينة مساحات من الأرض أبعد من مدى بصر الرائي من علو مائتي متر من الأرض ، ويحتضنها نهران . كبيرهما وهو « اليانغتسي » يوصلها بعابرات المحيط إلى الباسيفيكي .

ولكي يعرف القارىء ما هي شنغهاي اليوم ، لا بد له من العودة إلى الوراء قليلاً ...

لقد اتخذ منها الأجانب الذين اتفقوا فيما بينهم على استعباد شعب الصين ونهب خيراتها ، قاعدة الانطلاق لغزوهم الحربي .. والسلمي على حد سواء .

فاليابانيون أسسوا في إحدى ضواحي شنغهاي مجتمعاً أطلقوا عليه اسم «طوكيو الصغيرة » وتركز في هذه المجموعة حوالى ثلاثين ألف ياباني كان شغلهم الشاغل نهب موارد الصين وخيراتها بجميع الوسائل المشروعة وغير المشروعة ... وحينما احتل اليابانيون بعد ذلك منشوريا ، انتقم سكان شنغهاي منهم بمقاطعة منتجاتهم ، فما كان من اليابانيين في عام ١٩٣٢ إلا أن غزوا شنغهاي بأسطولهم بينما كانت طائراتهم تدمر الحي الصيني عن آخره فيضطر الأحياء من سكانه وعددهم ٦٠٠ ألف إلى الالتجاء إلى منطقة الامتيازات تاركين ثلاثين ألف قتيل من مواطنيهم تحت الانقاض ...

وعندما احتل اليابانيون شنغهاي للمرة الثانية في عام ١٩٣٧ دمروا صناعاتها ونقلوا معظم آلات معاملها إلى اليابان وإلى منشوريا ، فتعطل ٨٠٠ ألف عامل

صيني ، ولجأ مليونان من العمال إلى مناطق الامتيازات الأجنبية . فكان ٦٥٠ ألفاً منهم يعيشون بلا مورد ، وينامون في العراء، وتكدس ٨٠٠ ألف في المنطقة المحايدة .. وأصبحت وكأنها معسكر لاجئين .. فكان الناس يموتون كالذباب يهلكهم الجوع ، والكوليرا ، والتيفوس ..

كانت شنغهاي تضم ١٧٫٠٠٠ مصنع ومعمل صغير ، وجميعها اما ان يكون ملكاً للغزاة اليابانيين أو الأمريكيين أو الأوروبيين .. أو لبضع مئات من الرأسماليين الصينيين المتواطئين مع الأجانب لاستغلال موارد البلاد ...

ووصفت اللجنة المؤلفة من مكتب بلدية شنغهاي حالة المليوني عامل صيني الذين يعملون وينتجون في تلك المصانع في تقرير لها نشر قبل التحرير في عام ١٩٤٩، جاء في بعض فقراته ما يلي :

« يعيش العمال مكدسين في مساكن ضيقة قذرة يتزايد عددها بلا انقطاع ، وقد بلغت هذه المساكن من البشاعة حداً لم تبلغه مدينة سواها في بلاد الغرب ، بل ولا في الصين ، انهم ينامون في عنابر كثيراً ما تغزوها الحشرات ، يتكدسون فيها جنباً إلى جنب . وفي مصانع عديدة كانوا ينامون في قاعات العمل نفسها ، يفترشون الأرض ، أو على بعض الأرائك الخشبية ..

وفي ذات ليلة احترق مصنع غزل صغير في المدينة في الحي الصيني ، وكانت العاملات قد اغلقن عليهن الأبواب بالمفاتيح .. فلقي مئات من النساء حتفهن في الحريق على أثر قفزهن من النوافذ .. ولم تتخذ السلطات أي اجراء ..

وقال مفتش صحي : كان همي الأول ، هو عدد العمال الذين كانوا يهوون في الأفران مع الفحم .. واقترحت ان يشد العمال الذين يشتغلون عراة فوق أكوام الفحم بأحزمة وسلاسل أمان خفيفة ، وبذلك لا ينحرفون إلى النيران ، مع الفحم حين ينهار تحت أقدامهم ، فأجابني مدير المعمل الأمريكي : إذا كانت هذه الحيوانات الغبية لا تنتبه فماذا أستطيع ان أفعل في الأمر ؟..

ويقول تقرير مكتب بلدية شنغهاي : يمكن ان يقال في ايجاز ان مستوى الحياة العمالية في شنغهاي أعلى منه في مدن الصين الأخرى ، ولكنه أحط منه في

بلاد العالم الأخرى .

كان العامل لا يكفيه أجره لسد رمقه، مما يضطره إلى الاستدانة من المرابين، والسعيد منهم الذي يوافق بنك الرهون على تسليفه ، وكان أرحم من غيره ، فقد كتب لافتة كبيرة على بابه يقول فيها : « اقراض بفائدة ١٨٪ » .

وفي تحقيق دولي عن حالة العمال في شنغهاي قبل التحرير عام ١٩٤٩ ، كتب أحد العمال يقول :

« نحن نعمل يوماً بعد يوم دون ان نحظى بأي يوم للراحة . ونعمل في مجموعات لمدة اثنتي عشرة ساعة ليلاً ونهاراً ، وهي في الواقع أربع عشرة ساعة باضافة الوقت الذي يستغرقه الذهاب والاياب إلى المصنع ، وليست لنا مقاعد نجلس عليها .. فهل يمكن ان تعامل المخلوقات البشرية هكذا ، وكلنا تقريباً آدميون ؟! كنا نعامل معاملة المساجين أو الحيوانات ، أو الآلات ويمكن ان تسمى بالأدوات الحيوانية التي تعمل في الظلام .. فمتى نرى النور ؟

ويضيف تقرير التحقيق قائلاً : كان العمل في مغازل الحرير بشنغهاي يمتد في اليوم اربع عشرة ساعة ونصف الساعة . وفي مصانع الصلب يتراوح العمل بين اثنتي عشرة ساعة وثماني عشرة ساعة .

كان الأحداث (الصبية) دون التاسعة من العمر يعملون في مصانع التبغ والسجاير والقطن ومصانع الحرير في شنغهاي مدة تتراوح بين اثنتي عشرة ساعة وخمس عشرة ساعة يومياً . ويظلون وقوفاً ست ساعات متصلة. لقد كانت تغذيتهم غير كافية ، فكانوا يصابون بفقر الدم ، ويموتون بالسل كالذباب ، وكان الرمد الحبيبي يصيبهم بالعمى، كما كانت حوادث العمل الناتجة عن التعب تقع بكثرة مروعة ...

لقد اعترف جميع الاخصائيين الصحيين بان ظروف الصناعة في شنغهاي تفتك أشد الفتك بالصحة البدنية والنفسية للأحداث المستخدمين فيها .

كانت هذه المدينة الكبيرة التي تتركز فيها كل الصناعة الخفيفة تقريباً هي الصناعة الوحيدة التي تملكها البلاد قبل التحرير ... وكانت تمثل الظلم الاستعماري

بكل ما في الظلم من معان .

*

ولا عجب .. وهذا هو حال أبناء شنغهاي ، ان ينمو الحزب الشيوعي الصيني فيها ، وان تبدأ أولى الاضرابات في الصين منها ، وان تؤلف أول نقابة عمالية ويقاتل أبناؤها الغزاة بقيادة شواين لاي في قلبها .. بل العجب كل العجب لو لم يحدث ذلك كله في تاريخها الملطخ بالخزي والعار .

ويدور الفلك دورته ، ويدخل جيش التحرير مدينة شنغهاي في مايس « مايو » ١٩٤٩ منتصراً على قوات الكومنتانغ . وكان أول عمل اضطلعت بمسؤوليته جمهورية الصين الشعبية في ذلك اليوم ، انها مسحت من على وجه شعبها كل ما من شأنه ان يجرح مشاعره الخلقية ، ويمس كرامته وكبرياءه ومثل الأمة العليا ... فقضت في الحال على الجرائم أياً كان نوعها وشكلها ، وأغلقت دور الدعارة ، وقضت على مراهنات السباق ، ومنعت تعاطي القمار ، فلم يبق إلا الوجه الشريف لمدينة شنغهاي .

لقد جمعت البغايا وعددهن عشرات الآلاف في معاهد صناعية واجتماعية وتعليمية ومعظمهن قد اجتزن مرحلة التوبة وتوجهن إلى العمل بجانب سائر المواطنات .

وأحيلت عمارة العالم الكبير إلى مدينة للتمثيل تجمع خمس أو ست أوبيرات مختلفة ، إلى جانب محلات للتسلية البريئة ، وإلى مقاه نصبت في وسطها منابر للوعظ والارشاد ، وفعلوا مثل ذلك في عمارة « جسر الملائكة التسعة » .. وكانت هاتان العمارتان في السابق مركزين للعب القمار، ووكرين للدعارة، واللهو، والرقص والمجون .

وانتقمت الحكومة الجديدة لأرواح مئات الألوف من مواطنيها الذين ماتوا على النحو الذي وصفنا، أو الذين بنوا مدينة شنغهاي بعرقهم وجهدهم وشقائهم، وقد كتب لهم القدر ان يحيوا ليروا حكومتهم التي هي منهم وإليهم ، وقد استولت على المدينة كلها ... بمصانعها التي بلغ عددها ١٧٠٠٠ مصنعاً ، وبعماراتها ذات

العشرين طابقاً فما دون، بجميع أثاثها ومحتوياتها ومتاجرها وبنو كهاورؤوس أموالها. وكانت معظم ملكيتها تعود إلى الأجانب .. وقد أخطىء في التقدير إذا قلت ان ثمن ما استولت عليه حكومة الصين الشعبية في مدينة شنغهاي وحدها يبلغ عدة مليارات من الجنيهات الاسترلينية .. هذا إذا كان في الامكان تقديره كله .

واليوم ، لا يجد الزائر لهـذه المدينة من آثار المستعمرين إلا بناية صغيرة يشغلها القائم بأعمال القنصلية البريطانية . ومن المفارقات العجيبة لأخلاق الصينيين هي انهم اختاروا تلك البناية للقنصلية البريطانية مقابل احد المتنزهات العامة الذي كتب على مدخله البريطانيون أنفسهم « يمنع دخول الكلاب والصينيين » .

ولقد أبقى الصينيون « اللافتة » في مكانها .. على انهم كتبوا تحتها « ولكننا لا نمنع دخول الانكليز » .

ولم أتمالك نفسي أمام هذا المشهد الذي لا نظير له على وجه هـذه الأرض في مثل هذا الموقف المثير إلا ان التفت إلى رئيس مرافقينا قائلاً له : أجل ، ستتغلب الريح الشرقية على الريح الغربية كما تنبأ رئيسكم ماوتسي تونغ ... وتلك الأيام نداولها بين الناس كما قال الله في كتابه الحكيم .. فضحك ضحكة ملؤها السعادة والفخر بعد ان ترجمت له الكلمة ، والآية الكريمة .

وفي زيارتنا لبعض مصانع شنغهاي ، زودونا بالأرقام التي تشير إلى زيادة انتاج المصانع وتوسيعها إلى حد انه في عام ١٩٥٨ بلغ دخل مدينة شنغهاي وحدها ٢٠٪ من الدخل القومي العام لعموم الصين . وهذه الزيادة تحققت من الصناعة الثقيلة التي تبلغ ١٦٪ من صناعتها في البلاد ، ومن الصناعة الخفيفة وتبلغ ٢٤٪ ، ومن صناعة النسيج وتبلغ ٣٤٪ فضلاً عن انشاء سبع مناطق صناعية جديدة ، منها أربع للصناعات الكيماوية ، والباقية لمولدات الكهرباء والحديد والمعدات ولصنع مختلف المقاييس والأوزان .

وقامت الحكومة بعمل جبار لانقاذ عمال شنغهاي مما كانوا عليه ، ورأينا بأم أعيننا انهم يلبسون ملابس محترمة ، ولا تبدو عليهم سمات سوء التغذية ... وإلى جانب ذلك وفرت لهم الحكومة سكناً يأوون إليه ، فيبيت العمال العزاب

في العنابر الملحقة بالمصانع ، وتقطن الاسر في غرف خاصة بها ، وبنت الحكومة مدينة عمالية حديثة البناء يسكنها اليوم أكثر من عشرين ألف عامل . وقيل لنا ان هناك عشرين مدينة مماثلة لها تتسع لـ ٤٠٠,٠٠٠ عامل .

وتحتوي المساكن الجديدة على غرفة أو غرفتين ومطبخ وفيها الكهرباء والماء ، إلى جانب دور الحضانة والمدارس والمستشفيات ، وأبنية الخدمات العامة والسينمات والنوادي والمسارح .

والعامل يشتغل ثماني ساعات في اليوم ، إلا إذا اقتضت الطوارىء عملاً اضافياً ، وتمنح له عطلته الاسبوعية ، على ان جميع المعامل تشتغل باستمرار بثلاث وجبات في كل أربع وعشرين ساعة .

والعامل إلى جانب هذا كله يتمتع بحق « نظام التأمين » ضد الحوادث والمرض والشيخوخة مقابل ٣٪ يحسم من مرتبه ، كما وانه يعالج بالمجان ، ولا ينقطع مرتبه إذا أصيب بعاهة مستديمة فيتقاضى راتباً يتراوح ما بين ٦٠ و ٧٥٪ من مرتبه الأصلي ، ويتقاضى النسبة ذاتها إذا خدم ٢٥ عاماً ، أو تجاوز عمره الستين ولم يعد قادراً على العمل .

اما إذا مات العامل ، وترك اسرة كان مسؤولاً عن اعالتها ، فيخصص للاسرة معاش يتراوح بين ٢٥ و٥٠٪ حسب عدد أفراد الاسرة القصر أو العاجزين عن العمل .

وإلى جانب هذا كله فهناك إلى جانب المصانع ودور سكن العمال مدارس فنية ، يدرس في فصولها العمال ، ليتعلم الأميون منهم القراءة والكتابة ، وليرفع العامل المتعلم مستواه الفني في حدود مهنته وليتلقى الجميع دروساً في الماركسية وفي كل ما له صلة بحماية نظامها في الصين .

*

وفي مدينة كمدينة شنغهاي التي تؤلف في حد ذاتها مملكة أكبر من عشرات الدول التي لها كيانها وعلمها في هيئة الأمم المتحدة لا يمكن ان ينتهي فيها صراع الطبقات بالسهولة التي يتصورها من يحيا بعيداً عن الدول الاشتراكية .

على ان الصينيين بما يتميزون به من عقلية خاصة بهم ، جمعوا بين المتناقضات في تقرير مبدأ الصراع الطبقي المميز لفلسفتهم ولعقيدتهم الماركسية ، ففي الوقت الذي أسرفوا فيه ، وتسرعوا بتحقيق المجتمع الشيوعي في الكوميون في الريف

وفي شنغهاي ذاتها ، فانهم أقروا بان فترة الانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية يجب ألا تتخذ طابعاً ثورياً .. فأقروا بمبدأ الاشتراكية الايجابية في تصفية الاشتراكية « الرأسمالية » على ان تخضع المشروعات الخاصة والمختلطة إلى توجيهات صادرة عن الدولة التي هي صاحبة اليد العليا على الانتاج كله، وفي جميع النواحي، سواء أكانت مؤممة تماماً أم غير مؤممة .

وشرح لنا أحد أقطاب الرأسمالية في شنغهاي سياسة التوفيق هذه بشيء كثير من الذكاء الذي يتميز به، والدهاء والحذر اللذين تمليه عليه ظروفه التي يعيش فيها. فلقد دعانا السيد « شين وان – كوانغ » وكان أكبر رأسمالي في الصين ، وتقدر ثروته (السابقة) بعشرة ملايين جنيه استرليني عدا ما يملك من مصانع – إلى مأدبة غداء بداره الجميلة الفخمة ، فاستقبلنا هو وزوجته استقبالاً حاراً ، وكان يرتدي بذلة أوروبية أنيقة وترتدي زوجته لباساً صينياً من الحرير الخالص تبدو فيه وكأنها باريسية في زي شرقي .

ودخلنا البيت الأنيق المؤثث بأثاث أوروبي نفيس ، وفي ركن صالة الجلوس وضع بيانو فخم .. وتطل شبابيك الصالون وصالة الطعام على حديقة كبيرة تابعة للمسكن آية في جمال التنسيق ، زاهية بمختلف أنواع الورود .

وقبل تناول طعام الغداء تحدثنا إلى المضيف المليونير الذي يشغل الآن وظيفة نائب رئيس بلدية شنغهاي ، ورئيساً لفرقة « اتحاد التجار الصينيين » ... كما تحدث إليه السيد حيدر الأسعد اللبناني الذي صادفت زيارته لشنغهاي في الوقت الذي كنا فيه .

ومع ان « كونغ » كان يتقن اللغة الانكليزية إلا انه كان يتحدث إلينا باللغة الصينية التي تترجم إلى الانكليزية والعربية وفقاً للسياسة المرسومة ، إلا انه كثيراً ما صحح أقوال المترجم .

ولم يجب بصراحة على الأسئلة التي وجهت إليه حول الماركسية والرأسمالية وحول مصير الرأسماليين والبورجوازيين الصينيين ... ولا حول ادارة واستثمار رأس المال الخاص . وكأي صيني ، كان لبقاً بتوجيه الحديث الوجهة المرسومة له

في الصين .. خاصة وان أربعة من رجال الحكومة – وفيهم أحد أعضاء الحزب البارزين (وهو رئيس مرافقينا) كانوا معنا .

فتكلم عن أحداث الماضي القريب قائلاً: كان هو نفسه يخشى مجيء الشيوعين لشنغهاي ، إذ لم يكن يعرف مصيره ومصير عائلته على أيديهم، كما لا يعرف مصير رأسماله ومصانعه وأملاكه .. ثم انتقد حكومة شان كاي شك، وحكمه الرجعي المتفسخ . وضرب لنا مثلاً على ذلك ، بأن رجال الكومنتانغ قد خطفوا أباه الشيخ ، ولم يطلقوا سراحه إلا بعد أن دفع لهم دية قدرها نصف مليون دولار أمريكي .

وقال : في اليوم الذي دخلت فيه القوات الشيوعية شنغهاي ، كنت بداري ، فأتاني مدير أحد مصانعي وأخبرني ان هناك قتالاً وحشياً يجري في الشوارع بين قوات الكومنتانغ والقوات الشيوعية .. وانه متشائم من المصير الذي ينتظرني.. فلم أعبأ بما قال ، بل خرجت إلى الشارع لأرى الحالة بنفسي ، فاستوقفني بعض الجنود ، وعاملوني بلطف ، وبعضهم يعرفني ، ونصحوني أن أبقى في بيتي يومين أو ثلاثة ، فرجعت إلى داري ، وبعد يومين استدعت السلطات الشيوعية التي سيطرت على المدينة الرأسماليين ورجال الصناعة ، وفي مقر قيادة الحزب أفهمونا بأننا في أمان ، وان علينا الاستمرار في العمل ومضاعفة الانتاج وانهم سيزودوننا بكل ما نحتاج إليه من المواد الخام .. وكذلك فعلوا .

وتحدث باقتضاب عن الناحية السياسية فقال : ان الطبقة البورجوازية التي بقيت هي جزء من الجبهة الوطنية ، ولها ممثلون في الحكومة والهيئات الاجتماعية كما ترونني أنا .

والاقتصاد الوطني اما ان يكون قد أمم مقابل سندات على الدولة بفائدة قدرها ٥٪ واما مختلط أو فردي .. والدولة هي التي ترسم سياسته وتشرف عليه والجميع يتعاونون على زيادة الانتاج للحاجيات الاستهلاكية،ولتحقيق نمو الاقتصاد الوطني بجميع الوسائل المشتركة الممكنة .

ثم ان ٥٠٪ من الاقتصاد الوطني كان في عهد الكومنتانغ يخضع لاستثمارات

أجنبية، والنصف الآخر في دائرة تلاعب أصحاب النفوذ. ولهذا كانت البرجوازية الوطنية مضطهدة ، وكان من الصعب تطوير الاقتصـــاد الوطني دون الاصطدام بكلتا القوتين . فالاستعمار كان يهدف إلى تصريف بضاعته ، ونمو تجارته واغتصاب المواد الخام الصينية بأرخص الأثمان مما أدى إلى استنزاف ثروتنا الوطنية على أيدي الاستعماريين الذين ولوا عن بلادنا .

على ان وضعنا اليوم قد تغير تغيراً جذرياً ، فالنسيج وصناعة التبـغ التي كانت تستورد من الخارج ، صرنا نصنعها في بلادنا وهي اليوم تسد حاجتنا .

ثم ان مركزنا المالي حسن جداً ، فازدادت القوة الشرائية لدى المواطنـين وثبتت الأسعار . وتطور اقتصادنا الوطني فصرنا نصدر ما يمكن الاستغناء عنـه لنستورد ما يعيننا على تنمية الصناعة الوطنية . ويقوم التجـار الخصوصيون بقسط من النشاط الاقتصادي بما فيه الاستيراد ، والوساطة بين المنتجين والمستهلكين بربـح معقول . ولقد قال الرئيس « مـــاو » عن البرجوازيين الوطنيين بأنهم مناضلون لا ينفصل نضالهم عن نضال الشعب ضد الأعداء .

*

وختم المليونير الصيني حديثه قائلاً : « انني الآن سعيد بالمساهمة في خدمـــة بلدي وتطوير صناعته وتقدمه ، وسعيـد لأني أؤدي إلى جانب عملي الاقتصادي خدمة لمدينتي التي أحبها بوصفي نائب رئيس بلدية شنغهاي .. وسعيد لأن تتيحوا لي فرصة التمجيد بثورة العراق البطولية الممثلة فيكم كمواطنين عراقيين وأرجو ان يتحقق التعاون بين البلاد المحبة للسلام ، وأتمنى ان يتحقق للعرب كلهم أملهم ، وان يتعاونوا معنا لمكافحة الاستعمار والامبرياليين .

وخرجنا مـــن عند المليونير شاكرين له حسن ضيافته ، وفي طريقنا لزيارة أخرى ، صادف ركوب السيد « يانغ » رئيس مرافقينا معي في سيارة واحـدة وسألني كعادته في كل مناسبة ، رأيي في زيارة المليونير فقلت له :

ان قتلكم البطيء للرأسمالية، هذا القتل الذي يعبر عن الخلق الصيني الرفيـع.. قد مثلتموه ببراعة فائقة في هذا المليونير الذي يعيش اليوم في قفص من ذهب .

ولقد اتاح لنا المسؤولون فرصة ثمينة بزيارة قرينة « صن يات صن» رائد التحرير الأول لشعب الصين ، وشقيقة زوجة شان كاي شك ، وهي الآن تشغل منصب نائبة رئيس اللجنة الدائمة لمجلس الشعب الصيني ، ولهذه اللجنة صلاحيات خطيرة ، فهي التي تدير انتخاب النواب وتصنع المراسيم ، وتراقب عمل مجلس الدولة ، والمحكمة الشعبية العليا والنيابة العمومية الشعبية العليا ، وللجنة صلاحية إلغاء القرارات وأوامر مجلس الدولة التي تخالف الدستور والقوانين والمراسيم وتغير أو تلغي القرارات غير الملائمة التي تتخذها هيئات سلطة الدولة للمقاطعات والمناطق المستقلة ذاتياً ، والمدن التابعة للادارة المركزية وتتخذ القرارات حول تعيين وعزل أي من نواب الوزير الأول والوزراء ورؤساء اللجان ورئيس الامانة لمجلس الدولة في الفترة الواقعة بين دورتين من دورات المجلس الوطني لنواب الشعب .

وتعين اللجنة وتعزل رؤساء المحاكم والممثلين السياسيين وتتخذ القرارات المتعلقة بإبرام وإلغاء المعاهدات المعقودة مع الدول الأجنبية وتقرر اعلان حالة الحرب في الفترة الواقعة بين دورتين من دورات المجلس وكذلك اعلان الأحكام العرفية ..

ولقد عهد للسيدة « صن يات صن » بهذا المركز الخطير مكافأة لخدماتها الجليلة في الكفاح السياسي والاجتماعي الذي قامت به ، وتقديراً لخدمات زوجها الراحل .

وكانت هذه السيدة هدفاً لاضطهاد شان كاي شك نفسه ، إذ لم تكف عن النضال ، واشتركت في جميع أدوار التحرر الوطني ضد حكم زوج اختها . وهي اليوم موضع ثقة ماوتسي تونغ واحترام الشعب .

ولقد استقبلتنا السيدة صن في دارها المتواضعة في شنغهاي، والدار على بساطتها وصغرها جميلة غاية الجمال ، ولقد وضعت الدولة في خدمتها عدداً من الحراس والخدم ، ونصبت على مدخل الدار سارية لرفع العلم الوطني على دارها خلال اقامتها فيها .

ورحبت هذه السيدة الجميلة بنا أجمل ترحيب ، وكانت تتكلم بلغة انكليزية رفيعة .. وسألتها عضوة الوفد الوحيدة بيننا ، لتدلي لها بحديث خاص فقالت :

« أرجو أيها العراقيون ان تتحدوا وألا تختلفوا.. فباتحادكم تنجزون أسمى أمانيكم .. » وأضافت قائلة : « انني أتابع باهتمام بالغ أحداث البلاد العربية ، واني فخورة بثورتكم التي قصمت ظهر الاستعمار الغربي في الشرق العربي ، لا بل في العالم أجمع .. وانني كسائر جميع الصينيين قد حييت بحرارة انتصار ثورة العراق .

وعندما حل موعد ذهابها إلى واجبها كرئيسة لجمعية رعاية الأطفال في شنغهاي استأذنا بالانصراف ، فأبت إلا ان تأخذ معنا صورة تذكارية .

*

وقمنا بجولة عامة في أنحاء مدينة شنغهاي .. وهي المدينة الوحيدة في الصين التي بقيت فيها المقاهي مفتوحة ، وقد عمرت أسواقها ومخازنها التجارية بمختلف أنواع البضائع الوطنية .. وتجوب شوارعها بعض السيارات الصغيرة الخاصة بأصحابها من بقايا البورجوازيين .

وزرنا أحد معابد البوذيين الرئيسية ، ومن الواضح ان معظم أهل الصين كانوا قبل التحرير يدينون بالبوذية (وهم لا يدينون الآن بأي دين سوى دين الماركسية) .

ويتوسط المعبد تمثال كبير مصنوع من النحاس لبوذا ، وعلى يمينه وشماله تمثالان صغيران له . وأمام التمثال منصة عليها زهور وأوان ينبعث منها البخور ثم المصلى حيث وضعت وسادات صغيرة يركع عليها المتعبدون وهم يقرأون تعاليم بوذا . ولقد أقيمت على جانبي المعبد تماثيل ضخمة مختلفة الأحجام تمثل طبقات الناس ، وإلى الخلف من المعبد نصب على ارتفاع كبير تمثال كبير ضخم لبوذا وحوله عشرات التماثيل لحوارييه ..

وفي الطابق الثاني للمعبد نصب تمثال من العاج الخالص لبوذا بصورة امرأة جميلة غاية في الحسن والألوان الزاهية ، بالغة الروعة والجمال والتعبير .

ولم نشهد في هذا المعبد الرئيسي في المدينة إلا آحاداً من الشيوخ يؤدون الطقوس الدينية ، في حين كان المواطنون الصينيون يزورون المعبد زيارتنا له.

*

وزرنا عددا من المصانع منها مصنع للنسيج يحتوي على مصنع الصباغات وطبع الأقمشة كان اليابانيون قد أسسوه في عام ١٩٣١ ، ولقد استولت عليه حكومة الكومنتانغ فالجمهورية الشعبية في عام ١٩٤٩ .

يديره اليوم ١١٠٠ عامل وموظف ، ١٦٪ من النساء ، وانتاجه اليومي ٣٦٠٫٠٠٠ متر ويخرج ٤٦٨ نوعاً من الابتكارات الصينية الحديثة من حيث الألوان والنوعية ، دلت التجربة على ان ٢٦٦ منها قد ثبتت تجربتها ونجحت في الأسواق نجاحاً عظيماً .

ولقد أنشأ عمال هذا المصنع ورشة لسبك الحديد والفولاذ وصنع الآلات ، للمساهمة في زيادة انتاج الصناعة الثقيلة . كما أنشىء معهد للصباغة التحق به ٩٠٪ من عمال هذا المصنع .

كما أسس المصنع دار حضانة وحماماً عاماً ومركزاً صحياً وعيادة ونادياً، وفرقة للتمثيل من العمال أنفسهم ، وفرقاً عديدة للألعاب الرياضية .

وقال لنا مدير المصنع : إنهم كانوا قد أعدوا خطة للتفوق على بريطانيا في الصباغة وفي طبع الأقمشة في خلال ١٥ سنة ، ولكنهم وصلوا إلى غايتهم في ثلاث سنوات فقط .

ثم زرنا أفخم وأعظم ستوديو للسينما يملكه الصينيون – في شنغهاي يخرج مئات الأفلام السينمائية في كل عام .

وفي زيارة خاطفة لضاحية من ضواحي شنغهاي رأينا مساكن العمال على نحو ما ذكرت فيما تقدم .. ولقد أسس الفلاحون في هذه الضواحي ٢٣ كوميوناً شيوعياً ابتداء من ايلول « سبتمبر » ١٩٥٨ ، ويضم أصغرها ٤٠٠٠ نسمة ، في حين ان أكبر هذه الكوميونات يضم ٢٠٫٠٠٠ نسمة وكانت حصيلة هذه الكوميونات (كما قيل لنا) ان انتاج الحبوب وخاصة الرز قد تضاعف عما كان عليه .

وبذلت الحكومة في شنغهاي جهداً جباراً في الناحية التعليمية وهم واثقون من امكانية القضاء على الأمية بعد عام واحد .

وفي شنغهاي حتى نهاية عام ١٩٥٨ :

٢٢ معهداً عالياً يضم ٤٧٫٠٠٠ تلميذ .

٨٢ معهداً ثانوياً يضم ٣٦٫٠٠٠ تلميذ .

١٦١ مدرسة مهنية وزراعية تختص بمهنة واحدة تضم ١١٫٦٠٠ تلميذ .

٢٧٨٣ مدرسة ابتدائية تضم ١٨٣٫٠٠٠ تلميذ .

هذا عدا الجهود التي تبذلها المعامل والكوميونات والدوائر الحكومية وأهل الأزقة النائية التي تفتح كل منها صفوفاً تعليمية خاصة بها .

وهناك بشنغهاي ٢٠٠٠ مكتبة و ١٥٠ فرقة تمثيليـــة لمختلف الفنون . وتم تشييد مساحة قدرها أربعة ملايين متر مربـع لبناء القرى لسكنى العمال والفلاحين.

*

وأعدت لنا زيارة لمتحف مدينة شنغهاي وهو يضم آثار الصين في تاريخهـــا الحضاري الطويل، وخصص منه طابق لثورة الصين الحديثة، بكل صور كفاحها، وحياة قادتها وجنودها ، ونضالهم الجبار في الحرب الأهلية المريرة التي خاضوها . ولقد خصص جناح في هذا القسم من المتحف يضم آثار المسيرة الكبرى التي قام بها الحزب الشيوعي . ولقد وصفنا ذلك كله في مكان آخر من هذا الفصل لدى حديثنا عن « تخليد الأبطال في الصين » .

في فردوس الصين

هانشو

*

ما دمنا قد وصلنا شنغهاي ، فلا بد لنا من زيارة فردوس الصين هانشو الواقعة قريباً من الساحل الشرقي على بعـــد نحو ١٧٠ كيلو متراً إلى الجنوب الغربي من شنغهاي.

الجنة في السموات العلى ...
وفي الأرض هـــانشو
مثل صيني قديم

وهانشو تربض إلى جـــوار بحيرة صغيرة تبلغ مساحتها خمسة كيلومترات ونصف كيلو متر مربـع، ويبلغ طول سواحلها خمسة عشر كيلومتراً، وقد تكونت البحيرة من رواسب الطمي الذي كان ينقله المجرى السفلي لنهر « شانتان » .

ولقد بنيت المدينة فوق هذا الطمي قبل ألفي عام ثم جدد بناءها أحد أباطرة الصين في عام ١١٢٩ واتخذها عاصمة لملكه لمناخها المعتدل الرائع ، ولما أضفته عليها الطبيعة من سحر وجمال وجلال . فالجبال الخضراء تحتضنها من جانب ، في حـين ان مياه نهر شانتان بفضل القناة الممتدة حول المدينة تحتضنها من الجانب الآخر ، وقد أقيمت على شاطئيها البساتين والمشاتل النموذجية لتربية الاشجار والزهور .

ولقد شيدت على ضفاف البحيرة القصور والمعابد ، وغدت مصيفاً للحكام وعلية

القوم الى ان جاء الحكم الشيوعي ، فحولها الى مصيف ومتنزه لابنـــاء الشعب والسياح ، يستجمون فيها ويقضون عطلهم في ربوعها اليانعة الجميلة .

ولقد اتخذت الحكومة من أحد القصور على ضفاف البحيرة فندقـاً ينزل فيـه ضيوفها ، فيشاهدون من على شرفاته أجمل منظر يمكن أن تقع عليه عين انسان .

ولقد أقيمت على البحيرة سدود قسمتها إلى عدة أقسام أو خلجـــان في بعض زواياها. كما أقيمت في وسط البحيرة جزيرة اصطناعية على قوائم خشبية شيدت عليها استراحة جميلة كانت خاصة لنزهـة أباطرة الصين ، وهي الآن متنزه يؤمـه الزوار بقوارب صغيرة ، كالقوارب التي يستعملها أبنـاء مدينة البصرة على شط العرب في العراق .

وتمد القنـاة التي توصل نهر شانتان بالبحيرة بالمياه إليها ، كما وان الحكومة تعمل على تعميق البحيرة باستمرار بغية تلطيف جو مدينة هانشو السياحية .

ولقد شيدت على سواحل البحيرة مدينـة رياضية تتسع لمـائتي ألف انسان ، كما أقيمت ملاعب ومسابح رياضية مختلفة ، فضلاً عن مئات الكابينات يستأجرهـــا أبناء الشعب في عطلهم الطويلة . وأقيمت في البحيرة منارة تضيء في الليل البحيرة فتضفي عليها جمالاً أخاذاً يتمتع فيه راكبو الزوارق بفسحات جميلة خلال تنقلاتهم بين شواطئها .

ويقطن مدينة هانشو ثلاثة أرباع مليون نسمة فيهم نحـو ١٥٠٠ مسلم شيدوا لهم جامعاً يصلون فيه ، وأسسوا لهم جمعية لحل مشاكلهم الاجتماعية .

وكانت المدينة قبل الحكم الشيوعي مدينة سياحية يعيش ابناؤها على الوافـدين الى مدينتهم الى جانب زراعة الشاي وتربية دود القز . أما بعد الحكم الشيوعي فقد تأسست فيها صناعات خفيفة كثيرة ، في مقدمتها صناعة الأقمشة الحريرية المطرزة المزركشة التي اشتهرت الصين بانتاجها،ولقد زرنا أحد هذه المصانع فاشترينا الشيء الكثير من إنتاجها بالاسعار الثابتة المحددة لها – وهي غاية في الرخص الى جـانب هدية إدارة المصنع لكل عضو منا .

وفي المدينة جامعة تضم نحو ستة آلاف طالب ، الى جـانب ٤٠ مدرسة ثانوية

فيها أكثر من ٣٥ ألف طالب ومئات من المدارس الابتدائية للصغار، ومدارس ليلية يؤمها ستون ألف عامل لتلقي دروس دورية .

وفي ضاحية المدينة قريباً من البحيرة هضبة يبلغ ارتفاعها ١٥٠ متراً يسميها الاهالي « جبل العزلة » مساحتها خمسمائة متر مربع ، وتشرف على جميع أطراف البحيرة ، ولقد شيد أحد الأباطرة على قمتها استراحة . ويشاهد الزائر للهضبة بعض التماثيل والنقوش الأثرية من بينها (شاهد) لقبر عربي مسلم كتب عليه : كل نفس ذائقة الموت . وقال لنا مرافقونا الصينيون إن العرب قد وصلوا إلى هذه المنطقة .

ويؤم كثير من الناس جبل العزلة في أمسيات اليوم الخامس عشر للشهر القمري ، حيث يشاهدون غروب الشمس، وبزوغ القمر في آن واحد ، فيتمتعون بأبهى منظر خلاب .

وعلى بعد بضعة كيلومترات من المدينة زرنا « الجبل الطائر » وسمي بهذا الاسم استناداً الى أسطورةقديمة تقول إن الإله قد نقل من الهند هذا الجبل وأرساه في مكانه هذا من مدينة هانشو لغرامه بها .

ولقد نقشت على صخور هذا الجبل صور الآلهة في مختلف الاوضاع . ويتخلل أجزاء الجبل عدة كهوف نصبت عليها عشرات التماثيل والصور والرموز .

وتسلقنا الجبل بسياراتنا على طريق عريض غرست على جانبيه الاشجار حتى القمة ويرى الناظر من فوق القمة ان الجبل الطائر والبحيرة والمدينة تحت قدميه، ويرى مشهداً رائعاً لا يمكن أن يبرح مخيلته .

وعلى قمة الجبل شيدت معابد كثيرة للاله « بوذا » معبود الصينيين وإلههم إلى ما قبل عام ١٩٤٩ .

وفي داخل المعابد نصبت التماثيل النحاسية واللوحات المصورة للآلهة ولحراس الآلهة وهي ترمز إلى ما قد يصيب الانسان من خير وشر . فهناك إله الخير الذي يحمي الانسان من الشيطان ، ومن حوله ملائكة من الفرسان يطاردون الشياطين. وإله آخر يمنح الذرية للعاقرات وقد التف حوله أربعة وعشرون حكيماً . وإله السعادة الذي يدفع الشر وحوله أربعة من الملائكة يحرسون سماء بوذا بأسلحتهم .

ويرى زائر المعابد تمثال الاله بوذا يتوسطدوماً جميع تماثيل الآلهة الاخرى ولا يزال بعض الصينيين يؤمنون برسالة هذه الآلهة على الارض وعلى رأسهم بوذا – لخير الانسان وسعادته عن طريق تقديس الآباء والأجداد .

ولقد سألت أكثر من واحد من أبناء الجيل الجديد رأيه في البوذية . فكانت أجوبتهم جميعاً ان الانسان هو إله هذه الارض ، يعمل فتنتج له أرضه ، وينتج له عمله ما يقوته ويعوله ويكسوه وانهم لايشعرون قط بحاجتهم إلى وساطة من المجهول !

وزرنا بعد ذلك معبداً آخر منحني الأضلاع ، ويتألف من طوابق متعددة ارتفاعها خمسة وستون متراً ، وتتصاغر هذه الطوابق تدريجياً .. ويزور الصينيون هذا المعبد للتأمل والإصغاء إلى صوت السماء .

ويرمز هذا المعبد إلى دعوة الانسان الذي يعيش في اضطراب دائم الى نبذ الأوهام وانتزاعها من نفسه ليحيا عمره القصير صافي الروح ، مستبشراً ، متلذذاً بأيامها القصيرة .

وتذكرت في تلك اللحظات التي كنت أمتع فيها النفس بالتطلع إلى مدينة هانشو وبحيرتها الجميلة ، وقمم الجبال المحيطة بها ما كتبته في مقدمة مذكراتي « وراء البوابة السوداء » التي نشرتها تباعاً في مجلتي (المواطن) بعنوان : مخاوف المستقبل أوهام ، وتذكرت بيتين بهذا المعنى قالهما شاعر العرب الاكبر أبو الطيب المتنبي :

ألف هذا الهواء أوقع في الأنفس إن الحمام مر المذاق
الأسى قبل فرقة الروح عجز والاسى لا يكون بعد الفراق

وأنهينا مشاهداتنا لهانشو بزيارة « جبل التأمل » الذي يصعد إليه الزائر قاطعاً ثلاثة آلاف متر صعوداً يتوقف خلالها في أماكن الاستراحة المنشأة على طول السفح .

ومن على قمة جبل التأمل يشعر الانسان بأن الحياة لم تكن كلها تعباً وشقاء كما قال أبو العلاء المعري .. وإنما توحي إليه الطبيعة بأن هناك أشياء كثيرة يجد فيها المرء المتعة والراحة والسعادة تستحق النصب الذي يبذله من طاقته ومن عمره من أجلها .

ووهان (أربـع مدن في مدينة واحدة)

*

تحدثنا في الفصل ١٤ (مشاريـع الري والكهربة والمواصلات في التخطيـط الزراعي) عن مدينة ووهان ، كمركز للبحوث العلميـــة والفنية الخاصة بتنظيم شؤون الري لأكبر أنهار الصين الذي يخترق هذه المدينة وهو نهر اليانغتسي، ونهر هان اللذان يلتقيان في ووهان ويؤلفان نهراً واحداً يتجه نحو الشمال الشرقي ماراً بنانكين ليصب في بحر الصين الشرقي قريباً من شنغهاي .

ونعود مرة أخرى ، لنتحدث عن ووهان كمدينة مركزية عريقة في التاريخ القديم والتي لعبت دوراً أساسياً في تاريخ الثورة المعاصرة،ولأنها إحدى مدن الصين الرئيسية التي تعادل في أهميتها بكين وشنغهاي ونانكين .

ان ووهان تؤلف في الواقع مجموعة من أربـع مدن تلتقي جميعاً في مركـز التقاء نهر اليانغتسي بنهر هان وهـــذه المدن الأربـع هي : ووهان وهانكاو في القطاع الشمالي (الجانب الأيسر) من نهر هان ، وهانيانغ ووشانغ في القطـــاع الجنوبي (الجانب الأيمن) من نهر اليانغتسي .

ويقطن ووهان أكثر من مليون ونصف مليون نسمة ، وهي مركز صناعي وثقافي واقتصادي لمقاطعة « هوبي » وتاريخ المدينة يرجع إلى ٤٥٦٨ عامـاً إلى الوراء ، فلقد تأسست في عام ٢٦٠٦ ق. م. وظلت ثلاثة قرون (مـا بين القرن الثالث عشر ونهاية القرن السادس عشر) من أكبر مدن الصين وأهمهـا ، ولعبت « ووشانغ » دوراً قيادياً في ثورة ١٩١١ التي أسقطت حكم المانشو وأقامت نظام الحكم الجمهوري في البلاد .

وعانت مجموعة مدن ووهان الأربـع من فيضانات اليانغتسي وهان ما لم تعانه مدينة أخرى في الصين ، فلقد أغرقتها الفيضانات عشرات المرات، ودمرت مبانيها وحضارتها ، وقضت على كثير من أبنائها جيلًا بعد جيل .

وعلى سبيل المثال فان فيضان عام١٩٣١ دمر معظم المدن الأربـع في ووهان،

وشل صناعتها التي غمرتها المياه ، وبقي الماء يغطي المدينة بعلو مترين أربعة أشهر ، ويبلغ عدد ضحايا الفيضان ٨٠٠ ألف نسمة . وفقد نصف مليون من سكانها منازلهم وممتلكاتهم .

وفي عام ١٩٥٤ أغرق الفيضان « هانكاو » برمتها فأباد سكانها ، ودمر ٥١ مليون « مو » من الأراضي المزروعة في منطقة هوابي ، ولم ينحسر الماء عن المدينة إلا بعد سنة كاملة بعد ان غمر مساحة تزيد على مائة كيلومتر عرضاً،ومئات الكلومترات طولاً ، وكان الناس على ضفتي النهر يرون السفن تجري فوق مستوى رؤوسهم ، وأسهم شعب الصين كله في عمليات الانقاذ .

لقد عبرنا نهر اليانغتسي الأحمر بإحد المراكب السياحية ، وقطعنا مسافات بعيدة لمشاهدة ضفتيه ، ثم سرنا على أعظم جسر حديث ربط بين ضفتيه لأول مرة في تاريخ الصين ، ولقد وضع تصميمه مهندسون من الاتحاد السوفييتي ، ويتألف من طابقين ، خصص أحدهما لسكة الحديد ، وخصص الثاني لعربات النقل والسكان ، ويبلغ طول الجسر أكثر من ألف متر .

وزرنا في قطاع هانكاو معملاً للحديد والصلب ، مشيداً على الضفة الجنوبية لنهر اليانغتسي ، ولا تقل ضخامته عن مصانع الحديد والفولاذ التي شهدناها في منشوريا ، وأخبرنا مدير المصنع بأن الماكنات التي أنتجها المعمل (وقد شهدناها)— معدة للشحن إلى الهند .

وبعد أن زرنا معهد البحوث الفنية الخاصة بشؤون الري ، واطلعنا على المختبرات ، وعلى نماذج مشاريع الري والكهربةالمقامة والمزمع إقامتها على اليانغتسي وهان تجولنا في أنحاء المدن الاربع ، واستقر بنا المقام على البحيرة الشرقية لمدينة ووهان حيث تقرر إقامتنا في دار الضيافة لبضعة أيام للراحة والاستجمام من عناء سفرنا الطويل الشاق الذي قطعنا فيه آلاف الكيلومترات ، ونحن ننتقل في الأقسام الشرقية والوسطى والجنوبية من بلاد الصين .

ودار الضيافة هذه تقع على البحيرة الشرقية للمدينة ، وتقابلها من الناحية الاخرى جامعة ووهان القائمة على جبل « لوشاو » وتتألف الجامعة من تسع كليات:

اللغة الصينية وآدابها ، اللغة الروسية وآدابها ، كليـة الحقوق ، كليـة الاقتصاد ، الفيزياء ، الكيمياء ، علم الحياة ، الرياضيات ، كلية التاريخ . وفيها معهد لكيمياء المياه ، وآخر لدراسة إدارة المكاتب . ويحيط بالجامعة غابة كبيرة ، تضفي عليها إلى جانب قربها من البحيرة جواً صحياً ممتازاً يلائم الطالب الجـامعي ، ويهيىء له الجو الدراسي الهادىء .

وتحيط بدار الضيافة حديقة شاسعة مترامية منسقة أبدع تنسيق ، تنتهـي عند غابة من شجر الصنوبر والسرو ،وتملأ البحيرات المتناثرة هنا وهناك ورود اللوتس التي اشتهرت بها الصين . ولقد وجدت في دار الضيافة هذه ضالتي، فعكفت على تنسيق مذكراتي التي كتبتها عن الصين وإعداد أصول هذا الكتاب . ومما يؤسف له ان كثيراً من الوثائق والمصادر التي هيأتها من أجـل استكمال دراستي عن الصين قـد فقدت مع بعض أصول الكتاب ومع وثائق خاصة أخرى بعد خروجي من بلادي بسبب حملة التفتيش البوليسي على داري في بغداد مما اضطرني إلى كتابتها ثانيـــة خلال إقامتي في القاهرة .

وصدق قوله تعالى: « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهوخير لـكم » فلقداضطررت أن أبحث عـن مصادر جديدة أستعين بها على إنجـاز مشروعي فعثرت على ضالتي وحصلت على معلومات حديثة، أعانتني كثيراً على النحو الذي يراه القارىء،والذي أرجو أن ينال رضاه ، وينشد فيه معرفته عن الصين الجديدة .

تطور الاقتصاد الصيني في المستقبل

- تطور الشيوعية في الصين بالنسبة للدول الاسيوية والافريقية وللعرب بصفة خاصة
- هل تحقق الصين اهدافها ومشاريعها ؟
- انجازات وعقبات

تطور الاقتصاد الصيني في المستقبل

*

قدر الصينيون – منذ بداية تخطيطهم لتنميـــة الاقتصاد الصيني ، الممثل في مشاريـع السنوات الخمس .. انهم سيستطيعون اجتياز الفترة الانتقالية للتصنيـــع الاشتراكي في فترة خمسة عشر عاماً – قسموها إلى ثلاث مراحل تنتهي في عام ١٩٦٨.

وبعام ١٩٦٨ تكون أسس الاقتصاد الصناعي في الصين قد تمت ، وجعلوا من الصين بلداً اشتراكياً تخضع فيها جميـع مرافق البلاد وثرواتها التجاريـة والصناعيـة للدولة التي تديرها جميعها بنفسها ، في حين يكون فيه الفـــلاحون قد اندمجوا في التعاونيات الاشتراكية العليا .

والواقع انهم قد حققوا في عام ١٩٦٢ مرحلة « التحول الاشتراكي » التي كانوا يهدفون إليها .. وصاروا يتطلعون إلى زيادة في الانتاج تتمشى وحاجـات شعبهم الاساسية ، ومطامحهم السياسية في الحقل الدولي أيضاً .

إن الجداول الثلاثة المنشورة في الفصل ١٥ تشير إلى ما حققه الصينيون في حقل الانتـاج للمواد الاساسية وفق مشروعي السنوات الخمس الاول والثـاني ، وتشير كذلك إلى سباقهـم مع الدول العظمى الثلاث : الولايات المتحدة الامريكيـة ، والاتحاد السوفياتي ، وبريطانيا . ومحاولاتهم الجبارة للتقليل من فوارق انتاجهـم مع الدولتين الاولين ، واللحاق ببريطانيا أو تجاوزها . أما بالنسبة للهند فتفوق إنتاجهم عليها واضح كل الوضوح .

وإذا أدخلنا في حسابنا الظروف التاريخية التي سبقت نهضة الصين الجديدة ، وقارناها بظروف الاتحاد السوفياتي المشابهة لها .. مع علمنا بأن الصين قد بدأت وهي متخلفة غاية التخلف،في حين ان الاتحادالسوفييتي قام على تراث حضاري راسخ خلفه الحكم القيصري الجبار .. إذا راعينا ذلك كله لحكمنا على أن معدل نمو الطاقات الصناعية،وزيادتها في الصين كانت وتائرها أعلى من تلك التي أحرزها الاتحاد السوفييتي لا بل وان التنمية الاقتصادية والصناعية التي حققتها الصين الجديدة كانت أعلى فيها من أية دولة أخرى في العالم .. وتجاوزت أرقام الانتاج ما كان يحلم بها الصينيون أنفسهم .

وإلى جانب هذه الحقيقة فإن الصين بوصفها الدولة العظمى الاولى من حيث عدد السكان بالنسبة لدول العالم كله ، وبوصفها الدولة العظمى الرابعة من حيث القوة ، فانها تعتبر بدون أي شك بلداً متخلفاً . فأرقام إنتاجها الصناعي ما تزال منخفضة ، لا بل وأقل من إنتاج بريطانيا التي تبلغ نسبة عدد سكانها ١ الى ١٢ من سكان الصين .. وتتزايد نسبة هذا الانخفاض أكثر فأكثر بالنسبة للولايات المتحدة الامريكية أو الاتحاد السوفييتي إذا قورن بالنسبة لعدد السكان .

كما وان نسبة الانتاج أو نسبة مستوى الحياة للفرد بين المواطن الصيني في عام ١٩٥٢ وهو أول عام مشروع السنوات الخمس الاول ، وبين المواطن السوفييتي في عام ١٩٢٨ وهو أول أعوام مشروع السنوات الخمس للسوفييت، كان ١ إلى ٤ أي ان دخل المواطن السوفييتي كان يساوي أربعة أضعاف دخل المواطن الصيني ، وظل هذا التفاوت قائماً حتى بعد إنجاز الصينيين مشروع السنوات الخمس الاول .

هل تحقق الصين أهدافها ومشاريعها ؟

*

ونعود إلى أصل الموضوع ونتساءل : هل نتوقع من الصين أن تبلغ أهدافها الصناعية التي وضعتها في مشاريعها ؟

إن الشرط الأول لبلوغ هذا الغرض هو الإبقاء على الاستثمار الصناعي للصناعات

الرئيسية على مستواه الذي حققته في فترة القفزة العظمى التي بدأت منذ عام ١٩٥٨.

وتقول الحكومة الصينية في تقريرها الذي قدمته لمجلس الشعب إن مجموع المبالغ التي صرفت لهذا الغرض في مشروع السنوات الخمس وصلت إلى ٤٩ بليون ين – أي أكثر من ٧٠٠٠ مليون جنيه استرليني أي بزيادة ١٣٪ مما كان قد خصص للمشروع في الأصل.

ويبدو من هذه الأرقام أن استثمارات الدولة قد بلغت حوالي ١٢٪ من مجموع الدخل القومي – حتى لو افترض احسابها على أساس الادخار الاجمالي العام للبلاد – خاصة إذا قورنت ببلد مشابه للصين كالهند التي تحاول جاهدة لكي ترفع من مستوى الاستثمار العام والخاص في بلادها إلى ١٠٪ فقط في هذا العام (عام١٩٦٣)

ومما لا ريب فيه أن نجاح الصين الشعبية في ضمان وبقاء مثل هذا المستوى في الادخار والاستثمار سيحقق كامل أهدافها في القطاع الصناعي، على الرغم من العقبات التي تعترض الإبقاء على هذا المستوى العالي للاستثمار في بلد ما يزال في عداد البلاد المتخلفة اقتصادياً، ولا تتلقى مساعدات خارجية إلا من الاتحاد السوفيتي (وقد تقلصت أخيراً إلى أدنى حد) .. وحتى هذه المساعدة التي تتسلمها الصين، عليها أن تدفع ثمنها من إنتاجها إذ ليست منحة ولا هبة ولا صدقة، فضلاً عن الشعور العام بأن لا أمل لتجديد القروض السوفييتية في المستقبل بسبب الظروف الخاصة التي تمر بها علاقات البلدين مع بعضهما البعض اليوم، والتي يتوقع زيادة تعقدها في المستقبل.

وأكثر من هذا وذاك، فأمام الصين عقبات كأداء أخرى تحول دون تمويل الاستثمارات القادمة على مستوى عال، فالمستوى العام للدخل لا يزيد كثيراً عن المستوى المعاشي، ورأينا في الأمثلة التي أوردناها خلال زياراتنا للمناطق الصناعية ولوصفنا لحياة الفلاح الصيني في الكوميون وغير الكوميون أن معدل الادخار الشخصي منخفض جداً ولقد قضى على الطبقة العاملة لحسابها الشخصي تقريباً – مما يؤدي إلى انخفاض قيمة الادخارات المطلوبة ... فيترتب على هذا وذاك تناقص إيرادات الدولة من الضرائب تناقصاً ملحوظاً.

ثم إن زيادة السكان بما يتراوح بين ١٥ و٢٠ مليون نسمة في كل عام تؤدي

حتماً إلى انخفاض واردات الضرائب خاصة في القطـــاع الزراعي إذا لم تحقق الحكومة (بمعجزة) زيادة مضطردة في الانتاج الزراعي .

وقد تضطر الصين على أن تزيد من القوة الشرائية للمواطنين لكي تسد النقص المتوالي لواردات الضرائب، وهذا السبيل محفوف بخطر التضخم المالي ما لم تصحبه زيادة كبيرة في إنتاج البضائع الاستهلاكية ... وسبق لنا – في فصل سابق أن بحثنا في هذا الموضوع ، وذكرنا أن الحزب الشيوعي الذي يوجه سياسة الدولة قد عارض هذه الزيادة معارضة قوية ونجح في إحباطها ، على اعتبار أن هذه الزيادة لا تتحقق إلا بتخفيض مستوى الاستثمار في قطاع الصناعة الثقيلة التي يعتبرها الحزب الأساس الذي يبنى عليه اقتصاد الصين كله ، لا بل وأمـــل الصين الكبـير في مستقبلها كدولة عظمى .

وهكذا يرى القـــادة الصينيون أنهم يدورون في حلقة مفرغة لا أول لها ولا آخر، إذ إن مشكلتهم الأساسية منحصرة في تركة بعيدة الغور، ممثلة في فقر بلادهم– أي في المستوى المنخفض للدخل الحقيقي لكل فرد من أفراد الشعب .

ولقد اضطروا إزاء هذه المشكـلة الى سياسة التقشف ، وناشدوا الشعب أن يشد الأحزمة على البطون لفترة ما...وطال شد الأحزمة ، في حين أن الوعي بين المواطنين كان يتزايد زيادة مضطردة بسبب نشر الوعي السياسي فيهم إلى أبعـــد الحدود ، وحـــين طال أمد الانتظار دون جدوى ، بـدأ التذمر يعم صفوف أولئك الذين يعتبرون الدولة منهـم وإليهم وبهم – دولة العمال والفلاحين .. دولة الشعب ، فحدثت بعض الاضطرابات بين العمال وفي صفوف الفلاحين ، ممـا اضطر الحكومة إلى منحهم دخلًا أعلى ، وإنتاجاً للبضائع الاستهلاكية تعـــادل زيادة الدخل .. وتم ذلك طبعاً على حساب تخفيض نسبة الاستثمار في الصناعات الثقيلة .

إن قادة الصين العارفين بما تؤدي إليه سياستهم الاقتصادية من تقلبات عنيفة لا خيار لهم في مفارقاتها .. لم يجدوا بداً من مصارحة شعبهم بها عن طريق منطقهـم الماركسي في تكوين النظريات وفي تفسيرها أيضاً .

ففي ربيـع ١٩٦٠ أعلن كبير مخططيهم ، لي فوشون ، قائلًا : « إن طريق

تنمية الاقتصاد الوطني قائم على التغيير من اللاتوازن إلى التوازن ، ومن التوازن اللاتوازن ، ومتى فعلنا هذا باستمرار فانتقلنا إلى ذاك وبالعكس ، كلما ارتفع الانتاج إلى أعلى .. فأعلى .. وتقدم الاقتصاد الوطني تقدماً مضطرداً بفعل هذه التحركات التي هي أشبه ما تكون بتحركات الأمواج !

ولقد أثرت فكرة ازدهار الاقتصاد الوطني القائم على التغيير المفاجىء – على السياسة التي أخذ يتبعها القادة الصينيون ، فأبدوا استعداداً أكثر مرونة عن ذي قبل لتعديل سياستهم العامة كلما حاقت بهم المشاكل والمصاعب ، وأظهر حتى المتطرفون والمتعنتون في جهاز القيادة ازدراءهم « لحتمية » و « جزمية » ذوي الآراء القاطعة .. إنهم اليوم فخورون بأن تفكير ورأي « ماوتسي تونغ » أصبح يجمع بين الحقائق العلمية الماركسية – اللينينية ، وبين ممارسة الثورة والبناء في الصين .

إن اللجنة المركزية للحزب قد وعدت – في مرحلة مشروع السنوات الخمس الثاني بأن جميع قطاعات السكان سيحصلون على زيادة في الدخل تتراوح بين ٢٥ – ٣٠٪ ، كما يأملون في زيادة إمداد الشعب ببضائع استهلاكية ترفع من المستوى الحالي . ويتوقعون زيادة في الدخل القومي العام بحوالي ٥٠٪ في ذات الوقت .

*

وتفكر الحكومة الصينية في مصادر أخرى تستغلها في المستقبل لزيادة رصيد الاستثمار ، كالتحويل الخارجي الناجم عن ميزان المدفوعات ، وكانت تعتمد على زيادة الانتاج الزراعي في بلادها هذه الزيادة المطلوبة، غير أن ما أصيبت به من كوارث الطبيعة التي تتحكم على الغالب في هذا المنتوج – إلى جانب زيادة سكانها المضطرد،جعلها تتجه إلى بيع إنتاج الصناعات الخفيفة–على نحو ما فعلت اليابان، لا بل بدأت تنافس اليابان في هذا الميدان لتزيد من وارداتها الخارجية ، كما وان الصين تضع الخطط لاستغلال ما في باطن أرضها من معادن نادرة فتزيد من تصديرها إلى الخارج كمواد أولية .

ولبناء اقتصاد صناعي حديث فان الصين تحتاج إلى معرفة وخبرة كافيتين

لتكنيك الصناعة الحديثة .. ولذلك فلقد وضعت مشروعاً لتنمية العلوم ، وخاصة العلوم الصناعية ينجز في إثني عشر عاماً ما يحقق للصينيين بناء صرح العلوم بمختلف فروعهـا ، ويكون بمثـابة القاعدة لتنمية العلوم الصناعية (التكنولوجية) في المستقبل . وبدأت الحكومة تدرب عدداً كبيراً من العلماء والخبراء الفنيين الصينيين ، والدراسات العليا في الصين اليوم أصبحت مركزة على المواضيع العلمية بالدرجة الاولى ..

لقد ألفت الحكومة في عام ١٩٥٧ لجنة التخطيط العلمي ضمن مجلس حكومي أوسع ، لتنسيق البحث العلمي . وإلى جانب الاشراف على جميع البحوث العلمية ، تسعى اللجنة إلى الافادة من العلماء الأجانب قدر ما تتيسر لها هذه الافادة .

وهناك لجنة أخرى تشرف على إدارة البرامج الخاصة للبحث في كل حقل من الحقول العلمية المختلفة ، بما فيها استخدام الطاقة الذرية للأغراض السلمية ، والراديو الألكتروني ... الخ .

ولقد بذلت الحكومة الصينية مساعي جدية لكي تحصل على بعض المعلومات في (تكنيك) الذرة ، وشيدت لهذا الغرض – وبمساعدة الاتحاد السوفييتي مؤسسة قائمة بذاتها . وقيل في الدوائر العلمية الغربية إن الصينيين قد استطاعوا استخراج اليورانيوم المنقى من الأراضي الصينية .

وما من شك في أن الاتحاد السوفييتي قد أفاد الصين بتعليم عدد كبير من أبنائها تكنيك الصناعات الحديثة ، وما زالت الصين تعتمد اعتماداً كبيراً على روسيا في هذا المضمار ، ولعب الخبراء الروس الذين بلغ عددهم ٥٠،٠٠٠ خبير في يوم من الايام دوراً أساسياً في بناء المصانع ، ونصب الأجهزة الحديثة ، وتدريب زملائهم الصينيين على العمل في هذا الحقل .

ويدرك الصينيون أن مساعدة روسيا في هذا الحقل تعطى بقدر مرسوم ، وهي تبخل عليهم فلا تعطيهم أسرار العلوم الحديثة لتظل في موقف المتفوق على الصين لجيل أو جيلين على الأقل .. ولذلك فالصينيون يرون أنه لكي تصبح بلادهم بلاداً صناعية من الدرجة الاولى ، عليهم أن يعتمدوا على أنفسهم في حقل

العلوم الصناعية ، وبدأوا يحولون انتباههم وطاقاتهم إلى هذه الناحية .

*

وهناك معضلة أخرى أدركت الصين خطورتها في تطوير الاقتصاد الصيني في المستقبل ، ألا وهي ضرورة تحسين مواصلاتها بين أجزاء بلادها الشاسعة المترامية الأطراف لكي تستغل مواردها استغلالاً مجدياً ومثمراً .

إن مجموع طول الخطوط الحديدية التي تستعمل لغاية ١٩٦١ لا تزيد كثيراً عن ٢٠،٠٠٠ ميل ، وهي تعادل ٦٠٪ من طول الخطوط الحديدية المشيدة في الهند على الرغم من صغر مساحة الهند بالنسبة لبلاد الصين ، وتعادل حوالي ٩٪ من طول الخطوط الحديدية في الولايات المتحدة الأمريكية .

وهناك في الصين مساحات شاسعة جداً لا ترتبط بسائر أقسام البلاد بشبكة من المواصلات الحديدية على الإطلاق .

وإلى جانب هذه الثغرة الفعالة في تطوير اقتصاد الصين ، فان الطرق البرية قليلة بالنسبة لحاجة الصين ، وسيارات النقل في البلاد (اللوريات) ما تزال نادرة، فضلًا عن نقص في القنوات المائية التي يجب أن تربط الأنهار الرئيسية المتوازية ببعضها طولاً .

والصين تعمل جاهدة في بناء أسطولها التجاري لكي تسد حاجتها الماسة في المواصلات البحرية .

انجازات وعقبات

*

وتختلف نظرة القادة الصينيين عن نظرة غيرهم ، فيبدو لمن يستمع إليهم أنهم مطمئنون إلى مستقبل شعبهم ، راضون بما أحرزته بلادهم من تقدم في الحقل الاقتصادي ويقولون :

لقد كان اقتصادنا متأخراً ، وكنا نجهل فنون الصناعة والزراعة الحديثتين ،

ولكننا اليوم – بعد عشر سنوات أو اكثر من تسلمنا مقاليد حكم بلادنا ، صار بقدرة شعبنا ان يصنع الطائرات والسيارات ، وماكينات القاطرات ، والمولدات الكهربائية ، وماكينات المصانع أيضاً .

ثم إن اقتصادياتنا قد نمت سريعاً ، وقامت في بلادنا صناعة حديثة ، وهناك زيادة كبيرة في الاستثمارات ، وصار الصيني يطبق بنفسه الفنون الصناعية ، وأدخلت الوسائل الصناعية الحديثة في الانتاج الزراعي .. وتضاعف إنتاج البضائع عما كان عليه في الماضي ، وحصلت زيادة كبيرة في الانتاج الزراعي ..

على أن معظم المراقبين الدوليين يرون : بأن على قادة الصين أن يعرفوا أن طريقهم طويل شاق قبل أن يصلوا إلى المستوى الذي وصلت إليه الدول العظمى في عالم اليوم .

لقد كانت تركة الماضي ثقيلة وقاسية ، ففي السنوات الثلاث الاولى لقيام جمهورية الصين الشعبية ، كان الشغل الشاغل للدولة هو إعادة بناء الاقتصاد المنهار ، وإعادة ثقة الشعب بمركزه المالي الذي فقد كل قيمة له .

وفي خلال مشروع السنوات الخمس (عام ١٩٥٢ – ١٩٥٧) كانت تنقص الصينيين الخبرة والمعرفة العلميتين ، اللازمتين لطموحهم في التوسع الصناعي ، وفي إنجاز المشاريع الكبرى التي أرادوا تحقيقها .. فتعثروا كثيراً في تخطيطهم الفني ، ووقعوا في أخطاء عديدة كلفتهم كثيراً قبل أن يتلافوها في السنة الاخيرة للمشروع ... ومع ذلك فلقد أنجزوا في نهاية المشروع معظم الأهداف التي صمموا على تحقيقها .

وفي القطاع الزراعي أعادت الصين – بعد ثلاث سنوات من بداية حكمها الجديد مستوى الانتاج الذي كانت عليه البلاد قبل الحرب . ومنذ عام ١٩٥٤ حتى نهاية ١٩٥٧ حصلت البلاد على زيادة قدرها ٣٠٪ من ذلك الانتاج ، ثم بلغ ذروته في عام ١٩٥٨ .

وركزت الدولة جهودها في السنوات الاولى على تحويل البلاد بسرعة نحو الاشتراكية . فقامت بثلاث ثورات اشتراكية أساسية :

١ – أعادت توزيع الملكيات الزراعية ، على اساس الملكية الصغيرة للفلاحين بقسمة متعادلة ، ثم جمعت تلك الملكيات في وحدات كبيرة ضمن إدارة الجمعيات التعاونية ، ثم انتهت إلى الملكية الجماعية الممثلة في الكوميونات – التي تراجعت قليلاً عن بعضها بعد فشلها في عام ١٩٥٩ .

٢ – وفي القطاع الصناعي ، أخذت الدولة بسياسة التأميم ، وما إن حل عام ١٩٥٧ حتى كانت جميع الصناعة خاضعة لسيطرة الدولة ، وغالبيتها المطلقة قد أصبحت ملكاً لها .

وفي نهاية عام ١٩٥٨ اعتبر الصينيون أن الاشتراكية قد غطت الاقتصاد الصيني تماماً ، ولن يحل عام ١٩٦٣ إلا ويصبح الاقتصاد الصيني كله اشتراكياً (١٠٠٪)

٣ – وما بين عام ١٩٥٨ – ١٩٦٠ كان على الصينيين أن يحققوا أعظم النتائج الممكنة فيما سموه بسياسة القفزة العظمى ، وللوصول إلى أهداف القفزة فلقد طلب قادة الصين من شعبهم أن يقدم بلا تردد دموعه وعرقه لثلاث سنوات عجاف متواصلة .

ولقد استطاعت الصين أن تؤسس صناعات صغيرة في الريف ، لكي تستغل القوى العاملة كامل الاستغلال ، وطلب إلى الادارة المحلية في المقاطعات أن تقوم بإنجاز المشاريع المرسومة في داخل مقاطعاتها بأية وسيلة ممكنة .

وأن يلعب الشعب في الريف الذي ضمت غالبيته إلى الكوميونات دوراً أساسياً في الإسهام بالصناعة عن طريق اصلاح آلات الماكنات ، وإنتاج السماد ، واستخراج الحديد والصلب من أفران الأقنية الداخلية بكل طاقاته .

أما أبناء المدن فلقد جمعوا منذ بداية عام ١٩٦٠ في وحدات إدارية مماثلة – للكوميون الريفي ، وطلب منهم أن يكونوا في حالة تغير عام تستغل فيه جميع طاقات الأيدي العاملة للانتاج وتصليح وإدامة المعامل في مناطقهم .

وكان الغرض من كل ذلك هو استغلال جميع الطاقات ، والقوى الانتاجية ، بجميع الوسائل المتوفرة ، لتلعب دورها في فترة التطوير ، لتصبح الصين غنية بأقصر طريق ممكن .

وبما أن الحكومة قد ركزت آمالها وجهدها على الصناعة الثقيلة–وهي مدركة بأن معدل الاستهلاك سيرتفع خلال السنوات القادمة ، فإنها موقنة بوجود فائض في الانتاج سيستخدم لتحقيق الإنماء الجديد .. فهي تزرع لتستخدم ثمار زرعها في إنتاج جديد ، ولتستطيع في النهاية تحويل الواردات للبضائع الرئيسية لرفع مستوى المعيشة للمواطن .

وإذا قورن الاقتصاد الصيني السائر باضطراد نحو النمو ، بمستوى اقتصاد الدول المصنعة تصنيعاً كاملاً ، فان الصين تبدو وكأنها متأخرة جداً ، وعليها أن تتوسع باضطراد دائم ، وبنسب عالية جداً لتلحق بآخر الركب .

فهل تستطيع تحقيق هذه الأهداف ؟

نعود فنكرر ما سبق قوله أكثر من مرة بأن زيادة السكان بالنسبة إلى ما هي عليه الآن في الصين ستعوق هذا النمو الاقتصادي ، وتبتلع كل زيادة يحققها التقدم الصناعي ، ما لم تعتمد على تحديد زيادة السكان .

ثم إن القادة الصينيين ، يطمحون دائماً وأبداً إلى خلق دولة صينية قوية عزيزة الجانب ، تلعب دوراً رئيسياً في جنوب شرقي آسيا ، يهابها جيرانها ويتأثرون بسياستها ... ولقد أعلنوا لشعبهم أكثر من مرة : بأن عليه أن يعمل دون ما انقطاع ، وأن يشد الحزام على بطنه ليخلق من الصين أقوى وأغنى دولة في العالم .

ومثل هذه السياسة يعوق بلا شك رفع مستوى معيشة المواطنين الصينيين الذين يعرفون جيداً أنهم لن يصلوا إلى ما يطمح إليه قادتهم ، ولا يمكن أن تتحقق لهم مثل هذه الآمال .

وأخيراً فإن التقدم الصناعي الذي أحرزته الصين قد اعتمد أصلاً على معونات الاتحاد السوفييتي ، وهذا له مغزاه السياسي والاقتصادي معاً .. خاصة وان الصين قد اعتمدت أخيراً على نفسها في إنمائها الجديد–عندما لمست شح السوفييت وتلكأهم في تنفيذ التزامات معوناتهم لها بعد أن وقفت الصين منهم موقف المشاكس – لسياستهم المذهبية والدولية معاً .

وهذه العوامل جميعاً تدع المرء يشك في إمكان خلق قوة صناعية عظمى في الصين

تقف جنباً إلى جنب مع الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفييتي في السنوات القادمة .. على الرغم من كل مـا حققته الصين حتى الآن من معجزات في بنائهـا الاقتصادي والاجتماعي .

*

وأخـيراً ، حتى لو ذللت جميـع المصاعب التي بحثناها في هـذا الفصل ، فليس هناك من يستطيـع التنبؤ عن مستقبل الصين كقوة صناعية ما لم تتكشف للعـالم تقديرات صحيحة ، ومعلومات وافية عن الثروات الطبيعية الكامنة في أرض الصين.

وكما ذكرنا في فصل سابق، فان الصين تمتلك كميات كبيرة جداً من احتياطي الفحم والحديد تكفي حاجتها لحقبة طويلة . . كما اكتشف النفط (البترول) في « سينكيانغ » ، وفي بعض المناطق الأخرى ، على ان الصينيين غير متفائلـين من إمكان العثور على كميات كافية تسد حاجتهم منه .

وعموماً فالخبراء الغربيون حذرون في تقرير مستقبل الصـين كقوة صناعيـة عظمى، ففي الوقت الحاضر لا يمكن أن يقال بأن الصين غنية في ثرواتها الطبيعية .. وبنفس الوقت لا يمكن القول بأنها دولة فقيرة بحيث لا يمكن تذليل ما يعترضها من عقبات لـكي تصبح قوة صناعية من الدرجة الاولى خلال العشرين سنة القادمة .. على أن شيئاً واحداً تعد فيه الصين غنية جداً ، الا هو الأيدي العاملة .

على أن الأيدي العاملة الناجمة عن تزايد السكان بما معدله نحو ٢٠ مليون نسمة في العام الواحد (وهذا العدد يتزايد باضطراد) يضع المسؤولين الصينيين في موقف لا يحسدون عليه مهما حققوا من مشاريـع جبارة في بلادهم . ففي مطلع عام ١٩٧٠ سيكون في الصين ما يزيد على ١٠٠ مليون شخص إضافي عاطل . ولا يبـالغ المرء إذا قال : إن زيادة السكان قد أصبحت حاسمة في تقرير مستقبـل الصين .. لا بل ومستقبل آسيا والعالم إذا ارتأى قادة صين المستقبل أنه لا حل لمشكلتهم إلا بزحف طويل يكتسح الأراضي التي تتسع لحياة مائة أو مائتي مليون من مواطنيهـم العاطلين الجياع .

وقد يبدو هذا الرأي مجرد تصوير مجسم لخيال لا يعدو كونه إغراقاً أو شططاً

في التشاؤم ، على ان التاريخ بما حمل في سير احداثه من موجات الفتح والغزو والهجرة تدعني لا أستبعد مطلقاً تكرار أحداثه مرة أخرى ، اللهم إلا إذا أوقف شعب الصين تكاثر نسله وحدده في أضيق نطاق... وإذا تكاتف العالم فأحل تعايشاً سلمياً بين حكوماته وشعوبه محل الحروب الباردة والساخنة القائمة الآن في كل ركن من أركان المعمورة ، ومدت أمريكا وأوربا يداً مخلصة للصين تعينها على البناء من أجل رخاء الناس .. كل الناس .

صين اليوم نهاية بداية لصين المستقبل

صين اليوم نهاية بداية لصين المستقبل

*

لا يسعني ، وأنا أنهي هذا الكتاب إلا أن أعود إلى مقدمته مرة أخرى فأؤكد للقارىء العربي بأن ما كتبته عن ذلك « العالم المغلق » الذي يجتمع على ارضه التي تبلغ مساحتها سدس الكرة الأرضية .. خمس سكان العالم، أو قريباً من ربعه .. ان هو إلا لمحات عابرة لا تكفي للكشف عن جميع الخبايا ، ولا تجلو كل النواحي في تلك الدولة الاعتصابية الناشئة ، إذ أن الأمر يحتاج إلى تحليل عميق للكشف عن التيارات الكامنة وراء التغييرات التي حدثت أو التي تحدث في المستقبل.

والأمر يحتاج إلى تاريخ معتمد للحزب الشيوعي الصيني منذ بداية ظهوره حتى اليوم ، يقوم بوضعه دارس قدير طموح ، يجمع الوثائق والدراسات العديدة غير الكاملة، فيذهب إلى أرض الصين نفسها، ويتعلم لغتها ، ويدرس شعبها عن كثب.. ليكتب تاريخاً كاملاً للصين يستطيع أن يعبر فيه عن آراء حاسمة ، ويصدر أحكامه القاطعة ..

وهذا ما يجب أن يفعله فريق من أبناء الأمة العربية ، ويولوه عنايتهم مادامت الأمة العربية في أمس الحاجة إلى عشرات من الكتب التي يجب أن تبحث في شؤون الصين :

ـ الصين القديمة بتاريخها الحافل ، وبحضارتها المجيدة التي دامت آلاف السنين ، متواصلة غير منقطعة .. وقل أن يوجد لها نظير في غير الصين .

ـ الصين التي خاضت حروباً خارجية وداخلية مدمرة طيلة مائة عام فأصابت

مقتلاً في ضمير شعبها العظيم قبل أن تنتهي إلى ما انتهت إليه ، فأقامت حكمها الشيوعي ..

ــ الصين الجديدة بمولدها الثوري ، وقد اكتسحت في طريقها جميع آثار الماضي ، وأقامت مجتمعها الاشتراكي الجديد على أسس واضحة المعالم ، تستحق تجربتها الجديدة منا كل عناية واهتمام ، خاصة وأمتنا اليوم تجتاز مرحلة فاصلة من مراحلها التاريخية ، يتوقف على ما ستتمخض عنه من أحداث ونتائج مصير أمتنا القادم .

ــ وصين اليوم ، بنظامها السياسي والاقتصادي والاجتماعي الجديد .. ليست خاتمة مطاف لمطامح شعبها ، وجيلها الطالع ، لا بل هي نهاية بداية يعبر منها شعب الصين إلى المستقبل . فما يكتب اليوم عن الصين قد لا ينطبق على واقع غدها المتجدد المتغير .

إن قادتها الواثقين من صلابة الأرض التي يقفون عليها ، المؤمنين بقدرة شعبهم على البناء الخلاق .. يعدون للمستقبل خططاً قد تكون في نظر أعدائهم خيالية ، وقد لا تكون كذلك في نظر الذين يشاركون الصينيين آراءهم في إمكانيات بلادهم التي لم تستغل ولم تستثمر بعد .

ومع ان المرء لا يستطيع أن يجزم بقدرة الصينيين على تحقيق كل ما خططوه، أو يخططونه للمستقبل .. أو التنبؤ بالوقت الذي ستصبح فيه الصين دولة عظمى . إلا أني لا أشك فيما كان يعنيه رئيس مخططيهم « فوشوين » من قوله الجاد :

« ليست لدينا وصفات لتحقيق المعجزات ، ومع ذلك نستطيع أن نؤكد أنه لن يلزمنا مائة عامة لكي نساوي ونفوق المستوى الحضاري للبلاد الرأسمالية ، بل تكفينا بضع عشرات من السنين. لا يلزمنا سوى خمس سنوات لنفوق ما استغرق إنجازه عشرات السنين في الصين الرجعية » .

أجل .. فمن الناحية النظرية تعتبر الصين بلداً غنياً، إذ إنها تمتلك موارد طبيعية وافرة لم تستغل بعد، فما زال ٨٢٪ من أراضيها غير مزروع، فوادي «سيكيانغ» الواقع في أقصى شمال غربي الصين مثلاً والذي تبلغ مساحته ثلاثة أضعاف مساحة

فرنسا . يمكن أن يصبح أرضاً منتجة لغذاء عشرات الملايين من الصينيين ، وكذلك حال التيبت الواقعة في جنوبه التي ضمت نهائياً إلى الصين .

ويوم تحل المحاريث الميكانيكية محل المحراث الخشبي ، وينتظم الري ويعم استعمال الأسمدة ، ويوم تمتلك الصين المعدات والطاقات اللازمة – في الخمس عشرة سنة القادمة كما يقدرون – عندئذ تتحقق المعجزة الكبرى لتغذية العدد المتزايد من الفلاحين والعمال .. وينطلق الانتاج في شتى مراحل التنمية الاقتصادية .

*

وقد يتساءل المرء عن قدرة نظام الحكم الماركسي على البقاء في الصين ، كيما يتسنى لقادة تلك الدولة الاعتصابية تنفيذ مخططاتهم بالاساليب والوسائل اللازمة للفلسفة الشيوعية ، والتي يمكن أن تحقق المعجزة الكبرى بانطلاق الانتاج في شتى مراحل التنمية الاقتصادية بأقصر مدة ممكنة ؟

إن علماء الاقتصاد والخبراء الغربيين الذين تخصصوا في دراسة شؤون البلاد الشيوعية يجيبون على هذا التساؤل قبل إجابة الشيوعيين أنفسهم فيقولون :

إن فلسفة السياسة الماركسية متقدمة كل التقدم في الصين على خلاف الأمر في روسيا أو غيرها من البلاد الدائرة في فلك الاتحاد السوفييتي . لقد أصبح ماوتسي تونغ الزعيم الفكري الأول للشيوعية الدولية ، وهو كذلك استطاع الجمع بين السلطة والفكر ، وبين القلم والسيف . ثم جاء بدعوة جديدة هي أن الشيوعية يجب ألا تظهر في صورة واحدة ، بل يلزم أن يكون لكل مجتمع شيوعيته ، ولكل زمن شيوعيته ، ولكل دولة شيوعيتها .

ولقد كيف ماوتسي تونغ شيوعيته لتلائم طبيعة شعبه ، ويمكن القول إن حضارة الصين قدمت أخصب تربة لنمو الشيوعية ، وأتاحت الفرصة لأن تقدم الماركسية نفسها كبديل لمعتقدات الصينيين القديمة في القرن العشرين ، فالانقلاب العسكري للوصول إلى السلطة لا يستطيع أن ينجح في الصين ، على أن الوسيلة الوحيدة لنجاح الثورة الشيوعية هي الاستناد على طبقة الفلاحين.. ويدعم ماو رأيه بدراسة تفصيلية لمختلف الثورات الصينية ، التي استندت كلها إلى طبقة الفلاحين

ويستنتج من ذلك أن القوة الشعبيـــة الكبرى التي ساهمت في التطور التـاريخي في الصين كامنة في الفلاحين ، رغم أن مختلف الدراسات الماركسية تصف هذه الطبقة بالرجعية وبأنها تمثل التيار المناهض للثورة .

وكما أن ماو يخالف لينين في الاستراتيجية العسكرية ، فهو يخـالفه في تحليل الطبقات الاجتماعية،فقد قام بتحليل للمجتمع الصيني فقسمه إلى طبقة كبار الملاك ، وكبار التجار الذين ترتبط مصـــالحهم بالاستعمار فهم أعــــداء الثورة . وطبقة البورجوازية المتوسطة وهي التي تذبذبت بين عدائها للاستعمار والرأسمالية الأجنبية، وبين عدائها للثورة الشيوعية ، ويرى أن هذه البورجوازيـــة تنقسم على نفسها ، وينضم جزء منها إلى الثورة . ثم طبقة البورجوازية الصغيرة الممكن قيامهـا بدور فعال لصالح الثورة الشيوعية . ثم طبقة البروليتاريا الفلاحية والعمالية . ومن هؤلاء تتكون الطبقة الأكثر استجابة للدعوة الشيوعية .

ولماو نظرية جديدة في فلسفة الصراع – التي هي فلسفة الحياة ، فهناك الصراع الأساسي وهو الذي يدور بين الراسمالية الممثلة في الاستعمار وبين الاشتراكيـــة (الشيوعية) ويعتبره حتمياً لا مفر منه .

على أن ما يؤخذ عليه ماوتسي تونغ هو أنه قد تسرع فوضع فلسفته هـــذه موضع التطبيق قبل أن يُثبت جذورها أول فأول ، فعـانى الشعب الصيني كثيراً من المتاعب لدى تطبيقـــه نظرية تقوم على الأسلوب السفسطائي ، إذ مهما تكن بساطة المبادىء التي تلقى على مسامع الجماهير .. فان أنصارها المتحمسين هم دائماً من الرجال المثقفين الذين تعوزهم الخبرة والممارسة في بناء المجتمعات . وهذا مـــا حدث بالفعل في سني القفزة العظمى التي خلق فيهـــا ماو « الكوميونات » ليحقق بتكوينها المجتمع الشيوعي المنشود ، فأدى التسرع إلى نتائج أليمة قاسى منهـــا شعب الصين آلام المجاعة إلى جانب ما أحدثته من استفزاز للسوفييت أعقبه تحول خطير في العلاقات بين أكبر دولتين تتزعمان المعسكر الاشتراكي الشيوعي .

ومع ان القادة الذين أيدوا ماوتسي في سياسة القفزة العظمى والتي يحلو لبعض الكتاب الأوربيـين أن يسموها (القفزة المدمرة) مـــا زالوا على رأس الحكم

كـ « ليوشاوشي » رئيس الجمهورية ، و « تنغ سيوبنغ » سكرتير الحزب الشيوعي .. إلا أن الفريق المعتدل وعلى رأسه شو ابن لاي قد انتزع السيطرة التامة على سياسة الاقتصاد ، على نحو ما ذكرنا في فصول هذا الكتاب.. فتراجعت الدولة عن كثير من تخطيطاتها التي تتصف بالتسرع ، ويبذل شو ابن لاي جهده لعودة العلاقات الطبيعية مع « الأخ الكبير » الاتحاد السوفييتي .

ويرى كثير من قادة الرأي في العالم أن الشيوعية الصينية بحيويتها الداخلية الدفاقة تمر الآن بمرحلة التحول عن شكلها الذي تبدو عليه الآن لتستقر في نهاية المطاف وبعد تجربتها العظيمة في سيرها الحتمي نحو « المستقبلية » التي أطلقها عليها المؤرخ البريطاني الكبير « توينبي » باعتبار أن الملامح الرئيسية للثورة هي في إعجازها .

*

ومما لا شك فيه ، أن الصينيين سيتمكنون من البروز كقوة كبرى في هذا العصر الذي أخذ فيه التقدم العلمي يخطو بسرعة ، فلديهم مواردهم الضخمة التي لم تستثمر بعد ، وشعبهم من أنشط مخلوقات العالم وأكثرهم اجتهاداً ، وإنه يثق بصيره ، ويعتقد أبناؤه بأنهم يستحقون المجد ، فينظرون إلى أنفسهم – على أنهم بناة حضارة ، لا بل على أنهم هم الحضارة ذاتها في حقيقة الأمر ويحوطهم البرابرة من الخارج ..

وتتبدى أهمية ذلك في أن الصينيين اليوم ينظرون إلى أنفسهم من جديد على أنهم جزء من تنظيم يشمل العالم كله، وهذا التنظيم هو حضارة عالمية جديدة وشيكة البزوغ ممثلة في الشيوعية التي ستسود العالم بقيادتهم هم أنفسهم .

إن القوى العالمية الأخرى الممثلة في الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة وأخيراً بريطانيا تدرك حق الإدراك – الآمال العريضة التي تراود قادة وشعب الصين اليوم ، وإن كانوا يختلفون في التوقيت والمدى والنتائج .

فالاتحاد السوفييتي الذي يشارك الصينيين رأيهم في سيادة الحضارة الشيوعية على العالم في النهاية – يرى أن الصينيين سيحتلون مكانتهم في التاريخ وسيصبحون قادة

لهذه الحضارة الجديدة لمعرفتهم بإمكانيات ثروة الصين الطبيعية ، وتزايد عددهم الذي سيبلغ قبل نهاية عام ١٩٧٠ أكثر من ٨٠٠ مليون نسمة ، يمثلون ربع البشرية كلها ، ويعملون كدولة اعتصابية تستخدم كل الامكانات والطاقات والوسائل لتحقيق أغراضها .. وإن الاتحاد السوفييتي صار يخشى من أن يلحق به الصينيون في الوقت الذي يحاول فيه اللحاق بأمريكا ... لا بل وتساور الروس مخاوف من احتمال تسرب الصينيين في المستقبل إلى المناطق الشرقية من الاتحاد السوفييتي لقلة السكان هناك ، لكي يخففوا من وطأة تكاثر السكان الصينيين .

أما الأمريكيون ، فينظرون إلى أنفسهم كقوة كبرى ، تضعها في مركز الزعامة ، ويبررون زعامتهم على ما يمتلكون اليوم من تقدم بين جميع شعوب الأرض في شتى الميادين . ثم إنهم يرون أن بروز الصين – كقوة عالمية كبرى – ما زال أمراً بعيداً لا يستحق تركيز اهتمامهم عليه ، قدر اهتمامهم بمنافسة الروس لهم ، ويذهب فريق منهم إلى القول إن صين المستقبل قد تكون أحد العوامل الرئيسية في توازن القوى بين دول المعسكر الشيوعي الواحد الذي قد يؤدي في النهاية إلى تفكك قوى هذا المعسكر أو زيادة حدة الخلاف فيه لدرجة تعود فائدته في النهاية لمصلحة العالم الغربي .

أما بريطانيا فإنها أكثر أملاً من الأمريكان في تردي مستقبل علاقات الصين بالاتحاد السوفييتي ، لا بل تعمل بخطوات إيجابية وئيدة لتوسيع شقة الخلاف بينهما ، ما دام أملها الوحيد في البقاء – كدولة عظمى يتوقف على التوازن بين قوى أخرى تتطاحن فيما بينها لتخرج هي من الميدان كعادتها منتصرة لوحدها . دون أن تشترك في صراع حاسم .

وآخراً .. فإني أنقل تعليقاً لاذعاً لأحد الأوربيين يقول فيه :

– إن القرن التاسع عشر هو قرن ساد فيه الانكليز .

– وان القرن العشرين سيسود فيه الأمريكيون .

– وان القرن الحادي والعشرين سيسود فيه الصينيون .

– أما الروس فليس لهم قرن يسودون فيه .

وسواء تحققت النبوءة عن الصين أم لم تتحقق ... فـــإني خرجت من الصين مؤمناً بقدرة شعبها على تبوء مكانته تحت الشمس ... دولة عظمى ... قد تسهم في سعادة المجتمع الانساني ، وقد تشقيه ، وهذا ما لا أستطيـع التنبؤ فيه .

فهرس الاعلام

ب

ت

ث

ج

ل

م

و

ي

هـــذا الكتاب

أول كتاب باللغة العربية يجمع بين ماضي الصين بتاريخهـا العريق وحضارتها المجيدة ، وكفاح شعبها الدامي ... وبـين حاضرها بمختلف صور الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

فيه تحليل دقيق وشرح واف للتحول الجديد في حياة شعب الصين ، وسيره لتحقيق حلم كارل ماركس في إقامـة المجتمع الشيوعي الممثل في الكوميون ، ودراسة مستفيضة عن الاقتصاد الصيني وسياسة الصين الخارجيـــة ، وحقيقة الخلاف بين الصين والاتحاد السوفييتي .

ويجيب الكتاب على سؤال طالما تردد: كيف ولماذا أصبحت الصين بسكانها البالغ عددهم ٧٠٠ مليون نسمة – أي أكثر من خمس سكان العـالم ... دولة شيوعية ؟ وما هي قدرة حكمها الماركسي على البقاء ؟ وأخـيراً .. هل تتحقق النبوءة القائلة بسيادة الصين في القرن الحادي والعشرين ؟

كتبت فصول هذا الكتاب بروح حيادية نتيجة مشاهـدة وتجوال في معظم أرجاء الصين ، ودراسة دقيقة استندت إلى أوثق المصادر والمراجع والاحصاءات .

ان المؤلف،وهو من رواد الحركة القومية العربية–بالاضافة الى كونه ضابط اركان حرب، وثائراً، واقتصادياً،وكاتباً معروفاً– لجدير به ان يفتح عيون العرب بشكل موضوعي على عالم قائم في ذاته ...

الثمن ٦٥٠ ق.ل.
او مـا يعادلهـا